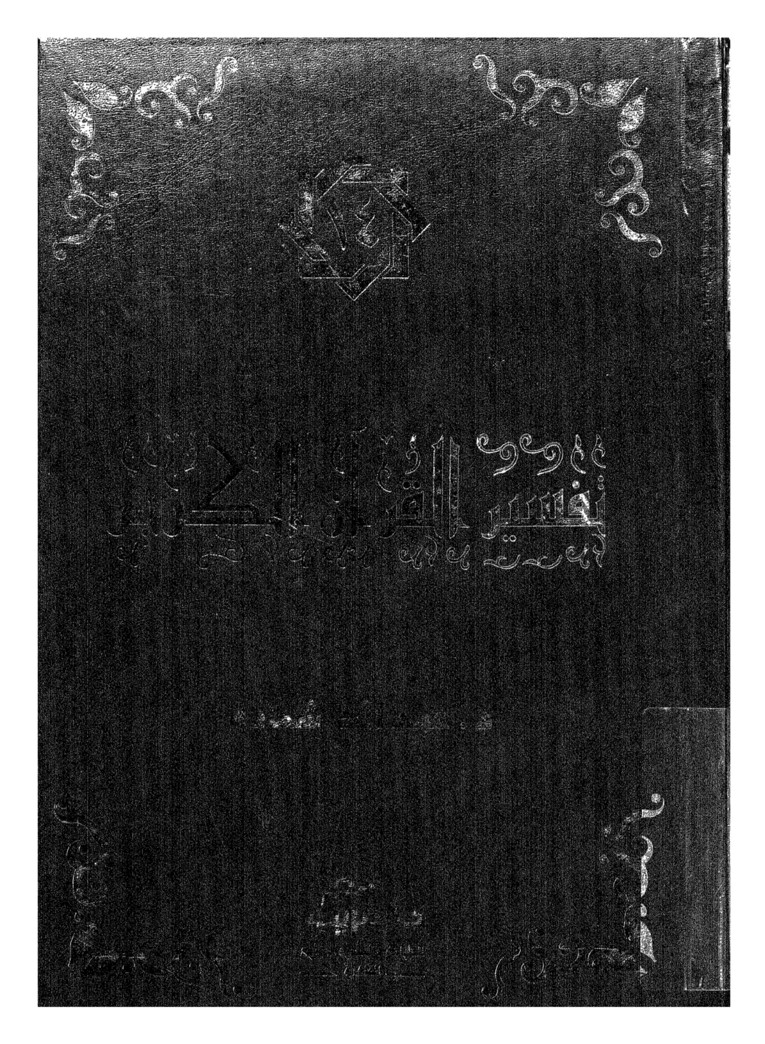

تفسير القرآن الكريم

إهـــــداء2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

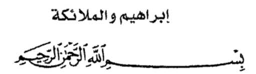
الجزء السابع والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



إبراهيم والملائكة



﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

الخطب : الشأن الخطير الذى جئتم من أجله ، سوى البشارة .

قوم مجرمين : هم قوم لوط .

من طين : من طين متحجر وهو السجّيل .

مسومة : معلّمة ، من السُّومة وهى العلامة .

للمسرفين : المجاوزين الحدّ فى الفجور .

من المؤمنين : ممن آمن بلوط .

غير بيت : غير أهل بيت ، والمراد بهم لوط وابنتاه ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر .

آية : علامة دالة على ما أصابهم من العذاب .

تمهيد :

هذه الآيات بقية قصة إبراهيم عليه السلام ، والذين قسموا القرآن إلى ثلاثين جزءًا راعوا الكمّ ولم يراعوا المعنى ، ولذلك نجد أن قصة ابراهيم الخليل عليه السلام بدايتها فى نهاية الجزء السادس والعشرين، ونهايتها فى بداية الجزء السابع والعشرين .

وهنا يسأل إبراهيم الملائكة عن الأمر الخطير الذى أُرسلوا من أجله ، فأخبروه أن الله أرسلهم ليهلكوا قوم لوط بحجارة من سجيل ، بها علامة تدل على أنها أُعدت لإهلاكهم جزاء شذوذهم ، ونكاح الذكور دون الإناث ، حيث يستغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وهذا أمر مخالف للفطرة ، لذلك أهلكهم الله، تحذيرًا وتخويفا لكل من يفعل ذلك العمل الأثيم .

التفسير :

٣١ - قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ .

أى : قال إبراهيم للملائكة : ما هو الأمر الجلل الذى أرسلتم بشأنه ، غير البشارة بالغلام ؟

وجاء فى سورة هود : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ . (هود . ٧٤ - ٧٦) .

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ - قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ .

قالت الملائكة : إن الله أرسلنا لعذاب قوم بالغوا فى الإجرام ، وهم قوم لوط ، لنحْصبهم بعذاب من السماء فى صورة حجارة من طين مطبوخ كالآجرّ ، وهى فى الصلابة كالحجارة ، معلمة بعلامة ومجهّزة لمن أسرف فى المعاصى وانشغل بالشهوات واستلذّ المخالفة ، كما قال لهم لوط :

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ .

(الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦)

٣٥ ، ٣٦ - فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

ذهبت الملائكة إلى قوم لوط فى صورة شبّان فى ريعان الشباب ، ولما علم لوط بأن عنده ضيوفًا من الشباب المعتدل قامة وصحة ، وكانوا يفعلون الفعلة الشنعاء ، وهى اشتهاء الرجال دون النساء ، وقضاء الوطر فى جماع الرجال ، لقد انتكسوا بالفطرة وخرجوا على سنن الله ، فقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى، وزوّد صدر الرجل وصدر المرأة بما يكمل المتعة بين سالب وموجب ، وذكر وأنثى ، وتكامل وتعاطف ومودة ورحمة ، وذرية من الذكور والإناث ، واستمرار إعمار الأرض وتتابع الأجيال .

لكن هؤلاء انحرفوا بالفطرة كما قال لهم لوط : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ... (الأعراف : ٨١) .

ورغبوا فى جماع ضيوف لوط ، فتمنى لوط لو أن لديه قوة من الرجال ، ليمنعهم بالقوة عن ضيوفه ، أو يجد مجموعة من الناس يستنْجِدُ بهم لينقذوه ، وقد بذل جهده فى نصحهم وردعهم ، حيث قال لهم :

هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن

يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٧٨ - ٨٣) .

وقد اكتفى القرآن بعرض هذا النقاش بين لوط وقومه ، وبين لوط والملائكة ، فى مواضع أخرى من القرآن الكريم .

وقد أفادت الآيتان (٣٥ ، ٣٦) من سورة الذاريات أن عناية الله بالمؤمنين وإرادته فى سلامتهم ، قضت بأن يخرجوا من بيوتهم فى ظلام الليل ، ولا يلتفتوا خلفهم ، غير زوجة لوط التى كانت تنضم إلى قومها وتعاونهم فى أعمالهم الشاذّة ، وتفشى لهم أسرار لوط ، فقضى الله أن يصيبها ما يصيب قومها .

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

أى : فأخرجنا من كان فى قرى قوم لوط ، ممن آمن بلوط عليه السلام ، فما وجدنا فى هذه القرى غير أهل بيت من المسلمين ، والمراد بهم لوط وابنتاه .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير أنه قال : كانوا ثلاثة عشر .

أى : لم نجد أحداً من المسلمين غير ما يوازى تعداد أهل بيت واحد .

فى أعقاب التفسير

ذهب المعتزلة وبعض أهل السنّة إلى عدم التفريق بين الإسلام والإيمان ، لأن القرآن فى الآيتين السابقتين أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين.

فالمعنى :

أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من المؤمنين لنحفظهم من الهلاك ، فلم نجد فى هذه القرى إلا أهل بيت واحد من المسلمين ، فيكون الإيمان مرادفًا للإسلام ، وبهذا قال الإمام البخارى من أهل السنّة .

والمتأمّل فى القرآن الكريم يجد أن مدلول اللفظ الواحد يتغير بحسب السياق ، وقد ألّف مقاتل بن سليمان البلخى كتابا سماه (الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم) ، وقد بدأ الكتاب بمادة الهدى فى القرآن الكريم ، فقال: الهدى فى القرآن يأتى على ستة عشر وجها ، واستمر فى عرض الألفاظ التى جاءت فى القرآن الكريم على أكثر من وجه ومعنى .

فكلمة العين تطلق على العين التى تبصر، وتطلق على عين الماء، وتطلق على الجاسوس.. وهكذا.

وعلماء الكلام يذكرون أن الإسلام هو الانقياد الظاهرى والامتثال لأوامر الله. أما الإيمان فهو التصديق الباطى، ويستشهدون بقوله تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ... (الحجرات: ١٤).

وبما رواه البخارى فى صحيحه، أن النبى ﷺ سئل عن الإسلام، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

وسئل عن الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقضاء والقدر، خيره وشرّه، حلوه ومرّه»[1].

ونلاحظ أن الإسلام والإيمان قد يجتمعان وقد يفترقان، فأكثر الناس يظهرون الإسلام ويبطنون الإيمان، فهؤلاء مسلمون لإسلامهم واستسلامهم لأمر الله، وانقيادهم لحكمه. ومعظمهم يبطن الإيمان والتصديق واليقين بالله تعالى وباليوم الآخر. ومن هذا الصنف من آمن بلوط حيث كانوا مؤمنين، وأيضًا كانوا مسلمين، وقد يفترق الإيمان والإسلام، مثل إسلام المنافقين، فهو إسلام ظاهرى لم يطاوعه ولم يتابعه إيمان الباطن.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. (المنافقون ١).

وقريب من ذلك بعض العصاة من الأعراب، الذين أعلنوا إسلامهم ولم تتجاوب قلوبهم بالالتزام الكامل، والطاعة والتضحية والفداء.

فقال بعض العلماء: هم منافقون، وقال آخرون: هم مسلمون عصاة لم يصلوا للدرجة المطلوبة الرّاقية من المؤمن الحق، ويأمل القرآن توبتهم وتصحيح إيمانهم.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ولمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ... (الحجرات: ١٤)

٣٧ - ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

تركنا فى هذه القرية المهلكة دلالة واضحة، وعبرة ظاهرة، وعظة وتذكيرًا لأصحاب العقول الراجحة والقلوب المؤمنة، حيث يرون عاقبة الشذوذ والخروج على أمر الله.

وبهذه الآية الكريمة نستطيع أن نستنبط أن الحضارة الغربية حضارة عرجاء ، حيث تستبيح الشذوذ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وتدافع عن حق المراهقات فى الحمل والولادة والرعاية ، ولو كان ذلك من سفاح حرام ، وليس من نكاح حلال .

إن هذا وغيره سيعصف بمستقبل هذه الحضارة ، وكما اهتز الاتحاد السوفيتى وتمايل للسقوط ، ستتبعه دول أخرى ، لا تزال فى عنفوان قوة آثمة ، شأنها شأن الشاب المنحرف ، لا يظهر عليه الأثر الكامل للمعصية ، فإذا انتقل الشاب إلى مرحلة الكهولة والشيخوخة ظهر عليه أثر ذلك الانحراف .

قال الشهاب : كأنّ هذه الآية تشير إلى بحيرة طبرية .

★ ★ ★

الاعتبار بما أصاب المكذبين

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾
مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾
فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟
مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

بسلطان مبين : بدليل واضح له سلطان على القلوب ، يتمثل فى معجزاته الظاهرة كاليد والعصا .

الركن : ما يركن إليه الشيء ويتقوى به، والمراد هنا : جنوده وأعوانه ووزراؤه ، كما جاء فى سورة هود : أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ . (هود : ٨٠) .

فأخذناه : أخذ غضب وانتقام .

نبذناهم : طرحناهم فى البحر .

مُليم : واقع فى اللوم لكفره وتكبّره .

الريح العقيم : التى لا خير فيها لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم .

الـــرمــــيـــــم : الهالك البالى المتفتت من عظم ونبات وغير ذلك .

فأخذتهم الصاعقة : فأهلكتهم الصيحة ، أو نار تنزل بالاحتكاكات الكهربية .

مـــنـــتـصـــريـــن : ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ممن أهلكهم .

فـــاســـقـــيـــن : خارجين على طاعة الله ، متجاوزين حدوده .

تمهيد :

ذكر القرآن قصة لوط وشذوذهم وهلاكهم ، ثم أتبع ذلك بذكر العظة والعبرة من قصص أقوام من الهالكين هم :

فرعون الذى أغرقه الله فى البحر .

وعاد الذين أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية .

وثمود الذين أهلكهم الله بالصاعقة المهلكة .

وقوم نوح الذين أهلكهم الله بالطوفان .

وفى هذا القصص تسلية وتسرية للرسول الأمين ، وتهديد للمشركين .

التفسير :

٣٨ ، ٣٩ - وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

وفى قصة موسى عظة وعبرة ، حين أرسلناه رسولا إلى فرعون ، وزوّدنا موسى بالمهابة والجلال ، وأعطيناه المعجزات الواضحة ، مثل اليد والعصا ، فى مجموع تسع آيات ظاهرات تؤكد رسالته وصدقه ، لكن فرعون اغترّ بجنوده وقوته ، وغرّه ما يملك من القوة والأتباع ، وألصق التهم بموسى حتى يصرف قومه عن الاستماع إليه .

فقال : هذه المعجزات التى جاء بها موسى ، تدل على أن أمره لا يخلو من أن يكون ساحرًا أو مجنونًا ، فإذا كانت هذه المعجزات حدثت باختيار موسى فتكون سحرًا ، وإذا كانت بغير اختياره فيكون ذلك نوعًا من الجنون أو كأن الجن تساعده .

ويجوز أن تكون (أو) بمعنى الواو ، كما قال ابو عبيدة ، لأن القرآن حكى عن فرعون أنه اتهم موسى بالسحر تارة ، وبالجنون أخرى .

فقال عن موسى مرة : إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ . (الشعراء : ٣٤) .

وقال مرة أخرى : إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . (الشعراء : ٢٧) .

ونلحظ أن هذه التهم دبّرها كفار كل أمة ، كأنما وصّى السابق منهم اللاحق ، أو أن السبب هو الطغيان وكراهة الحق ، والغلوّ فى الظلم والعناد .

قال تعالى : كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٢ ، ٥٣) .

وهكذا نجد ملة الكفر واحدة ، وطريقة الكافرين واحدة ، حيث جعلوا المعجزات سحرًا ، وجعلوا ما أتى به الرسل من تشريع وتوحيد وأخبار وتذكير ، جنونًا وترّهات لا تخضع لعقل بشر ، لأنها فوق طاقته أو فوق قدرته ، ولو أنصفوا لقالوا : إن هذا وحى من السماء ، لا يستطيع البشر أن يأتى بمثله .

قال تعالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

٤٠ -فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ .

أخذه الله ومعه جنوده وأتباعه وأعوانه ، فقذف بهم جميعًا فى البحر فهلكوا غير مأسوف عليهم ، مع وقوع فرعون فى اللوم والنُّكر والملامة جزاء عناده وعدم استجابته للحق ، والآية مع إيجازها برهان للقدرة الغالبة التى أذلت الجبابرة ، وأغرقت هذا الطاغية مع قومه ، وسجّل له التاريخ ظلمه وعناده ، وتقتيل الأطفال الأبرياء من بنى إسرائيل ، واستحياء الإناث للخدمة والمذلة .

قال تعالى : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ . (القصص : ٥ ، ٦) .

٤١ ، ٤٢ - وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ .

وفى عاد آية حين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشدّ منا قوة ؟ فأرسل الله عليهم ريحًا عقيمًا ، وهى الدَّبور تعصف بكل شىء أراد الله إهلاكه ، وتتركه رميمًا باليًا مفتتًا هالكًا ، لا يستطاع ترميمه .

روى أن الرّيح كانت تمرّ بالناس فيهم الرجل من عاد ، فتنتزعه من بينهم وتهلكه .

وقد رُوى عن ابن عباس ، وصححه الحاكم : أن الريح العقيم ريح لا بركة فيها ولا منفعة ، ولا ينزل منها غيث، ولا يلقح بها شجر.

وهذه كانت الدَّبور لما صحّ من قوله ﷺ : «نُصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور»[٢] .

وفى سورة الحاقة نجد لوحة مصوّرة تستعرض هلاك عاد بريح عاتية مهلكة ، وكانوا يحفرون الحفرة فى الأرض فينزلون فيها ، ويتركون رؤوسهم على السطح لاستنشاق الهواء ، فتأتى الريح فتقطع رؤوسهم ، وتتركهم هلكى كالنخلة التى قطع رأسها ، وتُرك عجزها ولم يبق فيها منفعة أو ثمرة .

قال تعالى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ – ٨) .

٤٣ ، ٤٤ – وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ .

وفى قصة ثمود آية ، وكانت عاد تسكن فى جنوب الجزيرة العربية ، وثمود تسكن فى شمالها ، وكانوا يمرّون على مساكن ثمود فى طريق تجارتهم إلى الشام ، وقد مرّ النبى ﷺ بمساكن ثمود فى طريقه إلى تبوك ، فلما رآها نظر إليها واستحث راحلته ، وانحنى على ظهرها ، وقال لأصحابه : «لا تمرّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، إلا وأنتم مشفقون ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[٣] .

وقد تكررت قصة ثمود فى عدد من سور القرآن الكريم ، وعادة تذكر بعد قصة عاد ، وقد ذكرت مستقلة فى سورة الشمس ، حيث أرسل الله إليهم نبيه صالحًا ، ومعه معجزة هى الناقة ، تشرب الماء فى يوم ، وتحلب لهم لبنًا يكفيهم أجمعين فى يوم ثان ، لكنهم عتَوْا عن أمر ربهم ، وأنذرهم صالح بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام ، وقال لهم : تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . (هود : ٦٥) .

وهذا معنى قوله : وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ .

أى : قال لهم نبيهم : هناك مهلة ثلاثة أيام ثم يأتى عذاب مدمّر ، لكنّهم كذبوا نبيهم واستكبروا .

فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ .

عتوا : تكبروا ، أىْ تعالوا عن الاستجابة لما دعاهم إليه نبيهم صالح فأرسل الله عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم جميعًا ، وهم ينظرون إليها .

وقال مجاهد :

وَهُمْ يَنظُرُونَ . بمعنى : ينتظرون ، أى وهم ينتظرون الأخذ والعذاب ، وانتظار العذاب أشد من العذاب .

٤٥ - فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ .

نزلت الصاعقة ماحقة مهلكة ، لم يستطيعوا هربًا منها ، ولا فرارًا من إهلاكها ، ولم يجدوا نصيرًا ينصرهم بعد أن عجزوا بأنفسهم .

وفى سورة الشمس يقول الله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

٤٦ - وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ .

وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء بالطوفان ، لأنهم كانوا خارجين على أمر الله ، حيث أرسل الله إليهم نوحًا فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وقد فصَّل الله قصتهم مع نوح فى سورة هود وغيرها ، وذكرت قصة نوح فى سورة نوح فى جزء تبارك ، كما ذكر القرآن هؤلاء الهالكين بعد نوح ، بسبب عدوانهم وكفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، مع إحاطة الله بأعمالهم ، وقدرته سبحانه على عقوبتهم فى الدنيا ، ومحاسبتهم فى الآخرة .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

★ ★ ★

أدلة القدرة

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات :

بأيد : بقوة .

لموسعون : لذو سعة بخلقها وخلق غيرها ، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة ، أى : لقادرون .

فرشناها : بسطناها ومهَّدناها ، من مهدتُ الفراش : إذا بسطته ووطأته .

تمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها .

زوجيـــن : صنفين مزدوجين ، ونوعين مختلفين .

ففروا إلى الله : الجأوا إلى الله ، وسارعوا إلى طاعته ، واعتصموا بحبله .

نـــذيـــر : منذر مخوّف .

تمهيد :

يرشد القرآن الكريم إلى آثار القدرة الإلهية فى خلق هذا الكون البديع ، فقد رفع الله السماء بلا عمد ، والأرض بسطها ويسَّر إعمارها وطرقها ، وأرسى جبالها ، وخلق من كل شىء زوجين ذكرًا وأنثى ، ليتم التناسل وإعمار الأرض ، تجد ذلك فى الإنسان والحيوان والنبات ، بل والسحاب والجماد ، كل ذلك يتطلب الإيمان بالله ، واليقين بقدرته وفضله .

التفسير :

٤٧ - وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ .

لقد وسعت قدرة الله كلّ شىء ، فأبدع الكون على غير مثال سابق ، وبهذه القوّة القادرة المبدعة ، رفع السماء سقفًا مرفوعًا ، ممتدًا بلايين السنين ، دون أن يصيبه خلل أو تشقق .

«والآية الكريمة تشير إلى أن التوسعة مستمرة على الزمن ، وهو ما أثبته العلم الحديث ، وعرف بنظرية التمدد ، التى أصبحت حقيقة علمية فى أوائل هذا القرن ، أشار إليها القرآن الذى أُنزل على النبى الأمى محمد ﷺ ، منذ أربعة عشر قرنًا»[٤] .

٤٨ - وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ .

جعل الله السماء سقفًا مرفوعًا ، وجعل الأرض فراشًا ممهدًا للإنسان ، يحيا عليها الإنسان والحيوان والنبات ، والطيور والزواحف والحشرات وغيرها ، وفى هذه الأرض أرزاق وأقوات ومنافع متعددة ، فمن طينة الأرض يتخذ الإنسان المساكن والحصون ، ومن معادن الأرض الظاهرة والباطنة يصنع الحلىّ والسلاح ، وآلات الحرب والسفن والطائرات .

وفى القرآن الكريم ما يفيد أنّ الأرض خلقت أولا ، ثم خلقت السماء ثانيًا كما نجد ذلك فى سورة فصلت .

قال تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . (فصلت : ٩ – ١٢) .

وفى سورة النازعات نجد ما يفيد أن السماء خلقت أوَّلا ، ثم دحيت الأرض .

قال تعالى : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ . (النازعات : ٢٧ – ٣٣) .

ويمكن الجمع بين الآيات على النحو التالى :

(أ) خلق الله الأرض أولاً غير مدحوّة .

(ب) خلق السماء ثانيًا بعد خلق الأرض .

(جـ) دحا الأرض بعد خلق السماء ، أى خلق فيها البحار والأنهار والجبال ، وجعلها أقرب إلى شكل البيضة، فهى منبعجة ومتسعة عند خط الاستواء ، وهى مفرطحة عند القطبين ، أى غير كاملة الاستدارة .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ... (الرعد : ٤١) .

هذا ما ذكره المفسرون القدامى فى الجمع بين الآيات المختلفة .

أما المفسرون المحدثون ، والعلماء المعاصرون فيرون الآتى :

١ – الكون كلُّه كان كرة ملتهبة غير صالحة لحياة الإنسان عليها .

٢ – مرَّت ستة بلايين سنة ، هدأت فيها هذه الكرة ، وانفصلت السماء وارتفعت ، وانفصلت الأرض وانبسطت ورست عليها الجبال والبحار والأنهار .

٣ – مرَّ خلق الكون بست مراحل ، كانت السماء رخوة هلامية أشبه بالدخان ، ثم تماسكت وهدأت قشرتها وتفتّقت بالمطر ، وهدأت قشرة الأرض وتماسكت ، وتفتقت بالنبات ، ووجد خلق وسيط بين السماء والأرض هو الهواء ، ووجد الحجاب الحاجز بين الأرض والسماء ، الذى يحمى الأرض من ملايين الشهب والنيازك ، ويحفظ الأرض فى درجة معينة من الحرارة والرطوبة .

٤ – تمَّ إعمار الكون وتنسيقه بحيث تكون الأرض مائدة عامرة بالأرزاق والماء والخيرات .

٥ – تدخلت يد القدرة الإلهية فى كل مرحلة من مراحل تكامل الخلق وتوازنه ، ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

(أ) الإنسان يستنشق الأكسچين ، ويخرج ثانى أكسيد الكربون ، والنبات يستنشق ثانى أكسيد الكربون ويخرج الأكسچين ، ولو وجد النبات وحده لذبل ، ولو وجد الإنسان وحده لاضمحل ومات .

(ب) نسبة الأكسچين فى الهواء ٢١٪ ولو زاد عن هذه النسبة لكثرت الحرائق ، بحيث تكون شرارة واحدة فى الغابة كافية لإحراق الغابة كلها ، ولو نقصت هذه النسبة فى الهواء لاقترب الإنسان من الاختناق ، ولضعف التمدّن الإنسانى والاختراع والابتكار .

(جـ) لو اقتربت الشمس منا أكثر مما هى عليه لذاب الجليد فى المحيطات ، وغرقت الأرض بمياه البحار، ولو ابتعدت الشمس عنا أكثر مما هى عليه لتجمّدت مياه المحيطات ، وتعطلت الملاحة ، واشتد البرد ، وفقدت الحياة توازنها ، كل ذلك يدل على أن وراء الكون يد القدرة الإلهية التى تحفظ توازنه، وتمسكه من الانهيار والهلاك ، إلى الوقت المعلوم الذى ينتهى فيه عمر هذا الكون ، فتنشقّ السماء، وتزلزل الأرض ، وتنكدر النجوم ، وتصبح الشمس من النجوم القزمة التى فقدت توهجها ، وينتهى عمر الدنيا وتبدأ مراحل الآخرة .

٦ – أشار القرآن الكريم إلى أن السماء كانت رتقاء صمّاء لا تمطر ، وأن الأرض كانت رتقاء صمّاء لا تنبت النبات ، ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، وجعل الماء من أسباب الحياة ، وبدونه يكون التصحّر .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.
(الأنبياء : ٣٠ – ٣٣)

٧ – الكون كله مرّ فى خلقه بست مراحل ، عبّر عنها القرآن بستة أيام ، وفى حوالى شهر أبريل سنة ١٩٩٤م ، انعقد مؤتمر علمى فى الولايات المتحدة الأمريكية للبحث فى عمر الكون ، وذكر أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن عمر الإنسان على هذه الأرض ٧ بلايين سنة ، وأن الكون مكث ٦ بلايين سنة كرة ملتهبة غير صالحة لحياة الإنسان ، ثم وجد الإنسان فى هذا الكون من ٧ بلايين سنة .

هذا مجرد اجتهاد بشرى ، والمجتهد إن أخطأ له أجر واحد هو أجر الاجتهاد ، وإن أصاب فله أجران ، أجر الاجتهاد وأجر موافقة الصواب ، أما كتاب الله تعالى فقد تكفل الله بحفظه ، وهو معجز للبشر ، وإعجازه أنه لم يصطدم بأىّ حقيقة علمية ، بل كأن العلم ينزع إلى تأييد القرآن وإثبات أنه من عند الله .

ونحن نذكر هذه المعلومات بجوار تفسير الآيات للاستئناس بها ، لا لتكون حكمًا على الآية ، فكتاب الله إمام للبشرية كلها ، والله ولى التوفيق .

٤٩ - وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

إثراء الحياة مترتب على العلاقة بين الذكر والأنثى ، نجد ذلك فى الإنسان والحيوان والنبات وغيرها ، وقد امتن الله على عباده بهذه القدرة التى تثرى الحياة ، فالمطر يترتب على علاقة بين سحابة موجبة ، وأخرى سالبة .

قال تعالى : وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ . (الحجر : ٢٢).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الرياح تلقح النبات ، لكن إذا تأملنا فى الآية وجدنا أن الرياح تلقّح السحاب لينزل المطر ، والرياح فِعلاً تلقّح النبات ، ولها آثار أخرى ، وقد امتن الله على عباده بأنه خلق الذكر والأنثى .

قال تعالى : وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ . (الليل : ٣ ، ٤) .

وقال عز شأنه : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ... (النحل : ٧٢) .

وحين كان نوح عليه السلام يصنع سفينته للنجاة من الطوفان ، أمره الله أن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين ، لتبدأ الحياة مرة أخرى بين الذكر والأنثى .

قال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ... (هود : ٤٠) .

وبالنسبة للإنسان نجد أن الله خلق الرجل والمرأة ، وحين خلق آدم خلق من ضلعه حواء ، ومن نسلهما كانت البشرية .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ... (النساء : ١) .

ونجد مثل ذلك فى الحيوان والطيور والزواحف والحشرات ، وأنواع النباتات والأزهار وغيرها .

قال الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير قوله تعالى :

وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

أى : إنا خلقنا لكل ما خلقنا من الأرض ثانيًا له ، مخالفًا له فى مبناه والمراد منه ، وكل منهما زوج للآخر ، فخلقنا السعادة والشقاوة ، والهدى والضلال ، والليل والنهار ، والسماء والأض ، والسواد والبياض؛ لتتذكروا وتعتبروا فتعلموا أن ربكم الذى ينبغى لكم أن تعبدوه وحده لا شريك له هو الذى يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا ما لا يقدر على ذلك[٥] .

٥٠ - فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : الجأوا إلى الله الخالق المبدع ، الذى رفع السماء وبسط الأرض ، وأتمّ إعْمَار الكون ، هذا الإله الخالق العظيم الرازق الكريم ينبغى أن نعبده وحده لا شريك له ، وألا نعبد معه صنمًا ولا وثنًا ولا جنًا ، ولا ملائكة ولا أىّ شريك .

إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

إنى مخوّف لكم بآيات الله وبالمعجزات ، ومبيِّن وموضح لكم بالابتعاد عن المعاصى ، والاقتراب من الله وطاعته ، والبعد عن معصيته .

٥١ - وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

ولا تعبدوا مع الله معبودًا آخر ، لأن العبادة لا تكون إلا للخالق ، والله وحده خالق كُلّ شيء ، فالله هو الذى خلق كلَّ شيء فى هذا الكون ، وهو الذى خلقنا ورزقنا ، وأمدّنا بسائر النّعم ، وهو واهب الحياة ، ومسخّر الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والظلام والنُّور ، وبيده الهدى والضلال ، والجنة والنار ، والخير والشر ، فهو يَخْلُق ولا يُخلَق ، وهو يُجير ولا يُجَار عليه ، فينبغى ألا تكون العبادة إلا للّه ، ومن أشرك بالله وعبد إلهًا آخر ، فإنه يستحق العذاب خالدًا مخلدًا فى النار أبدًا .

فالآية ٥٠ : دعوة إلى الإيمان بالله ، والالتجاء إليه ، ومحبته وعبادته ، والتبتل إليه والفرار إلى طاعته ، والاستغناء به عن كل ما عداه ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

أما الآية ٥١ : فهى للنهى عن عبادة غيره معه ، وعن السجود للصنم أو الوثن ، أو الجن أو الملائكة ، أو الشمس أ لقمر ، أو المال أو الجنس أو الهوى أو نحو ذلك ، وقد كان التعقيب واحدًا على الآيتين ، أى إنى

لكم نذير مبين أخوفكم من البعد عن الله ، وإنى لكم نذير مبين أخوفكم من الشرك بالله ، ونحو الآية قوله تعالى : فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا . (الكهف : ١١٠) .

★ ★ ★

ختام سورة الذاريات

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ
فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

فتول عنهم : أعرض عن جدالهم .

بملوم : بفاعل ما يلام عليه .

وذكّر : دُمْ على التذكير والموعظة .

ليعبدون : ليخضعوا لى ويتذلّلوا ، أو ليعرفونى .

المتين : الشديد القوة .

ذَنُوبا : نصيبًا من العذاب ، وأصل الذَّنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، فاستعيرت للنصيب مطلقًا.

أصحابهم : نظرائهم .

ويل : هلاك أو حسرة ، أو شدة عذاب .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى ختام سورة الذاريات ، وفيها تسلية للرسول ﷺ بأن أهل مكة لم يكونوا بدعًا من الأمم ، فقد كُذبت الرّسُل وأوذيت ، واستمر التكذيب من عهد نوح إلى محمد ﷺ ، فهل وصَّى السابق منهم اللاحق ؟ كلاّ .. إنهم لم يتقابلوا ، وإنما جمعهم الطغيان والعِناد ، والخروج على أمر الله ، وقد خلق الله الجنّ والإنس لمعرفته وطاعته ، وهو سبحانه غير محتاج إليهم ، لأنه سبحانه هو الرزاق القوى المقتدر ، وغدًا سيجد هؤلاء الكفار العذاب الذى ينتظرهم ، وقد تقدمت الجن فى الذّكر على الإنس لأنها خلقت أولاً ، والإنس ثانيًا .

التفسير :

٥٢ - كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

إذا كان أهل مكة فى تكذيب لك يا محمد ، وعداء للإسلام ، فإن جميع المرسلين قبلك قد لقوا من أقوامهم العناد والتكذيب ، وكان الاتهام يتوجّه من الكافرين للرسل ، بقولهم : إن معجزاتهم سحر وذكاء ، وليست خارقة من الله ، أو يقولون عن الرسول : هو مجنون مختلّ ، وربما جمعوا للرسول الصفتين فقالوا: هو ساحر ومجنون ، والمراد جموع المكذبين ، أمّا القليل منهم فقد آمنوا .

قال تعالى عن نوح عليه السلام : وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) .

وقريب من ذلك ما ورد فى سورة إبراهيم من ألوان تكذيب المكذبين للرسل مثل : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ . (إبراهيم : ١٣) .

٥٣ - أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

هل وصّى السابق منهم اللاحق بتكذيب الرسل ، وهم لم يلتقوا فى زمن من الأزمان ، وإنما الذى جمع بينهم هو الطغيان والعناد ، وعدم الاستجابة لدعوة رسل الله .

والطُّغيان : هو تجاوز حدود الدين والعقل ، فقال متأخرهم مثل مقالة متقدّمهم فى تكذيب الرسل .

٥٤ - فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ .

لقد أدّيت الرسالة ، وبلّغت الأمانة ، فلا لوم عليك ، ولا جناح فى إعراضك عنهم ، ولا لوم عليك فى عدم استجابتهم لك ، فإنما عليك البلاغ ، وإنما أنت منذر ، وقد فعلت .

٥٥ - وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

ودُمْ على العظة والنُّصح والدعوة إلى الهداية والرشاد ، فإن التذكرة تنفع من كانت فى قلبه رغبة فى الإيمان ، وهداية من الرحمان .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى ، وجماعة ، من طريق مجاهد ، عن على رضى الله عنه قال : لما نزلت : فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ . لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة ، إذْ أُمر النبى ﷺ أن يتولى عنّا، فنزلت : وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فطابت أنفسنا .

٥٦ - وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .

لم أخلق الناس لأستكثر بهم من قلة ، ولا لأستأنس بهم من وحشة ، وإنما خلقتهم ليذكرونى كثيرًا ، ويعبدونى طويلاً ، وعبادة الجن والإنس لله لا تنفعه سبحانه ، ومعصيتهم لا تضرّه ، لكن العباد فى حاجة إلى طاعتهم لتهدأ نفوسهم ، وتطمئن قلوبهم ، وتقوى ثقتهم بأنفسهم ، فالعبادة والطاعة وسيلة إلى مرضاة الله ، واستجلاب فضله ومعونته وبركته ، والعبادة حق لله على عباده ، والعبادة تحمى الإنسان من الإحباط والتردد والخوف ، وتمنحه زادًا من التقوى والهدوء ، والأمان ونقاء الروح ، وسلامة السريرة .

وفى الحديث الشريف : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : «نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابةُ إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ، ثم تلا النبى ﷺ قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ[٦]... (الزمر : ٢٢) .

ويقول الله سبحانه وتعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

وقال ابن جريج ومجاهد : إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . إلا ليعرفونى . ا هـ .

فإن المؤمن إذا داوم على عبادة ربه ، والتذلل إليه ، وتلاوة القرآن ، وذكر الرحمان والتهجُّد ، والاستغفار بالأسحار ، والمواظبة على صلاة الفجر ، وتلاوة دعاء الرسول ﷺ فى الصباح والمساء ، فإن ذلك يزيده توفيقًا وفضلاً وقربًا من الله ، ومعرفة به وحبًّا له ، وهذا إشارة إلى ما صحّحوه عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه : «كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لأُعرف»[٧] .

٥٧ - مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ .

ما أريد أن أستعين بالجن والإنس لجلب منفعة ، ولا لدفع مضرّة ، فلا أصرِّفهم فى تحصيل الأرزاق والمطاعم ، كما يفعل الموالى مع عبيدهم .

أى : إنه سبحانه لا يطلب من العباد تحصيل أرزاق يستعين بها أو يملأ بها خزائنه ، وهو سبحانه غنىٌّ عن أن يقدّم العباد له طعامًا أو خدمة ، كما يحتاج مُلاك العبيد إلى خدماتهم ، أو تقديم الطعام لهم ، فالله سبحانه غنىٌّ غِنًى مطلقًا ، وخزائنه ملأى ، وهو يُطعِم ولا يُطعَم ، وهو يجير ولا يُجار عليه .

٥٨ - إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ .

وكيف يحتاج سبحانه وهو الغنى القوى ، وهو المعطى والمانع ، وهو الرزاق ذو القوة التى لا حدود لها ، وهو القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره .

وهذه الآية كأنَّها تعليل للآية السابقة عليها ، فكأنه قيل : لا أريد منهم من رزق لأنى أنا الرَّزاق ، وما أريد منهم من عمل كالإطعام لأنى قوى متين .

روى أحمد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى، وأَسُدّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك»[٨] .

ويقول النبى ﷺ : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم أَنْفِقْ أُنفق عليك ، يمين الله ملأى لا تغيض بها نفقة، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ماذا أنفق منذ أن خلق السماوات والأرض ، فإن ذلك لم يغض ما فى يمينه»[٩] .

٥٩ - فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ .

لقد خلقت الجن والإنس لعبادتى ومعرفتى ، فمن خرج عن طاعتى وكفر برسلى ، وظلم نفسه فحرمها من معرفة الله وعبادته ، وشقَّ عصا الطاعة على المرسلين ، وكفر بالله رب العالمين ، هذا الظالم له نصيب من العذاب هو وإخوانه ، مثل نصيب أصحابهم الظالمين السابقين عليهم ، الذين أهلكهم الله بذنوبهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وفرعون وملئه .

قال قتادة :

سَجْلاً من العذاب مثل سَجْل أصحابهم ، فلا يطلبوا منّى أن أعجّل فى الإتيان بالعذاب قبل أوانه ، فهو لاحق بهم لا محالة . ا هـ .

والسَّجل : الدَّلو المليئة ، فاستعيرت للنصيب مطلقًا ، شرًّا كان النصيب أو خيرًا .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

هذا تمثيل ، أصله : السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . ا هـ .

والخلاصة :

سيقتسم كفار مكة نصيبهم من العذاب مثل أصحابهم المكذبين ، فلا يتعجلون هذا العذاب ، فإنه قادم لا محالة ، وإن الله لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يدركه العجز عن تنفيذ ما أراد .

وهذا جواب عن قولهم : فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ . (هود : ٣٢) .

ونحو الآية قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (النحل : ١) .

٦٠ – فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ .

تختم السورة بذكر الهول والويل الذى ينتظر هؤلاء الذين كفروا بربهم ، وكذَّبوا نبيهم ، والويل وادٍ فى جهنم ، بعيد غوره ، شديد عذابه ، وسيدركهم العذاب فى اليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، وقال بعضهم : اليوم الموعود يوم بدر ، حيث قتل رؤوس الكفر ، وأسر صناديد مكة ، وفرّ الباقون ، وأصاب الذلّ والعار أهل مكة ، وانتصر الإسلام انتصارًا عظيمًا ، وأرى أنه لا مانع أن يراد بالآية عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، والله أعلم .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الذاريات

١ – دلائل البعث من العجائب الطبيعية والعلوم النفسية .

٢ – جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة .

٣ – أخبار الأمم السابقة التى كذبت رسلها .

٤ – تسلية الرسول ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه .

٥ – الفرار إلى الله من هذه الدنيا المحفوفة بالمخاطر .

٦ – النهى عن الإشراك بالله .

٧ – إخبار الرسول الأمين بأن قومه ليسوا ببدع فى الكفر والتكذيب ، فقد كُذبت الرسل من قبله .

٨ – أمره ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين

٩ – ما خلق الله الجن والإنس إلا لعبادته ومعرفته .

١٠ – وعيد الكافرين بأن العذاب سيحلّ بهم يوم بدر ، أو يوم القيامة ، أو فيهما معًا .

١١ – إن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم المكذبين[١٠] .

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير سورة (الذاريات) ظهر يوم الإثنين ٦ من جمادى الأولى سنة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٩/٤ م ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

★ ★ ★


تفسير سورة الطور

أهداف سورة الطور

سورة الطور مكية، وآياتها ٤٩ آية، نزلت بعد سورة السجدة، وهى سورة ترجّ القلب البشرى رجًا، بإيقاعها القوىّ وفواصلها القصيرة، وتأثيرها فى النفس والحس، واستغلالها مشاهد التاريخ ومظاهر الكون للتدليل على ألوهية الخالق، وعظيم قدرته.

القسم فى صدر السورة

وَالطُّورِ: الجبل فيه شجر، والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف فى القرآن، وهو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام، وتلقى عنده تعاليم السماء، قال تعالى: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . (مريم:٥١، ٥٢).

وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ : الأقرب أن يكون كتاب موسى الذى كتب له فى الألواح للمناسبة بينه وبين الطور.

وقيل: هو اللوح المحفوظ تمشيا مع ما بعده، وهو البيت المعمور والسقف المرفوع، ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود.

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ : قد يكون هو الكعبة فهى عامرة بالطواف حولها فى جميع الأوقات.

وقيل: هو بيت فى السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه، بل يدخل غيرهم فى اليوم التالى (١١).

وذلك يرمز إلى كثرة الملائكة وهم خلق مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ : هو السماء.

وقد نسب ذلك إلى سفيان الثورى، عن الإمام علىّ رضى الله عنه، وقال تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . (الأنبياء: ٣٢).

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ : المملوء، وهو أنسب شىء يذكر مع السماء فى مشهد، فى انفساحه وامتلائه وامتداده.

وقد يكون معنى، الْمَسْجُورِ : المتقد، كما قال تعالى فى سورة أخرى: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . (التكوير: ٦)، أى: توقدت نيرانا عند نهاية الحياة، وذلك يمهد لجواب القسم، وهو: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ . (الطور:٧، ٨)

وقد سمع عمر رضى الله عنه هذه الآية ذات ليلة فتأثر بها واشتد خوفه، وعاد إلى بيته مريضا، ومكث شهرا يعوده الناس لا يدرون مرضه.

وعمر رضى الله عنه سمع السورة قبل ذلك وقرأها وصلى بها، فقد كان رسول الله ﷺ يصلى بها المغرب، ولكنها فى تلك الليلة صادفت من عمر قلبا مكشوفا، وحسا مفتوحا، فنفذت إليه.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا . (الطور: ٩، ١٠).

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهى تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج فى البحر من هنا إلى هناك بلا قوام، ومشهد الجبال الراسية الصلبة تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار أمر مذهل مزلزل، من شأنه أن يذهل الإنسان.

وفى آيات أخرى ذكر القرآن أن السماء تنشق على غلظها، وتتعلق الملائكة بأطرافها، كما ذكر اضطراب الكون وسائر الموجودات فى يوم القيامة.

إن قلوب أهل مكة التى جحدت الآخرة، وأنكرت البعث والجزاء تحتاج إلى حملة عنيفة يُقسم الله فيها بمقدسات فى الأرض والسماء - بعضها مكشوف معلوم، وبعضها مغيب مجهول - على وقوع العذاب يوم القيامة وسط مشهد هائل ترتج له الأرض والسماء: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم: ٤٨)

وفى وسط هذا المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب من ويل وهول وتقريع وتفزيع.

إن المجرمين يساقون سوقا إلى جهنم، ويدفعون فى ظهورهم دفعا حتى إذا وصل بهم الدفع إلى حافة النار قيل لهم: هذه هى النار، فهل هى سحر كما زعمتم أن القرآن سحر وأن محمدًا ساحر، أم أنها الحق الهائل الرهيب؟ أم أنكم لا تبصرون النار كما كنتم لا تبصرون الحق فى القرآن؟

نعيم الجنة

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الكافرين ونعيم المتقين، وفى الآيات (١٧ - ٢٨) نجد حديثا عن ألوان التكريم التى يتمتع بها المتقون، فهم فى الجنات يتمتعون بألوان اللذائذ الحسية والمعنوية، وقد ألحق الله الذرية بالآباء إذ اشتركوا معهم فى الإيمان وقصروا عنهم فى العبادة والطاعة.

أدلة القدرة

وفى الجزء الأخير من السورة نجد الآيات لها وقع خاص، ورنين يأخذ على النفس البشرية كل أنحائها، ويجبه المنكرين بالعديد من الحجج، ويستفهم منهم بطريقة لاذعة ساخرة لا يملك أى منصف معها غير التسليم.

والآيات تبدأ بتوجيه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يبلغ الدعوة، فهو أمين على وحى السماء، بعيد عن الاتهام بالكذب والجنون. وتسرد الآيات اتهام الكفار له بأنه شاعر أو متقول، ادعى القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله، فتطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فى دعواهم.

وتعرض أمامهم أدلة القدرة، فهل خُلقوا من غير خالق، أم خَلَقوا أنفسهم؟ وإذا انتفى ذلك لم يبق إلا احتمال ثالث وهو أنهم خَلْق الله.

ويتوالى هذا الاستفهام الإنكارى يقرعهم بالحجة بعد الحجة، وبالدليل تلو الدليل:

فهذه السماء العالية من خلقها؟ هل هم خلقوها ؟

وهل تطلب منهم يا محمد أجرًا على تبليغ الرسالة ؟

وهل يملكون أمر الغيب، وأمر الغيب لا يطلع عليه إلا الله؟

وهل لهم إله آخر غيرِ الله يتولاهم؟ تنزه الله عن شركهم.

وعندما وصل جحودهم وعنادهم إلى هذا الحد من الغلو فى الباطل أمر الله رسوله أن يعرض عنهم ويتركهم حتى يلاقوا مصيرهم، وفى هذا اليوم لا ينفعهم كيدهم، ولا تنجيهم مؤامراتهم التى بيتوها بليل، إن لهم عذابا شديدا فى الدنيا فضلا عن عذاب الآخرة.

وفى ختام السورة إيناس رخىّ رضىّ للنبى الكريم ﷺ، فهو فى عناية الله، وتحت عينه ورعايته، ومن وجد الله وجد كل شىء.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نَـمْ فالمخاوف كُلُّهن أمان

قال تعالى: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... (الطور:٤٨).

أى: فى رعايتنا وجميل عنايتنا.

ملامح السورة

من الملامح الرئيسية لسورة الطور ما يأتى:

١ – أقسم الله بمخلوقاتٍ لبيان شرفها وفضلها، وأكد بهذا القسم مجىء القيامة ووقوع العذاب.

٢ – وصفت السورة حال المتقين وما ينالهم من نعيم حسى ومعنوى.

٣ – ساقت حشدا من الأدلة على وجود الله وعظيم قدرته.

٤ – فندت حجج المشركين، ودحضت مزاعمهم بأقوى الأدلة، حيث إن الكون العظيم لابد له من خالق عظيم، أما هم وآلهتهم العاجزة عن نفعهم وضرهم فلم يخلقوا شيئا.

٥ – فى ختام السورة أمرت الرسول ﷺ بالصبر، وبينت أنه فى رعاية الله وعنايته.

★ ★ ★

القسم فى صدر السورة، والتحدّى



﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ
ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ
ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾

المفردات:

الطور: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام.

كتاب مسطور: ما كُتب من الكتب السماوية على وجه الانتظام، كالتوراة والإنجيل والقرآن.

الرق: جلد رقيق يكتب فيه، أو كل ما يكتب فيه.

منشور: مبسوط ظاهر.

والبيت المعمور: هو بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة اسمه الضُّراح، وقيل: الكعبة.

والسقف: السماء.

والبحر المسجور: البحر المملوء، وقيل فى البحر المسجور: الموقد المحمى، من سجر النار، أى: أوقدها، وعنى به باطن الأرض، فالأرض كرة كالبطيخة، قشرتها هادئة محكمة الإغلاق على ما تحتها، وتحت القشرة نار عظيمة، ومن حين إلى آخر تظهر الزلازل والبراكين التى تبتلع البلاد، أو تمطرها بالحمم والنيران، وقيل: هو المملوء نارًا يوم القيامة.

لواقع: لنازل وكائن على شدّة.

تمور: تضطرب، أو تدور كالرَّحى.

فى خــــــــوض: فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب، وأصل الخوض: المشى فى الماء، ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء، وغلب على الخوض فى الباطل، قال تعالى : وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا . . . (التوبة: ٦٩).

يُدَعُّــــــــون: يدفعون دفعا عنيفا شديدًا، بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها.

اصـلـــوهـــا: ادخلوها وقاسوا حرّها وشدائدها.

تمهيد:

أقسم الله تعالى فى بداية سورة الطور بثلاثة أشياء، كل واحد منها إشارة إلى رسول من رسل ثلاثة، هم: موسى، ومحمد، ويونس.

فالطور هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، وأعطاه التوراة.

والبيت المعمور إشارة إلى الكعبة، أو إلى بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك للطواف والصلاة، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وبجوار البيت الحرام ولد محمد ﷺ، وقد أقسم الله بالبيت المعمور، وبالسقف المرفوع وهو السماء تعظيما لقدر محمد ﷺ.

كما أقسم بالبحر المسجور، المحبوس عن إغراق الأرض، أو البحر الذى هو قشرة باردة، وتحته نار مستعرة، والبحر إشارة إلى يونس عليه السلام الذى هرب من قومه وركب سفينة، ثم أوشكت على الغرق فعمدوا إلى قرعة ليلقوا فى البحر رجلاً من أهل السفينة، فخرجت القرعة على يونس، وفى ظلام البحر، وظلام النفس، وظلام الحوت، نادى فى الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين.

وقد أقسم الله على أن القيامة قادمة، وأن العذاب للكافرين واقع ما له من دافع.

وفى ذلك اليوم يختلّ نظام الكون، فتمور السماء وتدور كما تدور الرحى، وتسير الجبال وتصبح رمادًا مبعثرا، وفى ذلك اليوم يشتد العذاب بالكافرين، ويقرَّعون باللوم والعتاب.

التفسير:

١ - وَالطُّورِ .

أقسم الله فى صدر السورة بعدة أشياء، وجواب القسم: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ . (الطور: ٧، ٨).

والطور هو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى ، مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ . . . (القصص: ٣٠)

وقال عز شأنه: وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا . . . (القصص: ٤٦)

٢ - وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ .

أقسم بجنس الكتاب السماوىّ الذى أنزله من السماء، وأمر بكتابته بالقلم فى سطور متتابعة منتظمة، لتكون دستورًا للعباد، ونظامًا ينفعهم فى حياتهم وآخرتهم، ويشمل ذلك التوراة والإنجيل والقرآن.

٣ - فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ .

الرَّق ما يكتب فيه، جلدًا أو غيره، ونشره بسطه وظهوره للناس، يرجعون إليه ويهتدون بهديه، ويقرأونه بسهولة ويسر، ويطلعون على ما فيه من حكم وأحكام، وآداب وأخلاق.

٤ - وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ .

هو الكعبة المشرَّفة، يفد إليها الحجاج والعمّار، للطواف والصلاة والاعتكاف، كما يعمرها المجاورون لها، تبركًا بالعبادة فيها، وطلبا للقبول عند الله.

واختار بعض المفسرين أن البيت المعمور هو بيت فى السماء حيال الكعبة، عامر بطواف الملائكة.

قال ابن كثير:

ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ، قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته للسماء السابعة: «ثم رُفع بى إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه» (١٢).

فهو فى السماء يتعبد فيه الملائكة ويطوفون به، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم.

٥ - وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ .

وهو السماء، رفعها الله ممتدة عالية زرقاء، مزينة بالنجوم، ليس فيها خلل أو اضطراب.

قال تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . (الأنبياء: ٣٢)

٦ - وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ .

والبحر المحبوس من أن يفيض، فيغرق جميع ما على الأرض، ولا يبقى ولا يذر، من حيوان ونبات فيفسد نظام العالم.

ويجوز أن يكون المعنى: والبحر الذى هو كالقشرة الظاهرة، وتحته نار تتأجج.

وفى يوم القيامة تسجَّر البحار، فتصبح نار الله الكبرى، قال تعالى: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . (التكوير: ٦)

٧ ، ٨ - إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ .

هذا هو جواب القسم، فقد أقسم الله بالطور وما بعده على أن عذاب الله يوم القيامة واقع ونازل بالمكذبين، ولا يجدون وسيلة لدفع هذا العذاب، ولا يجدون منه مهربا، وفى ذلك اليوم يختل نظام الكون، فتنشق السماء على غلظها، وتتعلق الملائكة بأطرافها.

قال تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً . (الفرقان: ٢٥، ٢٦)

٩ ، ١٠ - يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً .

عند نهاية الحياة يختل نظام الكون، ويفقد تماسكه، فتنشق السماء، وتضطرب اضطرابا شديدا، وتدور كالرحى، ويموج بعضها فى بعض.

وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا .

تسير الجبال من أماكنها كسير السحاب، وتُفتت كالرمل، ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف)، ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا.

قال تعالى: وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبأ: ٢٠)

وقال عز شأنه: وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . (النمل: ٨٨)

١١ ، ١٢ - فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ .

فى ذلك اليوم الذى تضطرب فيه السماء، وتُسيَّر الجبال، هلاك وعذاب شديد يومئذ للمكذّبين بالرسل، والمكذبين بالكتب السماوية، الذين يخوضون فى الباطل، ويتشاغلون بكفرهم عن الحساب والجزاء.

١٣ ، ١٤ - يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ .

يوم يدفعون إلى جهنم دفعا عنيفا، بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم، وتُجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار دفعا على وجوههم.

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ .

أى: تقول لهم خزنة جهنم تقريعا وتوبيخا لهم على كفرهم وإنكارهم عذاب جهنم: هذه النار التى تشاهدونها هى التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا، وتكذيبكم بها تكذيب للرسول وللوحى الناطق بها.

١٥ - أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ .

استفهام قصد به التقريع والتوبيخ والتهكّم، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون عن الرسول ﷺ: إنه ساحر مبين، فقيل لهم أمام جهنم: هل هذه النار سحر وخيال لا حقيقة لها كما كنتم تقولون عن محمد إنه ساحر؟ أم عميت عيونكم عن مشاهدة جهنم، كما عميت قلوبكم فى الدنيا عن مشاهدة الوحى والإيمان به ؟

والخلاصة: هل فى المرئى شك، أم فى أبصاركم عِلل ؟ لا واحد منهما بموجود، فالذى ترونه حق.

١٦ - اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

ادخلوا جهنم واصطلوا بنارها، وتعذَّبوا بعذابها، والصبر وعدمه سواء، كما قال سبحانه حكاية عنهم: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ . (ابراهيم: ٢١)

فلا مهرب لكم من النار، ولا مخرج لكم من العذاب، وهذا العذاب جزاء أعمالكم فى الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩)، بل يجازى كلّ أحد بعمله.

ونلاحظ أن الصبر فى الدنيا له ثواب فى الآخرة، وهو محمود عند الناس، فيقال للصابر: ما أشجعه، أو ما أقوى إيمانه، أو ما أثبت يقينه، ويقال لمن أصابه الجزع والهلع: إنه يجزع كالنسوان والصبيان.

وقد ذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعا، وحث عليه القرآن، وبيّن فضله وثوابه، أما فى الآخرة، فإن صبر الكافر على عذاب جهنم، أو عدم صبره لن ينقذه من العذاب.

قال الزمخشرى:

وقوله: إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . تعليل للاستواء، لأن الصبر يكون مزية على الجزع، لنفعه فى العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب - الذى هو الجزاء - ولا عاقبة له، ولا منفعة فيه، فلا مزية له على الجزع. أ. هـ.

والخلاصة:

إن الجزاء محتم الوقوع، لِسَبْق الوعيد به فى الدنيا على ألسنة الرسل، ولقضاء الله به بمقتضى عدله، فالصبر وعدمه سيَّان حينئذ.

★ ★ ★

نعيم أهل الجنة

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات:

فاكهين: طيبة نفوسهم، متلذّذين ناعمين.

ووقاهم: وحفظهم.

هنيئا: الطعام الهنىء: ما لا يلحق المرء فيه مشقة، ولا يعقبه تخمة ولا سقم.

زوّجناهم: قرنّاهم.

الحور: واحدتهن حَوْراء، من الحَوَر، وهو شدة بياض العين، فى شدة سوادها.

العين: جمع عيناء، أى: واسعة العين.

تمهيد:

يصف القرآن الجنة ونعيمها المعنوى والحسىّ، فالمتقون فى جنات ونعيم ملحوظ يتمتعون بالنعيم الحسى، وبالرضا والبعد عن النار، ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئا مريئًا، بلا تعب ولا ألم، مستريحين على الأسرَّة المنظمة، متزوجين من الحور العين الجميلات واسعات العيون، السعيدات بأزواجهنّ، لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

التفسير:

١٧ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ .

من شأن القرآن أن يتحدث عن عذاب الكافرين، ثم يعقِّب بنعيم المؤمنين، وفى هذا شدة عذاب للكافرين وشدة نعيم للمتقين، حيث يشاهد الكافرون أن المتقين فى نعيم متعدد الأنواع والأجناس، وحيث يشاهد المتقون أن الله قد عافاهم من عذاب الجحيم، وبضدّها تتميز الأشياء.

ومعنى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ .

إن الذين اتقوا الله وراقبوه، وأطاعوا أمره، واجتنبوا معاصيه، يدخلهم الله جنات عظيمة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يتمتعون فيها بنعيم عظيم دائم، وراحة بال، ويجدون فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون.

١٨ - فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

فَاكِهِينَ . أى: حال كونهم مسرورين راضين، متمتعين بما أعطاهم الله من فضله، فهم يتمتعون بالجنّات والنعيم، ويتمتعون بالسعادة الداخلية، والرضا بعطاء ربهم، كما قال سبحانه وتعالى:

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ . (البينة: ٨)

ونعمة أخرى تضاف إلى النعيم وإلى الرضا، تلك هى نعمة حفظ الله لهم من النار وعذابها وجحيمها، وغضب الجبار على أهلها.

كما قال سبحانه: فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . (الطور: ٢٧)

ومن دعاء عباد الرحمان: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . (الفرقان: ٦٥، ٦٦)

١٩ - كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى: يقال لأهل الجنة تكريما وتعظيما وتنعيمًا لهم: كلوا أكلا هنيئا، واشربوا شربا هنيئًا، تكون فيهما هناءة الجسم، وسعادة النفس، بلا مرض ولا تعب ولا وخم، ولا عاقبة سيئة، ولا خوف ولا حزن، بل هناءة وسعادة وفرح وحبور، ونضارة وأمن جزاء ما قدمتم فى الدنيا من العبادة والصلاح، والاستقامة على الجادة، والبعد عن الشبهات، واجتناب المحرمات.

قال الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى:

وفى قوله: هَنِيئًا . إشارة إلى خلو المآكل والمشارب مما ينغّصهما، فإن الآكل قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام، أو يخاف النفاد فيحرص عليه، أو يتعب فى تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج، ولا يكون شىء من هذا فى الآخرة. أ . هـ .

٢٠ - مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ .

فى حالة استرخاء وخلو بال، وتمتع بنعيم الجنة، وبزوجات جميلات واسعات العيون، كل واحدة منهن سوداء المقلة، ممتعة لزوجها، عاشقة له، قاصرة الطرف عليه.

قال المفسرون:

فالأسرّة التى يجلسون عليها قد اصطفت بجوار بعضها، وهم يجلسون عليها جلسة المتكئ الذى لا كلفة عليه، ولا تكلفّ لديه، فإن من يكون عنده من يتكلّف له يجلس ولا يتكئ، ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء، فحال أهل الجنة حال اطمئنان، ورفع كلفة وخلوّ بال، ونحو الآية قوله تعالى: عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ . (الصافات: ٤٤)

★ ★ ★

إكرام الذرّيّة وجمعهم مع آبائهم

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ
كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا
لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات:

وما ألتناهم: وما أنقصنا الآباء بسبب إلحاق الأبناء بهم.

رهين: مرهون عند الله بعمله، والعمل الصالح يفكّه، والعمل الطالح يوبقه.

وأمددناهم: زدناهم.

مما يشتهون: من صنوف النعماء، وضروب الآلاء.

يتنازعون: يتجاذبون تجاذب ملاعبة وسرور.

كأسا: إناء به خمر، والكأس مؤنث سماعى كالخمر.

لا لغوٌ فيها: أى فى شرابها، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسَقَط الكلام.

ولا تأثيم: ولا يُفحشون فى القول، كما هو ديدن النُّدامى فى الدنيا، فإنهم كثيرو اللغو، فعَّالون للآثام.

تمهيد:

هذه ألوان من نعيم الجنَّة، ومنها نعيم الأنس بالذرية الصالحة، إذا اشتركت مع الآباء فى الإيمان، فإن الله يلحق الأبناء بالآباء فى الجنة، لتقرَّ أعْيُنهم بهم، ويأنسوا بأولادهم، ولا يُنقص الآباء عن درجتهم.

ويمدُّ الله أهل الجنة بالفاكهة واللحم مما يشتهون، ويتجاذبون كئوس الخمر تَجَاذُبَ طُرْفة ومحبة، بلا ساقط من الكلام، ولا ارتكاب إثم، كشأن ندامى الخمر فى الدنيا.

التفسير:

٢١ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ.

نوع من أنواع الفضل الإلهى على أهل الجنة، فإذا كان الآباء فى الدرجات العليا من الجنة، والأبناء اشتركوا معهم فى الإيمان، وقصَّروا عن الآباء فى الأعمال الصالحة، فإن الله تعالى يتفضل على الآباء بأن يرفع درجات الأبناء فى الجنة، ويلحقهم بآبائهم، لتقر عيونهم بهذا الاجتماع الأسرى، وجَمع الشمل بين الإنسان وآبائه وأبنائه، ولا ينقص الآباء من درجاتهم شيئا، لأن الآباء قد عملوا أعمالا أهَّلتهم للدرجات العليا.

كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ .

أى: كل إنسان مرتبط بعمله، فهو الذى يرفعه وهو الذى يخفضه، وليس من العدل أن ينقص الأب درجة من أجل ابنه.

فالله تعالى عامل الأبناء بالفضل ورفع درجتهم، وعامل الآباء بالعدل وأبقاهم فى المنزلة العليا فى الجنة، حكمة منه وعدلا وفضلا وإحسانا.

قال ابن عباس:

إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته، وإن كانوا دونه فى المنزلة، لتقرَّ بهم عينه، وقرأ الآية.

(رواه الحاكم، والبيهقى فى سننه)

وفى رواية الطبرانى، وابن مردويه، عن ابن عباس أنه قال: إن النبى ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة، سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال له: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب، قد عملت لى ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به». وقرأ ابن عباس الآية: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ .

والآية على ما ذهب إليه كثير من المفسرين فى الكبار من الذرِّيّة دون الصغار.

وروى عن ابن عباس والضحاك وغيرهم أنهم قالوا: إن الله يلحق الأبناء الصغار، وإن لم يبلغوا زمن الإيمان بآبائهم المؤمنين، كما يلحق الكبار المكلّفين المؤمنين الذين لم يبلغوا درجة آبائهم فى العمل الصالح والبعد عن المعاصى، يلحقهم بآبائهم فى درجتهم فى الجنة، إكرامًا لهم ولتكمل بهم مسرتهم. أ.هـ .

ورحمة الله واسعة، وفضله كبير، وكان بالمؤمنين رحيما.

٢٢ - وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ .

زودناهم بفاكهة كثيرة، ولحم كثير مما يشتهونه، ويستطيبونه ويستحسنونه، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا، وذِكْر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى، لأنهما طعام المترفين فى الدنيا.

٢٣ - يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ .

يتجاذبون فى الجنة كأس الخمر تَجَاذُبَ ملاطفة وفرح وحُبور، فيما بينهم لشدَّة سرورهم.

كما قال الأخطل:

نازعته طيّب الراح الشَّمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السَّارى

وليس فى شراب الجنة ما فى الدنيا من اللغو والباطل والإثم، عند زوال العقل بسبب الخمر، وإنما ينطقون بالحكم وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعل الكرام، وقد مدح الله خمر الجنة بأنها لذة، وأنها لا تغتال عقول شاربيها، وأنها لا تنفد، وأن شكلها أبيض جميل، وأنها لذيذة الطعم.

قال تعالى: بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ . (الصافات: ٤٦، ٤٧)

وقال تعالى: لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ . (الواقعة: ١٩)

★ ★ ★

ألوان أخرى من نعيم أهل الجنة

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات:

غلمان: مماليك مختصون بهم.

مكنون: مصون فى أصدافه، لم تنله الأيدى، فهو يكون أبيض صافى اللون.

مشفقين: أرقاء القلوب من خشية الله.

فمنّ الله علينا: فتفضل علينا كرمًا منه.

السموم: النار الشديدة الحرارة، وسميت سموما لأنها تخترق مسام الجلد.

البرّ: الواسع الإحسان.

تمهيد:

هذه ألوان أخرى من نعيم الجنة، وتفصيلُ ألوان هذا النعيم، ومن ذلك ما يأتى:

(أ) يقوم على خدمتهم غلمان دون البلوغ، فى صفاء اللؤلؤ المحفوظ الذى لم تلمسه الأيدى، وإذا كان هذا جمال الخادم، فما بالك بجمال المخدوم.

(ب) التفكّه والتلذذ بالحديث مع بعضهم البعض، عما كان منهم فى الدنيا.

(جـ) كانوا بين أهليهم سعداء باجتماع الشمل، لكنهم كانوا مشفقين من عذاب الله، فلم يقترفوا المعاصى، ولم يتجاسروا على اقتراف الكبائر، خوفا من الله.

(د) تفضل الله عليهم بمنّه، وأدخلهم الجنة برحمته وفضله، فإنه هو الذى وفقهم للاستقامة والعمل الصالح، وهو الذى يضاعف لهم الجزاء فى الجنة.

(هـ) حفظهم الله من عذاب النار، الذى يدخل فى مسام الجسم، لذلك سمى بالسموم.

(و) لقد كانوا محافظين على دعاء الله، والتبتل إليه وعبادته، إنّه رحيم متفضل على عباده.

التفسير:

٢٤ - وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ .

ومن نعيم أهل الجنة أن يقوم على خدمتهم غلمان دون البلوغ، مختصون بخدمتهم، هؤلاء الغلمان فى صفاء اللؤلؤ المحفوظ المصون فى صدفه، صفاءً وبياضًا ونقاء ونفاسة.

وإذا كان الخادم فى هذه الدرجة العالية من الجمال والنقاء، فما بالك بالمخدوم، والدرجة العليا التى متعه الله بها.

أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، قال: بلغنى أنّه قيل: يا رسول الله، هذا الخادم مثل اللؤلؤ، فكيف بالمخدوم؟ فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

ونحو الآية قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . (الواقعة: ١٧، ١٨)

٢٥ - وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

يشتاق أهل الجنة إلى الإخوان، والحديث معهم، فيتحرك السرير بأحدهم ليكون فى مواجهة أخيه، فيتذاكرون ما كان فى الدنيا، ويتساءلون عن أحوالهم السابقة فى دنياهم، تساؤل تلذذ وسرور بتوفيق الله لهم، ونجاحهم فى رحلة الآخرة.

٢٦ - قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ .

قالوا: لقد كنّا فى حالة مبهجة باجتماع الشمل، ووجودنا بين أهلينا وعشيرتنا، لكنّا لم نجترئ على معصية الله، ولم نجرؤ على اقتراف الكبائر، خوفا من مقام الله، وإشفاقا من غضبه.

٢٧ - فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ .

فتفضل الله علينا بمنّه ورحمته، لقد وفقنا للطاعات فى الدنيا، ثم تفضّل علينا بدخول الجنة، وحفظنا من عذاب السموم، وهو عذاب النار الذي يتسلل إلى مسام الجسم.

وهذا اعتراف لله بالفضل والمنة، حيث وفقهم للعمل الصالح فى الدنيا، وتفضل عليهم بدخول الجنة، وإبعادهم عن عذاب السموم.

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل الجنة أحدٌ منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنينّ أحدكم الموت، إما محسنا فلعله أن يزداد فى إحسانه، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب»[١٣]. أى: يتوب إلى الله تعالى، ويطلب العتبى والمغفرة.

وقد ورد أن عبادة الإنسان كلها فى حياته لا تكافئ نعمة واحدة، كنعمة البصر، فضلا عن سائر النعم، وهذا يجعل المسلم يشكر ربه، ويعترف لله تعالى بفضله ومنته، وواسع رحمته، وعميم إحسانه ونعمائه.

٢٨ - إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ .

إنا كنا من قبل فى الدنيا نعبده سبحانه، ونتبتل إليه، ونتلذذ بالتقرب إليه، وطاعته ودعائه وعبادته، وهو سبحانه (بر) عظيم الفضل والمنة والنعمة، (رحيم) واسع الرحمة.

قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... (الأعراف: ١٥٦)

وفى الحديث الشريف: «قسم الله الرحمة مائة جزء، أنزل جزءا واحدًا فى الدنيا يتراحم به الناس، وادّخر تسعة وتسعين جزءا يرحم الله بها عباده يوم القيامة»[١٤].

فما أعظم رحمته وفضله، قال تعالى: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... (الأنعام: ٥٤)

وفى الحديث القدسى: «... إنَّ رحمتى سبقت غضبى».

★ ★ ★

محاجة المشركين

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ
قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

المفردات:

فذكّر: فاثبت على ما أنت عليه من التذكير.

الكاهن: من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظنّ.

والعراف: من يخبر بالأخبار المستقبلة.

نتربّص: ننتظر.

ريب المنون: حوادث الدهر ومصائبه، والمنون هو الدهر، وقيل: هو الموت.

قال أبو ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجع والدّهر ليس بمعتب من يجزع

وقال آخر:

تربّص بها ريب المنون لعلها تطلّق يوما أو يموت حليلُها

الأحلام: العقول.

طاغون: مجاوزون الحدّ فى المكابرة والعناد.

تقوّله: اختلقه من تلقاء نفسه، إذ التقوّل لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب.

تمهيد:

هنا يناقش القرآن المشركين، ويشدُّ أزر الرسول الأمين ﷺ فيقول:

(أ) استمر فى أداء رسالتك ودعوتك، فلست بكاهن يخبر عن الأمور الخفية الماضية، ولست بفاقد للعقل، فأنت عُرفت برجاحة العقل، وبالحكمة شابًّا وناشئا، ومن باب أولى بعد بلوغ الأربعين.

(ب) إن الكفار مضطربون فى تهمهم، ولا يثبتون على حال، فقد اجتمعوا فى دار الندوة، وقال أحدهم: إن محمدًا شاعر، فانتظروا أن يموت كما مات من سبقه من الشعراء، والموت كأس على رؤوس الجميع، فإن انتظروا موتك، فإنك أيضا تنتظر موتهم، أو ما يصيبهم من الموت المَعْنَوىّ يوم بدر وغيره.

(جـ) هل عقولهم تأمرهم برفض الإسلام دون مناقشة فكرته، أم هو الطغيان والعدوان ومجاوزة الحدّ فى العناد.

(د) وقالوا: محمد افترى هذا القرآن من عند نفسه، والحقيقة أنهم رفضوا الإيمان بالله ورسوله، فإن كانوا صادقين فى هذه التهمة بأن محمدًا اختلق القرآن ونسبه إلى الله فليأتوا بقرآن مثله، فهم أهل الشعر والخطب والفصاحة.

التفسير:

٢٩ - فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ .

كان كفار مكة يختلقون التهم لإلصاقها بالرسول ﷺ، رغبة فى الحطّ من شأنه، وصرف الناس عنه، والقرآن هنا يقول له: دُمْ على تبليغ الرسالة، وسِرْ فى طريقك، ولا تكترث بالتُّهم التى يحاولون أن يلصقوها بك.

وكان ﷺ قد عُرف بالصدق والأمانة، ورجاحة العقل فى نشأته وشبابه، وقد كانوا يحكمونه فى المهمّات. فلما نزلت عليه الرسالة، قال شيبة بن ربيعة: إنه كاهن يدّعى معرفة الأخبار الخفية، والقرآن أشبه بسجع الكهان.

وقد غلب على الكهان السجع مثل قولهم: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، لقد سبق هاشمٌ أمية إلى المآثر، والكهانة اجتهاد إنسان، وهو أحيانا يصيب، وأحيانًا كثيرة يخطئ، أما القرآن فقد اهتم باللفظ والمعنى، والقيم والآداب، والتشريع والتاريخ وإحياء الضمير.

وقال عُقبة بن أبى مُعَيْط: إن محمدًا مجنون، والقرآن نتيجة إصابته بنوبة الجنون.

وعند التأمل نجد الاضطراب واضحا فى كلام المشركين، فالكاهن يجب أن يكون فى غاية الذكاء، واستنباط المجهول من المعلوم، والمجنون هو فاقد العقل، ولا يجتمعان فى شخص واحد، مما يدل على شدة اضطرابهم وتعنتهم، وما زال القرآن أثرًا خالدًا من أصدق الكتب وأعدلها فى الإخبار عن الماضى، والتشريع للحاضر، والإرشاد للمستقبل.

وخلاصة معنى الآية:

دُمْ على تذكير المشركين، ولا ترجع عن تبليغهم بسبب قولهم إنك كاهن مجنون، لأن الله أنعم عليك بأجلّ النعم، وهى الرسالة الخاتمة.

٣٠ - أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ .

بل هم يقولون: هو شاعر، نتربص به أحداث الدَّهر، من موت أو حادثة متلفة، وكان كفار قريش قد اجتمعوا فى دار الندوة وكثرت آراؤهم فيما يقولونه فيه ﷺ، حتى قال قائل من بنى عبد الدار: تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر وسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية.

والخلاصة: اجتنبوا مقابلته حتى لا يغلبنا بشعره، وانتظروا موته كما مات الشعراء من قبله.

٣١ - قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ .

قل لهم يا محمد: انتظروا موتى كما شئتم، فإنى أيضا أنتظر موتكم وهلاككم، أو هزيمتكم عند اللقاء، وهو نوع من الموت المعنوى، والآية تتضمن وعد الله له بالنصر، ووعيده لأعدائه بالهزيمة.

قال تعالى: وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ . (الشعراء: ٢٢٧)

٣٢ - أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

هل عقولهم الراجحة تأمرهم بالوقوع فى هذا الاضطراب، فيقولون: هو شاعر أو كاهن، ثم يقولون: هو مجنون، ومعنى شاعر: له عبقرية متميزة، تقرض الشعر المتميز، ومعنى كاهن: له ذكاء خارق يستطيع التنبؤ بالحكم الخفى فى الأحداث السَّابقة، أما المجنون فهو من ذهب عقله واختفى، فكيف يوصف محمد بغاية الذكاء مرة، وبغيبة العقل مرة أخرى ؟!

أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

بل إن السبب الحقيقى هو الطغيان، ومجاوزة الحدّ فى الخروج عن الجادة والعناد، وبذلك انصرفوا عن الاستماع للقرآن، إذ ما فائدة العقول الراجحة، التى كان لها فضل على العرب فى إنشاء أسواق عكاظ ومجنّة وذى المجاز، لعرض الرائع من القول، والمتميز من الشعر، والفائق من الخُطب، ثم يأتى القرآن عربيًا مبينًا، بُلغتهم وعلى طريق حوارهم، فيمنعهم الطغيان والعناد من النظرة المنصفة للقرآن الكريم.

قيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله عز وجل، أى لم يصحبها التوفيق، فلذلك لم يؤمنوا وكفروا، وإذا تأملنا فى الموضوع وجدنا أن قريشا كانت لها الصدارة فى الجزيرة العربية، وتتمتع بمنزلة سامية فى المجتمع المجاور لها، وقد خالطت أهل الشام فى رحلة الصيف، وأهل اليمن فى رحلة الشتاء، وكان الأَوْلى بها أن تعتبر بما شاهدته.

وعقول أهل مكة كانت أسمى من أن تعتقد الألوهية للأصنام والتماثيل، وخصوصا بعد نزول القرآن، وتوضيح الرسول الأمين، لكنها المصالح الدنيوية، والأثرة والحرص على الغنى والجاه، والحرص على ممارسة الربا والزنا وشرب الخمر، وعدم إقامة الصلاة وعدم إيتاء الزكاة، كل هذا هو الذى حملهم على اتخاذ موقف الطغيان والعناد من الإسلام ورسوله محمد ﷺ.

قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص: ٥٧)

وقال عز شأنه: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ . (قريش: ١ - ٤)

وقال سبحانه وتعالى: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٣٣)

وقال سبحانه وتعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل: ١٤)

٣٣ - أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ .

والقرآن هنا يكيل لهم المناقشة والتحدّى، ويسرد تقولاتهم، ويعرض كلَّ ما قالوه، ويوضح الأسباب الخفيَّة وراء عنادهم وافترائهم، فما قالوه إن محمدًا حاد الذكاء، قوى التخيّل، فالقرآن نَتَجُ التخيل النفسى، والاستبصار الذكى، والقدرة الفائقة التى تتخيل بالليل أفضل ما يقال للناس، ثم يصوغ ذلك للناس بالنّهار.

بَل لَّا يُؤْمِنُونَ .

بل عدم الإيمان، وعدم الهدى، وعدم التوفيق، هو الذى جعلهم يتهمون محمدًا بتهم هو منها برىء.

٣٤ – فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ.

والقرآن منطقى معهم، فخلاصة معنى الآية السابقة: إن محمدًا عبقرىٌّ، قد تقوّل القرآن من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى كذبا وزورًا.

وهنا يمسك القرآن بتلابيبهم فيقول: محمد نشأ بينكم، وما قرأ كتابا، ولا اشترك فى مناقشة شاعر أو كاهن، أو خطيب أو فصيح من فصحائكم، فإذا ادعيتم أنه تقول القرآن، أى نسبه كذبا إلى الله تعالى، كان المعنى: إن فى استطاعة الأذكياء منكم أن يأتوا بمثله فافعلوا، وائتوا بقرآن مثل هذا إن كنتم صادقين، أو ائتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو ائتوا بسورة مما نزلنا على عبدنا، ثم تحدّاهم وتحدى أمثالهم من الملحدين المحدثين، الذين يدّعون أن القرآن نتاج عبقرية محمد، وقوة تخيّله أو هو نوع من أحلام اليقظة، أو منظومة إصلاحية عالية.

هذه التهم التى يذكرها بعض المستشرقين، وبعض من يسيرون خلفهم، فنّدها القرآن سابقا بهذا التحدّى:

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ.

هؤلاء هم الفلاسفة، وعلماء النفس والاجتماع، والأدباء والشعراء، والكتّاب والقصاص، هل فى استطاعتهم أفرادًا أو مجتمعين، أن يأتوا بمثل هذا الكتاب ؟

إن كان الملحدون صادقين، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ...

قال تعالى: قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. (الإسراء: ٨٨)

إن إعجاز القرآن تنوع فى عصور تاريخية، فكان كتاب كل العصور، فعند نزوله كان العرب أرباب الفصاحة والبيان، فتحدّى القرآن العرب، وطالت مدة التحدّى، وقد حارب العرب محمدًا، وقاتلوه وقاتلهم، وهزموه فى معارك قليلة، وهزمهم فى معارك كثيرة.

وكان الباعث لهم على اختراع مثل القرآن موجودًا، ومحاولة انتصاف المشركين لأنفسهم موجودة، ولقد حاول المشركون الإتيان بمثل القرآن، وجاءوا بكلام دون القرآن بكثير، وكانت محاولاتهم أدل على إعجاز القرآن وتفوّقه عن المماثلة.

قال بعضهم: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر...

وقال مسيلمة الكذاب: والزارعات زرعا، فالحاصدات حصدًا، فالعاجنات عجنا، فالخابزات خبزا، فالآكلات لقما... ، فقال له أحد المسلمين: وماذا بعد ذلك ؟

وعندما تقدمت العلوم والفنون، ظنّ الملحدون أن أهمية الأديان ستقل أمام التقدم العلمى، والإحصاءات العلمية فى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها تؤيد حاجة الأفراد والمجتمعات إلى الدّين، فهو شفاء النفس، وسعادة الإنسان الحقيقية، وقد أشار إحصاء لطبيب أمريكى أجراه على آلاف المرضى المترددين على عيادات الأطباء فى أمريكا، وظهر من الإحصاء أن ٥٠ ٪ (خمسين فى المائة) من المترددين على عيادات الأطباء، ليست بهم أمراض إكلينيكية أو عضوية، وإنما هو الإحباط والخوف والحيرة والتردد، وأن الدِّين هو أفضل علاج لمثل هذه الأمراض، التى يعجز الطب البشرى عن علاجها.

إن القرآن شفاء مادّى ومعنوى للمجتمعات والأفراد.

قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً . (الإسراء: ٨٢)

★ ★ ★

استفهامات متتابعة للمشركين

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ
﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

المفردات:

من غير شىء: من غير خالق.

خزائن ربك: خزائن رزقه ونعمائه

المسيطرون: القاهرون والمسلطون عليها، من قولهم: سيطر على كذا، إذا راقبه وأقام عليه.

سُلّم: مرتقى ومصْعدٌ إلى السماء.

بسلطان مبين: بحجة واضحة تصدِّق استماعه.

مغرم: التزام غرامة تطلبها منهم.

مثقلون: محمّلون ما يثقلهم ويجهدهم.

الغيب: علم الغيب.

كـــــيـــــداً: مكرًا وشرًا.

المكيــــــدون: الذين يحيق بهم الشرّ، ويعود إليهم وباله.

تمهيد:

فى هذه الآيات يتابع القرآن حملته على المشركين، ليسفّه آراءهم، ويؤكد وحدانية الخالق، ويتابع التحدّى السابق بأنَّهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن، وهذا دليل على أنه من عند الله، والآيات (٣٥ - ٤٣) هى استفهامات متلاحقة تأخذ بتلابيب المشركين وتسألهم: هل خُلقوا من غير خالق؟ هل خلقوا أنفسهم؟ وكل ذلك محال، فلم يبق إلا أن يكون الله هو الذى خلقهم.

ثم تقول: هل خلقوا السماوات والأرض؟ إن هذا الخلق العظيم لا يقدر عليه إلا الله.

هل عندهم خزائن رزق الله؟ أم هل هم المسيطرون على أفضاله ونعمائه؟

وهل عندهم علم الغيب؟ وهل يملكون دليلا على ذلك؟ وهل يليق بهم أن يجعلوا الملائكة بنات الله، فيكون لله البنات ولهم البنون؟

وهل تسألهم يا محمد أجرًا على تبليغ الرسالة، فهم فى دين عظيم لا يستطيعون سداده؟

وهل عندهم علم الغيب؟ حاشا وكلا، فكل ذلك من خصائص الألوهية.

وهل يريدون إيقاع المكر والشر بالمسلمين؟ لا، لن يستطيعوا، وسيقعون هم فى هزيمة بدر وما بعدها، حتى تفتح مكة، ويهزم الشرك وينصر الحق.

وهل لهم إله غير الله ؟ تنزه الله عن الشريك والمثيل.

بهذه الاستفهامات المتلاحقة التى تشبه السياط التى تُلهب ظهور المشركين، يفنّد القرآن آراءهم، ويوضح حقائق القدرة الإلهية التى بيدها الخلق والأمر، تنزه الله عن كل شريك ومثيل.

التفسير:

٣٥ - أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ .

إنهم مَوْجُودُون فى صورة بديعة جميلة، بها حواس متعددة: بصر، وسمع، وقوام، وعقل، وأيد، وأرجل.

فهل هذا الخلق البديع المتكامل وجد من غير مُوجد ؟ هذا باطل.

هل هم الذين خلقوا أنفسهم؟ هذا مستحيل، فلم يبق إلا أن يكون الله تعالى هو الذى خلقهم.

روى البخارى، عن جبير بن مطعم، أنه لما قدم على رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر فى شأن فداء الأسرى، سمع النبى ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب بسورة الطّور، قال: فلما بلغ فى القراءة هذه الآية : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . كاد قلبى يطير (١٥).

لقد اهتز قلب الكافر من أجل آية، ولو فتح القوم قلوبهم للقرآن لآمنوا، لكنّهم أعرضوا وكفروا.

٣٦ - أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ .

هل خلقوا السماوات ؟ هذا الخلق العظيم البديع، هذه القبّة الزرقاء الممتدة، بما فيها من أفلاك وأملاك، ومَجرَّات، وشموس وكواكب، هل خلقوا هذا الخلق البديع؟

هل خلقوا الأرض، وما فيها من بحار وأنهار، وطرق وجبال، وزروع وثمار، وإنس وجن، وطير ووحش، وليل ونهار ؟

إن هذا الخلق القائم أمامهم، من خلقه؟ لا يستطيع عاقل أن يدَّعى أنَّه خلق السماوات والأرض، ولا يستطيع أن يقول إنهما خلقتا أنفسهما، ولا أنهما خلقتا من غير خالق، فلم يبق إلا أن يكون الله هو الذى خلقهما.

وكان القوم إذا سُئلوا عمن خلق السماوات والأرض، قالوا: الله .. ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح فى إدراكهم إلى درجة اليقين الكامل، والاعتقاد الواضح الدقيق.

بَل لاَّ يُوقِنُونَ .

فليس إيمانهم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض إيمانًا كاملاً، أو يقينًا جازمًا، ولو كان كذلك لما عبدوا الأصنام والأوثان، ولما كذَّبوا برسالة محمد ﷺ، فهم فى تردد وحيرة، ليس فيها يقين جازم.

٣٧ - أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ .

هل يملكون خزائن رحمة الله وفضله، واختيار الأنبياء والأغنياء، والأرزاق والألطاف؟ كلا، فذلك كلّه فضل الله.

وهل لهم سيطرة على هذه الأرزاق والألطاف ليتحكموا فيها، فيطلبوا أن تكون الرسالة الخاتمة لرجل من القريتين عظيم ؟

وقريب من ذلك قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... (الزخرف: ٣١، ٣٢)

٣٨ - أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

إن محمدًا ﷺ يتلقى وحى السماء، وينزل جبريل عليه بالوحى غضًّا طريًا، والقرآن له سلطان على النفوس وهيمنة وإعجاز، وسرٌّ يشعر به صاحب الفطرة السليمة.

فهل هؤلاء الكفار يملكون مثل ذلك؟ هل لهم سُلَّمٌ منصوب إلى السماء، أو مرقاة يطّلعون بها إلى الملأ الأعلى، ويستمعون إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم، ويطلعون على علم الغيب ؟

إن كانوا يملكون ذلك فليأتوا بدليل واضح، وحجة بينة، كما أتى محمد ﷺ بالوحى الذى عجزوا عن محاكاته، ولزمتهم الحجة.

٣٩ - أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ .

كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن الله أصهر إلى سراة الجن فأنجب منهم الملائكة.

قال تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .
(الزخرف: ١٩)

وهنا يوبخهم على زعمهم، فهم ينسبون الإناث إلى الله، وفى القرآن الكريم: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . (الزمر: ٤)

وقد هاجمهم القرآن، ووبخهم على هذه الفرية الساذجة فى مثل قوله تعالى: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ . (النجم: ٢١، ٢٢).

أى: جائرة، حيث تجعلون له الأقل، ولكم الأعلى فى زعمكم.

وقال سبحانه: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. (الزخرف: ١٧)

وهنا يستفهم هذا الاستفهام الإنكارى، فيقول: أتجعلون لله الأقل فى زعمكم ولكم الأعلى، لقد كان أحدهم يسودُّ وجهه إذا بُشر بالأنثى، ومع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله، فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ليُخجلهم من هذا الادعاء المتهافت : أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ .

٤٠ - أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ .

لقد أدَّى جميع الرُّسل رسالات السماء تطوعًا دون أجر، أو تقاضى أموال من المرسل إليهم.

وكان محمد ﷺ مشهورًا بأنه الصادق الأمين، وكان حريصا على هدايتهم، ومع هذا أعرضوا عن الهداية التى قدّمها الرسول ﷺ لهم.

وهنا يتساءل القرآن: هل أنت يا محمد تطلب منهم أجرًا وأموالاً كثيرة على تبليغ الرسالة، أو دخولهم فى الإسلام، فهم مشفقون من التزام غرامة ثقيلة تطلبها منهم على الهداية؟

الواقع أنك لا تطلب منهم أجرًا كبيرًا ولا قليلاً، فلماذا يفرّون من الهدى، وفيه صلاحهم وهو بين أيديهم؟

وقريب من هذه الآية قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ... (هود: ٢٩)

٤١ - أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ .

هم عبيد مربوبون، لا يعلمون من أمر الغيب شيئا، والله وحده هو علاّم الغيوب، وهنا يتساءل:

أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ .

أعندهم علم الغيب فهم منهمكون فى كتابته، والجواب معلوم، وهو: لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا ينزل الوحى إلا الله، ولا يكتب القرآن إلا كتبة الوحى لرسول الله ﷺ، وإذا كنتم لا تعلمون الغيب، ولا تكتبونه فى اللوح المحفوظ، فآمنوا بأن الذى يملك الغيب والقدر واللوح المحفوظ هو الله القادر، المختص وحده بعلم الغيب وكتابته.

قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (الزُّمر: ٤٦)

٤٢ - أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ .

هل يريدون تدبير أذًى للرسول ﷺ ؟ لا يستطيعون ذلك، فالله يعصمه من النَّاس، وسيقع جزاء كيدهم وشرّهم بهم.

وهذه الآية من إعجاز القرآن وإخباره بالغيب، فقد نزلت قبل الهجرة، حيث اجتمع الكفار فى دار الندوة، يدبِّرون الكيد لرسول الله ﷺ.

فمنهم من يري حبسه، ومنهم من يرى نفيه خارج مكة، ومنهم من يرى أن يُختار من كل قبيلة شابٌّ، ويعطى كل شاب سيفا صارمًا بتارًا، ويضرب الجميع محمدًا ضربة رجل واحد، وبذلك يتفرّق دمه فى القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم، فيقبلون الدِّية فى دمه، ثم استقرُّوا واتفقوا على هذا الرأى، لكن الله تعالى

أبطل كيدهم، وحفظ رسوله ﷺ، وأخرجه من بينهم، وقد أعمى الله أبصارهم عنه، ويسّر طريق الهجرة لرسوله ﷺ ، ثم هزمهم الله فى بدر، وظل شأنهم فى انحدار، وشأن الرسول ﷺ فى ارتفاع، حتى فتحت مكة، ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

من حاشية الجَمَل

أريد أن أنقل لك نبذة وصورة من حاشية الجمل على تفسير الجلالين، لتحيط بأسلوب التأليف للشيخ سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ، حيث يقول (٤ / ٢٢٠):

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ...

أى: مكرًا وتحيلا فى هلاكك.

وفى المصباح: كاده كيدا، من باب باع، خدعه ومكر به، والاسم: المكيدة، أ . هـ.

والاستفهام إنكارى، على معنى نفى اللياقة والانبغاء، أى: لا ينبغى ولا يليق منهم هذه الإرادة، أى التشاور والاجتماع على كيدك، كما ذكر فى قوله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . (الأنفال: ٣٠)

وكان هذا المكر فى دار الندوة، وهى دار من دور أهل مكة.

والظاهر أنه من الإخبار بالغيب، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة.

فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ .

هذا من وقوع الظاهر موقع الضمير، تنبيها على اتصافهم بهذه الصفة القبيحة، والأصل: أم يريدون كيدًا فهم المكيدون. أو حكم على جنسٍ هم نوع منه، فيندرجون فيه اندراجًا أوليا، لتوغلهم فى هذه الصفة.

ثم أهلك الله الكافرين فى غزوة بدر وما بعدها من غزوات (١٦) .

٤٣ - أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والاستفهام فى هذه الجمل كلها للتوبيخ والتقريع والإنكار.

والمعنى :

هل لهؤلاء الكفار إله آخر غير الله خلقهم وسوّاهم، وأحياهم ويميتهم، فهم لذلك يعبدونه، ويشركون عبادته مع عبادة الله؟ تنزه الله عن أن يكون له شريك أو مثيل أو ند أو نظير.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾. (الشورى: ١١)

هو وحده الذى يملك خلق السماء، وخلق الأرض، وخلّق الإنسان متدرجا فى مراحل حياته، من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى أن تنفخ فيه الروح، ويخرج للحياة وليدًا، فيجعل له للنظر عينين، وللسمع أذنين، وللبطش يدين، وللمشى رجلين، ثم يمرّ هذا الوليد بمراحل الطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة، ثم الموت، ثم البعث والحشر والحساب، والثواب أو العقاب، فالله وحده هو الذى يخلقهم ثم يرزقهم.

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.
(الجاثية: ٢٦)

★ ★ ★

ختام سورة الطور

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا
دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ
تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾

المفردات:

كِسفا: قطعة من السماء تسقط عليهم.

سحاب مركوم: هذا سحاب تراكم بعضه على بعض، نرتوى به، ثم لا يؤمنون.

فذرهم: اتركهم وأعرض عنهم.

يصعقون: يموتون أو يُقتلون.

لا يغنى عنهم: لا يفيد شيئا فى ردّ العذاب عنهم.

ولا همُ ينصرون: يمنعون من عذاب الله تعالى فى الآخرة.

عذابا دون ذلك: عذابا فى الدنيا قبل عذاب الآخرة، مثل الجوع والقحط سبع سنين، أو القتل يوم بدر، أو عذاب القبر.

ولكنّ أكثرهم لا يعلمون: أن العذاب نازل بهم فى الدنيا قبل الآخرة.

واصبر لحكم ربك: بإمهالهم، ولا يضق صدرك بكفرهم وعنادهم، وعدم تعجيل العذاب لهم.

بأعيننا: بحفظنا ورعايتنا.

وسبح بحمد ربك: واستعن على الصبر بالتسبيح والتحميد، أى قل: سبحان الله وبحمده.

تمهيد:

ناقشت آيات سابقة المشركين، وتكررت فيها لفظة: (أم) للاستفهام الإنكارى، خمس عشرة مرة، حتى قال بعض المفسرين: إن غزوة بدر وقعت فى السنة الخامسة عشرة بعد البعثة المحمدية. فقد مكث النبى ﷺ ثلاثة عشر عاما فى مكة بعد الرسالة، ثم مكث عامين فى المدينة قبل غزوة بدر، ورأوا أن الآية (٤٤) من سورة الطور تشير إلى وقوع العذاب بأهل مكة فى غزوة بدر، وأن هذا من الإعجاز الغيبى للقرآن الكريم.

وعموما فإن السورة الكريمة – وقد ناقشت المشركين طويلا– فإنها فى نهايتها تصف عنادهم، وتتوعدهم بعذاب يوم القيامة، وبعذاب قبل يوم القيامة، مثل عذاب يوم بدر، وما تبع ذلك من ارتفاع شأن المسلمين، وانحدار شأن المشركين.

ثم توصى الرسول ﷺ بالصبر والاحتمال، والاطمئنان إلى أنه فى محلٍّ عناية الله ورعايته ولطفه، وتحثه على ذكر الله وتسبيحه وتحميده عند القيام من النوم، أو فى المجلس، وعند غياب النجوم.

التفسير:

٤٤ – وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ .

إنهم أهل كِبْر وعناد، سبق أن قالوا للنبى ﷺ مثل ما قاله قوم شعيب: فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (الشعراء: ١٨٧).

وقد حكى القرآن عن أهل مكة: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ . . . (الأنفال: ٣٢)

وهنا يقول القرآن: إن أنزلنا عليهم قطعة من النيران لتقتلهم أو تهددهم لما اعتبروا، وظنوا أنَّها سحاب تراكم بعضه فوق بعض، ثم نزل بهم ليتحول إلى مياه، تسقى زروعهم وثمارهم.

وقد حدث مثل ذلك لقبيلة عاد، قوم نبى الله هود، حينما رأوا سحابة فى السماء تتجه إليهم، ففرحوا وتوقعوا المطر، ثم اكتشفوا أنها ريح الدبور، سلطها الله عليهم لإهلاكهم، وتدمير منازلهم، وإنزال العذاب بهم.

قال تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

٤٥ – ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾.

اتركهم وأخلِ بالك منهم، ولا تكترث بإعراضهم وتكذيبهم، ولا يضق صدرك بعنادهم، وأهملهم فإن لهم في الآخرة حسابا وجزاء، حين ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الأولى، فيصعق من فى السماوات ومن فى الأرض.

أى: إن جزاءهم سيأتى يوم القيامة، أو يوم بدر أو غير ذلك، فقد ترك الأمر مبهما لتذهب النفس فيه كل مذهب.

٤٦ – ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

وفى ذلك اليوم لا ينفعهم مكر، ولا تدبير أمر، ولا الانحياز إلى قوة أخرى ينتصرون بها، فإنه يوم الدِّين، والملك فيه كلّه لله رب العالمين، أى إذا كانوا فى الدنيا يكيدون للنبى ﷺ وللمسلمين، فإنهم فى يوم القيامة لا ينفعهم كيد ولا مكر، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرا.

٤٧ – ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

وإن لكل الظالمين عذابا قبل يوم القيامة، ومنهم كفار مكة، فلهم عذاب فى القبر أو عذاب يوم بدر، أو ما أنزل الله بهم من مجاعة وحاجة، أو ما أصابهم من هزائم وخزى وهوان، حتى ذلّ الشرك وأهله، وانتصر الإسلام وأهله، ففُتحت مكة والطائف، وعمّ الإسلام بلاد العرب، وأخذ طريقه إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب.

وهكذا نجد أن العذاب ينتظرهم يوم القيامة، وقبل يوم القيامة، ولكنهم لاهون غافلون، لا يعلمون هول ما ينتظرهم، وبعضهم يعلم غير أنه يُصر على الكفر والضلال عنادًا وجحودًا.

والمراد بالأكثر الكلّ، على عادة العرب حيث تعبّر عن الكل بالأكثر، أو هم فى أكثر أحوالهم لم يعلموا.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢١).

والمراد أن الكفار لا يعتبرون ولا يتعظون، ولو كشف عنهم البلاء لعادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الأنعام: ٢٨)

٤٨ – ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

تأتى آخر السورة بردًا وسلامًا على قلب الرسول ﷺ، بعد مناقشة طويلة للمشركين، وتهديد شديد لهم. يتجه القرآن فى آخر سورة الطور لمواساة الرسول ﷺ، على ما لاقاه من قومه فى مكة، وفى الهجرة، وفى المدينة،

فيقول: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ... اصبر على قضاء الله، وعلى ما كلفك به من أمر الرسالة، وتبعاتها من التبليغ والصبر والاحتمال.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ...

فإنك فى رعايتنا ومعيتنا وتوفيقنا، وألطافنا وحناننا، وفضلنا ورؤيتنا، لما أصابك من أذى المشركين، وتدبيرنا لحفظك ورعايتك، وإعلاء شأنك، وحفظ الكتاب الخالد، والدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية لتكون خير أمة أخرجت للناس.

جاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ...

ويا له من تعبير، ويا له من تصوير، ويا له من تقدير، إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان، هذه المرتبة التي يصوّرها هذا التعبير الفريد فى القرآن كلّه، حتى بين التعبيرات المشابهة.

لقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾. (طه: ١٣)

وقال له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾. (طه: ٣٩)

وقال له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. (طه: ٤١)

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قال لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ...

وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص، وهو يلقى ظلًا فريدًا أرق وأشفّ من كل ظلّ، ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش فى هذه الظلال. أ. هـ.

وقد عقد الإمام الآلوسى فى تفسيره مقارنة بين قول الله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾. بالإفراد، وقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. بصيغة الجمع للدلالة على المبالغة فى الحفظ، كأن معه من الله تعالى حفّاظا يكلؤونه بأعينهم، أى: أنت بمرأى منا، وتحت رعايتنا وحمايتنا وحفظنا.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

أى: عندما تقوم من مجلسك، أو عندما تقوم من نومك فى ظلام الليل، أو عند الفجر.

وقد ورد ما يؤيد ذلك فى السنّة المطهرة، فقد أخرج أبو داود، والنسائى، والحاكم، وابن مردويه، وابن أبى شيبة، عن أبى برزة الأسلمى، قال: كان رسول الله ﷺ بآخر عمره إذا قام من المجلس يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك،

أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون فى المجلس» (١٧).

وروى أن جبريل علّم النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

وقيل: المراد سبح بحمد ربك إذا قمت من منامك، لتكون متفتحا لعملك بذكر الله.

روى البخارى، ومسلم، عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة فى جوف الليل: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض وما فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ربّ السماوات والأرض ومن فيهن، وأنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنّة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيّون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفرلى ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدّم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك» (١٨).

وعن ابن عباس، أن النبى ﷺ كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه، ثم قرأ العشر آيات الأواخر من سورة آل عمران (١٩).

٤٩ - وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ .

أى: اذكره أثناء الليل، وخصّ الليل بالذات لأن القيام فيه أشق على النفس.

وقيل: المراد بقوله تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ... أى: صل لله صلاة الليل، وكان قيام الليل فريضة على النبى ﷺ. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً. (المزمل: ١، ٢)

وقال سبحانه وتعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء: ٧٩)

وقد مدح الله المؤمنين والمتقين بقيام الليل، فقال سبحانه وتعالى: تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة: ١٦، ١٧)

وقال عز شأنه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . (الذاريات: ١٥- ١٩)

وقيل: المراد بتسبيح الله بالليل صلاتا المغرب والعشاء.

والمراد بقوله تعالى: وَإِدْبَارَ النُّجُومِ . أى: سبح الله وصلِّ له عند غياب النجوم، وذهاب ضَوْئها، إذا طلع الفجر الثانى، وهو البياض المنشق من سواد الليل، والمراد به صلاة ركعتين قبل الفجر.

وهذا مروى عن كثير من الصحابة، كما أنه مأثور عن كثير من التابعين.

وعن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال له: «يا بن عباس، ركعتان قبل الفجر، إدبار النجوم، وركعتان بعد المغرب، أدبار السجود» [٢٠].

وفى صحيح مسلم، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل، أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح. [٢١].

وعن عائشة أيضًا أن النبى ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» [٢٢].

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (الطور) ظهر يوم الخميس ٣٠ من جمادى الآخرة ١٤٢١هـ، الموافق ٢٨ / ٩ / ٢٠٠٠ .

★ ★ ★



تفسير سورة النجم

أهداف سورة النجم

سورة النجم مكية ، وآياتها ٦٢ آية ، نزلت بعد سورة الإخلاص

وتتميز سورة النجم بقصر الفواصل ، والتنغيم الموسيقى بين فقراتها وكلماتها ، فهى منظومة علوية إلهية ، وتشتمل سورة النجم على الآتى :

١ – تكريم الرسول ﷺ :

فى مطلع السورة نعيش لحظات مع قلب النبى محمد ﷺ ، مكشوفة عنه الحجب مزاحة عنه الأستار، يتلقى من الملأ الأعلى ، يسمع ويرى ويحفظ ما وعى، وهى لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ، حين عرج به فى رحاب الملأ الأعلى .

أقسم الله بالثريا إذا سقطت عند الفجر أن محمدا راشد غير ضال ، مهتدٍ غير غاوٍ ، مخلص غير مغرض، مُبلّغ عن الحق بالحق غير واهم ولا مفترٍ ولا مبتدع ، ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة ، إن هو إلا وحى يوحى ، وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقا أمينا .

وقد رأى النبى ﷺ جبريل مرتين على صورته التى خُلق عليها :

الأولى : عند غار حراء ، وكان ذلك فى مبدأ الوحى حين رآه النبى يسد الأفق بخلقه الهائل ، ثم دنا منه فتدلى نازلا مقتربا إليه ، فكان أقرب ما يكون منه على بعد ما بين القوسين أو أدنى ، وهو تعبير عن منتهى القرب ، فأوحى إلى عبد اللّه ما أوحى ، بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

والثانية : كانت ليلةَ الإسراء والمعراج ، فقد دنا منه جبريل وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى ، عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ . أى : شجرة ينتهى إليها علم الخلائق ، أو انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ حيث وقف جبريل وصعد محمد ﷺ درجةً أخرى أقرب إلى عرش ربه .

٢ – أوهام المشركين :

تتحدث الآيات (١٩ – ٢٨) عن آلهة المشركين المدعاة ، اللات والعزى ومناة ، وعن أوهامهم عن الملائكة وأساطيرهم حول بنوتها للّه ، واعتمادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى ما دعاهم عن تثبت وروية ويقين .

٣ – الإعراض عن الملحدين :

أما المقطع الثالث من السورة فيشمل الآيات (٢٩ – ٣٢) ، ويوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يعرض عنهم ، وأن يهمل شأنهم ، وأن يدع أمرهم لله الذى يَعْلَم المسىء والمحسن ويجزى المهدى والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحدا ، ويتجاوز عن الذنوب التى لا يصرُّ عليها فاعلوها ، وهو الخبير بالنّوايا والطوايا لأنه خالقُ البشر ، المطلع على حقيقة أطوار حياتهم جميعا .

الصغائر من الذنوب

والصغائر هى ما دون الفاحشة ، وهى القُبلة واللمسة والمباشرة والنظرة وغيرها ، فإذا التقى الختانان وتوارت الحشفة فقد وجب الغسل ، وهذه هى الفاحشة .

روى البخارى ، ومسلم أن رسول اللّه ﷺ قال : «إن اللّه تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». [٢٣] .

وروى ابن جرير أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللمم . وكذا قال مسروق والشعبى .

ويرى فريق من العلماء أن اللمم هو الإلمام بالذنوب ثم التوبة منها ، فصاحب اللمم يقع فى الكبائر أو يرتكب الآثام غير مُصرٍّ عليها ثم يندم ويتوب من قريب .

قال ابن جرير : عن أبى هريرة رضى اللّه عنه – أراه رفعه – فى : ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ... (النجم : ٣٢) . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، قال : فذلك الإلمام .

وروى ذلك موقوفا على الحسن .

وهذا التفسير يفتح باب التوبة أمام الجميع حتى مرتكب الكبيرة لا ييأس ، فإذا صدق فى توبته وأخلص فى نيته ، وأكد عزمه على التوبة النصوح فإن أمامه رحمة اللّه الواسعة التى يشمل بها التائبين ، ويستأنس لذلك بما فى الآية من المغفرة :

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ . (النجم : ٣٢) .

والآية كما نرى تفتح باب الرجاء، وتدل الناس على عظيم فضل اللّه، فهو خلقهم وهو أعلم بهم، وحين يذنبون لا يغلق باب الرحمة فى وجوههم بل يفتح أبواب القبول للتائبين ، ويغفر للمستغفرين ، قال تعالى

قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣) .

وفى الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، حتى يطلع الفجر». (٢٤) .

٤ – حقائق العقيدة :

وفى الآيات الأخيرة من السورة (٣٣ – ٦٢) تعود الفواصل القصيرة والتنغيم الكامل فى أسلوب بسيط، وإيقاع يسير ، وتقرر الآيات الحقائق الأساسية للعقيدة كما هى ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى، وتُعرف البشر بخالقهم ، فآثاره واضحة أمام الناس فهو الخالق الرازق صاحب الطول والإنعام ، ومنه المبدأ وإليه المنتهى ، وهو الذى أهلك المكذبين من عاد وثمود وقوم نوح ، ولكنكم يا أهل مكة تضحكون وتسخرون ، وتسترسلون فى غيكم وعنادكم ، وأولى بكم أن تسجدوا للّه وأن تعبدوه ، وأن تقبلوا على دينه مقرين للّه بالعبودية ، ولمحمد بالرسالة .

فى فضل سورة النجم

أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، عن ابن مسعود قال : أول سورة أُنزلت فيها سجدة: وَٱلنَّجْمِ ، فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد الناس كلّهم ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا ، وهو أميّة بن خلف . (٢٥) .

★ ★ ★

إثبات النبوّة وظاهرة الوحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ
﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ
﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ
الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

هـــوى : سقط وغرب ، أو نزل .

مــا ضــلّ : ما حاد عن الطريق المستقيم .

صــاحــبــكــم : محمد ﷺ .

ومــا غــوى : ما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا لقريش .

وما ينطق عن الهوى : ما يتكلم بالباطل .

شــديــد الــقــوى : جبريل عليه السلام .

ذو مِــــرّة : ذو حصافة عقل وقوة عارضة ، من قولهم : أمْرَرْتُ الحبل ، أى : أحكمت فتله .

فــاســتــوى : فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها ، عند حراء فى مبدأ النبوة .

وهو بالأفق الأعلى : بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر .

دنــــا : قرب .

فتدلى : امتد من أعلى إلى أسفل فزاد قربه ، من قولهم : تدلت الثمرة .

قاب قوسين : القاب : ما بين المقبض وطرف القوس ، والقوس آلة على هيئة الهلال ترمى بها السهام ، أى : مقدار قوسين عربيتين ، والعرب تقدّر الأطوال بالقوس والرمح وبالذراع والباع ، وبالخطوة والشبر والإصبع .

أو أدنى : أو أقرب من ذلك .

الفؤاد : فؤاد محمد ﷺ .

ما رأى : ما رآه ببصره .

أفتمارونه : من المراء ، وهو الملاحاة والمجادلة ، أى أفتُجادلونه .

نزلة أخرى : مرة أخرى من النزول .

سدرة المنتهى : شجرة نبق فى السماء ، إليها ينتهى علم الملائكة .

جنة المأوى : الجنة التى يأوى إليها المتقون .

ما زاغ البصر : ما عدل عن رؤية العجائب التى أُمر برؤيتها ، وتمكّن منها ، وما مال يمينا ولا شمالا .

وما طغى : ما جاوز ما أُمر به .

آيات ربه الكبرى : عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

تمهيد :

هذه آيات بينات يقسم فيها الحق سبحانه وتعالى بالنجم عندما يهوى وينزل مسرعا ، من جهة السماء إلى جهة الأرض ، والغالب أنه هو نجم الشِّعرى الذى قال القرآن عنه : وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ . (النجم : ٤٩) . وقيل : هو نجم الثريا ، وقيل : هو أىّ نجم يهوى ، كما يهوى جبريل من السماء على محمد ﷺ بالوحى ، وجواب القسم : مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . فمحمد ﷺ راشدٌ غير ضال ، عاقل وبعيد عن الغواية ، وهو ينطق بالوحى والصدق ، ولا ينطق بالشعر ولا بالهوى ، والذى ينطق به هو الوحى الإلهى تلقّاه عن مَلَكٍ شديد القُوى حسًّا ومعنًى ، وهو جبريل عليه السلام صاحب العقل الذكىّ ، والروح القوية، والبديهة الحاضرة .

ولقد رآه النبى ﷺ على صورته الحقيقية مرتين :

الأولى : فى بدء الرسالة عند غار حراء ، والثانية : فى ليلة الإسراء والمعراج .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ – وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ.

يقسم الله تعالى بالنَّجم الذى يُهتدى به فى ظلمات البر والبحر .

وللنجوم فوائد ثلاث :

(أ) زينة للسماء .

(ب) رجوم للشياطين .

(جـ) هداية للسائرين .

والنجوم عالم كبير متحرك ، له مسارات منتظمة لا تصطدم ببعضها ، بل تسير بحكمة الله وقدرته الذى يمسك بنظام هذا الكون .

قال تعالى : **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** . (الواقعة : ٧٥ – ٨٠) .

يقسم الله بالنجوم عند إدبارها آخر الليل ، أو بالنجم الذى يهوى شهابا ثاقبا فيقتل الشياطين أو يخبلها .

وكانت الشياطين ترصّ بعضها فوق بعض ، حتى يكون آخر شيطان يستطيع أن يتسمَّع إلى كلام الملائكة ، فيسترق السمع ، ويخبر به الكهَّان ، فيكذب الكاهن مع هذا الأمر مائة كذبة ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ شُدَّت الحراسة على السماء ، فمن حاول استماع الغَيْب أصابه شهاب ثاقب (نجم يهوى) فيقتله أو يخبله، فلما أخْبرت الجنّ رئيسها بذلك ، قال لهم : انطلقوا فى الأرض فانظروا ما حدث فيها ، فانطلقت طائفةٌ إلى مكة ، فسمعت رسول الله ﷺ قائما ببطن نخلة يقرأ القرآن ، وقد وردت هذه المعانى فى صدر سورة الجن، وفى حديث نبوى شريف بالجامع الصحيح للإمام البخارى .

وفى أول سورة الجن يقول تعالى : **قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا** . (الجن : ١ ، ٢) .

وفى الآيتين (٨ ، ٩) من سورة الجن يقول الله تعالى : **وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا** . (الجن : ٨ ، ٩) .

عود إلى التفسير

أقسم الله تعالى بالنجم الذى يهوى شهابا ثاقبا ، وسهما مصيبا يقتل الجنّى أو يخبله ، أو أقسم بالنجوم عند إدبارها فى آخر الليل ، أو أقسم بنجم الشعرى ، وكان بعض العرب يعبده ، وكان قدماء المصريين يوقّتون فيضان النيل ، بعبور الشّعرى بالفلك الأعلى ، ويرصدونه من أجل ذلك ، ويرقبون حركاته، وللشّعرى شأن فى أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء .

وقيل : أقسم الله بالثّريا ، وقيل : أقسم بجنس النّجم الذى له هذه الصفات الجليلة ، والحركة المنتظمة.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . ما بعُد محمد ﷺ عن الحقّ ، وما غاب عن الهدى .

وَمَا غَوَىٰ . وما خاب ولا انخرط فى سلك الجهال الضالين، بل هو راشد مهتد ، يحمل النّور والهدى ، كما يحمل النجم الضوء للسّارين ، وإن جبريل لينزل عليه فى سرعة النجم إذا هوى.

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إن كلامه وحديثه وأقواله لا تصدر عن هوىً وغرض .

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

إن ما ينطق به محمد ﷺ هو وحى السماء ، هو القرآن الكريم الذى ينقله جبريل عن الله عز وجل ، ثم يتلقاه النبى ﷺ عن جبريل بواسطة الوحى .

وقد قال ﷺ لأحَدِ أصحابه ، حيث كان يرغب فى كتابة أحاديث النبى ﷺ : «اكْتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منّى إلا الحق» .

٥ ، ٦ ، ٧ – عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ .

جبريل أمين السماء يأتى إلى النبى ﷺ فى مثل صلصلة الجرس ، وأحيانا يأتيه الوحى مثل دوىّ النحل، وهى حالة غيبية علوية ، يغيب فيها النبى ﷺ عمّن حوله ، ويتحوّل بكل حواسه وثقله الروحى إلى تلقى الوحى من جبريل ، وجبريل ملاك أمين ، فيفصم جبريل عن النبى ﷺ وقد وعى ما يقوله من أمر الوحى.

قالت عائشة : ولقد رأيت النبى ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، وإن جبينه ليتفصّد عرقا.[٢٦]

ومعنى الآيات :

علّم محمداً مَلَكٌ شديد القوى هو جبريل عليه السلام ، شديد القوى العلمية والعملية ، وهو ذو قوة وشدّة فى الخلق .

ومعنى ذو مرّة : ذو حصافة فى العقل ، ومتانة فى الرأى ، وهو أمين أىّ أمين ، ذو جدارة وهمة بالغة، فى تنفيذ المهامّ المكلّف بها .

وقد رآه النبى ﷺ على صورته الحقيقية ، فى الأفق الأعلى ، أى فى الجهة العليا من السماء ، وهى أفق الشمس ، فسدَّ الأفق عندما جاء بالوحى إلى النبى ﷺ أوّل ما جاء .

قال الله تعالى: إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ . (التكوير: ١٩ – ٢٣) .

وقال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ . (الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥) .

٨ ، ٩ – ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ .

ثم اقترب جبريل من النبى ﷺ ، وجعل يدنو منه ويتدلّى ، أى : يزيد فى القرب والنزول ، حتى كان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ من المسافة مقدار قوسين ، أو أقل من قوسين وأقرب من ذلك ، على تقديركم ومعاييركم ، وهذا كناية عن القرب .

ويصح أن يكون المعنى : بل هو أدنى .

وكل ذلك يعبّر عن القرب الحسىّ والمعنوى ، والشوق والتقارب بين جبريل عليه السلام ومحمد ﷺ.

١٠ – فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ .

فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ الذى أوحاه إليه من عند الله سبحانه وتعالى ، ولم يبيِّن سبحانه وتعالى الموحَى به وذلك لتفخيمه وتعظيمه ، أى أوحى إليه أمرًا عظيما.

وقيل : المعنى : فأوحى الله تعالى إلى جبريل ما أوحى إلى نبيه محمد ﷺ .

١١ – مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ .

أى : ما كذب قلب محمد ﷺ وفؤاده ويقينه ما رآه بعينيه ، من رؤية جبريل على صورته الحقيقية ، لقد تثبَّت واستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحى ، ورسول ربّه إليه ليعلّمه ويكلّفه تبليغ ما يعلم.

١٢ - أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ .

أفتجادلونه وتكذّبونه وتتهمونه مرة بالسحر ومرة بالشعر ومرة بالكهانة ، ومرة بكتابة أساطير الأولين ، ومرة بالتّخيُّل والجنون .

وهو قد رأى جبريل واقترب منه ، وتيقن أنه جبريل حامل الوحى إلى محمد ﷺ رسول الله ، فما كان ينبغى لكم تكذيبه ولا مجادلته ، إنه نبى الله حقًا ، أوحى إليه مَلَك حقيقى ، وأنزل الله عليه الوحى حقًا .

قال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ . (الشعراء : ١٩٣ - ١٩٦) .

١٣ - وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ .

ولقد رأى النبى ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج .

١٤ - عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ .

وسدرة المنتهى : شجرة نبق عن يمين العرش ، فى السماء السابعة ، ينتهى إليها علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله .

أو أنّ رحلة جبريل قد انتهت عندها ، ثم تقدم النبى ﷺ خطوات أخرى خاصة به .

أو أن رحلة الإسراء والمعراج قد انتهت عندها .

وكل ذلك غَيْبٌ لا يعلمه إلا عالم الغيب ، ونحن نكتفى بما ورد فى القرآن الكريم والسنّة المطهرة الصحيحة ، ونفوّض حقيقة المراد إلى الله عز وجل .

وقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة، إليها ينتهى ما يعرج بها من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها ... [٢٧]

وروى مسلم ، عن أنس أن النبى ﷺ قال : «لما رُفعتُ إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، نبقها مثل قلال هجر ، وورقها مثل آذان الفيلة...» [٢٨].

١٥ - عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ .

أى : الجنة التى تأوى إليها الملائكة ، وأرواح الشهداء والمتقين والمؤمنين .

١٦ – إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ .

أى : تلك السدرة التى يحيط بها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ما يحيط ، مما لا يحصره وصف ولا عدّ ، وهذا فى رأى الأكثرين يشعر بالتعظيم والتكثير .

وقيل : غشيتها الملائكة لتنظر إلى النبى محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ، وقيل : تغشاها أنوار الله، فما تستطيع العين أن تنظر إليها، أو تنعتها من حسنها .

١٧ – مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ .

زَاغَ : نظر يمينا وشمالاً ، وطَغَىٰ : جاوز الحدّ ، أى : ما مال بصر النبى ﷺ يمينا ولا شمالا ، وما تجاوز الحدّ ، وما تطلع إلى رؤية شىء لم يؤذن له برؤيته ، بل كان فى سمت المتقين ، وأدب المرسلين ، ويقين الصدِّيقين ، ورضا المحبين ، فانطلق فى طريقه قانعا بما أذن له به ربّه من التكريم والتعظيم والفضل العميم .

حيث رأى جبريل على صورته الحقيقية، وسائر عجائب الملكوت ، وهذا كقوله تعالى : لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ... (الإسراء : ١) .

وقد رأى ما تتحيَّر العقول فى إدراكه ، كما قال القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو	رأى غيره ما قد رآه لتاها

١٨ – لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ .

رأى من آيات الله تعالى الكبرى ما يجلّ عنه الحصر والاستقصاء ، كان الإسراء رحلة أرضية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه الله آيات بينات .

وقد روى البخارى أن النبى ﷺ صلى فى بيت المقدس إماما بالأنبياء ، وأخذت له البيعة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ . (آل عمران : ٨١).

كما أثبت البخارى أن النبى ﷺ صعد به إلى السماوات العلى ، واستقبله من كل سماء مقرَّبوها :

فى السماء الأولى : آدم .

وفى السماء الثانية : يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة .

وفى السماء الثالثة : يوسف ، وقد أعطى شطر الحسن .

وفى السماء الرابعة : إدريس ، وقد رفعه الله مكانا عليًا .

وفى السماء الخامسة : هارون .

وفى السماء السادسة : موسى .

وفى السماء السابعة : إبراهيم أبو الأنبياء ، على كرسى من نور ، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، فقال : يا محمد ، بلغ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة قيعان ، وأنها طيبة التربة ، وغراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان كل رسول يقول للنبى ﷺ مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، وعند السماء السابعة تخلّف جبريل وقال : وما منّا إلا له مقام معلوم .

ثم رأى النبى ﷺ من آيات ربه الكبرى ، رأى سدرة المنتهى، ورأى الجنة عند سدرة المنتهى ، ورأى جبريل على صورته الحقيقية ، ورأى ما رأى مما لا يحيط به الوصف أو الحصر ، حيث أراد الله تكريمه ، فأراه الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، كلهم يؤمنون به ويصدقونه ، وكان الإسراء والمعراج فى أعقاب رحلة النبى ﷺ إلى الطائف ، حيث قابله أهلها مقابلة سيئة، وآذوه ورموه بالحجارة ، واشتكى النبى ﷺ إلى ربّه تكذيب أهل مكة ، ثم تكذيب أهل الطائف ، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربّى ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى ، أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحلّ على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، عافيتك هى أوسع لى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» . [٢٩] .

وفى أعقاب رحلة الطائف عاد النبى ﷺ إلى مكة، ولم يستطع دخولها إلا فى جوار المطعم بن عدىّ، وبينما هو نائم فى الحجر أو فى بيت أم هانئ تمّ الإسراء والمعراج ، عجيبتان ربانيتان .

قال تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . (الإسراء : ١) .

أى أن الله تعالى أسرى برسوله ﷺ ليلا من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام ، وحوله الثمار والأشجار ، والحرم ومقابر المرسلين ، وآثار الأنبياء ، ليطلع النبى ﷺ على هذه الآيات ، تكريما له

ومؤازرة له ، بعد وفاة عمه أبى طالب ، ووفاة زوجه خديجة بنت خويلد ، وتكالب الكافرين على حربه وإيذائه، ثم تمّ له المعراج إلى السماوات العلى ، حيث رأى من آيات ربّه الكبرى .

ويرى جمهور العلماء :

أن الإسراء كان بالروح والجسد ، يقظة لا مناما .

والراجح أيضا أن المعراج كان بالروح والجسد معا ، لأن الرؤيا المنامية تكون لكثير من الناس ، أما الإسراء فقد ذكره الله مشيرا إلى قدرته تعالى وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ، حيث جعل رسوله محمدًا ﷺ ساريا بالليل مخترقا الحجب ، كما ذكر القرآن المعراج فى صدر سورة النجم ، والراجح أن المعراج كان بالروح والجسد معا .

ويرى بعض المفسرين أن الإسراء كان بالروح والجسد ، وأن المعراج كان بالروح فقط .

وقد رجح الإمام الطبرى شيخ المفسرين ، وغيره من المفسرين أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد ، يقظة لا مناما .

فلو كان بالروح ما كذبته قريش ، ولا تعجّبوا من أمره ، ولما ارتدّ بعض ضعاف الإيمان .

ولأن قوله تعالى : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ... يفيد أن العبد مجموع الجسد والروح .

وكذلك قوله تعالى فى المعراج : لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ .

يفيد أنه رأى رؤية حقيقية عالم الملكوت ، عالم السماء والأنبياء والمرسلين والملائكة ، والتكريم الإلهى ، وسدرة المنتهى ، وجنة المأوى ، وآيات ربّه الكبرى .

قال شوقى :

يا أيها المُسرى به شرفًا إلى ... ما لا تنالُ الشّمس والجوزاءُ
يتساءلون وأنت أطهر هيكل ... بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما ... نور وروحانية وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومنةٌ ... والله يفعل ما يرى ويشاء
تغشى الغيوب من العوالم كلما ... طويت سماء قلدتك سماء
يا من له الأخلاقُ ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
والحسن من كرم الوجوه وخيره ... ما أوتى القوّاد والزعماء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرًا ومقدرًا لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندىّ وللقلوب بكاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر وإذا جريت فإنك النكباء
يا أيها الأُمىّ حسبك رتبة فى العلم أن دانت لك العلماء
يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه ما له شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاء
تروى وتسقى الصالحين ثوابهم والصالحات ذخائر وجزاء

آراء فى الموضوع

رأى بعض المفسرين : أن الآيات التى وردت فى صدر سورة النجم ، تشير إلى رؤية محمد ﷺ لله سبحانه وتعالى .

وقال بعضهم : الضمائر فى (دنا) و (تدلَّى) و (كان) و (أوحى) وكذا فى (رآه) لله عز وجل .

ويشهد لهذا ما أخرجه البخارى ، عن أنس قال : ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبَّار رب العزة ، فتدلَّى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة .[٣٠] .

والراجح أن النبى ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين ، الأولى عند البعثة ، والثانية ليلة الإسراء والمعراج .

بدليل ما أخرجه مسلم ، عن أبى ذر أنَّه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ فقال: «رأيت نورًا»[٣١] . وانظر تفسير الآلوسى والطبرى لصدر سورة النجم .

★ ★ ★

المُلك لله وحده

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ
﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

اللات : صنم لثقيف ، وأصل ذلك أن رجلا كان يلتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ويُظنّ أن (اللات) مؤنث لفظ الجلالة (الله) سبحانه وتعالى .

العزى : شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف ، وكانت قريش تعظمها، كما قال أبو سفيان يوم أُحُد : (لنا العزى ولا عزّى لكم) ، فقال رسول الله ﷺ : «الله مولانا ولا مولى لكم» ، ويظنّ أن العزّى مؤنث العزيز .

مناة : صخرة بالمشلل ، عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها ، ويهلّون منها للحج إلى الكعبة ، وكانت دماء النسائك تمنى عندها ، أى : تراق .

الأخرى : المتأخرة الوضيعة القدر .

ضيزى : جائرة غير عادلة ، ناقصة غير تامة .

إن هى إلا أسماء : ما اللات والعزى ومناة إلا أسماء لا حقيقة لها ، وليست آلهة .

ما أنزل الله بها من سلطان : لم ينزل الله تعالى وحيًا يأذن فى عبادتها .

إن يتبعون إلا الظن : ما يتبع المشركون فى عبادة أصنامهم إلا الظن والخرص والكذب .

وما تهوى الأنفس : وما تهواه أنفسهم ، وتميل إليه شهواتهم .

الهدى : هو هداية القرآن ، ورسالة محمد ﷺ .

ما تمنّى : ما تشهّى لنفسه من أن الأصنام تشفع له ، أى ليس له كل ما يتمنّاه ، والمراد نفى طمعهم فى شفاعة الآلهة المزعومة.

وكم من ملك : وكثير من الملائكة .

لا تغنى شفاعتهم : لا تنفع شفاعتهم شيئا .

لمن يشاء ويرضى : لمن يشاء الله أن يشفع له الملائكة، ويراه أهلاً للشفاعة ، فالشفاعة تحتاج إلى أمرين : الإذن من الله ، والرضا عن المشفوع له .

تمهيد :

فى بداية السورة حديث عن رسالة محمد ﷺ ، وبيان صدقه وصدق جبريل الروح الأمين ، وهنا يناقش القرآنُ المشركين فى عبادتهم أصنامًا لا تضرّ ولا تنفع ، ولا تشفع لمن عبدها ، ولعل هذه الآلهة المدعاة كانت رموزا للملائكة ، أو لعباد صالحين ، وبعد فترة عبدوا هذه الرموز ، ونسى أصل الأسطورة ، فلم يعد يذكرها إلا المثقفون .

لقد جعلوا الملائكة إناثا ، وزعموا أن لها شفاعة ، وقد فنّد القرآن زعمهم الباطل ، فكيف يجعلون لأنفسهم الذكور ، ويجعلون لله ما يكرهون من الإناث ، إنها لقسمة جائرة ، ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ . غير عادلة ، ولم ينزل وحى من السماء أو شريعة تثبت أن اللات أو العزى أو مناة ، أو غيرها من الأصنام ، لها قدرة الآلهة أو أنها تستحق العبادة ، لكنهم يعتمدون فى ذلك على الظنّ وهوى النفس ، والعقيدة الصادقة تعتمد على اليقين الجازم ، وقد جاءهم محمد ﷺ بهذه العقيدة وفيها الهدى .

إن الشفاعة بيد الله ، وكثير من الملائكة فى السماوات لا يملكون الشفاعة إلا لمن أذن الله له بالشفاعة ، ورضى له بها ، والمراد أن عبادتهم للأصنام أو للملائكة بائرة ضائعة .

التفسير :

١٩ ، ٢٠ - ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ .

هذه أصنام كانت تعظمها العرب فى الجاهلية ، وهنا يقرعهم القرآن ويوبخهم على عبادتهم لها ، وهى لا تملك أن تخلق مثل هذا الكون ، ولا تملك أن تختار رسولا مثل محمد ، ولا أن تختار ملاكا مثل جبريل ينزل بالوحى ، فلماذا يتركون الله العظيم القادر الخالق الرازق ، ويتجهون بعبادتهم إلى هذه الأصنام ، ومن هذه الأصنام :

(أ) ﴿ٱللَّـٰتَ﴾ : وكانت صخرة بيضاء منقوشًا عليها نقوش ، وهى داخل بيت بالطائف ، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وقيل : إن اللات رمز لرجل كان يلتُّ السويق للحاج على حجر ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالا له ، وسموه بذلك ، وبقيت اللات إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

(ب) ٱلْعُزَّىٰ : وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف لغطفان ، وكانت قريش تعظمها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم» [٣٢].

وقد ذهب خالد بن الوليد إلى العزّى فهدمها ، وهو يقول :

يا عـزّ كفـرانك لا سبحـانك إنـي رأيت الـلـه قـد أهـانك

(جـ) مَنَوٰةَ : وكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ، ويهلّون منها للحج إلى الكعبة ، وتذبح عندها القرابين ، وسميت (مناة) لأن الدماء كانت تمنى عندها ، أي : تراق .

وقد بعث رسول ﷺ على بن أبي طالب فهدمها عام الفتح .

«وكانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرى ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التى نصّت عليها الآية ، وإنما أفردت هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها» [٣٣].

قال ابن اسحاق :

كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحُجّاب. تطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها .

وخلاصة المعنى :

أخبرونى يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التى تعبدونها – اللات والعزّى ومناة – هل لها من القدرة والعظمة والخلق والإبداع مثل الله حتى عبدتموها ، وطفتم حولها ، وزعمتم أنها آلهة ؟

٢١ – أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ .

أي : أتجعلون لله ولدًا وهو منزه عن الصاحبة والولد ؟ وتختارون أن يكون ولده أنثى وأنتم تكرهون الأنثى ؟

٢٢ – تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ .

إنها قسمة جائرة ظالمة ، أن يكون لكم معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر ، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى .

قال الإمام فخر الدين الرازى :

إنهم ما قالوا : لنا البنون وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات ، وكانوا يكرهونهنّ ، كما قال تعالى : **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُون** ... (النحل : ٦٢) .

فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة .

٢٣ - إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ .

ما هذه الأوثان والأصنام إلا أسماء مجردة عن المعانى ، ليس فيها من الألوهية إلاّ الاسم المجرد، فهى لا تخلق ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تجيب ، ولكن آباءكم عبدوها فسرتم خلفهم بدون عقل أو فكر أو تأمل، ولم ينزل وحى أو دليل من السماء يؤيد صحة عبادتكم لها ، وإنما أنتم تسيرون خلف الظنون والأوهام وهوى نفوسكم فى عبادة هذه الجمادات الصمَّاء ، مع أن الهدى والرشاد قد جاء إليكم من الله تعالى على لسان رسوله محمد ﷺ .

قال ابن الجوزى : وفيه تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان .

وقال ابن كثير : ليس لهم مستند إلاّ حسن ظنّهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ، ولقد أرسل إليهم الرسول بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءهم به رسولهم ولا انقادوا له .

٢٤ - أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ .

أى : ليس للإنسان كل ما يشتهى ، حتى يطمع فى شفاعة الأوثان والأصنام ، فهناك حقائق ثابتة ، ركّزها الله فى هذا الكون توضح أن لهذا الكون البديع المنظم إلهًا واحدًا خالقًا ، بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، هذا الإله هو الذى يستحق العبادة، وهذا معنى (لا إله إلا الله) أى ليس هناك معبود بحق إلا الله ، أما عبادة الأصنام فهى خضوع للهوى والباطل والأمانى الكاذبة ، وليس للإنسان ما تمناه بالباطل .

قال تعالى : **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا .**

(النساء : ١٢٣، ١٢٤)

لقد كان الكفار يتمنون أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، والنبوة منحة إلهية ، يختار الله لها أهل الكفاءة والسموّ الروحى والنفسى .

وفى سورة الكهف قصة رجلين ، كان أحدهما مؤمنا منصفا ، وكان الآخر كافراً شقيًا ومع هذا تمنى أن تكون الجنة له فى الآخرة ، وقال : وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . (الكهف : ٣٦) .

وقد أرسل الله على بستانه صاعقة أهلكته ، فأخذ يتحسر على ما أصابه ويقول :

يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا . (الكهف : ٤٢) .

٢٥ - فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ .

له سبحانه وحده ملك الآخرة ، حين ينادى جل جلاله : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦).

وله ملك الدنيا ، فهو خالق الأكوان ، ومسخر الليل والنهار ، وهو المعز المذل ، الرافع الخافض الباسط، المعطى المانع .

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .
(يس : ٨٢ ، ٨٣)

٢٦ - وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ .

كثير من الملائكة المقربين لا تنفع شفاعتهم شيئًا من النفع لأحد من عباده المذنبين ، إلا من بعد أن يأذن الله تعالى فى الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه ، كما قال سبحانه : مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وقال عز شأنه : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ... (سبأ : ٢٣) .

فإذا كان ذلك فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها المشركون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو سبحانه وتعالى لم يشرع عبادتها ، ولا أذن فيها ؟

لقد حاكمهم القرآن إلى العقل ، ودخل عليهم من كل باب ، وقدم إليهم الحجج والأدلة على أن هذه الأصنام لا تسمع ولا تجيب ولا تعقل ، ولا تنفع ولا تضر ، ولا يوجد دليل نقلى ولا عقلى على ألوهيتها ولا شفاعتها ، فالشفاعة لله وحده ، ولا يستطيع ملك مقرب أن يشفع فى أحد من المذنبين إلا بإذن الله ، وبعد أن يرضى عن المشفوع له .

وأجاز بعض المفسرين أن يكون معنى الآية ما يأتى :

وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاؤه منهم بالشفاعة ، ويراه أهلاً لها.

★ ★ ★

توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

تسمية الأنثى : بأن يقولوا : إنَّها بنات الله . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا .

إن يتبعون إلا الظن : ما يتبعون إلا مجرد التوهّم الباطل .

لا يغنى من الحق شيئا : إن الظن لا يفيد فى مجال الحقّ ، الذى هو حقيقة الشىء ، فإن الحق لا يدرك إلا بالعلم ، أى اليقين ، والظن لا اعتبار له فى المعارف الحقيقية أو اليقينيات .

فأعرض عمّن تولى : اترك ، ولا تهتمّ بمن أعرض عن القرآن وعن تذكيرنا .

ذلك مبلغهم من العلم : طلب الدنيا وأمرها نهاية علمهم ، فلا يتجاوزه علمهم لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة.

تمهيد :

بعد أن وبّخ الله المشركين على عبادة الأوثان فيما سبق ، وَبَّخهم هنا على تسمية الملائكة تسمية الإناث ، ولعل هذا سرّ تسمية الأصنام التى ترمز للملائكة بالمؤنث ، مثل : اللات والعزى ومناة .

ثم بيَّن أنهم فى توهم باطل ، لا حقيقة له ، وأمَرَ رسوله ﷺ بالإعراض عنهم ، وعدم الاهتمام بهم ، ولا ضير عليه فى ذلك بعد أن بلّغ رسالة ربّه .

التفسير :

٢٧ - إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ .

إن هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالقيامة ، والبعث والحشر والجزاء ، يزعمون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

والمراد أنهم يسمّون كل واحد من الملائكة أنثى ، لأنهم إذا جعلوا الكلّ بنات فقد جعلوا كل واحد بنتا، كما جاء فى قوله تعالى : وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ١٩) .

٢٨ - وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا .

ليس لديهم خبر صحيح أو علم يقينى بذلك ، فهذه من أمور الغيب ، وهى لا تُعلم إلا بنقل صحيح ، أو يقين صادق ، وهؤلاء لا يملكون دليلاً نقليا ، ولا دليلا عقليا على ذلك ، وإنما هو التوهم الباطل ، بما ورثوه عن آبائهم بدون بحث أو فكر أو يقين ، ومثل هذا الظن الباطل والتوهّم الخاطىء لا يغنى شيئا عن الحق ، فإن الحق لا يدرك إلا بالعلم الصحيح .

وهؤلاء لم يشهدوا خلق الملائكة ليعرفوا أنهم إناث ، وليس لديهم وحى منزل بذلك ، ولا علم يقينى به ، والظن لا يغنى عن الحق ، ولا يقوم مقامه .

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ».

٢٩ - فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا .

لا تأس على كفرهم وعنادهم ، وحسبك أنك بلغت رسالة الله إليهم ، ثم اتركهم وشأنهم ، لأنهم أعرضوا عن القرآن ، وصارت الدنيا أكبر همهم .

٣٠ - ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ .

أى : طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه من الإدراك والفهم ، والحرص على الدنيا الفانية والنعيم الزائل .

قال أبو السعود :

والمراد : النهى عن دعوة المُعْرِض عن كلام الله ، وعدم الاعتناء بشأنه ، فإن من أعرض عما ذكر وانهمك فى الدنيا ، بحيث صارت منتهى همته ، وقصارى سعيه ، لا تزيده الدعوة إلاّ عنادًا أو إصرارًا على الباطل .

روى الشيخان ، والإمام أحمد ، عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» .

وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ .

إن الله تعالى عالم بالضالّين ، الذين آثروا الدنيا على الآخرة ، وأهملوا وحى السماء ، وأعرضوا عن القرآن الحكيم ورسالة النبى الأمين ، وهو سبحانه عالم بالمهتدين الذين اختاروا الإسلام دينا، ومحمدًا ﷺ نبيًّا ورسولاً ، والقرآن هاديا وإماما ، وسوف يجازى كل فريق منهما بالجزاء الذى يستحقه ، فالمراد بالعلم هنا المعرفة والإحاطة ، والجزاء العادل ممن أحاط بكل شىء علما .

★ ★ ★

سعة رحمته تعالى

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) ﴾

المفردات :

الحسنى : المثوبة الحسنى ، والحسنى مؤنث الأحسن .

الذين يجتنبون : (الذين) خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم الذين يجتنبون ... ، والجملة بيان لمن اهتدى.

كبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ، وما كبر عقابه .

الفواحش : جمع فاحشة ، وهى ما فحش من الكبائر ، يقال : فحش يفحش فحشا ، أى : قبح أشد القبح، مثل : الزنا والسرقة والقتل .

إلا اللمم : إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره ، ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة.

فلا تزكوا أنفسكم : فلا تصفوها بالطهارة .

أجنّة : جمع جنين ، وهو الولد ما دام فى بطن أمّه

تمهيد :

الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وهو عادل فى حكمه وجزائه، وسيجازى المسىء بمثل إساءته، وسيجازى المحسنين بالحسنى .

والمحسنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب والفواحش، ويبتعدون عن الكبائر، مثل: السحر، واليمين الغموس ، وعقوق الوالدين ، والتولّى يوم الزحف ، والزنا ، والربا ، وشرب الخمر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

أما من ارتكب الصغائر ، مثل : النظرة والقبلة واللمسة ، ثم تاب منها ، أو ارتكب الكبيرة ثم تاب منها توبة حقيقية ، فإن الله يغفر له ، وهو أعلم بالإنسان وضعفه .

التفسير :

٣١ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

لله وحده ملك هذا الكون ، وله سبحانه كل ما فى السماوات والأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، ليس لأحد من ذلك شيء ، والمالك المتصرف العزيز المقتدر سيجازى المسيء بإساءته وعمله ، وسيجازى الذين أحسنوا بالجنة جزاء إحسانهم ، ثم ذكر سبحانه وتعالى صفات المتقين المحسنين :

٣٢ - ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ .

من سعة رحمة الله وفضله أن يمدح عباده المتقين، وأن يصفهم باجتناب كبائر الذنوب، مثل : السحر واليمين الغموس ، والتولّى يوم الزحف ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين ، وهم يبتعدون عن الفواحش - جمع فاحشة - وهى ما تناهى قبحها عقلا وشرعاً ، كالزنا والسرقة والقتل .

إلا ما قل وصغر من الذنوب .

قال القرطبى :

وهى الصغائر التى لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله ، كالقبلة والغمزة والنظرة .

وقال ابن كثير : اللمم : صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

وعن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ، عن النبى ﷺ : «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنّى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » [٣٤]. رواه الشيخان ، وأحمد .

وقال عبد الرحمن بن نافع : سألت أبا هريرة عن قول الله : إِلَّا ٱللَّمَمَ . فقال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان ، فقد وجب الغسل ، وهو الزنا .

وروى ابن جرير ، عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : إِلَّا ٱللَّمَمَ . قال : الذى يلم بالذنب ثم يدعه .

قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عبد لك ما ألمَّا ؟

وعن الحسن فى قول الله تعالى : ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ...

قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود [٣٥]. اهـ .

لقد فتح الله تعالى أبواب التوبة أمام التائبين ، وحث عباده على ذلك ، ودعاهم إلى التوبة فى كل وقت ، وبذلك يتخلص الإنسان من الإحباط والإثم ، والشعور بالدُّونية ، حين يتطهر ويصلى ركعتين بنية التوبة ، ويسأل الله تعالى أن يغفر له ، وأن يتوب عليه ، فيجيبه الغفور الرحيم .

قال تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣) .

وقال سبحانه وتعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

وهذه الآية الكريمة تتحدث عن فضل الله ورحمته ، فتقول : إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ... فرحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شىء ، ومغفرته تسع الذنوب كلَّها لمن تاب منها .

قال البيضاوى : ولعله عقَّب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين ، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى .

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ...

حيث خلق أبانا آدم من الأرض ، فقد خلقه من التراب ، واختلط التراب بالماء فصار طينا ، وترك الطين فترة حتى تغيَّر فأصبح حمأ مسنونا ، وبعد فترة أصبح كالفخّار ، فهى مراحل مرّ بها الإنسان .

وقال بعض المفسرين :

الإنسان مكون من النطفة ، وهى خلاصة الدم ، والدم خلاصة الغذاء ، والغذاء يأتى من الأرض .

وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ...

أى : وهو أعلم بكم وقت كونكم فى بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة بعضها يلى بعضا ، وهو سبحانه عليم بما فى الأرحام ، وما ينتظر الجنين من رزق ، وسعادة أو شقاوة .

والإله العليم ينبغى أن نعتمد عليه، وأن نتذكر نعماءه ، وأنه سبحانه يرى ويطّلع ، ويحاسب ويجازى.

فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ .

لا تمدحوا أنفسكم على سبيل الإعجاب ، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى ، فإن النفس خسيسة ، إذا مُدحَتْ اغترّت وتكبرّت .

أو الزموا الإخلاص وصدق المراقبة للّه ، والخوف من غضب الجبار ، ومن سوء الخاتمة ، فإن الله مطلع على عبيده ، وهو عليم بمن أخلص العمل واتقى ربّه فى السر والعلن .

والآية دعوة إلى التوبة، والمسارعة إلى رحمة الله وفضله ، وفيها دعوة إلى الإخلاص ، مع الخوف من الله ، والرجاء فى رحمته، واليقين بسعة علمه ومراقبته ، واطلاعه على الظاهر والباطن سبحانه وتعالى.

قال المفسرون :

نهى القرآن عن تزكية المرء نفسه وعن مدحها والثناء عليها ، أو ادعاء العصمة من الصغائر ، أو الطهارة من المعاصى ، لأن العاقبة مجهولة ، وعلينا أن نحمد الله على الطاعة ، وأن نحذر المعصية ، فالله هو العليم بمن اتقى المعاصى ، وعلينا ألا نمدح الآخرين فى وجوههم .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال: مدح رجل رجلاً عند النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «ويلك ، قطعت عنق صاحبك – مرارا – إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه ، ولا أزكّى على الله أحدا ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك ».[٣٦]

★ ★ ★

توبيخ من اعترف بالحق ثم أعرض عنه

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ
﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾
وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ
هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ
﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ
﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

تولى : أعرض عن اتباع الإسلام ، وعن الثبات على الحق .

وأكدى : قطع العطاء ، من قولهم : حفر فأكدى ، أى : بلغ إلى كدية ، أى صخرة تمنعه من إتمام العمل .

يُنَبأ : يُعلم ويخبر .

صحف موسى : التوراة .

صحف إبراهيم : ما نزل عليه من الحكم والشرائع .

وفّى : أتمّ ما أمر به على أبلغ وجه فى الوفاء .

ألا تزر وازرة وزر أخرى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى

يُرَى : يراه أهل القيامة تشريفًا للمحسن ، وتوبيخًا للمسيء .

يجزاه : يجزى سعيه، يقال: جزاه الله بعمله ، وجزاه على عمله ، وجزاه عمله ، لا فرق بينهم .

المنتهى : انتهاء الخلق ورجوعهم إلى الله تعالى .

تُمْنَى : تدفع فى الرّحم ، من قولهم : أمنى الرجل ومَنَى ، أى : صبّ المنىّ .

النشأة الأخرى : إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث .

أغنى وأقنى : أغنى من شاء ، وأفقر من شاء ، وأعطاه القنية ، وهى ما يبقى من المال .

الشعرى : هى ذلك النجم الوضاء ، الذى يقال له : مِرْزم الجوزاء ، وقد عبدته طائفة من العرب .

عادا الأولى : أُولَى القوم هلاكًا بعد قوم نوح ، وعادًا الأخرى من ولد عاد الأولى .

المؤتفكة : هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت بهم ، ومنه : الإفك، لأن فيه قلبًا للحق .

أهوى : أسقط فى الأرض .

غشاها : غطاها .

فبأى آلاء ربك تتمارى : فبأى نعم ربك تمترى وتشك ، والخطاب للإنسان .

سبب النزول :

روى أن الوليد بن المغيرة جلس عند النبى ﷺ ، وسمع وعظه ، فتأثر قلبه بما سمع وكاد يسلم ، وذهب إلى قومه فقال عن القرآن كلامًا جميلاً ، حيث قال : لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر ، فعيّره رجل من المشركين ، وقال : تركت دين آبائك ، فقال الوليد : إنى خشيتُ عذاب الله ، فَضَمِنَ له الرجل إن هو أعطاه شيئًا من ماله ورجع إلى شركه ، أن يتحمل عنه عذاب الله عز وجل ، فأعطاه بعض الذى ضمن له ، ثم بخل ومنعه الباقى ، فأنزل الله الآيات .

وقال مقاتل : كان الوليد قد مدح القرآن ، ثم أمسك ، فنزل : وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً . أى : من الخير بلسانه ، ثم قطع ذلك وأمسك عنه ، وقيل غير ذلك .

تمهيد :

تناقش الآيات أفكار المشركين ، وتدخل عليهم من كل باب ، وتعرض ما ورد فى التوراة على لسان موسى ، وما ورد فى صحف إبراهيم الذى وفّى ، من هذه القاعدة التى تقول : (لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى) .

فالإنسان يحاسب عن عمله ، ويكافأ عليه أو يجازى ، فالمسئولية فردية ، وكل فرد سيحاسب على عمله ، وسيحضر العمل يوم القيامة ، ويراه أهل المحشر ، ليزداد المؤمن سرورًا وفرحًا ، ويزداد الفاجر ذلا ومهانة .

التفسير :

٣٣ ، ٣٤، ٣٥ - أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰٓ * أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ .

هل شاهدت هذا النموذج من الناس ، الذى رقّ قلبه للإسلام ، وعظّم القرآن ومدحه ، ثم تولى عن الإسلام وأعرض عنه ، وأعطى بلسانه مدحًا للقرآن ، ثم منع ذلك المدح لكتاب الله ورفض الإسلام ، استجابة لتحريض صديق له من المشركين ، حرّضه على الكفر ، ووعده بأن يتحمل عنه العذاب يوم القيامة ، وأمر القيامة وشئونها غيب لا يعلمه إلا الله ، ولا يُعرف إلا بطريق الوحى ، فهل نزل عليه وحى يؤيد أن صاحبه سيتحمل عنه العذاب ؟ وهل عنده غيب من عند الله يفيد أن الله سيقبل أن يتحمل إنسان العذاب عن إنسان آخر ؟

٣٦، ٣٧ ، ٣٨ - أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .

أى : ألم يخبر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفّى بما عاهد الله عليه ، وأتمّ ما أمر به .

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .

أى : لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، فكل نفس اكتسبت إثمًا بكفر أو معصية فعليها وزرها ، لا يحمله عنها أحد ، كما قال تعالى : وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ... (فاطر : ١٨) .

قال ابن عباس :

كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، يأخذون الولى بالولى ، أى القريب بالقريب ، فى القتل والجراحة ، فيُقْتَل الرجل بذنب أبيه وابنه ، وأخيه وعمّه ، وخاله وابن عمه ، والزوجة بزوجها ، وزوجها بها ، وبعبده ، فبلّغهم إبراهيم عن الله تعالى : ألا تزر نفس وزر أخرى .

أى : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى .

قال تعالى : كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

أى : الإنسان مرتهن بعمله ، إن كان شرًّا عوقب عليه ، وإن كان خيرًا كوفئ عليه .

وفاء إبراهيم عليه السلام

ظهر ذلك جليًّا فى التزامه بتنفيذ جميع ما أمره به الله ، وترك ما نهاه الله عنه ، قال تعالى : وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (البقرة : ١٢٤) .

وإبراهيم عليه السلام قد وفّى عندما أمره الله بذبح ولده إسماعيل ، وقد مدحه الله بقوله : فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . (الصافات : ١٠٣ – ١٠٩) .

وروى ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمّى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفّى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ . (الروم : ١٧ – ١٩) .

وقال تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . (النحل : ١٢٣) .

وإنما خص القرآن ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، لأن المشركين كانوا يدَّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وكانت لا تزال بقية مما جاء به إبراهيم معروفة بينهم ، كما أن أهل الكتاب كانوا يدَّعون أنهم متبعون ما فى التوراة ، وصحفها قريبة العهد منهم .

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ – وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ .

أى : وجاء فى صحف إبراهيم وموسى ، عليهما السلام ، أن الإنسان لا يجنى إلاّ ثمرة ما عمل ، فهو لا يعاقب على ذنب ارتكبه غيره ، ولا يكافأ إلا على عمل قد قام به ، وسعى قد سعاه .

وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ .

أى : سيشاهد عمله يوم القيامة فى المحشر أمام الخلائق ، وفى ذلك سعادة للمؤمن وبشارة له ، وتعاسة للكافر وحزن بأعماله الفاسدة .

كقوله تعالى : وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة : ١٠٥) .

أى : فيجزيكم عليه أتم الجزاء .

ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ .

جاء فى هذه الصحف أيضًا : أن عمل الإنسان سيراه حاضرًا أمام عينيه يوم القيامة ، وسيجازى عليه الجزاء الأوفى ، أى يجزى على عمله الجزاء الأتمّ الأكمل ، فيلقى أوْفَى الجزاء وأكمله ، حيث يضاعف الله له الحسنة ، ويبلّغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها أو يعفو عنها .

٤٢ - وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ .

إليه سبحانه نهاية كل مخلوق ، حيث يكون حسابه مع عالم الغيب والشهادة ، وتلك فكرة الإسلام : إن الإنسان من أول حياته إلى آخرها يعلم أن النهاية والحساب والجزاء والثواب والعقاب سيكون أمام الله ، الحكم العدل ، سريع الحساب ، الذى لا يظلم مثقال ذرة .

قال تعالى : وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقيل : معنى : وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ .

أى : إننا نتفكر فى خلق الله ، ولا نتفكّر فى ذات الله ، فالله منزه عن الكم والكيف والطول والعرض، لا يحدّه مكان ، ولا يحويه زمان ، بل هو فوق المكان والزمان ، هو أول بلا ابتداء ، حيث كان الله ولا شيء معه ، وهو آخر بلا انتهاء ، فالخلائق تفنى كلها ، والله باقٍ لا يموت .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال سبحانه وتعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

فالله تعالى ليس جسما ولا حالا فى جسم ، ولا يشبه الحوادث ، وهو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وهو علة العلل ، يخلق ولا يُخلَق ، يجير ولا يجار عليه ، لا معقب لأمره ، ولا رادّ لقضائه .

قال تعالى : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ٣) .

وفى الحديث الذى رواه أصحاب السنن : «تفكروا فى مخلوقات الله ، ولا تتفكروا فى ذات الله ...»[٣٧].

وفى الصحيح : «يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته»[٣٨] .

٤٣ – وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ .

أى : خلق سبب الضحك والبكاء ، وهما مختلفان ، فهو سبحانه أضحك بعض عباده بما يبعث على فرحهم وسرورهم ، وأبكى بعض عباده بما يبعث على حزنهم وبكائهم .

أو المعنى :

أنه سبحانه أضحك وأبكى من الأمر الواحد ، صاحبه نفسه يضحك اليوم من الأمر ، ثم تواجهه عاقبته غدًا أو جرائره فإذا هو باكٍ ، يتمنى أن لم يكن فعل ، وأن لم يكن ضحك ، وكم من ضاحك فى الدنيا باكٍ فى الآخرة ، حيث لا ينفع البكاء ، وكم من فقير أعطاه الله الفرح والسرور والغبطة والحبور ، وكم من غنى مُنى بالخوف والحسرة ، والتردد والأحزان والبكاء ، فالسعادة والشقاء ، أو الضحك والبكاء ، وغيرها من المشاعر، مِنَحٌ موزعة لا تخضع لمقاييس البشر ، فكم من عاقل رزقه قليل ، وكم من جاهل رزقه كثير ، كما يقول الشاعر :

ومن الدليل على القضاء وحكمه		بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

٤٤ – وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا .

هو سبحانه خالق الموت والحياة ، هو باعث الروح فى الأحياء ، وهو سبحانه قابض الأرواح ، وهو سبحانه خالق الكفر الذى يشبه الموت ، وخالق الإيمان الذى يشبه الحياة ، وهو باعث الحياة فى الأمم بإيقاظ الهمم والعزائم ، وهو مميت الأمم بكفرها وعنادها وترفها وفسوقها ، الذى يجرها إلى الهلاك والموت ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

قال تعالى : **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ** ... (الروم : ٤٠) .

وقال عز شأنه : **ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ... (الملك : ٢) .

٤٥ ، ٤٦ – وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ .

إنه لأمر عجيب يتكرر كل يوم ، حين تنتقل النطفة من المنى الذى يمنى ، وتنتقل ملايين الحيوانات المنوية ، ويسبق أحدها لإخصاب البويضة ، ويتم الخلق لجنين الإنسان أو الحيوان ، وبعضه يصبح ذكرًا وبعضه يصبح أنثى ، ليتم إعمار الكون وتكامله .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ . (القيامة : ٣٧ – ٤٠) .

وقال عز شأنه : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ . (الشورى : ٤٩ ، ٥٠) .

وإذا تأملت فى عالم الإنسان والحيوان ، والنبات والسحاب وغير ذلك ، وجدت العجب العجاب الذى يدير الرؤوس من أثر القدرة الإلهية ، التى عنيت بحفظ هذا الكون ورعايته ، ومن ذلك خلق الذكر والأنثى من المنىّ الذى يمنى من الذكر ، ويصبّ فى الأرحام ، ويتكوّن الجنين فى بطن الأمّ فى مراحل متعددة ، ثم يولد الجنين وله حواس متعددة ، وبعضه ذكر وبعضه أنثى .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ... ﴾ (النحل : ٧٢) .

٤٧ – ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ .

هو سبحانه الذى خلق ، وهو الذى رزق ، وهو الذى يميت ، وهو الذى يحيى العباد فى الميعاد ، ليكافأ المطيعون ، ويُعاقَب الكافرون ، والنشأة الأخرى حق عليه ، تكريمًا للإنسان ، حتى يتحقق الجزاء العادل فى الدار الآخرة .

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ... ﴾
(المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦)

٤٨ – ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ .

هو سبحانه يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء ، بحسب ما يراه سبحانه بحكمته .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .
(الشورى : ٢٧)

٤٩ – ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ .

والشِّعرى : هذا الكوكب الوهاج الذى يطلع خلف الجوزاء فى شدة الحرّ ، وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية ، وفيها ما هو أكبر منها جرمًا ، وأكثر ضوءًا ، لأنها عُبدت من دون الله فى الجاهلية ، فقد عبدتها حمير وخزاعة .

٥٠ – وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ .

وعاد هم قوم هود ، وهم أوّل قبيلة أُهلكت بعد طوفان نوح عليه السلام ، وكانوا أقوياء أشدّاء ، نصحهم نبىّ الله هود ودعاهم للإيمان فامتنعوا ، وظنُّوا أن قوَّتهم تقف فى وجه من يعذبهم ، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية قضت عليهم ، وأهلكهم الله جزاء عدوانهم .

قال ابن كثير : وهم قوم هود ، ويقال لهم : عاد بن إرم .

كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ . (الفجر : ٦ – ٨). فكانوا من أشد الناس وأقواهم ، وأعتاهم على الله تعالى ، وعلى رسوله ، فأهلكهم الله : بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . (الحاقة : ٦)

٥١ – وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ .

وأهلك ثمود قوم صالح ، حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، فما أبقى منهم أحدا ، كما قال تعالى : فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٨) .

٥٢ – وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ .

وأهلك الله بقدرته قوم نوح بالطوفان الذى أتى عليهم أجمعين ، وقد كانوا أشد ظلمًا ، وأعظم طغيانًا ممن جاء بعدهم ، فقد مكث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، وهم الذين ركبوا السفينة مع نوح عليه السلام .

٥٣ – وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ .

وأسقط الله مدائن قوم لوط ، فجعل عاليها سافلها ، حيث رفعها جبريل إلى السماء ، ثم جعلها تهوى إلى الأرض ، ثم أمطر الله عليها الحجارة .

٥٤ – فَغَشَّـٰهَا مَا غَشَّىٰ .

حيث أنزل الله بها صورًا مرعبة من الدمار والهلاك ، والخسف والتنكيل الذى يشمل كل شىء ، ويغشاه فلا يبين .

قال تعالى : فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٨٢ ، ٨٣) .

٥٥ – فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ .

بأى نعم الله أيها الإنسان تجادل أو تكابر ؟ ألم يهلك الشرّ ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعى ؟

إن هذا الكون فى قبضة الله ، وإن للظالمين والباغين يومًا عاجلاً أو آجلاً ، فالله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، لقد تمتع الظالمون بنعم الله ، ثم كذَّبوا رسله وأرخى الله لهم العنان وأمدّهم بالخيرات ، وناقشتهم الرسل وحذّرتهم من عذاب الله ، فاستخفوا بوعيد الله ، وكان فى هلاكهم إنصاف للحق والعدل ، وبيان لسنة الله التى لا تتبدل .

قال تعالى : ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ . (الفجر : ١١ – ١٤) .

★ ★ ★

السجود فى آخر سورة النجم

﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

هذا نذير من النذر الأولى : إن محمدًا ﷺ بعض من أنذر من المنذرين الأولين ، فهو كالرسل قبله أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم ، أو هذا القرآن منذر لكم ، من نوع الكتب الأولى التى أنذر بها الأنبياء .

أزفت : قربت .

الآزفة : الساعة الموصوفة فى القرآن بقربها .

من دون الله : من غيره .

كاشفة : نفس تكشف وقت وقوعها وتبيّنه ، لأنها من أخفى المغيّبات .

الحديث : القرآن .

تعجبون : إنكارًا وتكذيبًا .

تضحكون : استهزاء .

ولا تبكون : حزنًا على ما فرطتم ، وعند سماع وعد الله ووعيده .

وأنتم سامدون : لاهون وغافلون ، ومعرضون عما يطلب منكم .

فاسجدوا لله : الذى خلقكم .

واعبدوا : اعبدوه دون الآلهة المزعومة كالأصنام ، وأقيموا وظائف العبادة .

تمهيد :

بعد هذا العرض الرائع لمظاهر القدرة الإلهية ، وبعد أن بيَّن أن بيد الله الإحياء والإماتة ، وأنه أهلك السابقين من المكذبين ، وأن نعمًا واضحة للعيان لا يتشكك فيها منصف تحدث لجميع الناس ، مبينًا أن محمدًا رسول مثل الرسل قبله الذين سبقوه ، كإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم السلام ، والقرآن مثل الصحف السابقة عليه ، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، وأن القيامة قد اقتربت ، ومن الواجب العمل لها ، لقد قابلتم القرآن الكريم بالإعراض والاستهزاء ، ولم تقابلوه بالخشية والبكاء من خشية الله ، وخوف عذاب الآخرة ، حال كونكم معرضين عن رسالة الإسلام ، فتداركوا الموقف ، واسجدوا لله ، عابدين له حق العبادة ، ولا تعبدوا الأصنام والأوثان .

التفسير :

٥٦ - هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ .

هذا الرسول الذى تتمارون فى رسالته وتتشككون ، نذير ضمن المنذرين الأولين الذين حذروا أقوامهم، من الكفر والتكذيب ، ثم نزل الهلاك بالمكذبين ، فقد غرق قوم نوح ، وأهلك الله عادًا وثمود .

أو أن القرآن رسالة السماء ، تنذر المكذِّبين ، مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى .

٥٧ ، ٥٨ - أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ .

اقترب العذاب الذى يأخذ بزمام الكافرين ، ولا يستطيع أحد أن يدفع هوله ورعبه ، ولا يقدر على ذلك إلا الله .

وقال كثير من المفسرين :

المراد : اقتربت القيامة ، كما قال سبحانه وتعالى : ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ... (القمر : ١) .

وقال تعالى : وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ . (الشورى : ١٧) .

وقد روى الشيخان ، وأحمد أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة هكذا» ، وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى[٣٩] .

لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ .

ليس هناك على الإطلاق نفس قادرة على كشفها وإظهارها ، والإعلام بها إلا الله تعالى ، فهى من أخفى المغيبات ، فاستعدوا لها قبل مجيئها بغتة وأنتم لا تشعرون .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ... (لقمان : ٣٤) .

وقال عز شأنه : لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ... (الأعراف : ١٨٧) .

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ - أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ * فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ .

أتعجبون من هذا القرآن وتميزه وعظمته ، ثم لا تخضعون له ولا تؤمنون به ، ولا تستجيبون للمنزَّل عليه ، بل تسخرون من آياته ، وتضحكون منه مع كونه غير محل للضحك ، ولا تبكون على تفريطكم فى أمر الله ، أو لا تبكون خوفًا من القيامة وأهوالها .

وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ .

وأنتم لاهون غافلون ، أو متكبرون متغطرسون ، رافعون رؤوسكم كبرًا وتيها وعجباً .

فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ .

إنها لصيحة مدوية مزلزلة ، لكل مُعْرِضٍ لاهٍ متكبر ، أى اسجدوا لله وحده ، واعبدوه مخلصين له الدين ، فهو سبحانه أهل للعبادة والطاعة ، والسجود والخضوع لأمره ، ولا تسجدوا للأصنام ولا للأوثان ، فالكون كلّه خاضع لأمره .

وقد ورد فى الصحيح : أن النبى ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه المسلمون ، والمشركون والجن والإنس ، لقد سجد المسلمون امتثالاً لأمر الله واقتداء برسول الله ، وسجد الباقون تعظيمًا لهذا الكتاب، وتأثرا به ، وخضوعًا لعظمته ، واهتزازًا لعاطفة حرّكها القرآن فى هذه الآيات المتلاحقة ، القصيرة المتوالية ، التى لا يملك قلب حى ، أو عاطفة سليمة ، أو وجدان يقظ إلا أن ينحنى ويسجد ، مأخوذًا مبهورًا بكتاب الله تعالى .

★ ★ ★

فى أعقاب تفسير سورة النجم

ضميمتان

الضميمة الأولى : قصة الغرانيق .

الضميمة الثانية : فى معنى قوله تعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . (النجم : ٣٩) .

الضميمة الأولى : قصة الغرانيق

ذكر بعض المفسرين قصة الغرانيق، وملخصها : أن النبى ﷺ قرأ سورة النجم ، فلما بلغ قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ . (النجم : ١٩ ، ٢٠) . ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى .

وقد قال الإمام ابن كثير عند حديثه عن هذه القصة : إنّها من روايات وطرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

تأمّـل

القرآن من عند الله ، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه ، وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩)

كما تكفل الله بحفظ رسوله ﷺ ، فقال تعالى : وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... (المائدة : ٦٧) .

وقال عن الوحى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . (الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١) .

وقال سبحانه فى مطلع سورة النجم : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . (النجم : ٣ ، ٤) .

والسورة كلها فى تأكيد معنى الألوهية ، ووحدانية الخالق الواحد ، قال تعالى : وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ . (النجم : ٤٢ – ٤٧) .

كل ذلك يؤكد أن روح القرآن دعوة إلى التوحيد ، والتنديد بالأصنام ، وسورة النجم كلها فى تأكيد الوحدانية ، ونفى الشفاعة : إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ . (النجم : ٢٦) .

والقرآن كله ليس فيه أى تعظيم للأصنام ، بل هو حملة شعواء على عبادة الأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضرّ ، ولا تسمع ولا تجيب ، وقد استحث القرآن العقل والفكر واللُّب والفؤاد ، على التأمل فى أن الكون البديع لابدّ له من خالق ، وأن هذه الأصنام لم تخلق شيئًا فلا يصح أن تُعبد .

رواية ابن أبى حاتم

ورواية ابن أبى حاتم أكثر الروايات فى الموضوع تفصيلاً ، وأقلها إغراقًا فى الخرافة والافتراء على رسول الله ﷺ ، وموضع الشاهد فيها أن الكفار قد اشتدت عليهم حملة القرآن على أصنامهم ، ورغبوا فى أن يذكر القرآن آلهتهم بخير ، فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ . ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : (وإنهنّ لهن الغرانيق العُلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى) ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وزلّت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر سورة النجم سجد ، وسجد معه كل من حضره ، من مسلم أو مشرك ، المسلمون سجدوا طاعة لربهم ، والمشركون سجدوا لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله ﷺ ، وحدثهم به الشيطان ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظها من الفرية .

قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ . (الحج : ٥٢) .

من المنتخب فى تفسير القرآن

ومعنى هذه الآية : لا تحزن أيها النبى من محاولات هؤلاء الكفار ، فقد جرت الحوادث من قبلك ، مع كل رسول من رسلنا ، ونبى من أنبيائنا ، أنه كلما قرأ عليهم شيئًا يدعوهم به إلى الحق ، تصدّى له شياطين الإنس المتمردون لإبطال دعوته ، وتشكيك الناس فيما يتلوه عليهم ، لكى يحولوا بين النبى وبين أمنيته فى إجابة دعوته ، فيزيل الله ما يدبرون ، ثم تكون الغلبة فى النهاية للحق ، حيث يثبّت الله شريعته وينصر رسوله ، وهو عليم بأحوال الناس ومكائدهم ، حكيم فى أفعاله ، يضع كل شىء فى موضعه .

وقال تعالى : ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ . (الحج : ٥٣)

وجاء فى المنتخب فى تفسيرها ما يأتى :

وإنما مكن الله المتمردين على الحق من إلقاء الشُّبه والعراقيل فى سبيل الدعوة ، ليكون فى ذلك امتحان واختبار للناس ، فالكفار الذين تحجرت قلوبهم ، والمنافقون ومرضى القلوب يزدادون ضلالاً بترويج هذه الشُّبه ومناصرتها ، ولا عجب فى أن يقف هؤلاء الظالمون هذا الموقف ، فإنهم لجّوا فى الضلال ، وأوغلوا فى العناد والشقاق .

وقال سبحانه : وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (الحج : ٥٤) .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن ما يأتى :

وليزداد الذين أوتوا علم الشرع والإيمان به إيمانًا ، وعلمًا بأنّ ما يقوله الرّسل والأنبياء إنما هو الحق المنزل من عند الله ، وأن الله ليتولى المؤمنين دائمًا بعنايته فى المشاكل التى تمرّ بهم ، فيهديهم إلى معرفة الطريق المستقيم فيتبعونه . ا هـ .

وقد مرَّ تفسير هذه الآيات تفصيلاً فى سورة الحج ، ورغبتُ أن أضع موجزًا لمعناها هنا لما يأتى :

١ – الآيات التى استشهدوا بها فى سورة الحج لا تؤيد ما ذهبت إليه هذه الروايات العليلة ، التى لم ترد مسندة من وجه صحيح .

٢ – أن من شرط قبول الحديث أو الأثر ، ألا يعارض ما ورد فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

٣ – أن دين الله الحق يرفض أى رواية فيها مدح للأصنام أو الأوثان ، فهذا يعارض ما علم من الدين بالضرورة ، وهو أن الكون كلّه للّه ، والكمال كلّه لله ، وأن الأصنام عبادتها ضلال ، وشفاعتها مرفوضة لا ترتجى أبداً .

٤ – لكل هذا نرفض جميع الروايات التى تفيد أن المشركين سجدوا عندما مدح القرآن آلهتهم ، أو عندما سمعوا مدحها على لسان الشيطان .

٥ – السورة كلها – سورة النجم – نسيج واحد، رائع فى التوحيد الخالص، لا يحتمل التضارب أو مدح الأصنام.

٦ – سجود المشركين تمَّ للروعة الفائقة والقوة الباهرة للآيات الكريمة ، وللرهبة التى تشمل كل القلوب ، فسجد المؤمنون ، وسجد المشركون ، وسجد الإنس والجنّ ، كما ورد فى صحيح البخارى .

أخرج البخارى ، عن ابن عباس قال : سجد النبى ﷺ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس[٤٠] .

معنى الغرانيق

لم يرد مدح آلهة المشركين بهذا الاسم فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم يكن هذا الوصف جاريًا على ألسنتهم ، وإنما ورد الغرنوق والغرانيق على أنه اسم لطائر مائىّ أسود أو أبيض ، والشاب الأبيض الجميل ، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب ، كما ذكر ذلك الأستاذ الشيخ محمد عبده فى ردّه على موضوع الغرانيق .

كتاب (حياة محمد ﷺ) لمحمد حسين هيكل

ذكر الأستاذ محمد حسين هيكل قصة الغرانيق فى كتابه (حياة محمد) ، وبيّن أنها قصة مكذوبة ، لا أصل لها على الإطلاق ، لما يأتى :

(أ) النبى ﷺ منذ طفولته وشبابه لم يُجرَّب عليه الكذب ، حتى سُمِّى الأمين ولمّا يبلغ خمسة وعشرين عامًا من عمره ، وهذا الصادق الأمين مستحيل أن يقول على الله ما لم يقله «فما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله» .

(ب) قصة الغرانيق وردت بروايات متعددة فى بعض كتب الحديث ، وبعض كتب التفسير ، وهذا التعدد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنّه من وضع الزنادقة كما قال ابن إسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد ﷺ رسالات ربه .

(جـ) استند بعض المستشرقين – ومنهم سير وليم موير – إلى الروايات العليلة التى وردت فى بعض كتب السيرة ، وكتب التفسير ، وجعلها حجة يراها قاطعة بصحة حديث الغرانيق ، وقد قال ابن إسحاق حين سئل عنه : إنه من وضع الزنادقة ، وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص ، لأنه ينقض ما لكل نبى من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . ا هـ .

وقد قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ . (المائدة : ٦٧) .

★ ★ ★

الضميمة الثانية

فى معنى قوله تعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . (النجم : ٣٩) .

قال ابن كثير فى تفسيرها ما يأتى :

أى : كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى رحمه الله ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثّهم عليه ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه ، فأما الدعاء والصدقة فمجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به»[٤١] ، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكدّه وعمله ، كما جاء فى الحديث «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه» .

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه ، هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ ... (يس : ١٢) . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضًا من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح : «من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء»[٤٢] .

من التفسير المنير

والمعتمد فى المذاهب الأربعة أن ثواب القراءة يصل إلى الأموات ، لأنه هبة ودعاء بالقرآن الذى تتنزل الرحمات عند تلاوته ، وقد ثبت فى السنة النبوية وصول الدعاء والصدقة للميت ، وذلك مجمع عليه[٤٣] .

من تفسير ابن جرير الطبرى

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . (النجم : ٣٩) .

يقول جل ثناؤه : أو لم ينبأ أنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيرًا كان ذلك أو شرًّا .

قال ابن زيد فى قوله تعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وقرأ : إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ . (الليل : ٤) .

قال : أعمالكم .

وذكر عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية منسوخة ، نسخها قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ... (الطور : ٢١) .

فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء[٤٤] . اهـ .

خلاصة الآراء

فى قوله تعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ .

استنبط الشافعى رحمه الله أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم .

وذهبت طائفة من الأئمة إلى انتفاع الإنسان بعمله ، وبما سعى له به غيره ، تفضلاً من الله ورحمة بهذه الأمة ، وأن الآية الكريمة : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . قد تكون من قبيل العام الذى قد خُصص بأمور كثيرة ، وقد تكون مخصوصة بقوم إبراهيم وقوم موسى لأنها حكاية عما فى صحفهما .

من تفسير القرطبى

رُوى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن ، وأعتقت عنه .

ورُوى أن سعد بن عبادة قال للنبى ﷺ : إن أمّى توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : «نعم» ، قال : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : «سقى الماء» .

وقيل : إن الله عز وجل إنما قال : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . ولام الخفض معناها فى العربية الملك والإيجاب ، فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شىء ، إلا أن الله يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل .

وقال الربيع بن أنس :

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . يعنى : الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

قُلتُ : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول ، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره[٤٥]

من تفسير الفتوحات الإلهية

قال الشيخ سليمان بن عمر العجيلى الشافعى، الشهير بالجمل، المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ[٤٦] :

من تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله، ما لا يكاد يحصى، فلا يجوز أن تؤول الآية على خلاف الكتاب والسنّة وإجماع الأمة، فالظاهر أن الآية عامة قد خُصصت بأمور كثيرة. انتهى نقلا عن الكرخى.

وقيل: إن قوله تعالى: وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ. هو من باب العدل، وأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه. ا هـ.

وقال عكرمة: إن ذلك لقومى موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأمّا هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم، لما روى أن امرأة رفعت صبيًا لها، وقالت: يا رسول الله، ألهذا حجّ ؟ فقال: «نعم، ولك أجر».

وقال رجل للنبى ﷺ: «إن أمى افتلتت نفسها، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال: «نعم»[٤٧].

٢١ دليلا لابن تيمية

نقل صاحب الفتوحات الإلهية، الشهير بالجمل، عن ابن تيمية ٢١ دليلا مؤيدا، حيث قال:

قال الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع. وذلك باطل من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره، وهو انتفاع بعمل الغير.

ثانيها: أن النبى ﷺ يشفع لأهل الموقف فى الحساب، ثم لأهل الجنة فى دخولها.

ثالثها: أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر فى الخروج من النار، وهذا انتفاع بسعى الغير.

رابعها: أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن فى الأرض، وذلك منفعة بعمل الغير.

خامسها: أن الله تعالى يُخرج من النار من لم يعمل خيرًا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته، وهذا انتفاع بغير عملهم.

سادسها: أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم، وذلك انتفاع بمحض عمل الغير.

سابعها : قال الله تعالى فى قصة الغلامين اليتيمين : وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ... (الكهف : ٨٢) . فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس ذلك من سعيهما .

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق ، بنص السنة والإجماع ، وهو من عمل الغير .

تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وَليّه ، بنص السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .

عاشرها : أن الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

حادى عشرها : المدين قد امتنع ﷺ من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبى ﷺ ، وهو من عمل الغير .

ثانى عشرها : أن النبى ﷺ قال لمن صلى وحده : «ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه» ، فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .

ثالث عشرها : أن الإنسان تبرأ ذمته من ديون الغير إذا قضاها عنه قاض ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

رابع عشرها : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

خامس عشرها : أن الجار الصالح ينفع فى المحيا وفى الممات ، كما جاء فى الأثر ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

سادس عشرها : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره .

سابع عشرها : الصلاة على الميت والدعاء له فى الصلاة ، انتفاع للميت بصلاة الحى عليه ، وهو عمل غيره.

ثامن عشرها : أن الجمعة تحصل باجتماع العدد ، وكذا الجماعة بكثرة العدد ، وهو انتفاع للبعض بالبعض .

تاسع عشرها : أن الله تعالى قال لنبيه : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ... (الأنفال : ٣٣) . وقال تعالى: وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ... (الفتح : ٢٥) . فقد رفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض، وذلك انتفاع بعمل الغير .

العشرون : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن يمونه الرجل ، فإنه ينتفع بذلك من يخرج عنه ، ولا سعى له فيها .

الحادى والعشرون : أن الزكاة تجب فى مال الصبى والمجنون ، ويثاب على ذلك ولا سعى له .

ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن نتأول الآية الكريمة على خلاف صريح الكتاب والسنّة وإجماع الأمة[٤٨] .

كلمة ختامية

هناك أمور تتعلق بفضل الله تعالى وسعة رحمته ، وعظيم تفضُّله على عباده ، ومنها شفاعة الرسول ﷺ لأمته ، ومنها مضاعفة الحسنة إلى ألفى ضعف ، ومنها التوبة النصوح ، ومنها التوفيق وحسن الختام، ومنها أن الله تعالى يُصلح بين العبيد يوم القيامة ، ويرضِّى الخصماء مع بعض خصمائهم .

وفى القرآن الكريم : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦١) .

فلا يجوز أن نحكّم عقلنا القاصر فى شئون الآخرة ، أو فى نص صحيح مقبول شرعًا ونقلاً ، بل نَحْنِى رؤوسنا ونفوّض الأمور إلى الله ، فهو يرزق من يشاء بغير حساب ، وليست هناك آلة حاسبة آلية لتوزيع الناس وحساباتهم يوم القيامة ، فلله أفضال على من يشاء ، وللرسول ﷺ شفاعة يوم القيامة ، بحساب ونظام كما ذكر فى الصحيح ، لكن ذلك لا ينفى أن الجزاء من جنس العمل ، وهذا هو العدل ، وفوق ذلك هناك فضل يستحقه من يشاء الله له ذلك ، بمقياس ربنا الحكيم ، العليم بذات الصدور ، ومن ذلك زيادة الأضعاف ، وزيادة الحسنة الواحدة عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة[٤٩] .

قال القرطبى فى تفسيره :

ويحتمل أن يكون قوله تعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . خاصًا فى السيئة ، بدليل ما فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : «قال الله عز وجل : إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة»[٥٠] .

والله أعلم ، وهو سبحانه ولى التوفيق .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة النجم

١ – إنزال الوحى من الله على رسوله ﷺ .

٢ – إن الذى علمه إياه هو جبريل شديد القوى .

٣ – قرب الرسول ﷺ من ربّه .

٤ – إن النبى ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين .

٥ – تقريع المشركين على عبادتهم الأصنام .

٦ – توبيخهم على جعل الملائكة إناثًا ، وتسميتهم إياهم بنات الله .

٧ – مجازاة كل من المحسن والمسىء بعمله .

٨ – إحاطة علمه تعالى بما فى السماوات والأرض .

٩ – النهى عن تزكية المرء نفسه .

١٠ – الوصايا التى جاءت فى صحف إبراهيم وموسى .

١١ – التعجيب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه ، وغفلتهم عن مواعظه .

١٢ – أمر الناس بالخضوع لله ، والإخلاص له فى العمل[٥١]

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير سورة (**النجم**) مساء الثلاثاء، ١٩ من رجب ١٤٠١ هـ، الموافق ١٧/١٠/٢٠٠٠م، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★


تفسير سورة القمر

أهــــداف ســـورة القمـــر

سورة القمر مكية ، وآياتها (٥٥) آيـة ، نزلت بعـد سورة الطارق

وهى سورة تمثل سياطا لاذعة للمكذبين المنكرين ، وتعرض مشاهد خاطفة لما أصاب المكذبين السابقين ، وتستعرض مواقف القيامة وأهوال الحشر ، وأحوال المجرمين ، وما يصيبهم من العذاب والنكال فى الآخرة .

انشقاق القمر

يصف مطلع السورة حادثا فذا ، هو انشقاق القمر بقدرة اللّه تعالى معجزة لرسول اللّه ﷺ .

وقد وردت روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع انشقاق القمر فى مكة قبل الهجرة ، حيث جاءت هذه الروايات فى البخارى ، ومسلم ، ومسند الإمام أحمد ، وغيرها من كتب السنة .

فقد روى الشيخان ، عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة [٥٢] ، قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم من السُّفار [٥٣] فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، قال : فجاء السُّفار فقالوا ذلك .

وهذه الروايات مع غيرها تتفق على انشقاق القمر بمكة .

كما ثبت أن أهل مكة قابلوا هذه الآية بالعناد ، وادعوا أن محمدا سحر أهل مكة حتى يشاهدوا القمر منشقا ، ثم اتفقوا على أن يسألوا عن الحادث المسافرين القادمين إلى مكة، وقد شهد المسافرون بأنهم شاهدوا القمر نصفين فى ذلك اليوم ، فادعى أهل مكة أن محمداً سحر الناس جميعا .

قال تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ . (القمر : ١، ٢) .

ويرى بعض المفسرين أن الآية تخبر عن الأحداث الكونية المستقبلة ، فعند قيام الساعة ستنشق الأرض والسماوات ، كما قال سبحانه : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ . (الانشقاق : ١) . كما ينشق القمر وينفصل بعضه عن بعض ، وتتناثر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات .

سياق السورة وأفكارها

فى الآيات (١–٨) وصف لجحود الكافرين ، وعدم إيمانهم بالقرآن، وانصرافهم عنه إلى الهوى والبهتان.

وفى الآيات تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين بيوم الجزاء، فهم يخرجون من قبورهم خاشعين من الذل، فى حالة سيئة من الرعب والهول ، فيسرعون الخطى ليوم الحشر كأنهم جراد منتشر ، وقد أسقط فى أيديهم فيقول الكافرون : هذا يوم صعب عسر .

خمس حلقات من مصارع المكذبين

الآيات من (٩ – ٤٢) تشتمل على عرض سريع لمصارع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ، وفرعون وملئه ، وكلها موضوعات سبقت فى سور مكية ، ولكنها تعرض فى هذه السورة عرضا خاصا، يحيلها جديدة كل الجدة ، فهى تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة يفيض منها الهول ، ويتناثر حولها الرعب ويظللها الدمار والفزع .

وأخص ما يميزها فى سياق السورة ، أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة ، يشهدها المكذبون وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها ، فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا ، حتى تنتهى الحلقات الخمس فى هذا الجو المفزع الخانق .

١ – قوم نوح (الآيات ٩ –١٧) :

وتلمح فى الآيات مشهد المكذبين يتهمون نوحا بالجنون ، ونوح يظهر للّٰه ضعفه ويدعوه أن ينتصر له ، وتستجيب السماء فينهمر المطر وتنفجر عيون الأرض ، ويلتقى ماء السماء بماء الأرض ، ثم يغرق الكافرون ، وينجى اللّٰه نوحا ومن آمن معه ، ويسأل القرآن سؤالا لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير ، فيقول: فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . (القمر: ١٦) .

والقرآن كتاب إلهى سهل التناول ميسر الإدراك ، فيه جاذبية الصدق والبساطة وموافقة الفطرة ، لا تفنى عجائبه ، ولا يَخْلق على كثرة الرد ، وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد ، وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . (القمر: ١٧) .

هذا هو التعقيب الذى يتكرر بعد كل مصرع من مصارع السابقين .

٢ – عاد قوم هود (الآيات ١٨ – ٢٢) :

أرسل اللَّه عليهم ريحا عاتية تدمر كل شيء بإذن ربها ، وقد سلسلوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا تعصف بهم الريح ، وشقوا لأجسامهم شقوقا داخل الأرض ، وتركوا رؤوسهم خارجها ، فكانت الريح تكسر رؤوسهم وتتركهم كالنخيل التى قُطعت رؤوسها وتُركت أعجازها وجذورها .

٣ – ثمود قوم صالح (الآيات ٢٣ – ٣٢) :

وقد أرسل الله إليهم نبيه صالحًا ومعه الناقة ، فأخبرهم بأن الماء قسمة بينهم وبينها، فللناقة يوم ولهم يوم ، لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم .

وكان اليوم الذى ترد فيه ثمود البئر لا تأتى الناقة إليه ولا تشرب منه ، ولكنها تسقيهم لبنا ، وفى اليوم التالى تحضر شربها وحدها . ومع وضوح هذه الآية ، فإن ثمود ملّت هذه القسمة ، وحرَّضوا شقيا من الأشقياء على قتل الناقة ، فلما قتلها استحقوا عقاب اللَّه ، وأرسل اللَّه عليهم صيحة واحدة فكانوا كفتات الحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لغنمه .

٤ – قوم لوط (الآيات ٣٣ – ٤٠) :

اشتهر قوم لوط بالشذوذ الجنسى ، حيث استغنى الرجال بالرجال ، وهو انتكاس للفطرة وشرود فى الرذيلة ، ولقد حذرهم لوط مغبة فعلتهم ، فكذبوه وجادلوا بالباطل ، وجاءت الملائكة إلى نبى الله لوط فى صورة رجال عليهم مسحة الجمال والجلال ، فرغب قوم لوط فى أن يفعلوا فعلتهم الشنعاء فى الملائكة ، وراودوه عن ضيفه ليفعلوا بهم اللواط ، فاستحقوا عقوبة السماء ، وأرسل اللَّه عليهم حاصبا ، أى ريحا تحمل الحجارة ليذوقوا العذاب .

٥ – ثم تعرض السورة حلقة قصيرة عن فرعون وجحوده ، وعقاب اللَّه له حيث أخذه أخذ عزيز مقتدر.

وفى الآيات الأخيرة من السورة (٤٣ – ٥٥) تعقيب على هلاك السابقين ، وتوجيه لأهل مكة بأنهم لن يكونوا أحسن حالا ممن سبقهم ، ثم إن الساعة تنتظرهم وهى أدهى وأمر من كل عذاب شاهدوه فيما سبق، أو سمعوا وصفه فيما مرَّ، من الطوفان الذى أصاب قوم نوح ، إلى الصرصر مع عاد ، إلى الصاعقة مع ثمود، إلى الحاصب مع قوم لوط ، إلى إغراق فرعون .

حكمة الخالق

وتشير الآيات إلى حكمة الله العالية ، فتقول : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ . (القمر : ٤٩) .

وهذه الحكمة تظهر فى خلق الكون ، وفى خلق السماء والأرض ، وفى خلق الإنسان ، وفى خلق الطيور والحيوانات ، وفى سائر خلق اللّه : يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (النور : ٤٥) .

إن قدرة الله وراء طرف الخيط البعيد لكل حادث ، ولكل نشأة ، ولكل مصير ، ووراء كل نقطة وكل خطوة وكل تبديل أو تغيير ، إنه قَدَر الله النافذ الشامل الدقيق العميق .

وأحيانا تخفى الحكمة علي العباد فيستعجلون أمرا ، والله لا يعجل لعجلة العباد ، فالواجب أن يرضى المؤمن بالقضاء والقدر ، وأن يحنى رأسه أمام حكمة اللّه ومشيئته .

ثم يعرض الختام مشهد المجرمين يسحبون فى النار على وجوههم ليذوقوا العذاب ، كما يعرض مشهد المتقين فى نعيم الجنة ورضوان الله العلى القدير .

★ ★ ★

انشقاق القمر وعناد المشركين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ
الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

المفردات :

اقتربت : دنت وقربت .

الساعة : القيامة .

انشق القمر : انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين .

آية : دليلا على نبوتك .

سحر مستمر : مُطَّرد دائم .

أهواءهم : ما زيَّنه لهم الشيطان من الوساوس والأوهام .

وكل أمر مستقرّ : وكل أمر لابد وأن يستقر إلى غاية ، وينتهى إلى نهاية يستقرّ عليها .

مزدجر : ازدجار وانتهار وردع عما هم فيه من الكفر والضلال .

بالغة : واصلة غاية الإحكام والإبداع .

تغنى : تفيد وتنفع .

النذر : الرُّسل أو الأمور المخوِّفة لهم .

شىء نكر : منكر فظيع ، والمراد : هول القيامة .

خشعا أبصارهم : ذليلة خاضعة من شدة الهول.

الأجـــــداث : القبور.

مـهـطـعـيـن : مسرعين منقادين .

يـوم عَسِـر : صعب شديد لعظم أهواله .

سبب النزول :

روى البخارى ، عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما . [٥٤].

وروى مسلم ، والترمذى ، عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ .

قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، انشق القمر فلقتين ، فلقة من دون الجبل ، وفلقة خلف الجبل ، فقال النبى ﷺ : «اللهم اشهد» [٥٥] .

وقد وردت روايات متواترة من طرق شتَّى عن وقوع حادث انشقاق القمر بمكة فى عهد النبى ﷺ ، قبل الهجرة ، إكراما من الله لرسوله وتصديقا له .

التفسير :

١ - ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ .

اقتربت القيامة، فالباقى من عمر الدنيا أقل بكثير مما سبق منها ، وقد قال ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» [٥٦] . وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة ، (متفق عليه) .

وقد مرّ بعد الرسالة المحمدية أكثر من أربعة عشر قرنا ، لكنها قليلة بالنسبة إلى عمر الدنيا وهو قرابة ١٣ بليون سنة .

وفى عام ١٩٩٤ م انعقد مؤتمر علمى فى الولايات المتحدة الأمريكية بشأن معرفة عمر الكون وعمر الإنسان على هذه الأرض ، وانتهى المؤتمر إلى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن عمر الإنسان على هذه الأرض ٧ بلايين سنة .

وقد انشق القمر معجزة لرسول الله ﷺ ، حتى رُئى جبل حراء بين الشقّين ، فقال أهل مكة : انتظروا حتى يأتى السفّار ، أى المسافرون خارج مكة ، فلما قدم المسافرون قالوا : شاهدنا القمر قد انشق نصفين، فقال الكفار : إن محمداً سحر الناس جميعًا .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى :

سينشق القمر عند قيام الساعة ، حيث يكون من علامات الساعة تكوير الشمس وذهاب ضوئها، وانكدار النجوم ، وانشقاق القمر .

ونحن أمام الأحاديث الصحيحة الواردة فى الموضوع ، وإشارة القرآن الكريم إلى ذلك ، نصدق ونؤيد وقوع انشقاق القمر ، معجزة لرسول الله ﷺ وتصديقا له .

قال ابن كثير :

وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أنّ انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقد أيد هذا المعنى الآلوسى فى تفسيره ، فقال : والأحاديث الصحيحة فى الانشقاق كثيرة ، واختلف فى تواترها ، فقيل : هى غير متواترة ، وفى شرح المواقف أنها متواترة ، وهو الذى اختاره العلامة السبكى، فقد قال : الصحيح عندى أنّ انشقاق القمر متواتر ، منصوص عليه فى القرآن ، مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتّى ، لا يمترى فى تواتره .

وقد جاءت أحاديثه فى روايات صحيحة ، عن جماعة من الصحابة، منهم : على بن أبى طالب ، وأنس، وابن مسعود . ا هـ .

والساعة لا يعلم وقت مجيئها إلا الله ، واقتراب الساعة يمكن أن يراد به أن الباقى من عمر الدنيا قليل، بالنسبة لما مضى منها .

روى الحافظ أبو بكر البزار ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب ، فلم يبق منها إلا سف يسير ، فقال : «والذى نفسى بيده ، ما بقى من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه» ، وما نرى من الشمس إلا يسيرا . والمقصود حثّ الناس على التوبة والإنابة والإيمان قبل فوات الأوان .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (النحل : ١) .

وقوله سبحانه : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . (الأنبياء : ١) .

وقوله تعالى : يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

(الأحزاب : ٦٣)

والخلاصة :

إن جمهور المحدِّثين والمفسرين على أن الانشقاق حقيقة ، فقد قال القرطبى : ثبت ذلك فى صحيح البخارى وغيره ، وقيل : معناه : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح ، ثم علّق القرطبى قائلا : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فى رؤيته ، لأنها كانت آية ليلية ، وأنها كانت باستدعاء النبى ﷺ من الله عند التحدّى ....

٢ - وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ .

إذا رأى كفار مكة آية معجزة تؤيد النبى ﷺ وصدقه ، مثل انشقاق القمر ، أعرضوا عن الإيمان ، وأحْجموا عن الدخول فى الإسلام ، وقالوا : هذا سحر متتابع ، أو مُّسْتَمِرٌّ . بمعنى : باطل مضمحل زائل ، لا دوام له ، أو مُّسْتَمِرٌّ . بمعنى : مرير على ألسنتنا لا تطيقه لهواتنا ، أو مُّسْتَمِرٌّ . بمعنى : محكم قوى ، من المِرّة بمعنى القوة .

٣ - وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ .

كذَّب المشركون رسول الله ﷺ ، ولم يصدقوا القرآن ، ولم يعترفوا بإعجازه ، أو بمعجزة انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ، وكل أمر من الأمور ينتهى إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

قال قتادة :

إنّ الخير يستقرّ بأهل الخير ، والشر يستقرّ بأهل الشرّ ، وكل أمر مستقر بأهله .

وقال مجاهد :

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ .أى يوم القيامة . اهـ .

حيث يستقر الأخيار فى الجنة ، والأشرار فى النار .

٤ - وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ .

ولقد جاء هؤلاء الكفَّار من أخبار الأمم السابقة، وما نزل بها من الهلاك والدَّمار، عندما كذبت رسلها، أو جاءهم من أخبار القرآن وتشريعاته وهداياته ، ما فيه زجر لهم عن اتباع الهوى والكفر والضلال .

٥ - حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ .

إن هذا القرآن حكمة بالغة ، بلغت الغاية والنهاية فى الهداية والبيان ، حيث تكلّم عن بدء الخليقة ، ولفت الأنظار إلى الكون وجماله وإبداع خلقه ، لكن الكفار أصمُّوا آذانهم وأغلقوا عقولهم ، وساروا وراء أهوائهم ، فلم ينتفعوا بهدى القرآن .

قال تعالى : وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ . (يونس : ١٠١).

أى : ماذا تنفع الآيات الواضحة ، والنُّذر جمع نذير ، بمعنى منذر، أى : ماذا تفيد وسائل الهدى لقوم سدوا منافذ الهداية ، ورفضوا وسائل الإيمان ؟

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة : ٦) .

وقال تعالى : لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ... (الأعراف : ١٧٩).

وقال سبحانه وتعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . (الزمر : ٢٢) .

٦ - فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ .

أى : عليك البلاغ ، وليس عليك الهداية ، فإذا أدّيت واجبك فلا تهتمّ بهم ، وأعرض عنهم ، وانتظرهم حين ينفخ إسرافيل فى الصور ، فيقومون من قبورهم فى شدة الهول ، حيث يُدعون إلى الحساب والجزاء وما فى ذلك اليوم من الأهوال ، التى لم تألفها النفوس ، ولم تر لها مثيلا فى الشدّة .

وليس المراد أن يترك الرسول ﷺ البلاغ والدعوة للمشركين ، بل المراد : بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، فى تؤدة وحكمه ، ثم اتركهم ، فإن جزاءهم سيأتى حين ينفخ إسرافيل فى الصُّور ، وينادى المنادى من قبل الله عز وجل : أيتها الأرواح الباقية ، والأجساد البالية ، والعظام النخرة ، قومى لفصل القضاء ، وحينئذ يقوم الناس لرب العالمين، حيث يشاهدون أهوال القيامة .

٧ - خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ .

هم يخرجون من القبور فى حالة من الذلة والخشوع والخوف ، لأنّ أثر العزّ والذل يتبين فى نظر الإنسان .

قال تعالى : أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ . (النازعات : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ... (الشورى ٤٥).

قال القرطبي :

ويقال : خشع واختشع ، إذا ذلّ ، وخشع ببصره ، إذا غضّه ، وقرأ حمزة والكسائي : خاشعا أبصـٰرهم .

يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ .

يخرجون من القبور مسرعين مطيعين ، كأنّهم جراد منتشر منبثٌّ فى الآفاق ، وإذا نظرنا إلى الجراد فى كثرته وتتابعه كأنه حملة قوية ، وكثيرا ما يكون وبالاً على الزراعة ، أو ناشرًا للآفات ، أدركنا عمق التعبير فى الآية .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ . (القارعة : ٤) .

قال القرطبي :

فهما صفتان فى وقتين مختلفين :

إحداهما : عند الخروج من القبور يخرجون فزعين ، لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض ، لا جهة يقصدها .

الثـانية : فإذا سمعوا المنادى قصدوه ، فصاروا كالجراد المنتشر ، لأن الجراد له جهة يقصدها .

قال ابن كثير :

كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب جراد منتشر فى الآفاق .

٨ - مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ .

مسرعين مجيبين إلى الداعى ، وهو إسرافيل عليه السلام ، لا يخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون : هذا يوم شديد الهول سيئ المنقلب .

قال تعالى : فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ . (المدثر : ٩ ، ١٠) .

أى : هو عبوس قمطرير ، شديد الهول على الكافرين ، وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه ولا مشقة ، بل فيه نضرة وسرور ونعيم للمتقين .

★ ★ ★

خلاصة لقصص بعض الأنبياء مع أممهم

١ - قصة قوم نوح

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

ازدجر : زُجر عن تبليغ رسالته بالسبّ وغيره .

مغلوب فانتصر : مغلوب فانتقم لى منهم .

بماء منهمر : منصبٌ بشدة وغزارة .

فجرنا الأرض : شققناها .

أمر قد قُدر : قدَّرناه أزلا ، وهو هلاكهم بالطوفان .

دُسُر : مسامير تشدّ بها الألواح .

تجرى بأعيننا : بحفظنا أو بمرأى منّا أو بأمرنا .

كُفِر : أى : جحد به ، وهو نوح عليه السلام .

تركناها آية : أبقينا ذكرها عبرة وعظة .

مدّكر : متذكر ومعتبر ومتعظ .

نذر : واحدها نذير ، بمعنى إنذار .

يسرنا : سهلنا .

للذكر : للعظة والاعتبار .

تمهيد :

تذكر سورة القمر موجزا لقصص بعض الأنبياء ، فتذكر قصة أربعة من الرسل مع أقوامهم : قصة نوح مع قومه ، وهود مع قومه عاد ، وصالح مع قومه ثمود ، وقصة لوط مع قومه ؛ ليشاهد القارئ ما أصاب المكذبين للرسل من الهلاك ، وما حظى به الرسل من النصر والمعونة الإلهية .

التفسير :

٩ – كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ .

كذب قبل قومك قريش ، قوم نوح عليه السلام ، وهو أوّل رسول أرسل إلى قومه .

فكذبوا عبدنا نوحا ، حيث مكث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاما ، وما آمن معه إلا قليل ، وزادوا على تكذيب نوح اتهامه بالجنون ، وزجروه ونهوه عن تبليغ الرسالة ، قائلين له: لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ . (الشعراء : ١١٦) .

١٠ – فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ .

بعد عناد طويل ، وتكذيب وإصرار من قوم نوح ، وبعد أن صبر هذا الرسول صبراً طويلا ، واشتكى إلى الله ما حكاه القرآن ، حيث قال تعالى :

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا .
(نوح : ٢١–٢٤)

دعا نوح ربه قائلاً : إنى مغلوب مقهور فانتصر لى يا الله ، وقد استجاب الله دعاء نوح عليه السلام .

١١ – فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ .

لقد انصبّ عليهم ماء السحاب صبًّا وابلا منهمرًا ، بشدّة وغزارة ، وقد كانوا فى شوق إلى المطر لمدة طويلة ، فكان المطر الشديد الوابل المتتابع ، سببا فى عذابهم فقد نزل بكثرة فائقة من السماء ، كما يقال فى المطر الوابل : جرت ميازيب السماء ، وفتحت أبواب القرب ، كناية عن كثرة انصباب الماء من السماء .

١٢ – وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ .

وجعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة ، وينابيع متدفقة ، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قُضى عليهم ، وقد قدَّره الله فى الأزل ، أن يهلكهم بالطوفان جزاء كفرهم وطغيانهم .

قال قتادة :

قضى عليهم فى أمّ الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا .

١٣ - وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ .

حملنا نوحا ومن آمن معه على سفينة ذات ألواح من خشب ومسامير تشد الخشب بعضه إلى بعض ، وهذا من جميل الكلام وبديعه ، أن تحذف الموصوف وتعبّر عنه بصفة مبينة له.

وقال الليث :

الدّسار : خيط من ليف تشدّ به ألواح السفينة ، ولعله بعض الحشو الذى يوضع بين الألواح ، ثم يطلى بالقار ليمنع دخول الماء .

١٤ - تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ .

تجرى السفينة فوق مياه الطوفان ، بحكمتنا وقدرتنا ، وحفظنا وعنايتنا ، وتحت رعايتنا.

لقد استجبنا لعبدنا نوح ، الذى قدّم دعوته دائباً مستمرا ، خلال ألف سنة إلا خمسين عاما ، فقوبل بالكفران والنكران ، والإيذاء والجحود ، فأنقذناه بالسفينة تجرى برعايتنا ، جزاء وإكراما لنبى كُذّب وجُحد فضله ، لقد كان نعمة على قومه فكفروها ، وكل نبى نعمة من الله على أمته .

١٥ - وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ .

لقد تركنا تلك الحادثة – وهى الطوفان – عبرة وبيانا للقدرة الإلهية التى تمحق المكذبين ، وتنصر المؤمنين ، فهل من معتبر ومتعظ .

وقيل : المعنى : تركنا السفينة مدّة طويلة ليعتبر بها من يعتبر ، وأمثالها صار رماداً ونخر فيه السوس.

١٦ - فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ .

استفهام تهويل وتعظيم وتعجيب ، بمعنى . الم يكن العذاب شديدا ، والغرق مهلكا ؟

وإنذارى لهم على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، وذلك لتكذيبهم رسلى وإنكارهم آياتى .

١٧ - وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ .

أنزلناه كتابا عربيا مبينا ، مشتملا على ألوان المعارف والقصص ، والأمثال والحكم والتشريع ، وبيان عجائب الكون ، وأخبار القيامة والبعث والحشر والنشر ، ويسَّرنا تلاوته وقراءته ، وحفظه وفهمه والاتعاظ به .

فهل من معتبر بهذا الكتاب متأمل فيه ، متعظ بما فيه من المواعظ والأخبار ، مسارع إلى التأمل فى فهمه ، والاستعانة بالله على حفظه .

قال الخازن فى تفسيره :

وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به ، لأنّه قد يسره الله ، وسهله على من يشاء من عباده ، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير ، والعربى والعجمى .

قال سعيد بن جبير :

يسرناه للحفظ والقراءة ، وليس شيء من كتب الله تعالى يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن . انتهى من تفسير الخازن .

أمـــلٌ ورجـــاء

ألا ليت أمتنا تتواصى بتعليم أبنائها وبناتها ورجالها ونسائها ، وشبابها وفتياتها هذا الكتاب ، دراسة وحفظا ، وتجويدًا وتلاوة ، لمعرفة أحكامه وآدابه، والاهتداء بهديه ومواعظه ، وتنفيذ أوامره ونواهيه، ليكون حياة لأرواحنا ، وقوة لأفئدتنا ، ونورًا لنفوسنا ، وبعثا لأمتنا ، حتى نعتصم به ونعمل به كما عمل السابقون ، فعزُّوا وسادوا ، وقد أصاب أمتنا التدهور والاضمحلال بسبب بعدها عن كتاب الله ، وهو مصدر عزِّها ، بل هو الروح والحياة الكريمة لها .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ . (الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

★ ★ ★

٢ - قصة عاد قوم هود

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

ريحا صرصرا : باردة أشد البرد ، يقال : ريح صرٌّ وصرصر ، أى : شديدة الصوت ، أو الباردة.

النّحس : الشؤم على عاد حتى أهلكهم .

مستمر : دائم شؤمه حتى أهلكهم .

تنزع الناس : تقلعهم من أماكنهم ، وتصرعهم على رؤوسهم ، فتدقّ رقابهم .

منقعر : مقتلع من أصوله ، يقال : قعرت النخلة ، أى : قلعتها من أصلها ، فانقعرت .

فكيف كان عذابى ونذر : كرره للتهويل .

مدّكر : متعظ ، أو راغب فى الحفظ ، روى أنه لم يكن شيء من كتب الله محفوظاً عن ظهر القلب سوى القرآن .

تمهيد :

تلك قصة قوم آخرين بعد قوم نوح ، كانوا أشداء أقوياء ، أرسل الله إليهم هودًا ، فدعا قومه عادًا إلى الإيمان فكذبوا واستكبروا ؛ فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

التفسير :

١٨ - كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ .

هذه قصة أخرى ، أو خلاصة لقصة لم تذكر تفاصيلها هنا رغبة فى الإيجاز، فالسورة كلّها آياتها قصار ، وتعرض موجزًا للمكذبين .

ومعنى الآية :

كذبت قبيلة عاد نبيَّهم هودًا ، فهل شاهدتم أو سمعتم أو عرفتم كيف كان عذابى لهم ، وإنذارى لهم بالعذاب ؟ ثم شرع فى تفصيل ذلك وبيانه .

١٩ - إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ .

أرسلنا عليهم ريحا باردة شديدة الصوت .

قال ابن كثير :

قيل : باردة ، وقيل : شديدة الصوت ، والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فقد كانت ريحًا شديدة قوية ، وكانت باردة شديدة البرد ، وكانت ذات صوت مزعج . ا هـ .

أى : جمعت الهلاك والإبادة والتدمير، فى يوم شؤم على هؤلاء المعتدين مستمرّ ، حيث اتصل عذابهم فى الدنيا بعذابهم فى الآخرة ، وقد نهينا فى السنَّة المطهرة عن التشاؤم من أمر بعينه ، أو يوم بعينه ، وإنما الأيام والليالى كلها سواء ، لذا كان التشاؤم بالعدد (١٣) غير صحيح شرعا ودينا .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد» [٥٧] .

أى أن العدوى لا تقع إلا بإذن الله ، ولا يجوز التطيّر أو التشاؤم من شيء ، فإذا رأى الإنسان شيئًا يتشاؤم منه ، يقول : «اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت ، ولايُذهب السوء إلا أنت ، اللهم اكفنى السوء بما شئت وكيف شئت ، إنك على ما تشاء قدير» [٥٨] . ثم يمضى فى عمله ولا يتراجع عنه .

(ولا هامة) كانت العرب تعتقد أن روح القتيل تتقمّص طائرا يسمى الصَّدى ، وتصيح بالليل تقول: (اسقونى من دم قاتلى) ، فإذا أُخذ بثأره هدأ القتيل واستقرّت روحه ، وهذه خُرافةُ لا أصل لها ، وكانت تدفعهم للأخذ بالثأر ، فقال ﷺ : «لا هامة» .

(ولا صفر) قد حرّم الله القتال فى شهر المحرم ، وكان العرب إذا احتاجوا إلى الحرب فى المحرم ، قام كبيرهم ، فقال : إنى أحللت لكم القتال فى المحرم ، ونقلتُ تحريمه إلى شهر صفر ، فقال ﷺ : «ولا صفر» ، أى: لا يجوز تحريم القتال فى شهر صفر ، بل يجب الإبقاء على جعل المحرم هو الشهر الحرام بنفسه دون غيره .

وفى آخر الحديث نجد الرسول ﷺ يدعونا إلى الابتعاد عن الاختلاط بأصحاب الأمراض المعدية ، فكما تفّر من الأسد المفترس ، ينبغى أن تفرَّ من المريض بالجُذَام ، ويقاس عليه كل مرض مُعْدٍ .

٢٠ - تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ .

تقتلع الناس من الأرض اقتلاع النخلة من أصلها ، وترمى بهم على رؤوسهم فتدقّ أعناقهم ، وتفصل رؤوسهم عن أعناقهم .

لقد كانوا طوال الأجسام ، أشداء أقوياء ، فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ . (فصلت : ١٥) .

وقد استحقُّوا عقوبة السماء ، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية اقتلعتهم من الأرض ، وكسَّرت رؤوسهم وأعناقهم ، وتركتهم أجساداً بلا رؤوس ، كالنخلة الساقطة على الأرض ، جذعا خاليا من الرأس أو الثمر .

وفى ذلك المعنى يقول القرآن الكريم : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة: ٦ – ٨) .

ومعنى : مُّنقَعِرٍ. أى : كأنهم أصول نخل قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض ، وقد شبّهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم .

قال ابن كثير :

وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط إلى الأرض ، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس .

٢١ – فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ .

فانظروا كيفية بطشى وعقابى وإنذارى .

٢٢ – وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ .

سهلناه للتذكر والاتعاظ ، أو يسرناه للتلاوة والقراءة والتجويد والحفظ ، وأَعَنَّا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليُعان عليه ؟

★ ★ ★

٣ - قصة ثمود قوم صالح

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ
ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟
ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟
كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات :

كذبت ثمود بالنذر : بما سمعوه من نبيهم من الإنذارات والمواعظ .

واحدا نتبعه : واحدًا من آحادهم لا من أشرافهم .

لفي ضلال وسُعُر : في بُعد بيّن عن الحق . وَسُعُرٍ : جمع سعير ، وهي النار المشتعلة أو الجنون .

أشر : متكبر بطر ، حمله بطره على الترفّع علينا بادعائه .

مَن الكذاب الأشر : هو أم هم ، أي : مَن الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل؟

إنا مرسلو الناقة : مخرجوها وباعثوها .

فتنة لهم : اختباراً وامتحانا لهم .

فارتقبهم : فانتظرهم يا صالح ، وتبصّر ما يصنعون ، وما يؤول إليه أمرهم .

واصطبر : اصبر على أذاهم .

كل شرب محتضر : كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في نوبته .

فنادوا صاحبهم : هو عاقر الناقة ، واسمه : قُدار بن سالف.

فتعاطى فعقر : فتناول السيف فعقر الناقة ، حيث ضرب قوائمها بالسيف ، فقتلها موافقة لهم .

صيحة واحدة : هي صيحة جبريل بهم .

كهشيم المحتظر : الهشيم : الشجر اليابس المتكسر ، أو الحشيش اليابس ، الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء .

تمهيد :

هذه قصة ثمود ، أرسل الله إليهم رسوله صالحًا فكذبوه واتهموه بالكذب والبطر ، وأرسل إليهم الناقة آية ، تحلب يوما فيشربون لبناً فى ذلك اليوم ، ثم يشربون ماء النهر فى اليوم التالى ، وتشرب هى ماء النهر فى اليوم الذى يليه ، بينما هم يشربون لبنها ، فلهم فى كل يوم شرب ، إمّا ماء النهر وإمّا لبن الناقة ، فكفروا بالنعمة وقتلوا الناقة ، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم ، وأصبحوا عبرة وعظة لكل مكذب .

التفسير:

٢٣ – كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ .

كذبت ثمود بالمواعظ والنُّذر التى سمعوها من صالح ، أو كذبوا رسالات السماء ونذرها ، لأنهم إذا كذبوا رسولهم فقد كذبوا برسالات السماء جميعها .

٢٤ – فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ .

أنتبع فردًا واحدًا منًّا لا يتميز علينا بشىء ؟ إذا فعلنا هذا ، وهو فرد واحد ، ونحن أمة مجتمعة ، نكون فى بعد واضح عن الصواب ، وجنون بيّن لأن ذلك بعد عن الصواب ، وروى أن صالحا كان يقول لهم : إذا لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق ، وعرَّضتم أنفسكم لعذاب النار ، فعكسوا عليه قوله ، وقالوا : إن اتبعناك كنا كما تقول فى بُعد عن الحق وجنون دائم .

٢٥ – أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ .

كيف خُصّ بالوحى من بيننا ، وفينا من هو أفضل منه وأحق منه بالنبوة ، بل هو متجاوز فى حدّ الكذب ، فيما يدّعيه من نزول الوحى عليه ، ومتكبر بطر يريد العلوّ علينا .

٢٦ – سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ .

سيعلمون غدًا – يوم القيامة – من هو الكذَّاب المتعالى عن الحق ، صالح أم هم المكذبون المجرمون.

قال الآلوسى :

المراد : سيعلمون أنهم هم الكذّابون الأشرون ، لكنَّ اللَّه أورد ذلك مورد الإيهام للإشارة إلى أنه مما لايكاد يخفى .

٢٧ - إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ .

يفيد القرطبى وغيره من كتب التفسير أنَّهم طلبوا آية من صالح عليه السلام ، وفى بعض الروايات أنهم طلبوا آية بعينها ، وهى أن تخرج ناقة عشراء من صخرة الجبل ، فقام صالح يصلِّى ويدعو ، وما زال يصلِّى ويدعو حتى انصدعت الصخرة التى عينوها عن سنامها ، فخرجت ناقة عشراء جعلها الله امتحانا واختباراً، ليشاهدوا بأم أعينهم المعجزة الواضحة ، وطلب الله من صالح أن يراقبهم عن بعد ، وأن يصبر على أذاهم .

٢٨ - وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ .

أخبرهم يا صالح أن ماء قريتهم من البئر ، أو من النُّهير الذى يشربون منه ، قسمة بينهم وبين الناقة.

كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ .

كل نصيب خاص بصاحبه يحضره دون غيره ، وما تشربه الناقة من الماء تُحيله إلى لبن خالص ، وتقف عند كل باب من أبواب المدينة ليحلبوا من لبنها ، وطالت المدّة ، وملُّوا اللبن والسعادة ، فنادوا صاحبهم قدار بن سالف عاقر الناقة .

٢٩ ، ٣٠ - فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ .

اجتمعوا وغرَّتهم النعمة التى ينعمون بها ، وهى شُرب اللبن خالصا بدون مشقّة ، وبطروا النعمة ، وكلّفوا شقيا مع رهط من الأشقياء ، فبيتوا أمرهم على ذبح هذه الناقة ، واختبأ قدار بن سالف فى شجرة فى طريق الناقة ، فضرب رجليها بالسيف ثم ذبحها .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ .

وهذا استفهام للتهويل والتعجيب والتفخيم ، أى : كيف كان العذاب الشديد ، والإنذار الواقعى لهم ؟

٣١ - إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ .

لقد صاح بهم جبريل صيحة واحدة ، كانت صاعقة مهلكة لهم أجمعين ، حيث صاروا فتاتا متهشما أشبه شىء بالشجر اليابس ، أو القمح الناشف الذى تحوّل إلى تبن ، يقدِّمه صاحب الحظيرة (الزريبة) إلى ماشيته .

ٱلْمُحْتَظِرِ .

قال ابن عباس :

هو الرجل الذى يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم .

والحظيرة (الزريبة) التى يقيمها العرب وأهل البوادى للسكنى، ولمنع البرد والسباع عن الغنم والإبل، من الحظر وهو المنع .

وجاء فى التفسير المنير:

والهشيم : الشجر اليابس المتهشم ، أى : المتكسر .

والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة ليحفظ الغنم من الذئاب .

ووجه الشبه أن ما يحتظر به ييبس بطول الزمان ، وتطوه البهائم فيتكسَّر ، وأنهم صاروا موتى جاثمين ، ملقى بعضهم فوق بعض ، كالحطب الذى يكسر فى الطرق والشارع (٥٩).

٣٢ - وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ .

لقد يسرنا القرآن للتذكر والاتعاظ والاعتبار بالأحداث والوقائع ، فهل من متعظ ومعتبر ؟

«وهذا العذاب الذى أصاب ثمود ، عُبر عنه فى سورة هود بالصيحة ، قال تعالى :

وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ . (هود : ٦٧) .

وعبر عنه فى سورة الأعراف بالرجفة ، قال تعالى :

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ . (الأعراف : ٧٨) .

وعبر عنه فى سورة فصلت بالصاعقة ، قال تعالى :

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (فصلت :١٧)

وعبر عنه فى سورة الحاقة بالطاغية ، قال تعالى :

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ . (الحاقة : ٥) .

ولا تعارض بين هذه التعبيرات ، لأنها متقاربة فى معناها ، ويكمِّل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب»(٦٠) .

وعند التأمل نجد أن القرآن الكريم سمّى عذابهم بالصيحة والرجفة والصاعقة والطاغية ، وكلها أمور تلازم حادثة الهلاك المدمّر التى نزلت بهم ، عندما يصيح الملاك بهم صيحة شديدة ترتجف الأرض بهم ، ثم تأخذهم صاعقة مهلكة ، وقد تكون الصيحة صاعقة ، أو تكون الصاعقة أثرا من آثار الصيحة ، وتسمى طاغية لأنها تعبّر عن التدمير المهلك ، الذى طغى على الهدوء والنعمة والرخاء الذى كانوا يتمتعون به .

إن هناك ناموسًا إلهيا أوجده الله ، نراه فى هدوء الكون وامتثاله ، ومع هذا فإن هناك ناموس الانتقام العادل من الطغاة البغاة ، بصيحة صاعقة راجفة طاغية ، وكلها تعبّر عن الهلاك المُدمِّر الذى أصاب هؤلاء الباغين .

★ ★ ★

٤ - قصة قوم لوط

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ
مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

حاصبا : ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ، قال فى الصحاح : الحاصب : الريح الشديدة التى تثير الحصباء .

نجيناهم بسحر : السدس الأخير من الليل ، حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

أنذرهم بطشتنا : أخذتنا الشديدة بالعذاب .

فتماروا بالنذر : شكُّوا فى الإنذارات ولم يصدّقوها .

راودوه عن ضيفه : طلبوا منه تمكينهم منهم ليفجروا بهم .

فطمسنا أعينهم : حجبناها عن الإبصار ، فلم تر شيئاً .

بكرة : أوّل النهار .

مستقر : دائب بهم إلى أن يهلكوا .

تمهيد :

هذه قصة رابعة ، سبقتها قصص قوم نوح ثم عاد ثم ثمود ، وهنا قصة قوم لوط ، وقد كانوا يرتكبون فاحشة اللواط بالذكور ، وهى المثلية الجنسية ، حيث يستغنى الرجال بالرجال ، والنساء يساحقن النساء ، وهو شذوذ مذموم ، وخروج على الفطرة الإلهية ، فقد خلق الله الذكر والأنثى ليكونا سكنا ، وليكوّنا أسرة وذرية ، ولتعمر الحياة بهما .

وقد أنذر لوط قومه بالعذاب ، فكذبوه وتشككوا فى صدقه ، فأنزل الله بهم العذاب ، وأمطرتهم السماء بحجارة مهلكة ، حتى أهلك المكذبين عن آخرهم .

التفسير :

٣٣ - كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ .

أى : هذا حال قوم آخرين ، وهم قوم لوط الذين كذبوا رسولهم وخالفوه ، وكذبوا بالآيات التى أنذرهم الله بها ، واقترفوا الفاحشة .

٣٤ - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ .

أرسلنا على قوم لوط حجارة ترميهم بالحصباء ، وهى الحصى والحجارة ، فأهلكتهم ودمّرتهم ، إلا آل لوط وهم ابنتاه ، أو ابنتاه ومن آمن معه ، نجيناهم فى الهزيع الأخير من الليل ، حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

٣٥ - نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ .

كانت نجاتنا للوط ومن آمن معه نعمة وفضلا منا ، حيث حفظناهم من العذاب المهلك المدمّر ، ونحن دائماً نجزى الشاكرين بالحفظ والنجاة والفوز ، ونعاقب الكافرين بالهلاك .

٣٦ - وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ .

ولقد خوفهم لوط من عقاب الله المدمّر ، فتشككوا فى قوله ولم يصدّقوه بل أعرضوا عنه وكذّبوه.

٣٧ - وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ .

جاءت الملائكة إلى لوط فى صورة شبان مرد حسان ، وبعثت امرأته العجوز الخائنة لأمانة زوجها إلى قومها تخبرهم بوجود شباب حسان عند لوط ، فأقبلوا مسرعين راغبين فى الفجور واللواط بهؤلاء

الشباب ، ولم يفتح لهم لوط الباب ، وعرض عليهم الزواج من ابنتيه فرفضوا ، وقالوا : ليست لنا رغبة فى النساء ، إنما نريد اللواط بمن عندك من الشباب ، وهجموا على باب منزله يريدون كسر الباب ، وهنا نزل جبريل من السماء فمسح عيونهم فلم يروا شيئا ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطا بالانتقام منه فى الصباح .

ثم حكى القرآن ما قيل لهم على ألسنة الملائكة : فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ .

أى : ذوقوا ألم عذاب الله ، وعاقبة تكذيب إنذاراته .

٣٨ – وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ .

ولقد أتاهم صباحاً عذابٌ لازم مهلك مدمّر ، والعذاب المستقر : الثابت الذى لا محيد عنه ، أو الذى استقر عليهم إلى الاستئصال الكلى .

٣٩ – فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ .

أى : ذوقوا جزاء أفعالكم ، وارتكاب اللواط فى ناديكم ، وذوقوا ما لزم من إنذاركم السابق بعذاب عاجل فى الدنيا ، وإنذار بعذاب آجل فى الآخرة .

٤٠ – وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ .

ولقد سهلنا القرآن للتذكّر والاعتبار والتأمّل ، كما يسرنا حفظه وتلاوته وترديده للراغبين فيه ، فهل من راغب فى فضل القرآن وتلاوته ؟

وقد تكررت هذه الجملة وما سبقها عقب القصص الأربع للتأكيد والتنبيه ، والاتعاظ والزجر .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله تعالى : فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟

قلت : فائدة ذلك أن يجدِّدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأوّلين ادّكارًا واتّعاظا ، وأن يستأنفوا تنبّها واستيقاظًا ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرَّات ، ويقعقع لهم الشنّ تارات، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله تعالى : فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. (الرحمن :١٣) . عند كل نعمة عدَّها فى سورة الرحمن .

وكقوله تعالى : وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . (المرسلات : ١٩) . عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية فى كل أوان . ا هـ .

★ ★ ★

بيان جزاء المجرمين والمتقين

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ
خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ
وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩)
وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
(٥١) وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥) ﴾

المفردات :

النُّذُر : واحدها نذير بمعنى إنذار ، وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى .

عزيز : لا يُغالَب ولا يُغلَب .

مقتدر : لا يعجزه شىء .

خير من أولئكم : من الكفار السابقين ، مثل قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون .

براءة : صك مكتوب بالنجاة من العذاب .

الزُّبُر : الكتب السماوية ، واحدها زبور.

يولّون : ينصرفون ويرجعون .

الدبر : هاربين منهزمين ، قد أعطوا أدبارهم وظهورهم لمن هزمهم ، وهو كناية عن الهزيمة والفرار . وقد هُزموا يوم بدر ، ونصر الله رسوله ﷺ عليهم ، وهو من دلائل النبوة .

الساعة أدهى : القيامة أعظم داهية وأفظع .

أمَرّ : أشد مرارة من عذاب الدنيا .

إن المجرمين : إن الكفار والمشركين .

سُعُر : نيران مسعَّرة ، أو جنون ، واحدها سعير .

يسحبون : يجرّون .

ذوقوا مسّ سقر : ذوقوا حرّ النار وألمها ، فإن مسَّها - أى إصابتها - سبب للتألم بها .

خلقناه بقدر : بتقدير سابق ، أو خلقناه مقدّرًا محكما .

إلا واحدة : كلمة واحدة ، هى كن .

أشياعكم : أشباهكم فى الكفر .

فهل من مدكر : متعظ ، والاستفهام بمعنى الأمر ، أى : اذكروا واتعظوا .

فى الزُّبُر : مكتوب فى سجل ، أو كتب الحفظة .

مستطر : مسطور مكتوب فى اللوح المحفوظ .

فى جنات : بساتين .

ونَهَر : وأنهار ، والمراد به الجنس ، وقرئ بضم النون وسكون الهاء ، مثل : أُسْد وأَسَد.

مقعد صدق : مكان مرضىّ ، أو فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ، والمراد به أيضا الجنس ، وقرئ : مقاعد ، أى : مجالس من الجنات سالمة من اللغو والتأثيم ، بخلاف مجالس الدنيا فإنها قلّ أن تسلم من ذلك .

مليك : صيغة مبالغة ، أى : عزيز الملك واسع السلطان .

مقتدر : قادر لا يعجزه شيء وهو الله تعالى ، والعندية ليست عندية مكان ، وإنما إشارة إلى الرتبة والقرب من فضل الله تعالى .

تمهيد :

يختم هنا أربع قصص متتابعة هى خلاصة قصص نوح وهود وصالح ولوط مع أقوامهم ، بقصة فرعون وهلاكه بالغرق ، ثم يخاطب الله أهل مكة موبخًا لهم ، مبينا أنهم معرّضون لمثل هذا الهلاك ، وسيهزمون يوم بدر ويولون الأدبار ، ثم يلقون عذابا أشدَّ فى الآخرة ، ثم يعرض مظاهر العذاب للمجرمين والمشركين ، ومظاهر النعيم للمتقين .

وتختم السورة هذا الختام القوىّ الآسر ، ولذلك كان النبى ﷺ يقرأ بسورة «ق» وسورة «القمر» ، فى المحافل الكبار كالجُمع والعيد ، لاشتمالهما على التوحيد ، وبدء الخلق وإعادته ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

وفى فضل سورتى القمر وقٓ يروى الإمام أحمد ، ومسلم ، وأصحاب السنن الأربعة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ قٓ . و ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ . فى الأضحى والفطر . (٦١) .

التفسير :

٤١ – وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ .

والله لقد أرسلنا موسى رسولا إلى فرعون وآله من القبط ، وأخبره موسى أنه رسول من الله ، وقدّم له طائفة من الأدلة على الألوهية الكاملة لله ، وأن القدرة الكاملة له وحده ،وأطلعه على الآيات المتعددة وجاءتهم الآية تلو الآية ، وتوالت عليهم الإنذارات فكذّبوا بها .

٤٢ – كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ .

لقد كذّبوا بمعجزات موسى عليه السلام ، وهى الآيات التسع البينات الواضحات ، وهى : العصا، واليد، والسنون، والطمسة، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، وكان جزاؤهم على التكذيب والعناد أننا عاقبناهم عقابا أليما بالغرق ، وأخذناهم أخذ عَزِيزٍ . لا يُغالب ولا يُدافع ، مُّقۡتَدِرٍ . على الانتقام منهم ، فعّال لما يريد .

٤٣ – أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ .

أى : تلك مصارع الكفار من أقوام نوح وهود وصالح ولوط ، وغرق فرعون وقومه فى الماء ، فما يمنعكم أيها الكفار والمشركون من مثل هذا المصير ؟ وهل معكم وثيقة وكتاب منزل وبراءة من العذاب ، تمنحكم صكا موثّقا بأنكم لا تعذبون ؟

والاستفهام إنكارى ، معناه التقرير والإثبات ، أى لستم أفضل من هؤلاء الكفار الهالكين ، وليست معكم براءة من العذاب .

٤٤ - أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ .

أى : بل أيقول هؤلاء الكفار : نحن أولو حزم وعزم ، وأمرنا مجتمع متحد ، لا يضام ولا يرام ، وسينتصر جمعنا على محمد وأصحابه .

رُوى أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر فتقدم الصفّ ، وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد ، أى نغلبه وننتقم منه ، وهكذا سدّ القرآن عليهم كل منفذ ، ووضّح إفلاسهم ، فهم ليسوا أفضل ممن سبقهم من الكفار الهالكين ، وليس معهم صك أو وثيقة أو براءة تثبت نجاتهم فى الدنيا من العذاب ، وسلامتهم فى الآخرة من النّار ، ثم واجه غرورهم بقوّتهم وطمعهم فى النصر على جند الله وقدره ، ثم أجابهم بقوله تعالى :

٤٥ - سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ .

سيغلبون ويهزمون فى بدر ، ويولّون منهزمين أمام جيش المسلمين .

وهذه الآية مكيّة ، نزلت قبل معركة بدر بسبع سنين ، وهى من دلائل النبوة ، وقد تحققت يوم بدر ، حيث قُتل سبعون كافرا ، وأسر سبعون كافرا ، وفرّ الباقون .

أخرج البخارى ، والنسائى ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال وهو فى قبةٍ له يوم بدر : «أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبداً» . فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدّرع ، وهو يقول : «سيهزم الجمع ويولّون الدّبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» . [٦٢]

قال ابن عباس :

كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين ، فالآية مكية .

وقال ابن الجوزى : وهذا مما أخبر الله به نبيّه من علم الغيب ، فكانت الهزيمة يوم بدر .

٤٦ - بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ .

ليس هذا تمام عقابهم ، بل هناك عقاب أشدّ وهو عقابهم يوم القيامة ، والقيامة أعظم داهية ، وأشد مرارة من القتل والأسر .

و أَدْهَىٰ . مبالغة من الدّاهية ، وهى الأمر الفظيع الذى لا يُهْتدَى إلى الخلاص منه .

وَأَمَـرُّ . مبالغة فى شدة المرارة عند الذوق ، على سبيل الاستعارة ، لصعوبتها على النفس.

٤٧ - إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ .

إن المجرمين فى حيرة وضلال وبُعْد عن الحق فى الدنيا ، وفى نيران مسعرة فى الآخرة ، أو المراد بالسُعُر الجنون

قال ابن عباس : هم فى خسران وجنون . ا هـ .

لقد انطمست بصائرهم فى الدنيا ، فعميت عن الحق ، وآثرت الضلال على الرشد ، واشتدّ تعلقهم بالدنيا وترفها وملذاتها ، كأنما أصابهم مَسّ من الجنون فأصبحوا كالحيوانات المسعورة .

٤٨ - يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ .

يوم يُجَرُّون فى النار على وجوههم نكاية لهم وإذلالا لتجبّرهم ، والوجه أكرم شىء فى الإنسان ، فإذا رأى الإنسان أذًى يتجه إلى وجهه حاول إبعاده عن وجهه بيديه ، لكنه يوم القيامة يُرغم على لقاء العذاب بوجهه ، كما قال سبحانه وتعالى :

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ... (الزمر : ٢٤) .

قال ابن كثير :

أى : كما كانوا فى سُعُر وشك وتردد ، أورثهم ذلك النار ، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا : ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ . ا هـ .

أى : يقال لهم : ذوقوا مس جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وقاسُوا آلامها وعذابها .

قال أبو السعود : وسقر علم لجهنم ، ولذلك لم يُصرف . ا هـ .

أى : هو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

٤٩ - إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ .

كل شىء فى هذا الكون أبدع الله صنعه، وأحكم تقديره على مقتضى الحكمة البالغة، والنظام الشامل ويحسب السنن التى وضعها فى الخليقة .

قال تعالى : وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا . (الفرقان : ٢) .

وقال عز شأنه : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾. (الأعلى : ١-٣) .

وقد استدل أهل السنّة بهذه الآية الكريمة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته - أى تسجيله - لها قبل حدوثها .

أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «كل شيء بقدر ، حتى العجز والكسل» [٦٣] .

وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد ومسلم أيضا ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل : قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» [٦٤] .

وأخرج أحمد ، والترمذى ، والحاكم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «يا غلام ، إنى أعلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرُّوك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف» [٦٥].

إذا تأملنا فى هذا الكون البديع المنظم أدركنا أن يد القدرة البالغة وراء التناسق والتكامل بين أجزاء الكون وما فيه .

فالسماء والنجوم والكواكب والمجرات ، والشمس والقمر والليل والنهار ، والأرض والبحار والأنهار ، والجبال والهواء والفضاء ، كل هذه المخلوقات على آية من الإبداع والتناسق والتكامل ، بحيث تصيح وهى صامته : إن يد القدرة هى التى أبدعت كلَّ شيء، وخلقت النجوم بقدر فى مجراتها ومسيراتها، إلى حدّ أن افتراض أى اختلال فى أية نسبة من نسبها يودى بهذه الحياة كلّها ، أو لا يسمح أصلاً بقيامها ، فحجم الأرض وكتلتها وبعدها عن الشمس ، وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها ، وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها فى دورانها حول نفسها وحول الشمس ، وبُعْد القمر عن الأرض ، و حجمه وكتلته ، وتوزيع الماء واليابس فى هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديرا ، لو وقع الاختلال فى أىّ منها لتبدَّل كلّ شيء، ولكانت هى النهاية المقدَّرة لعمر الحياة على هذه الأرض .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ . (فاطر : ٤١) .

سبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض ، وسبحان من بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى : وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً . (الإسراء : ١٢) .

وستجد فى أعقاب تفسير سورة (القمر) إن شاء الله ضميمة فى بيان النظام البديع فى هذا الكون .

قال تعالى : ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ (السجدة : ٦، ٧)

٥٠ - وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ .

إنه سبحانه فعَّال لما يريد ، وإذا أراد تحقيق أمْرٍ أمرَ به مرة واحدة ، لا تكرير فيها ، ولا تأخير لتحقيق ما يريد ، بل يتحقق كل مراده فى سرعة مطلقة كلمح البصر، ولله در القائل :

إذا أراد الله أمرًا فإنما ... يقول له كُن قولة فيكون

ولمح البصر : إغماض البصر ثم فتحه ، وهذا تمثيل وتقريب لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الأشياء، فهو كلمح البصر أو أقرب ، كما قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس: ٨٢) .

فالكون فى قبضته سبحانه ، وَٰحِدَةٌ . تنشئ هذا الوجود الهائل ، و وَٰحِدَةٌ . تبدّل فيه وتغير ، و وَٰحِدَةٌ تذهب به كما يشاء الله ، وكل ذلك يبعث فى نفوس المؤمنين الأمل والرجاء ، والثقة بوعد الله ونصره للمتقين ، فمن وجد الله وجد كلّ شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

٥١ - وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ .

تالله لقد أهلكنا أمثالكم فى الكفر ، كعاد وثمود ، وفرعون وملئه ، وقوم لوط ، فهل من متعظ يتذكّر أن وعد الله حقّ، فيسارع إلى التوبة والإيمان قبل فوات الأوان .

٥٢ ، ٥٣ - وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ .

كل صغيرة وكبيرة ، كل ذنب أو معصية ارتكبها المجرمون سُجلت فى الكتب التى بأيدى الملائكة عليهم السلام ، وكل صغير من الأمور أو كبير منها ، قد سُطر تسطيراً وسُجّل تسجيلا ، ودُوّن فى صحائف الأعمال .

قال سبحانه وتعالى : وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقال سبحانه وتعالى : مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . (ق : ١٨) .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيرا	إن الصغير غداً يعود كبيرا
إن الصغير وإن تقادم عهده	عند الإله مسطّر تسطيرا
فاسأل هدايتك الإله فتتئد	فكفى بربّك هاديا ونصيرا

وفى معنى الآيتين الكريمتين قوله تعالى : وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . (يونس : ٦١) .

٥٤، ٥٥ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ .

فى ختام سورة (القمر) التى حفلت بحديث متواصل عن هلاك المكذبين ، يأتى فى نهايته حديث هادئ ، فيه تكريم المتقين تكريما حسيا ومعنويا ، أما التكريم الحسّى فهو التمتع بالجنات وما فيها من أشجار وثمار ، وحور عين ، وأنهار واسعة متعددة الأشكال والألوان .

قال تعالى : مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

أما التكريم المعنوى : فهم فى مقعد كريم ، ومجلس فاضل رائق ، لا يتكلم فيه إلا بالصدق والفضل والخير ، مع البعد عن الإثم والكذب ، والزور والخطيئة ، وهذا المقعد الذي يحظى به الصادقون ، عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ . عند رب عظيم الملك ، واسع القدرة ، يكرم عباده المتقين الذين جاهدوا فى الدنيا ، وحرصوا على مرضاة الله فى دنياهم ، فالله تعالى يقرّبهم منه ، ويكرمهم عنده ، وهى عِنْدِيَّةُ منزلة وقربى وزلفى ، ومكانة رفيعة .

أخرج أحمد، ومسلم، والنسائى، عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبى ﷺ قال : «المقسطون عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلّوا» [٦٦].

★ ★ ★

فى أعقاب تفسير سورة القمر

ضميمة عن الإبداع والنظام فى الكون ، وعن التوازن فى علاقة بعض الأحياء ببعض ، بمناسبة تفسير قوله تعالى : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . (القمر : ٤٩) . من كتاب (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب رحمه الله وطيب ثراه .

«إن الجوارح التى تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلا على أنها لا تعيش إلا فى مواطن خاصة محدودة ، وهى فى مقابل هذا طويلة الأعمار ، ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة فى كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها ، أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بنى الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة فى هذه الأرض .

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاتٌ نزور

وذلك للحكمة التى قدرها الله كما رأينا ، كى تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث .

والذبابة تبيض ملايين البويضات ، ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين ، ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ، ولغدت حياة كثير من الأجناس – وأولها الإنسان – مستحيلة على وجه الأرض . ولكن عجلة التوازن التى لا تختل فى يد القدرة التى تدبر هذا الكون، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذى نراه .

والميكروبات – وهى أكثر الأحياء عددا ، وأسرعها تكاثرا ، وأشدها فتكا – هى كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا ، تموت بملايين الملايين من البرد ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض المعدات، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة ، ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان ، ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء !.

وكل حى من الأحياء مزود بسلاح يتقى به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء ، وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع ، فكثرة العدد سلاح ، وقوة البطش سلاح ، وبينهما ألوان وأنواع ..

الحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها ، والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومن ثم يندر فيها السام !

والخنفساء – وهى قليلة الحيلة – مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من يلمسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجرى والقفز ، والأسود مزودة بقوة البأس والافتراس !

وهكذا كل حى من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حى مزود كذلك بالخصائص والوسائل التى يحصل بها على طعامه ، والتى ينتفع معها بهذا اللون من الطعام .. الإنسان والحيوان والطير وأدنأ أنواع الأحياء سواء .

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوى تلصق بالرحم ، وهى مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها ! والحبل السرى الذى يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روعى فى تكوينه الغرض الذى تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدى إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه».[٦٧] .

«والثدى يفرز فى نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا إلى الاصفرار ، ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقى الطفل من عدوى الأمراض ، وفى اليوم التالى للميلاد يبدأ اللبن فى التكوين ، ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذى يفرزه الثدى يوما بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالى لتر ونصف فى اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته فى الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل ، بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكّوناته، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات فى أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يومًا بعد يوم ، بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو»[٦٨] .

وتتبع الأجهزة المختلفة فى تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها فى المحافظة على حياته وصحته .. يكشف عن العجب العجاب فى دقة التقدير وكمال التدبير ، ويرينا يد الله وهى تدبر أمر كل فرد ، بل كل عضو ، بل كل خلية من خلاياه ، وعين الله عليه تكلؤه وترعاه ، ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فنكتفى بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق فى جهاز واحد من هذه الأجهزة ، جهاز الغدد الصم «تلك المعامل الكيماوية الصغيرة التى تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتى يبلغ من قوتها أن جزءا من ألف بليون جزء منها تحدث آثارا خطيرة فى جسم الإنسان ، وهى مرتبة بحيث إن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى ، وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيدًا مدهشا ، وأن أى اختلال فى إفرازها يسبب تلفا عاما فى الجسم ، يبلغ حد الخطورة إذا دام هذا الاختلال وقتا قصيرا» .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته ..

«زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التى تعيش فى الفلاة ، ولا غذاء لها إلا ما تفترسه من كائنات لابد من مهاجمتها والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت فى هجومها لابد أن تستعمل عضلاتها ، فلأرجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوت معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام » . [٧٠] .

أما الحيوانات المجترة المستأنسة التى تعيش على المراعى ، فهى تختلف فيما زودت به ..

«وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبيا ، وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة ، وبدلا منها توجد الأسنان التى تتميز بأنها قاضمة قاطعة ، فهى تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدى للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات ، وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة للهضم ، فالطعام الذى تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومى وجلس للراحة ، يذهب الطعام إلى تجويف يسمى «القلنسوة» ، ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغا جيدا ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى «أم التلافيف» ، ثم إلى رابع يسمى «الإنفحة» وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيرا ما يكون هدفا لهجوم حيوانات كاسرة فى المراعى ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفى .

ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ إن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السليلوز الذى يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جدا ، فلو لم يكن مجترا ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل فى الرعى ، يكاد يكون يوما بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات فى عمليات التناول والمضغ ، إنما سرعة الأكل، ثم تخزينه وإعادته بعد أن يصيب شيئا من التخمر ، ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر »[٧١] .

«والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم .

بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، توائم البحث عن الغذاء فى الطين والماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض ، بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد ، إذ إن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبو قردان طويل مدبب، أُعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدانِ ، التى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فَلَمَّا لَمْ يعط أسنانا فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام ، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام» . [٧٢].

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لو رحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى «الإميبا» وهى ذات الخلية الواحدة ، لنرى يد الله معها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها أمرها تقديرا .

«والإميبا كائن حى دقيق الحجم ، يعيش فى البرك والمستنقعات ، أو على الأحجار الراسبة فى القاع. ولا تُرى بالعين إطلاقا وهى تُرى بالمجاهر كتلة هلامية ، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات ، فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام ، للسير بها إلى المكان المرغوب ، ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة . وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أو زائدتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتتغذى بالمفيد منه ، أما الباقى فتطرده من جسمها ! وهى تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسجين من الماء .. فتصور هذا الكائن الذى لا يرى إطلاقا بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ! فإذا ما تم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيوانا جديدا .

وعجائب الحياة فى النبات لا تقل فى إثارة العجب والدهشة عن عجائبها فى الإنسان والحيوان والطير، والتقدير فيها لا يقل ظهورا وبروزا عنه فى تلك الأحياء» [٧٣] . وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا . (الفرقان : ٢) .

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل فى التقدير والتدبير ، إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة ، صغيرها وكبيرها ، كل حركة فى التاريخ ككل انفعال فى نفس فرد ، ككل نَفَس يخرج من صدر ! إن هذا النَّفَس مقدر فى وقته ، مقدر فى مكانه ، مقدر فى ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ، محسوب حسابه فى التناسق الكونى ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا العود البرى النابت وحده هناك فى الصحراء .. إنه هو الآخر قائم هناك بقدر، وهو يؤدى وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان ! وهذه النملة السارية ، وهذه الهباءة الطائرة ، وهذه الخلية السابحة فى الماء، كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !

تقدير فى الزمان ، وتقدير فى المكان ، وتقدير فى المقدار ، وتقدير فى الصورة ، وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال .

من ذا الذى يذكر مثلا أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هى أم يوسف وبنيامين أخيه ، لم يكن حادثا شخصيا فرديا .. إنما كان قدرًا مقدورًا ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه فى الجب – ولا يقتلوه – لتلتقطه السيارة ، لتبيعه فى مصر لينشأ فى قصر العزيز ، لتراوده امرأة العزيز عن نفسه ، ليستعلى على الإغراء ، ليلقى فى السجن .. لماذا؟ ليتلاقى فى السجن مع خادمى الملك ، ليفسر لهما الرؤيا.. لماذا ؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يارب يتعذب يوسف ؟ لماذا يارب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبى بصره من الحزن ؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكى كل هذا الألم المنوع الأشكال ؟ لماذا ؟ .. ولأول مرة تجىء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن فى العذاب ، لأن القدر يعدُّه ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة فى سنى القحط السبع ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته ليكون من نسلهم شعب بنى إسرائيل ، ليضطهدهم فرعون ، لينشأ من بينهم موسى – وما صاحب حياته من تقدير وتدبير – لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته! وتؤثر فى مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذى يذكر مثلا أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثا شخصيا فرديا، إنما كان وما سبقه فى حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه فى العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر، لتلد له إسماعيل ، ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم ، لينشأ محمد ﷺ من نسل إبراهيم – عليه السلام – فى هذه الجزيرة ، أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام .. ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر فى تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد .. لكل حادث ، ولكل نشأة ، ولكل مصير ، ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحيانا يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد ، وأحيانا يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير فى عمرهم القصير ، فتخفى عليهم حكمة التدبير ، فيستعجلون ويقترحون ، وقد يسخطون أو يتطاولون !

والله يعلمهم فى هذا القرآن أن كل شىء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله فى توافق وفى تناسق ، وفى أنس بصحبة القدر فى خطوة المطمئن الثابت الوثيق . (٧٤)

★ ★ ★

خلاصة موضوعات سورة القمر

١ – الإخبار بقرب مجىء القيامة .

٢ – تكذيب المشركين للرسول ﷺ ، وقولهم فى معجزاته إنها سحر .

٣ – غفلتهم عما فى القرآن من الزواجر .

٤ – أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم ، حتى يأتى قضاء الله فيهم .

٥ – إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسى الرؤوس ، مسرعين كأنهم جراد منتشر .

٦ – طرف من قصص المكذبين قبل أهل مكة ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وقومه ، وما لاقوه من الجزاء على تكذيبهم .

٧ – توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر.

٨ – جزاء المجرمين فى جهنم ، وألوان العذاب ، والحريق بالنار التى يتعرضون لها .

٩ – كل ما فى الوجود خاضع للقدرة الإلهية الحكيمة ، وكل شىء قد قدّر ونظم بإحكام وتقدير حكيم .

١٠ – جزاء المتقين الجنة ، فى قرب الإله الحكيم المقتدر .

١١ – الدعاء مستجاب عند قراءة آخر سورة القمر ، ثم يقول المؤمن : اللهم يا مليك يا مقتدر ، أسألك خير الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

انتهى بحمد الله تفسير سورة (القمر) ظهر الإثنين ٣ من شعبان ١٤٢١ هـ ، الموافق ٣٠ من أكتوبر ٢٠٠٠ م .

★ ★ ★


تفسير سورة الرحمن

أهـــداف ســـورة الرحمـــٰن

سورة الرحمن مدنية ، وآياتها ٧٨ آية ، نزلت بعد سورة الرعد

وتتميز سورة الرحمن بجرسها وقصر آياتها وتعاقب الآيات : ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ . فنسمع هذا الرنين الأخاذ ، والإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، والنعم المتعددة بتعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وتعليم البيان .. وكل هذه النعم مصدرها رحمة الرحيم الرحمن ، صاحب الفضل والإنعام ، فإذا استرسلنا فى قراءة السورة رأينا حشدًا من مظاهر النعم ، وآلاء الله الباهرة الظاهرة فى جميل صنعه ، وإبداع خلقه ، وفى فيض نعمائه ، وفى تدبيره للوجود وما فيه ، وتوجيه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم .

وسورة الرحمن إشهاد عام للوجود كله على الثقلين : الإنس والجن ، إشهاد فى ساحة الوجود ، على مشهدٍ من كل موجود ، مع تحدٍّ للجن والإنس إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحديًا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التى يعددها ويفصِّلها ، ويجعل الكون كله معرضًا لها ، وساحة الآخرة كذلك .

فبأى آلاء ربكما تكذبان

تكررت هذه الآية فى السورة إحدى وثلاثين مرة ، لتذكر الإنس والجن بنعم الله الجزيلة عليهم ، بأسلوب معجز يتحدى بلغاء العرب ، ولاشك أن هذه النعم الضافية التى أسبغها ربهم عليهم ، تستحق من العباد الشكر والإيمان ، لا الكفر والطغيان .

والآلاء جمع إلى وهى النعمة ، أى نعم الله عليكم وافرة ، ترونها أمامكم وخلفكم وفوقكم وتحتكم ، فبأى هذه النعم تكذبان ؟ والخطاب هنا للجن والإنس لتذكيرهما بالأفضال المتلاحقة من الله ، ولا يستطيعان أن يكذبا أو يجحدا أى نعمة من هذه النعم .

روى أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال النبى ﷺ : «لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردًّا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» .

كما روى أن قيس بن عاصم المنقرى جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا محمد ، اتل علىّ شيئًا مما أنزل عليك ، فتلا عليه سورة الرحمن ، فقال : أعدها ، فأعادها ﷺ ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأسفله مغدق ، وأعلاه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

المعنى الإجمالى للسورة

المنة على الخلق بتعليم القرآن وتلقين البيان ، ولفت أنظارهم إلى صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله.. الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة ، والميزان الموضوع ، والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس ، والمشرقين والمغربين ، والبحرين بينهما برزخ لا يبغيان وما يخرج منهما وما يجرى فيهما .

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار ، عرض مشهد فنائها جميعًا ، مشهد الفناء المطلق للخلائق ، فى ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقى ، الذى إليه تتوجه الخلائق جميعا ليتصرف فى أمرها بما يشاء، قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وفى ظل الفناء المطلق للإنسان ، والبقاء المطلق للرحمن ، يجىء التهديد المروع والتحدى الكونى للجن والإنس ، ومن ثم يعرض مشهد النهاية ، مشهد القيامة يعرض فى صورة كونية ، يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، ثم يعرض ألوان الثواب للمتقين ، ويصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم أعده الله للمتقين ، ويبين أن منازل الجنات مختلفة ، ونعيمها متفاوت ، والجزاء على قدر العمل .

كل يوم هو فى شأن

قال المفسرون : شئون يبديها لا شئون يبتديها[٧٥] ، فهو سبحانه صاحب التدبير الذى لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خَافٍ ، والخلق كلهم يسألونه ، فهو مناط السؤال ، وغيره لا يسأل ، وهو معقد الرجاء ومظنة الجواب .

وهذا الوجود الذى لا نعرف له حدودًا كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته ، وهو سبحانه قائم بتدبيره .

هذا التدبير الذى يتبع ما ينبت ، وما يسقط من ورقة ، وما يكمن من حبة فى ظلمات الأرض ، وكل رطب وكل يابس ، يتبع الأسماك فى بحارها ، والديدان فى مساربها ، والوحوش فى أوكارها ، والطيور فى أعشاشها ، وكل بيضة وكل فرخ ، وكل خلية فى جسم حى .

تفسير النسفى للآية :

فى تفسير قوله تعالى : يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ . (الرحمن : ٢٩) ، قال النسفى : يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... كل من فى السماوات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السماوات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم .

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ : كلَّ وقت وحين يُحدث أمورًا ويُجدد أحوالاً ، كما روى أنه ﷺ تلاها ، فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : «من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرّج كربًا ، ويرفع قومًا ويضع آخرين» .

وعن ابن عيينة : الدهر عند الله يومان ، أحدهما اليوم الذى هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع . واليوم الآخر هو يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب .

وقيل : نزلت فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شأنًا .

وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية ، فاستمهله إلى الغد ، وذهب كئيبًا يفكر فيها ، فقال غلام له أسود: يا مولاى ، أخبرنى ما أصابك ، فأخبره ، فقال الغلام : أنا أفسرها للملك فأعلمه ، فقال : أيها الملك ، شأن الله أنه يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى، ويشفى سقيمًا ويسقم سليمًا ، ويبتلى معافى ويعافى مبتلى ، ويعزّ ذليلاً ويذل عزيزًا ، ويغنى فقيرًا . فقال الملك : أحسنت ، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة ، فقال : يا مولاى ، هذا من شأن الله .

وقيل : سوق المقادير إلى المواقيت .

وقيل : إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت علىّ آيات دعوتك لتكشفها لى ، قوله تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ . وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال الحسين : كل يوم هو فى شأن ، فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها[٧٦] ، أى يظهرها لعباده فى واقع الناس على وفق ما قدره فى الأزل من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال ، وإغناء وإعدام ، وإجابة داع وإعطاء سائل ، وغير ذلك[٧٧].

فالناس يسألونه سبحانه بصفة مستمرة ، وهو سبحانه مجيب الدعاء ، بيده الخلق والأمر ، يغير ولا يتغير ، يجير ولا يجار عليه ، يقبض ويبسط ، يخفض ويرفع ، وهو بكل شىء عليم .

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

★ ★ ★

أنعم الله المتعددة



﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ
﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ
ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

الرحمن : هو الله تعالى ، المنعم بجلائل النعم الدنيوية والأخروية ، وهو اسم من أسماء الله الحسنى .

علّم القرآن : قدم ذلك ، لأن أصل النعم الدينية وأجلّها هو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين .

علمه البيان : علمه النطق المعرب عما فى الضمير .

بحسبان : بحساب وتدبير .

يسجدان : يخضعان لتدبيره تعالى .

ووضع الميزان : ووضع العدل .

ألا تطغوا : لئلا تتجاوزوا فيه الحق .

بالقسط : بالعدل .

ولا تُخسروا الميزان : ولا تنقصوه .

والأرض وضعها : خلقها موضوعة مخفوضة .

للأنام : للخلق .

الأكمام : أوعية الثمر .

العصف : ورق النبات اليابس كالتبن .

الريحان : المشموم ، أو الرزق .

آلاء : جمع إلى ، وهى النعمة ، مثل : معى وأمعاء .

تمهيد :

تبدأ السورة باسم الله : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ ، ثم تعدد نعم الله تعالى التى لا تعد ولا تحصى ، ومن هذه النعم ما يأتى :

١ – تعليم القرآن للبشر ، وهو كلّى الشريعة وأصل أصولها .

٢ – خلق الإنسان ليكون خليفة لله فى الأرض .

٣ – تعليمه البيان والنُّطق ، والإعراب عما فى نفسه .

٤ – إبداع نظام الكون ، وتسخير الشمس والقمر بحساب دقيق ، يترتب عليه نظام الحياة ، والزراعة وسائر الأعمال .

٥ – النجم المرتفع فى السماء ، والشجر النابت فى الأرض يَسْجدان للَّه ويخضعان لأمره .

٦ – وقد رفع الله السماء ، وأنزل الميزان ، وهو الحق والعدل .

٧ – أمرنا الله أن نحافظ على الحق والعدل .

٨ – وضع الله الأرض مبسوطة لمصلحة الأنام ، حيث أرساها وثبّتها بالجبال .

٩ – جعل الله فى الأرض العديد من النعم ، مثل الفاكهة وأشجار النخل التى تحمل البلح ، كما جعل من الثمار ما يؤكل ، مثل حبِّ الذرة والشعير والقمح ، ومنه ما يشمّ مثل الريحان .

١٠– بأىّ نعمة من أنعم الله العديدة ، يا معشر الجن والإنسان تكذبان ؟

التفسير :

١ ، ٢ – ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ .

اسم الله ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ ، معناه أن الرحمة صفة وجودية قديمة ، قائمة بذاته سبحانه وتعالى ، فهو الرحمن ، ورحمته تنتقل إلى عباده فهو رحيم بهم ، وفى سورة الفاتحة : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ . (الفاتحة : ٣) . فما أكثر رحمته بعباده ، ومن أجلّ هذه النعم إنزال القرآن على محمد ﷺ ، بواسطة جبريل الروح الأمين .

قال تعالى : عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . (النجم : ٥) .

وقال سبحانه : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

ومن أجلّ النعم إنزال هذا الكتاب على الرسول الأمين محمد ﷺ ، وقد علّمه الله إياه ، وتكفّل بحفظه في قلبه ، وقراءته على لسانه .

قال تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ . (القيامة : ١٦ – ١٩) .

وقد ادّعت قريش أن النبى يتعلم القرآن من حداد رومى كان يجلس عنده ، فردّ الله عليهم ، وبيَّن أن الله هو الذى علم محمدًا هذا الكتاب ، حيث قال سبحانه : ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ .

وقال عز شأنه : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . (النمل : ٦) .

وقال عز شأنه : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . (النجم : ٣ ، ٤) .

فضل القرآن

جعل الله الثواب العظيم فى تلاوة القرآن وحفظه ، وتعليمه وتعلّمه ، وقد اشتمل القرآن الكريم على التشريع والعبادات والمعاملات ، والآداب ، وأخبار السابقين ، وقصص المرسلين ، وأخبار القيامة ، وكل ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم ، ولذلك كان أعظم المنن : عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ .

وللمفسرين هنا رأيان :

الأول : أن الله علم القرآن للبشر وللناس حتى يهتدوا بهدى الله ، ومكّن الإنسان من استيعاب هذا الكتاب ، وتلاوته وحفظه وفهم معانيه .

قال تعالى : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . (القمر : ١٧) .

أى سهّلنا تلاوة القرآن وقراءته وفهمه لمن رغب فى ذلك ، فهل من متعظ راغب فى هذا الخير ؟

الثانى : أن الله علم القرآن لمحمد ﷺ، ثم تعلّم منه الصحابة، وتناقل الناس تعليم القرآن عن الصحابة.

٣ ، ٤ – خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ .

خلق الله آدم ، ومنحه القدرة على التعليم والتعلّم ، واستنباط المجهول من المعلوم ، وبهذه القوى الظاهرة والباطنة التى منحها الله للإنسان ، استطاع أن يبين عما فى نفسه ، وأن يفهم كلام غيره ، وأن يستفيد من تجارب غيره ، وبذلك وصل الإنسان إلى القمر ، بينما لا تزال القرود على الشجر .

وقيل : المراد بتعليمه البيان تعليمه التكلم بلغات مختلفة .

٥ – ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ .

تتابُع سير الشمس فى منازلها ، وسير القمر فى منازله ، يترتب عليه مجىء الليل والنهار ، وتتابع الفصول الأربعة ، وحساب أوقات الزراعة ، وطلوع الأهلّة ، ومعرفة الشهور ، وأوقات الصيام والحج ، وقضاء الدَّين ، وانقضاء العدة ، وغير ذلك من المصالح المتعددة .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً . (الإسراء : ١٢) .

وقال تعالى : فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . (الأنعام : ٩٦).

٦ – وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ .

النجم المرتفع فى السماء يدور فى مداره ، ويخضع لنظام القدرة الإلهية التى تمسك بزمام السماء ، والشجر خاضع لقدرة الله الذى يسَّر للشجر الماء والهواء والفضاء ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، أى أن السماء العالية ونجومها الزاهرة ، والأرض المنبسطة وأشجارها الخضراء ، يسجدان لله خاضعين لقدرته .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ... (الحج : ١٨) .

وقيل : المراد بالنجم : النبات الذى لا ساق له ، والشجر : الذى له ساق ، ينقادان لقدرة الله ، فإنَّ ظهورهما بشكل معين لوقت معين ولأجل معين ، وجعلهما غذاء للإنسان ، ومتعة له شكلاً ولونًا ، ومقدارًا وطعمًا ورائحة ، انقيادٌ لقدرة الله تعالى .

٧ – وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ .

جعل الله السماء سقفًا مرفوعًا ، وزيَّنها بالنجوم ، وجعل فيها الملائكة واللَّوح المحفوظ ، وفيها أبراجٌ وأفلاك ونجوم ، وملائكة ووحى ، وأنزل الميزان فى الأرض ليقوم النَّاس بالعدل والقسط ، قال ﷺ : «بالعدل قامت السماوات والأرض» أى : بقيتا على أتقن نظام وأحسنه .

وفى الحديث القدسى : «يا عبادى، إنى حرَّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[٧٨].

ويقول سبحانه وتعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ... (النساء : ٤٠) .

ويقول تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

فالله تعالى عادل ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض ، وأنزل الله الميزان بمعنى أنَّه أمر بالعدل والقسط فى شريعته وفى أحكامه ، وفى تعامل الناس بعضهم مع بعض .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ... (النساء : ٥٨)

٨ ، ٩ – أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ .

أى : أنزل الله الميزان إلى الأرض ، وقال ابن عباس : المراد بالميزان ما تعرف به مقادير الأشياء ، وهو الآلة المسماة بهذا الاسم ، أى أوجده فى الأرض ليضبط الناس معاملاتهم فى أخذهم وعطائهم .

أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ .

الطغيان : تجاوز الحد والنَّصفة ، وهذه الآية كالتعليل لما سبقها .

أى : أنزل الميزان حتى لا يطغى إنسان على أخيه ، فيظلمه ولا ينصفه ، كما يجب الوزن بالعدل ، والبيع والشراء بالقسط ، وعدم تجاوز الحدود ، وعدم تطفيف الكيل والميزان .

وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ .

أى : قوِّموا وزنكم بالعدل ، ولا تنقصوه ولا تبخسوه شيئًا ، بل زِنوا بالحق والقسط ، كما قال تعالى : وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ . (الشعراء : ١٨٢) .

وقد تكرر الأمر بالعدل والتوصية به والحث عليه لأهميته ، وللتنبيه على شدة عناية الله تعالى بإقامة العدل بين الناس فى معاملاتهم وفى سائر شئونهم ، إذ بدونه لا يستقيم لهم حال ، ولا يستقر لهم قرار ، فقد أمر سبحانه بالتسوية والعدل ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحدّ ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

وقال قتادة فى الآية : اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يُعدل لك ، وأوْفِ كما تحب أن يوفّى لك ، فإن فى العدل صلاح الناس .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ** ... (الحديد : ٢٥) .

١٠ - وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ .

بسط الله الأرض ، وذلل طرقها ، وأرسى جبالها ، وسخّر بها الماء والبحار والأنهار والأشجار ، ليستفيد بها الأنام ، أى الناس جميعًا ، أو المخلوقات من الإنس والجن ، والحيوان والأسماك ، والطيور وسائر المخلوقات ، وكل ما على وجه الأرض .

١١ - فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ .

فى الأرض ما يتفكه الناس بأكله ، من صنوف الفواكه التى تؤكل على سبيل التفكّه والتلذذ ، لا على سبيل القوت الدائم ، وفيها النخيل ذات الأوعية التى يكون فيها الثمر ، وأفرد النخيل بالذكر لكثرتها فى بلاد العرب ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السِّلال والزنابيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جمَّارها وبلحها ، ومن ثمّ ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

١٢ - وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ .

وضع الله الأرض للأنام ، ويسر بها إنبات الفاكهة والنخيل ، والحبوب المتعددة كالذرة والشعير والقمح ، الذى له أوراق تتحول إلى تبن تستفيد به الحيوانات ، وفى الأرض الريحان الذى نستفيد بِحُسن منظره ، وطيب ريحه ، وكذلك الورود وكل مشموم من النبات ذى الورق الذى تطيب رائحته .

قال المفسرون :

الريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، منعش للنفس ، كالورد والياسمين والريحان ، كل ذلك وغيره أعده الله لمنفعة الأنام ، فما أعظم نعم الله على خلقه .

١٣ - فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أى : بأى نعمة من هذه النِّعم المذكورة سابقًا ، يا معشر الجن والإنس تكذبان ؟

لقد ذكر الله فى بداية السورة عددًا من النعم ، منها ما يأتى : تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وتعليمه البيان ، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان ، ورفع السماء ووضع الميزان ، ووضع الأرض للأنام ، وما فيها من فاكهة ونخل وحَبٍّ وريحان ، عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان فى مواجهة الكون وأهل الكون : فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أخرج ابن جرير بسند صحيح ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : «ما لى أسمع الجنّ أحسن جوابًا لربها منكم ؟ ما أتيت على قوله تعالى : فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، إلا قالوا : لا بشىء من نعمك ربَّنا نكذّب ، فلك الحمد» .

قال المفسرون : يستحب أن نقول : لا بشىء من آلائك ربنا نكذّب فلك الحمد ، عند سماع هذه الآية : فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

وقد تكررت : فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرّة بعد كل خصلة من النعم، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لتأكيد التذكير بالنِّعم ، ولتقريرهم بها ، وللتنبيه على أهميتها ، والنعم محصورة فى دفع المكروه وتحصيل المقصود .

★ ★ ★

توضيح أحوال بعض النعم

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ
﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ
فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

صلصال : طين جاف له صلصلة وصوت إذا نُقر.

الفخار : الخزف ، وهو ما أُحرق من الطين حتى تحجّر .

وخلق الجان : أصل الجنّ وهو إبليس .

المارج : اللهب الخالص الذى لا دخان فيه .

رب المشرقين : مشرقى الشتاء والصيف للشمس ، والمغربين : مغربى الشمس شتاء وصيفا ، وقيل : المشرقان : مشرق الشمس والقمر ، والمغربان : مغرب الشمس والقمر .

مرج البحرين : أرسل البحرين العذب والملح .

يلتقيان : يتجاوران وتتماس سطوحهما ، لا فصل بينهما فى رأى العين .

برزخ : حاجز .

لا يبغيان : لا يبغى أحدهما على الآخر ، بالممازجة وإبطال خاصته .

اللؤلؤ : الدرّ المخلوق فى الأصداف .

المرجان : الخرز الأحمر .

الجوارى : السفن الكبار .

المنشآت : المصنوعات .

الأعلام : الجبال ، واحدها علم ، وهو الجبل العالى .

تمهيد :

هذه الآيات استمرار لتعداد نعم الله تعالى فيما يأتى :

١ – خلق الإنسان من طين تحوَّل إلى صلصال كالفخار .

٢ – خلق الجانّ من مارج من نار ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الملائكة خُلقت من نور ، كما ورد فى صحيح مسلم.

٣ – لله تعالى مشرق الشمس والقمر ، ومغرب الشمس والقمر .

٤ – خلط الله البحر المالح والنَّهر العذب ، يلتقيان عند مجمع البحرين ، كما فى دمياط ورشيد ، ولا يبغى أحدهما على الآخر ، ولا يفقده خاصته ، ومن أحدهما – وهو البحر المالح – نستخرج اللؤلؤ والمرجان.

٥ – للَّه سبحانه السفن السابحة فى البحر كالجبال .

٦ – يجب على الإنس والجن شكر الرحمن على أنعمه .

التفسير :

١٤ – خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ .

خلق الله الإنسان من (التراب) ، ثم اختلط التراب بالماء فصار (طينا) ، ثم تُرك مدة فتحول الطين إلى (حمأ مسنون) أى طين يابس منتن ، ثم تحوّل إلى (طين لازب) أى لاصق باليد ، ثم تحوّل إلى (صلصال) أى طين يابس له صلصلة ، أى صوت إذا نقر ، (كالفخار) وهو ما أحرق من الطين حتى تحجّر ويسمى الخزف ، وكل هذه الآيات تعبر عن المراحل التى مرّ بها خلق الإنسان ، فقد عبر القرآن عن أن الله خلق آدم من تراب فى بعض الآيات ، وفى آيات أخرى أنه خلق آدم من طين ، وفى آيات أخرى أنه خلقه من حمأ مسنون ، وفى آيات أخرى أنه خلقه من طين لازب ، وهنا عبر بأنه سبحانه خلق الإنسان من : **صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ** . وكلها تشير إلى المراحل التى مر بها خلق الإنسان ، وكل آية تشير إلى طور من أطوار هذا الخلق ، وكلها تدل على إعجاز القدرة التى خلقت آدم من جنس الأرض ، ثم نفخت فيه الروح ، فصار بشرًا سويًّا ، يجمع بين الجسم ومتطلباته ، والروح ومتطلباتها ، ومن سماحة الإسلام دعوته الخلق إلى إعمار الكون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وإثراء الحياة وفاءً لحق الجسم ، ثم دعوته إلى الإيمان وأداء العبادات وإحسان المعاملات ، رغبة فى إسعاد الروح فى الدنيا ، وتمتعها بنعيم الجنة فى الآخرة ، فالإسلام دعا إلى التوازن بين أداء حق الجسم ، وأداء حق الروح .

وفى الحديث الصحيح : «إنّ لربك عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، فأعْطِ كل ذى حق حقّه»[٧٩] .

١٥ – وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ .

المارج : المشتعل المتحرك ، كألسنة النار مع الرياح .

قال الجوهرى فى الصحاح : المارج : نارٌ لا دخان لها ، خُلق منها الجان .

ونقل القرطبى عن ابن عباس ومجاهد :

المارج : اللهب الذى يعلو النار ، يختلط بعضه ببعض : أحمر ، وأصفر ، وأخضر .

وقد أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجانّ من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وُصف لكم»[٨٠] .

والمقصود من الآيتين تذكير الإنس والجنّ بفضل الخلق ، وقدرة القدير الذى خلق من الطين بشرًا سويًّا، ومن النار خلق الجن بقدرته .

وتذكير الإنسان بفضل الله عليه ، فقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وفضَّله على كثير من خلقه ، حيث أمر اللَّه إبليس المخلوق من النار بالسجود لأبينا آدم المخلوق من الطين ، فعلينا أن ندرك عظمة الخالق ، وأن نشكره على نعمة الخلق ، وأن نَحْذَر إبليس العدوَّ اللعين .

قال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ .
(فاطر : ٦)

١٦ – فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعمة من نعم الله عليكما –يا معشر الثقلين ، الإنس والجنّ – تكذبان أو تنكران ما هو واقع ملموس؟

١٧ ، ١٨ – رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

للشمس مشرق فى الصيف ، ومشرق فى الشتاء ، ولها مغرب فى الصيف ، ومغرب فى الشتاء .

وقيل : المشرقان : مشرق الشمس والقمر ، والمغربان : مغرب الشمس والقمر .

والمعنى :

الذى أبدع الخلق وسوّاه ، وجعل للشمس مشارق متعددة تصل إلى ٣٦٠ مشرقًا ، و٣٦٠ مغربًا بعدد أيام السنة ، ويترتب على اختلاف مشارقها تعدد فصول العام ، واختلاف الطقس ، ووجود الشتاء والربيع ، والصيف والخريف .

قال تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ ... (المعارج : ٤٠) .

أى : مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم إلى مطلع ، وبروزها منه إلى الناس .

وقال عز شأنه : رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً . (المزمل : ٩) .

والمراد منه : جهة المشرق وجهة المغرب ، أى أنه سبحانه يملك المشرق والمغرب وما بينهما ، فهو سبحانه يملك سائر الجهات ، ويملك الكون كلّه ، وقد أبْدَعَه بنظام بديع يحافظ على مصالح الناس وحياتهم .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أى : أتكذبان بخلقه المشارق والمغارب وما بينهما من الكائنات ، واختلاف الفصول وما يترتب عليه من المنافع والمصالح ، أم تكذبان بغير ذلك ؟

اللهم لا بشىءٍ من آلائك نكذّب ، سبحانك فلك الحمد .

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ – مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ : أرسلهما .

والمعنى : أرسل الله تعالى البحرين – الملح والعذب – وجعلهما يلتقيان فى أطرافهما ، كما يلتقى ماء النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند دمياط ورشيد ، وهذا الالتقاء والتمازج فى الأطراف لم يجعل أحدهما يبغى على الآخر ، فيفقده خاصته ، لأنه تعالى جعل بينهما حاجزًا يمنع التمازج الكلّى بينهما .

قال تعالى : **وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** . (الفرقان : ٥٣) .

قال المفسرون :

أما التقاؤهما فيكون عند مصابِّ الأنهار فى البحار ، وأمَّا البرزخ الذى بينهما فهو القدرة الإلهية التى منعت أن يبغى الماء الملح على العذب فيحوله إلى ملح ، أو أن يبغى العذب على الملح فيحوله إلى عذب، فبقى كلاهما يؤدى وظيفته التى خُلق لها .

قال ابن كثير :

والمراد بالبحرين : الملح والحلو ، فالملح هذه البحار ، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وجعل الله بينهما برزخًا ، وهو الحاجز من الأرض ، لئلا يبغى هذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأىِّ نعم الله تعالى المذكورة فى تيسير الماء العذب من الأنهار ، وتيسير الماء الملح من البحار ، ولكل منهما منافع متعددة لكم ، بأيِّها تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟ ونقول نحن : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٢٢ ، ٢٣ – يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

من الماء المالح يخرج اللؤلؤ والمرجان ، ومعنى يخرج منهما ، أى من الماء : اللؤلؤ والمرجان .

قال القرطبى :

إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ... (الأنعام : ١٣٠) . وإنما الرُّسل من الإنس دون الجن .

وقال الزجاج :

قد ذكرهما الله ، فإذا أُخرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ، وهو كقوله تعالى : أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا . (نوح : ١٥ ، ١٦) . ولكن أجمل ذكر السبع، فكأن باقي إحداهما فيهن .

والله تعالى يقول : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (فاطر : ١٢) .

وجاء في تفسيرها في المنتخب من تفسير القرآن الكريم ما يأتي :

وما يستوى البحران في علمنا وتقديرنا ، وإن اشتركا في بعض منافعهما ، هذا ماؤه عذب يقطع العطش لشدة عذوبته وحلاوته وسهولة تناوله ، وهذا مالح شديد الملوحة ، ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًّا مما تصيدون من الأسماك ، وتستخرجون من الماء المالح ما تتخذونه زينة كاللؤلؤ والمرجان . وترى – أيها المُشاهِد – السفن تجرى فيه ، شاقّةً الماء بسرعتها لتطلبوا شيئًا من فضل الله بالتجارة ، ولعلكم تشكرون لربكم هذه النعم .

وفي التعليق بالهامش نستخلص الآتي :

العلم والواقع أثبتا أن الحليّ تستخرج من صدفيات الأنهار أيضًا ، فتوجد اللآلئ في المياه العذبة في إنجلترا واسكتلندا وويلز ، وتشيكوسلوفاكيا واليابان .. إلخ ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية الشهيرة ، ويوجد الياقوت في الرواسب النهرية في بورما العليا ، أما في سيام وفي سيلان فيوجد الياقوت غالبًا في الرواسب النهرية[٨١] .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأي نعم الله عليكما تكذبان ؟ فقد جعل الله الأرض مصدرًا للحبّ والزروع والأشجار والفواكه ، وجعل البحر والنهر مصدرًا للسمك والحُليّ ، فكلٌّ من البرّ والبحر أساس حياتنا وزينتنا، وكل هذه آلاء الله ونعماؤه، التي لا يجحدها إلا منكر كفار ، اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب ، فلك الحمد .

٢٤ ، ٢٥ – وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

ولله تعالى الفضل والمنّة في تسخير الماء والهواء ، لتجرى السفن الكبيرة التي تشبه الجبال في عظمتها فاردة قلاعها ، تسبح جارية فوق سطح الماء ، تنقل التجارة والأفراد من بلد إلى آخر ، للسياحة والتجارة ، والتأمل في خلق الله .

وأصول الأشياء أربعة : التراب والماء والهواء والنار ، فمن التراب خُلق الإنسان ، ومن النَّار خُلق الجان ، ومن الماء نأكل السمك ونستخرج الحلىّ ، وبالهواء تسير السفن بفضل الله ، تجرى على الماء وتيسِّر التجارة والسياحة والانتقال، فبأى هذه النعم المتعددة ، يا معشر الجن والإنس ، تكذّبان ؟

لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب ، فلك الحمد .

★ ★ ★

فناء الكون وبقاء الله

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

فان : هالك .

وجه ربك : ذاته .

ذو الجلال والإكرام : ذو العظمة والكبرياء ، والتفضل بأنعمه على العباد .

يسأله من فى السماوات والأرض : أهل السماوات يسألونه المغفرة والرحمة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة.

كلّ يوم : المراد باليوم الزمان مطلقا ، فيصدق على كلّ وقت ولحظة .

هو فى شأن : أى فى أمر من الأمور ، من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال ، وإغناء وإعدام ، وإجابة داعٍ ، وإعطاء سائل ، وغير ذلك.

تمهيد :

فناء الخلق من نعم الله ، حيث يتركُون دار الفناء ، ثم يموتون ، ثم يبعثون إلى دار البقاء .

وأهل السماء وملائكة السماء يسألون الله المغفرة ، وأهل الأرض يسألون الله الرزق والمغفرة ، واللَّه تعالى يحيى ويميت ، ويشفى ويمرض ، ويعز ويذل ، ويضع ويرفع ، وهو على كل شيء قدير.

التفسير :

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ - كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

جميع ما على وجه الأرض يفنى ، فالفناء يعمّ كل من فى الكون ، .

قال تعالى : كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص : ٨٨) .

أى أن ملائكة السماء تَفْنى ، وكذلك الإنس والجنّ يموتون ، وذات الله باقية خالدة بلا فناء ، لا أوّل لبدايتها ، ولا آخر لنهايتها ، وهو صاحب الفضل والإنعام على عباده ، فبعد الفناء يكون البعث ، ويكون البقاء فى نعيم الجنة للمتقين ، وفى عذاب النار للكافرين .

وفى الموت أنعم متعددة ، منها الراحة من المرض وأرذل العمر ، وبعد الموت تتجدد الأجيال ، وتحيا الذرية وتكبر ، ثم تهرم وتموت ، ولو استمرت الحياة لضاقت الأرض بأهلها ، وصار فوق كل قدم أكثر من مائة قدم .

قال الشاعر :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ويقول الآخر :

فلو أنّا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكنّا إذا متنا بعثنا ونسأل بعد ذا عن كل شى

والآية بعد ذلك تنطق بالرهبة والحقيقة الصامتة ، فكل ما تراه على وجه الأرض معرض للفناء والموت : الإنس والجن ، والطير والوحوش، والزواحف والحشرات ، والزرع والأنهار والأشجار ، بل وكل من فى السماوات من الملائكة ، والشموس والأقمار ، والنجوم والأبراج والأفلام ، كل ذلك يشمله الفناء والهلاك.

قال تعالى : كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص : ٨٨) .

وذلك يدعونا إلى التأمل والنظر ، والاعتبار والعمل ، وإذا كانت الدنيا فانية فإن الآخرة باقية، ومن الواجب إيثار ما يبقى على ما يفنى ، أى : يجب إيثار العمل الصالح ، وطاعة الله تعالى ، واجتناب نواهيه .

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ . (الأعلى : ١٦ - ١٩) .

ذو الجلال والإكرام

صفتان من صفات اللّه ، وهما الجلال والإكرام ، أى العظمة والكبرياء ، وفى الحديث الذى رواه الترمذى ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «ألظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام» (٨٢) . أى : الزموا ذلك فى الدعاء .

ومن دعاء الرسول ﷺ : «يا حى يا قيوم ، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ، برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كلّه ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أحد من خلقك »

وفى معنى الآية قوله تعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص : ٨٨) .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

هو سبحانه الخالق ، القابض الباسط ، المحيى المميت ، المعز المذل ، فالناس جميعا تتساوى فى الفناء ثم تبعث على نيَّاتها ، فيكافئ الله المطيع بالثواب ، ويعاقب العاصى بعدل الجزاء ، وفى ذلك نعمة أىّ نعمة .

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

ولله الفضل فى بدء الخلق ، ثم فى نعمة الرزق ، ثم فى نعمة الموت والبعث ، فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟ اللهم لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ... (الروم : ٤٠) .

قال القرطبى :

ووجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام ، والموت سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء .

٢٩ ، ٣٠ – يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

هو سبحانه وتعالى غنى عن خلقه ، والخلق كلهم محتاجون إليه .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

أهل السماوات يطلبون منه المغفرة ، ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة ، وغير ذلك ، وهو سبحانه كلَّ يوم فى شأن ، يحيى ويميت ، ويغنى ويفقر ، ويضع ويرفع ، ويعز ويذل ، ويعطى ويمنع ، والخلق جميعا متعلقون ببابه ، سائلون أفضاله ، طالبون للقرب من فضله ، فمن وجد الله وجد كلَّ شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

قال مجاهد :

كل يوم هو يجيب داعيا ، ويكشف كربا ، ويجيب مضطراً ، ويغفر ذنبا .

وقال قتادة :

لا يستغنى عنه أهل السماوات والأرض ، يحيى حيًّا ، ويميت ميتا ، ويربّى صغيرا ، ويفكّ أسيرا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ، ومنتهى شكواهم .

روى ابن جرير أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ . فقالوا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : «أن يغفر ذنبا، ويفرّج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين» أخرجه ابن جرير مرفوعًا ، ورواه البخارى موقوفا من كلام أبى الدرداء .

والخلاصة :

أن أهل السماوات وأهل الأرض يتعلقون بربهم ، يسألونه حاجاتهم ، وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا تدركه سِنة ولا نوم ، ولا يغفل عن عباده لحظة ولا يومًا ، وليس كما ادعت اليهود أن الله لا يقضى شيئا يوم السبت ، فقال سبحانه : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

فهو تعالى يرفع من يشاء ، ويضع من يشاء ، ويشفى سقيما ، ويمرض سليما ، ويعزّ ذليلا ، ويذل عزيزا ، ويفقر غنيا ، ويغنى فقيرا .

وفى معنى الآية قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (آل عمران : ٢٦) .

سُئل الحسين بن الفضل عن قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ . وقد صحّ أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال : إنها شئون يبديها ولا يبتديها .

أى : شئون مما كتبه الله تعالى ، يظهرها فى الحين الذى قدّر ظهورها فيه ، ولا يبتدئ إرادتها والعلم بها .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بأى نعمة من أنعمه يا معشر الجن والإنس تكذبان ، وهو سبحانه يجيب المضطرين ، ويلبى دعاء الداعين ، وبيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ؟

اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

★ ★ ★

تهديد ووعيد

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

المفردات :

سنفرغ لكم أيها الثقلان : سنأخذ فى جزائكم فقط أيها الإنس والجان .

أقطار : جمع قُطْر ، وهى الناحية والجانب ، أى : إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فاخرجوا ، ولكنكم لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ، ومن أين لكم ذلك ؟

إلا بسلطان : إلا بقوة وقهر .

شواظ من نار : لهب من نار .

ونحاس : ونحاس مذاب يصب فوق رؤوسكم .

فلا تنتصران : فلا تمتنعان من العقوبة بهما .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن مشهد من مشاهد القيامة ، حيث يتفرّغ الجبار سبحانه وتعالى لحساب الجنّ والإنس ، والله لا يشغله شأن عن شأن ، لكن السياق يوحى بأن الخطاب للتهديد ، كما يقول الرجل لآخر : سأتفرغ لك وأريك عقوبتى .

التفسير :

٣١ ، ٣٢ – سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

تحدثت الآيات السابقة عن الحق سبحانه : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ . أى : كل وقت هو فى شئون ملكوته التى لا تحصى ولا تعد .

فإذا انتهت الدنيا وقامت القيامة قصد سبحانه إلى حساب الثقلين ، الجن والإنس ، والله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن .

والمقصود : سنريكم أهوال القيامة ، والحشر والسؤال ، والميزان والصراط . كما تقول لمن هو دونك سأتفرغ لك ، أى سأوجه همتى لمحاسبتك ومعاقبتك .

قال البيضاوى :

أى : سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده : سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه وأجدَّ فيه .

والثقلان : الجن والإنس ، سُمِّيا بذلك لثقلهما على الأرض .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعمة من نعم الله تكذبان ، ومن هذه النعم التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة ، لعلكم تتقونه بإيمانكم ، فبأى نعمة من نعمه تعالى تكذبان ؟

٣٣ ، ٣٤ – **يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .**

يا جماعة الإنس والجن ، أنتم راجعون إلينا ، خاضعون لأمرنا ، وتحت قدرتنا وحسابنا وجزائنا ، ولا مفرّ لكم ولا مهرب من الحساب والجزاء ، والثواب للطائعين ، والعقاب للعاصين ، فإن قدرتم أيها العصاة على الخروج من جوانب السماوات والأرض فاخرجوا ، والأمر هنا للتهديد ، ومعناه : لن تستطيعوا ذلك ، فالكون كله فى قبضة الله ، والملائكة تحيط بأهل الموقف فى صفوف تشبه الدائرة ، أى سبع دوائر من ملائكة السماء تحيط بأهل الأرض ، الدائرة الأولى مكونة من ملائكة السماء الدنيا ، والدائرة الثانية من ملائكة السماء الثانية ... ، وهكذا إلى الدائرة السابعة من ملائكة السماء السابعة .

لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ .

أى : لا تستطيعون الخروج إلا بقوة وقهر وغلبة، وأنى لكم ذلك ؟

جاء فى حاشية المنتخب من تفسير القرآن لوزارة الأوقاف المصرية :

ثبت حتى الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية الأرض ، وحيث اقتضى النجاح الجزئى فى زيارة الفضاء لمدة محدودة جدًّا بالنسبة لِعِظم الكون – بَذْل الكثير من المجهودات العلمية الضخمة فى شتى الميادين الهندسية والرياضية والفنية والجيولوجية فضلا عن

التكاليف الخيالية المادّية التى أنفقت فى ذلك ، ومازالت تنفق ، ويدل ذلك دلالة قاطعة على أن النفاذ المطلق من أقطار السماوات والأرض – التى تبلغ ملايين السنين الضوئية – لإنس أو جنّ مستحيل .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعمة من نعم ربكما تكذبان ؟ ومن هذه النعم تحذيركم من العقاب لتتقوه .

٣٥ – يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ .

أى : لو ذهبتم هاربين فى أرجاء السماوات والأرض لأرسل الله عليكما أيها الثقلان لهبًا شديدًا من نار ، كما يرسل عليكما نُحاسًا مذابًا ، يصب فوق رؤوس الكافرين منكما ، فلا تمتنعان من العذاب ، ولا تستطيعان الهرب منه لو أردتموه .

وجاء فى حاشية المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

النحاس هو فلزّ يعتبر من أوّل العناصر الفلزّية التى عرفها الإنسان منذ قديم الزمن ، ويتميز بأن درجة انصهاره مرتفعة جدا ، حوالى ١٠٨٣ درجة مئوية ، فإذا ما صُبّ هذا السائل الملتهب على جسد مثّل ذلك صنفا من أقسى أنواع العذاب ألما ، وأشدّها أثرا . ا هـ .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية :

قال مجاهد : النحاس الصُّفر يذاب فيصبّ على رؤوسهم .

والمعنى : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا .

٣٦ – فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم ربكما تكذبان ؟ ومنها تنبيهكم إلى أنّكم لا تستطيعون الفرار من العذاب إن بقيتم على كفركم.

★ ★ ★

تصدع السماء وأحوال المجرمين يوم القيامة

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ
ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

المفردات :

انشقت : تصدّعت .

وردة : كالوردة فى الحمرة .

كالدهان : مذابة كالدّهن أو كالأديم (الجلد) الأحمر ، على خلاف ما هى عليه الآن .

وجواب (فَإِذَا) محذوف تقديره : فما أعظم الهول .

السيما : العلامة.

النواصى : واحدها ناصية ، وهى مقدم الرأس .

والأقدام : واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة .

الحميم : الماء الحار .

آنٍ : متناهٍ فى الحرارة ، لا يُستطاع شربه من شدة حرارته .

تمهيد :

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، حيث تنشق السماء على غلظها ، ويصبح لونها أحمر قانيا كالوردة، متغيرا كتغير الأصباغ التى يدهن بها ، وتذوب السماء كالدّهن ، أو دردىّ الزيت .

ويتميز المجرمون عن غيرهم بعلامات خاصة ، هى سواد وجوههم وزرقة عيونهم ، ثم يزج بهم فى جهنم فى صورة زرية مهينة ، حيث تجمع أرجلهم إلى نواصيهم ، ويقال لهم تحقيرا وتكديرا : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، فيصلون حرارة النار ، ويشربون من ماءٍ حارٍّ قد اشتدت حرارته .

التفسير :

٣٧،٣٨،٣٩،٤٠،٤١،٤٢ - فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

يعرض القرآن مشاهد القيامة ماثلة أمام العين كأنك تشاهدها ، وترى السماء العالية المتماسكة ، وقد انشقت على غلظها ، وتعلقت الملائكة بأرجائها ، وتغيَّر لون السماء ، فصار أحمر قانيا بلون الورد ، كما أن جرمها قد انماع ، فصار دهنا متلونًا بين الأصفر والأحمر والأخضر ، بلون الأصباغ التى يدهن بها ، أو دردىّ الزيت .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى هذه النعم تكذبان ؟ حيث يكافأ المتقون ، ويعاقب المجرمون ، وحيث يخبرنا الله بذلك لنحذر عقاب هذا اليوم .

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ.

يوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواقف متعددة ، فى بعضها يُسأل الإنسان .

قال تعالى : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ . (الصافات : ٢٤) .

وفى بعض المواقف ينتهى الأمر كما ينتهى التحقيق فى بعض القضايا ، وتحجز للنطق بالحكم .

وفى مواقف الآخرة هناك وثائق تغنى عن السؤال ، منها شهادة الجوارح ، وما سُجِّل فى الكتب ، وشهادة الملائكة ، واطِّلاع الجبار سبحانه وتعالى .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (النور : ٢٤)

ويقول سبحانه وتعالى : هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٩) .

وقال تعالى : وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. (فصلت : ٢١) .

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن المؤمنين تبيض وجوههم ، وتكون عليها نضرة النعيم ، ويسعى النور بين أيديهم وبأيمانهم ، وأن الكفار تسودُّ وجوههم ، وتعلوها الغبرة والقترة ، والقتام والخوف والذل .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أىْ : مِنْ نعمِه أن أحقّ الحق ، وأبطل الباطل ، وكرَّم المؤمنين ، وعذَّب الكافرين ، فبأىِّ نعمه تكذبان؟

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ .

يُعرف المجرمون بعلامات ، منها سواد وجوههم ، وزرقة عيونهم ، وظهور القتام والذلّ والمهانة عليهم ، فتمسك الملائكة بشعر رؤوسهم ، وتجمعه مع أقدامهم ، ويرمى بهم إلى جهنم ، فما أشق ذلك وما أصعبه .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

ومن نعم الله تحذير الناس من ذلك المصير ، نعوذ بالله من حال أهل النار ، ونقول:

لا بشىء من نعمك ربنا نكذّب ، فلك الحمد .

٤٣ – هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ .

يقال لهم تبكيتًا وتوبيخا : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا وتستبعدون دخولها ، ادخلوها والمسوا عذابها .

٤٤ – يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ .

يترددون بين العذاب فى جهنم ، وشرب ماء شديد الحرارة يشوى الوجوه ، ويقطّع الأمعاء .

قال قتادة :

يطوفون مرة بين الحميم ، ومرة بين الجحيم ، والجحيم : النار ، والحميم : الشراب الذى انتهى حرّه.

وقال ابن كثير :

الحميم : هو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب ، يقطّع الأمعاء والأحشاء ، وهذا كقوله تعالى :

إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ . (غافر : ٧١، ٧٢) .

وقوله تعالى: ءَانٍ . أى : حار قد بلغ الغاية فى الحرارة .

قال ابن عباس :

قد انتهى غليه ، واشتد حرّه ، وقوله : حَمِيمٍ ءَانٍ . أى : حميم حار جدًّا .

٤٥ – فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم ربكما تكذبان ؟ حيث دعاكم إلى الإيمان لتتقوا هذا العذاب .

★ ★ ★

وصف نعيم الجنة

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ
فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ
وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

المفردات :

مقام ربه : قيامه بين يدى ربه للحساب ، أى أنّ مقام اسم مكان ، والمراد به مكان وقوف الخلق ، وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، قال تعالى : يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . (المطففين : ٦).

أفنان : غصون ، جمع فنن ، وهو ما دق ولان من الأغصان .

زوجان : صنفان : معروف وغريب ، أو رطب ويابس .

إستبرق : حرير ثخين .

جنى الجنتين : ما يجنى ويؤخذ من ثمار أشجارهما .

دان : قريب ، يناله القاعد والقائم ، والمضطجع والمتكئ .

آلاء : نعم ، جمع إلى .

قاصرات الطرف : نساء قصرن طرفهنّ – أى عينهنّ – على أزواجهنّ .

لم يطمثهن : لم يفضض بكارتهن .

المرجان : صغار الدرّ ، وقيل : خرز أحمر .

تمهيد :

تصف الآيات نعيم الجنان ، كما وصفت الآيات السابقة عذاب أهل النار ، وكان أهل النار يترددون بين جهنم وماء حارٍّ يشوى الوجوه ، أما أهل الجنة فيترددون بين نعيم الجنة وضيافة الجبار ورؤيته سبحانه وتعالى .

التفسير :

٤٦ ، ٤٧، ٤٨ ، ٤٩ – وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

قيل : إن الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، خاف الوقوف للحساب ، فتمنى أن لو كان نباتا أخضر تأكله دابة ، والحق أن الآية عامة فى كل من خاف مقام ربّه ، أى القيام بين يدى ربه للحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، أى يقفون للحساب والجزاء .

فلكل من خاف الموقف فى ذلك اليوم ، وعمل الطاعات ، وتجنب المعاصى ، جنتان : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المحرمات ، وقيل : جنة لسكنه ، وجنة لأزواجه وخدمه ، كما هى حال ملوك الدنيا ، حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر .

قال القرطبى : وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة .

أخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا لربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» [٨٤] .

قال مجاهد :

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب .

وقال حماد :

ولا أعلمه إلا قد رفعه فى قوله تعالى : **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** . جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من وَرِق (فضة) لأصحاب اليمين .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ .

صاحبتا أنواع من الأشجار والثمار .

وقيل : ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ . صاحبتا أغصان.

وخص الأغصان بالذكر ، مع أنهما ذواتا جذوع وأوراق وثمار أيضا ، لأن الأغصان هى التى تورق وتثمر، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار .

فكأنه قيل : ذواتا ثمار وظلال ، فالأغصان كناية عن ذلك .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فبأىّ نعم ربكما تكذبان ، وهى نعم كثيرة عديدة ؟

٥٠ - فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ .

أى : فى كل واحدة من الجنتين عين جارية تجرى بالماء الزلال ، كقوله تعالى : فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ .
(الغاشية : ١٢)

والماء نعمة كبرى ، والماء الجارى فى الجنة يسقى ثمارها ، فتثمر من جميع الألوان ، وقد ورد فى وصف الجنة : أن فيها أنهارًا من ماء غير آسن ، وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين، وأنهارًا من عسل مصفّى .

قال الحسن البصرى :

إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى : السلسبيل .

٥١ - فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأىّ نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟ اللهم لا بشىء من نعمك نكذّب ، فلك الحمد .

٥٢ ، ٥٣ - فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى الجنتين من جميع أنواع الثمار صنفان : صنف معروف لهم فى الدنيا ، وصنف آخر غريب لم يعرفوه ، أو صنف يابس وآخر رطب ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فبأى نعم ربكما تكذّبان وهى لا تحصى ولا تعد ؟

قال ابن عباس :

ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة ، وليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء .

يعنى أن بين فاكهة الدنيا والآخرة بونا عظيما ، وفرقا بيّنا فى التفاضل .

٥٤ ، ٥٥ - مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الجنة كل ما فيها جميل طيب ، وفيها تكريم أهلها ، مع نعيم حسى وآخر معنوى .

والمعنى :

معتمدين على فرش بطانتها من إِسْتَبْرَقٍ . حرير ثخين ، وقد دلّ على شرف الأعلى وهو الظّهارة بالنص على فضل البطانة .

قيل لابن عباس : بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ . فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال تعالى :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ... (السجدة : ١٧) .

وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

وثمر الجنتين قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تُنال إلا بكدٍّ وتعب.

قال ابن عباس :

تدنو الشجرة حتى يجتنيها وَلِيّ الله إن شاء قائما ، وإن شاء قاعدًا ، وإن شاء مضطجعا . اهـ .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين ؟

اللهم لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٥٦، ٥٧ - فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

تحدث القرآن فى الآيات السابقة عن الفُرُش ، وذكر أنّ بطائنها من إستبرق ، وذكر هنا أن فى هذه الفرُش أو فى الجنات نساء قاصرات أبصارهنّ على أزواجهنّ ، فلا ينظرن لسواهم ، ولا يرين فى الجنة شيئا أحسن من أزواجهن .

قال ابن كثير :

ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسنَ منك ، ولا فى الجنة شيئا أحبّ إلىّ منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى ، وجعلنى لك .

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ .

أى : لم يفضض بكارتهنّ أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، بل هنّ أبكار عذارى .

قال الآلوسى :

وأصل الطمث خروج الدم ، ولذلك يقال للحيض : طمث ، ثم أُطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم ، ثم على كل جماع .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟

٥٨ - كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ .

كأنهن فى صفائهنّ الياقوت ، وفى حمرتهن المرجان .

قال قتادة :

كأنهن فى صفائهنّ الياقوت ، وحمرة المرجان ، لو أدخلت فى الياقوت سلكا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه.

أخرج الترمذى ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ، حتى يُرى مُخُّها» . (٨٥).

٥٩ - فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان؟

٦٠ - هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ .

هل يكافأ المتقون الذين فعلوا الطاعات والقربات ، وتركوا المحرمات والمعاصى ، إلَّا بفسيح الجنات.

قال أبو السعود :

ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب ، أى أنَّ من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام .

٦١ - فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فيما ذكره الله نعمٌ عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، لذلك عقب بهذا الاستفهام: بأى نعم ربكما تكذبان ، أو تجحدان فضل حماية المتقين من النار ، وإدخالهم الجنة والإنعام عليهم بالرحمة والإحسان ؟

اللهم لا بشىء من نعمك ربنا نكذّب ، فلك الحمد .

★ ★ ★

وصف آخر للجنة

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

ومن دونهما : ومن ورائهما وأقل منهما .

مدهامتان : خضراوان بسواد ، لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد ، من كثرة الريّ بالماء ونحوه .

نضاختان : فوّارتان بالماء ، والنضخ : فوران الماء.

حور : واحدتهن حوراء ، أى : بيضاء ، قال ابن الأثير : الحوراء هى الشديدة بياض العين ، والشديدة سوادها .

خيرات : بالتشديد ، فخففت كما جاء فى الحديث : «هيْنون ليْنون» .

مقصورات فى الخيام : مخدّرات ، يقال : امرأة قصيرة ومقصورة ، أى : مخدرة ملازمة بيتها ، لا تطوف فى الطرق .

قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها ... وتعتلّ عن إتيانهنّ فتُعْذَر

الـــخـــيـــام : واحدها خيمة ، وهى أربعة أعواد تنصب بشىء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وبر فهو خباء ، وخيام الجنة شبيهة بالخدور ، مصنوعة من الدرّ .

رفـــــــرف : وسائد أو فرش مرتفعة .

عـــبـــقـــرى : العجيب النادر الموشَّى من البسط .

تبارك اسم ربك : تعالى ، أو كثر خيره وإحسانه ، وتنزه ربنا .

ذى الـــجـــلال : العظمة والاستغناء المطلق .

الإكـــــــرام : الفضل التام والإحسان .

تمهيد :

هذا وصف آخر للجنات ، يشوِّق الراغبين ويحفزهم إلى العمل ، لينالوا هذا الفضل العظيم ، وقد بينت الآيات السابقة أن ثواب الخائفين جنتان ، وهنا ذكر أن لهم ثوابا آخر مثله ، وهو جنتان أخريان .

التفسير :

٦٢،٦٣،٦٤،٦٥– وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

تحكى الآيات نعيمًا آخر لصنف آخر أقل درجة من السابقين ، فهاتان الجنتان لأصحاب اليمين ، والجنتان السابقتان للسابقين .

والمعنى :

وهناك جنتان أخريان دون السابقتين فى المرتبة والفضيلة .

وفى الحديث : «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما »، فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

مُدْهَآمَّتَانِ .

خضراوان خضرة شديدة تضرب إلى السَّواد من شدة خضرتها ، لجودة الأرض وكثرة الرى ، حتى أنَّ لون النهار يتحول إلى سواد يشبه لون الليل المقمر .

قال الشاعر :

يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوّرُ
تريا نهارًا مشمسًّا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمرُ

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟

٦٦، ٦٧ - فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء ، والنضخ كالرشّ فهو دون الجرى .

قال البراء : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين .

وقال مجاهد : نضاختان بالخير والبركة .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

٦٨، ٦٩ - فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى الجنتين . فَٰكِهَةٌ . وهى ما يتفكّه به ، ويشمل جميع الفواكه ، كالبلح والرُّمان ، لكنه ذكرهما للتنبيه على مزيد فضل لهما ، أو أن البلح طعام وفاكهة ، والرّمان فاكهة ودواء .

كما قال تعالى : حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ... (البقرة : ٢٣٨) .

فنبه على الصلاة الوسطى لمزيد فضلها ، بعد أن ذكر الصلوات الخمس، والصلاة الوسطى واحدة من الصلوات الخمس .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأىّ نعم ربكما تكذبان ؟

ونقول : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣- فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى تلك الجنات نساء خيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه .

روى الحسن ، عن أمه ، عن أمّ سلمة قالت : قلت : يا رسول الله، أخبرنى عن قوله تعالى : خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ. قال : «خيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه» .

وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحُسْن ، ورُوى أن الحور العين يُغنِّين : نحن الخيِّرات الحسان ، خلقنا لأزواج كرام .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ .

الحَوَر شدة بياض العين مع شدة سوادها ، أى فى هذه الجنات نساء جميلات ، قصرن أنفسهن على أزواجهن ، ملازمات لبيوتهنّ لا يطفن بالطرق .

روى البخارى ، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا ، فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون» (٨٦).

ورواه مسلم بلفظ : «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهل ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا» (٨٧) .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

٧٤، ٧٥- لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

لم يطأهن إنس ولا جان قبل أزواجهنّ ، فهن محفوظات لم يختلط بهن أحد قبل أزواجهنّ .

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان ، يا معشر الجن والإنس ؟

٧٦- مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ .

الرفرف : الوسائد ، أى مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة .

وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ .

. وطنافس ثخينة مزخرفة ، محلاة بأنواع الصُّور والزينة .

قال فى حاشية الجمل على الجلالين :

وهى نسبة إلى (عبقر) قرية بناحية اليمن ، تنسج فيها بُسط منقوشة بلغت النهاية فى الحسن ، فقرَّب الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة .

وقال ابن كثير :

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ ... يعنى : الوسائد ، وقال سعيد بن جبير : الرفرف : رياض الجنة .

وقوله تعالى : وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ . هى بسط الجنّة .

وقال القيسى : كل ثوب موشّى عند العرب عبقرى .

٧٧ - فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعمة من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟

٧٨ - تَبَـٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ .

تنزَّه وتقدس الله العظيم ، وكثرت خيراته ، وفاضت بركاته .

ذِى ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ .

صاحب العظمة والكبرياء ، والفضل والإنعام .

روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «ألِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»[٨٨] .

أى : الزموا ذكره ، والإلحاح عليه .

وفى صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم لا يقعُد – تعنى بعد الصلاة – إلا بقدر ما يقول : «اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[٨٩].

فى ختام سورة الرحمن

قال فى التسهيل لعلوم التنزيل ما يأتى :

الجنتان المذكورتان أولا للسابقين ، والجنتان المذكورتان ثانيا لأصحاب اليمين .

وانظر كيف جعل أوصاف الجنتين الأوليين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما ، فقال هناك : فِيهِمَا عَيْنَانِ تجْرِيَانِ .

وقال هنا : فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ . والجرى أشدّ من النضخ .

وقال هناك : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ .

وقال هنا : فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . والأول أعم وأشمل .

وقال فى وصف الحور هناك : كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ .

وقال هنا : فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ . وليس كلّ حسن كحسن الياقوت والمرجان ، فالوصف هناك أبلغ إلخ .

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الرحمن

الله تعالى صاحب المنن العظام ، وكل ما نراه فى الكون من آثار رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض ، والجنة والنار ، وعذّب العاصين ، وأثاب المطيعين ، وآتاهم من فضله ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

دعـــــاء

اللهم إنا نسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل ، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين، اللهم احفظ علينا سمعنا وبصرنا وسائر جوارحنا واجعله الوارث منّا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا.

اللهم أكرمنا بالقرآن العظيم ، وارزقنا تلاوته على النحو الذى يرضيك عنا ، اللهم اجعله لنا دليلا وإماما ، وفى القبر مؤنسا ، وعلى الصراط نورا ، وإلى الجنة هاديا ورفيقا ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام، وصل اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★


تفسير سورة الواقعة

أهـداف سـورة الواقـعـة

سورة الواقعة مكية ، وآياتها ٩٦ آية ، نزلت بعد سورة طه

وهى سورة تصف أهوال القيامة ومشاهد الآخرة ، وتؤكد وقوع العذاب للمكذبين ، ووقوع النعيم للمؤمنين .

وفى هذا اليوم تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، فى ظل الهول الذى يبدل القيم غير القيم .

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ . (الواقعة : ١ – ٣) .

ثلاثة أصناف

عند وقوع القيامة يرتفع شأن المؤمنين ، وينخفض قدر المكذبين ، وينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف :

السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

السابقون المقربون

وقد فصلت الآيات (١٠ – ٢٦) ما أُعد للسابقين فى جنات النعيم ، فهم : عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ . (الواقعة : ١٥). مشبكة بالمعادن الثمينة ، مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ . (الواقعة : ١٦) . فى راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل ، ولهم فى الجنة ما يشتهون من المتعة والنعيم والحور العين ، وحياتهم كلها سلام : تسلم عليهم الملائكة ، ويسلم بعضهم على بعض ، ويبلغهم السلام من الرحمن .

أصحاب اليمين

تصف الآيات (٢٧ – ٤٠) ما أُعد لأصحاب اليمين ، فهم : فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . (الواقعة : ٢٨) . والسدر شجر النبق الشائك ، ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . (الواقعة : ٢٩) . والطلح شجر الموز ، منضود معد للتداول بلا كدٍّ ولا مشقة .

يتمتع أصحاب اليمين بألوان البهجة وصنوف التكريم ، فهم فى حدائق من شجر نبق لا شوك فيه ، وشجر موز منتظم الثمر ، وفى ظل منبسط ، وماء يجرى بين أيديهم كما يشاءون ، ولديهم فاكهة كثيرة الكم والأنواع ، لا تنقطع عنهم ولا يمنعون من تناولها ، وقد أُعدت لهم فى الجنة أسرّة عالية ظاهرة ، عليها

زوجات طاهرات قد خلقن خلقًا جديدًا يتسم بالكمال والجمال ، وأنشئن إنشاء جديدًا من غير ولادة ، وقد خلقن أَبْكَارًا . لم يُمسسن . عُرُبًا . متحببات إلى أزواجهن . أَتْرَابًا . كلهن فى سن واحدة ، فى ريعان الشباب وطراوة الصبا .

أصحاب الشمال

تصف الآيات (٤١ – ٥٧) ما أُعد لأصحاب الشمال ، فهم فى : سَمُومٍ . وهو هواء ساخن ينفذ إلى المسام ويشوى الأجسام ، وَحَمِيمٍ . ماء متناهٍ فى الحرارة ، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . (الواقعة : ٤٣) . ظل من دخان أسود ساخن ، لا بارد كسائر الظلال ، ولا كريم ينتفع به لأنهم كفروا بالله وانغمسوا فى الشهوات ، وأنكروا البعث والجزاء .

آيات القدرة الإلهية

تعرض الآيات (٥٨ – ٧٤) آثار القدرة الإلهية المبدعة ، وتحرك قلوب المشاهدين لينظروا فى أصل خلقتهمْ ، وفى زرعهم الذى تزاوله أيديهم ، وفى الماء الذى يشربون ، وفى النار التى يوقدون .

وهى طريقة فذة للقرآن حين يلفت نظر الإنسان إلى أبسط مظاهر الحياة ومشاهدها ؛ ليبنى له أضخم عقيدة دينية ، وأوسع تصور كونى . هذه المشاهدات التى تدخل فى تجارب كل إنسان : النسل والزرع والماء والنار ، فأى إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات فى تجاربه ؟

من هذه المشاهدات البسيطة الساذجة ، ينشئ القرآن العقيدة لأنه يخاطب كل إنسان فى بيئته .

وهذه المشاهدات البسيطة هى بذاتها أضخم الحقائق الكونية وأعظم الأسرار الربانية .

نشأة الحياة الإنسانية .. وهى سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. معجزة كذلك ، الماء أصل الحياة ، النار المعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية .

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ . (الواقعة : ٥٨، ٥٩) .

«إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يُودِع الرجل ما يمنى رحم المرأة ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا الماء المهين ، تعمل وحدها فى خلقه وتنميته وبناء هيكله ونفخ الروح فيه ، ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تتم المعجزة وتقع الخارقة التى لا يصنعها إلا الله ، والتى لا يدرى البشر كنهها وطبيعتها ، كما لا يعرفون كيف تقع ، بله أن يشاركوا فيها»[٩٠] .

الزرع والماء والنار

يتابع القرآن طرقاته على القلب البشرى ليتأمل ، ويخاطب النفوس الإنسانية ليرشدها إلى مواطن القدرة فيما بين يديها .

فهذا الزرع الذى ينبت ويؤتى ثماره .. ما دورهم فيه ؟ إنهم يحرثون ويُلقون الحَبَّ والبذور التى صنعها الله .. ثم تصير الحبة فى طريقها للنمو سير العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق ، الذى لا يخطئ ولا يضل .

إن يد القدرة التى تتولى خطاها على طول الطريق ، فإذا الحبة عود أخضر ناضر ، وإذا النواة نخلة كاملة سامقة مثمرة .

ويتابع القرآن لمساته لاستثارة التفكير والتأمل ، فيناقش المخاطبين :

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ . (الواقعة : ٦٨ ، ٦٩) .

أى : أخبرونى أيها المنكرون الجاحدون عن الماء العذب الذي تشربونه ، هل فكرتم وتدبرتم من الذى صعده من البحار والمحيطات ، وجعله بخارًا ثم سحابًا متراكمًا ، ثم صيره ماء عذبًا فراتًا ؟

ولو شاء الله لجعل ذلك الماء ملحًا مرًّا لا يُحيى الزرع ولا الضرع ، ولا يُستساغ لمرارته ، فهلا تشكرون ربكم على إنزال المطر عذبًا زلالا سائغًا لشرابكم أنتم وأنعامكم وزرعكم .

ثم يذكرهم بنعمة النار التى يوقدونها ، من الذى أنبت شجرتها الخضراء من الأرض ، وأودع فى الشجرة العناصر الأولية القابلة للاشتعال ، لقد جعل الله النار فى الدنيا تذكرة للناس بنار الآخرة ، وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ . (الواقعة : ٧٣) . أى : للمسافرين . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . (الواقعة : ٧٤) . أى : نزه الله وانسب إليه العظمة والقدرة والخلق والإبداع ، فهو الإله العلى القدير .

مواقع النجوم

وفى الآيات (٧٥ – ٨٠) نلمس سمو القرآن وطهارته وعلو شأنه ومنزلته .

وقد مهدت الآيات ببيان آثار القدرة فى خلق النجوم وتحديد أماكنها وتنظيم سيرها ، بحيث لا يصطدم نجم بآخر .

قال تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . (الواقعة : ٧٥ – ٧٧) .

«ويقول الفلكيون : إن من هذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد وبعيد جدًا ، إن لم يكن مستحيلاً»[٩١] .

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ .

وليس كما تدعون قول كاهن ولا قول مجنون ولا مفترَى على الله من أساطير الأولين ، ولا تنزلت به الشياطين .. إلى آخر هذه الأقاويل ، إنما هو قرآن كريم ، كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته ، كريم على الله ، كريم على الملائكة ، كريم على المؤمنين .

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ . (الواقعة : ٧٩) . من دنس الشرك والنفاق ، ودنس الفواحش ، أى : لا تصل أنوار القرآن وبركاته وهدايته إلا إلى القلوب الطاهرة .

ورُوى عن على رضى الله عنه ، وابن مسعود ، ومالك ، والشافعى ، أن المعنى : لا يمسه من كان على جنابة أو حدث أو حيض .

ورُوى عن ابن عباس ، والشعبى ، وجماعةٍ منهم أبو حنيفة : أن المصحف أو بعضه يجوز للمحدث مسه ، وبخاصة للدرس والتعليم[٩٢] .

نهاية الحياة

فى الآيات (٨١ – ٩٦) نجد الإيقاع الأخير فى السورة .. لحظة الموت ، اللمسة التى ترتجف لها الأوصال ، واللحظة التى تنهى كل جدال ، واللحظة التى يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص : فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . (الواقعة : ٨٣ ، ٨٤) .

وإننا لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله تعالى : فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ، كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس فى ملامح الحاضرين من خلال قوله تعالى : وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . هنا فى هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلفت وراءها الأرض وما فيها ، وهى تستقبل عالمًا لا عهد لها به ولا تملك من أمره شيئًا إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر .

فإن كان الميت المحتضر من السابقين فى الإيمان فروحه ترى علائم النعيم الذى ينتظرها : فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . (الواقعة : ٨٩) .

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . (الواقعة : ٩٠) . وهم دون المقربين السابقين فى المنزلة والدرجة ، فإن الملائكة تبلغه السلام من الله ومن الملائكة ومن أقرانه أصحاب اليمين .

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ . (الواقعة : ٩٢) . فنزله عندنا ذلك الحميم الساخن والماء الحار وعذاب الجحيم .

ثم تختم السورة فى إيقاع عميق رزين ، يفيد أن ما قصّه الله فى هذه السورة حق ثابت ، ويقين صادق لا شك فيه .

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ . (الواقعة : ٩٥) . فاتجه لله بالتسبيح والتعظيم . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . (الواقعة : ٩٦).

الأفكار العامة للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود السورة هو : ظهور واقعة القيامة ، وأصناف الخلق بالإضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشمال ، والغرقى فى بحر الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة ، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع ، وحديث الماء والنار وما فى ضمنهما من النعمة والمنة ، ومس المصحف وقراءته فى حالة الطهارة ، وحال المتوفى فى ساعة السكرة ، وذكر قوم بالبشارة وقوم بالخسارة ، والشهادة للحق سبحانه بالكبرياء والعظمة[٩٣] بقوله : فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . (الواقعة : ٧٤) وقوله : أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . (الواقعة : ٥٨) وقوله : أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . (الواقعة : ٦٣) .

بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه وهو الحَبّ الذى منه قوته وقوّته ، ثم الماء الذى منه سوغه وعجنه ، ثم النار التى بها نضجه وصلاحه[٩٤]

فضل السورة

عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا»[٩٥] .

★ ★ ★

قيام القيامة، وأصناف الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا
۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ
السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ﴾

المفردات :

وقعت الواقعة : حدثت وقامت القيامة .

ليس لوقعتها كاذبة : لا تكون نفس مكذِّبة لوقوعها يوم القيامة .

خافضة رافعة : خافضة لأقوام ، رافعة لآخرين .

رُجت : زُلزلت ، وحُرّكت تحريكًا شديدًا ، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل .

بُست : فتّتت تفتيتًا شديدًا ، وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم : بسَّ فلان السويق ، أى : لتَّه .

هباء منبثا : غبارًا متفرقًا .

أزواجا : أصنافًا وأنواعًا ، أو فرقًا .

الميمنة : ناحية اليمين ، والمراد : أصحاب المرتبة السنيّة رفيعة القدر .

المشأمة : ناحية الشمال ، والمراد : أصحاب النار .

السابقون : هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا .

المقربون : أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم .

تمهيد :

تتحدث سورة الواقعة عن القيامة وأهوالها ، وتصف ذلك اليوم الرهيب الذى تُرجّ فيه الأرض وتزلزل، وتُبسّ الجبال وتصبح ترابًا منثورًا ، هباءً منبثًا ، وينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :

أهل اليمين : وهؤلاء أصحاب الجنة ، وأهل الشمال : وهؤلاء أصحاب النار ، والسابقون : وهم السابقون من كل أمة إلى الصلاة والجهاد وسائر الخيرات ، ومن السابقين الأنبياء والصالحون والمجاهدون .

وتبيّن السورة عجائب قدرة الله فى خلق الإنسان ، وإنبات النبات ، وتسيير السحاب ونزول المطر ، وتيسير النار للاستفادة بها فى الإقامة والأسفار .

وفى آخر السورة نجد قسمًا بمواقع النجوم ، على أن القرآن كلام الله ، واستحضار مشاهد الاحتضار ، وبلوغ الروح الحُلْقوم ، ثم جزاء أصحاب اليمين بالجنة ، وأصحاب الشمال بالنار ، والسابقين المقربين بالمنازل العالية فى الجنة .

التفسير :

١، ٢- إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ .

تفتتح السورة هذا الافتتاح الرهيب الذى يعبر عن هول القيامة ، وتسمى الواقعة لتحقق وقوعها لا محالة ، كما قال سبحانه وتعالى : فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ . (الحاقة : ١٥) .

ومِنْ أسماء القِيامة : القارعة ، والحاقة ، والآزفة ، والصاخّة ، والساعة ، وكلها تتلاقى على أن فى هذا اليوم هولاً عظيمًا .

فهى تسمى (القيامة) لأن الناس تقوم من القبور للحساب : يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . (المطففين : ٦).

وتسمى (الحاقة) لأن مجيئها حق مؤكد .

وتسمى (الآزفة) لأن مجيئها قريب آزف .

قال تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا . (الإسراء : ٥١) .

وقال تعالى : أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ . (النجم : ٥٧ ، ٥٨) .

وتسمى (الصاخة) لأنها تصخّ الآذان بأهوالها ، والصاخة نوع من العذاب ، أو مقدمة للعذاب ، وكذلك القيامة بالنسبة للكافرين .

وفى القيامة أصناف تُظَلُّ فى ظلِّ عرش الله يوم لا ظل إلا ظله ، وهناك الآمنون المطمئنون يوم الفزع الأكبر ، لا يخافون إذا خاف الناس ، بل هم آمنون مطمئنون لفضل الله الكريم ، وجزائه العظيم .

وقد حُذف الجواب لتذهب النفس فى تصوّره كل مذهب ، أو أن الجواب معروف مما ذكر بعد ذلك ، من قوله تعالى : خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ .

والمعنى :

إذا قامت القيامة ووقعت الواقعة الكبرى ، فذلك حق لا شك فيه ولا مراء ، ولا توجد نفس كاذبة منكرة لها ، كما كان ذلك في الدنيا ، بل هو اليقين بأن وعد الله قد تحقق وتأيّد .

٣ – خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ .

تخفض أقوامًا وترفع آخرين ، فالكافرون والمجرمون ، والعصاة والظالمون ، وأهل الباطل والعلو في الأرض بغير الحق ، وأمثالهم ، يخفض الله أقدارهم ، حيث يدخلهم جهنم ، فيجدون فيها المذلّة والمهانة ، وألوان العذاب .

أما المؤمنون والسابقون ، والمجاهدون والصالحون ، فيرفع الله أقدارهم ، ويدخلهم الجنة .

وقيل : خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ . أى : تزلزل الأشياء ، وتزيلها من أماكنها ، فتنشقّ السماء ، وتتناثر الكواكب ، وتسير الجبال فتمرّ في الجو مرَّ السحاب ، كما قال سبحانه في شأن قوم لوط : جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا ... (هود : ٨٢) .

والخلاصة : أن الرفع والخفض إما معنويًا وإمَّا حسيًّا .

٤ – إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا .

وهذا أيضًا يمثل أهوال القيامة ، حيث تضطرب الأرض وتتحرك حركة شديدة .

قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا . (الزلزلة : ١ – ٣) .

ففى يوم القيامة تنشق الأرض ، وتخرج ما في جوفها .

٥ – وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا .

تفتتت الجبال وصارت قطعًا متكسرة ، ومنه قولهم : بسّ فلان السويق ، إذا فتَّته ولتَّه وهيأه للأكل .

٦ – فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا .

أى : صارت غبارًا منتشرًا في الجوّ ، كالهباء الذى يطير من النار ، أو الذى ذرَّته الريح وبثته .

وقد ورد في القرآن أن الجبال تُقتلع من أماكنها ، وتُسير وتصير كالعهن المنفوش ، أى الصُّوف الهش الخفيف الذى هو أقرب إلى الهباء المتناثر .

قال تعالى : يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً . (المزمل : ١٤) .

وقال عز شأنه : وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبأ : ٢٠) .

قال ابن كثير :

وهذه الآية كأخواتها ، دالة على زوال الجبال من أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها، أى قلعها . ا هـ .

وكل هذه الآيات تصف أهوال القيامة، وتطرق القلوب حتى تلين وتخشع ، وتسارع إلى العمل الصالح الذى يرفع أقدار المتقين ، وتتجنب العمل الطالح الذى يخفض أقدار العاصين لرب العالمين .

٧ - وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً .

ينقسم الأولون والآخرون إلى ثلاث فرق ، أو أصناف أو أزواج متشابهة :

الفرقة الأولى : أهل اليمين : وهم أغلب أهل الجنة ، وهم عن يمين عرش الرحمن .

الفرقة الثانية : أهل الشمال : وهم أهل النار .

الفرقة الثالثة : أهل السبق والمسارعة إلى امتثال أمر الله : وهم أهل الدرجات العلى فى الجنة .

قال ميمون بن مهران : اثنان فى الجنة ، وواحد فى النار .

ثم فصلهم القرآن فقال :

٨ - فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ .

أصحاب اليمين ، هل علمت شأنهم وسرورهم وفوزهم ؟ فالاستفهام فى قوله : مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ يراد به التفخيم والتعظيم والتعجيب من حالهم ، فهم عن يمين العرش ، أو هم من أخذوا كتابهم باليمين أو هم أهل اليُمْن والفوز لأنهم أدوا حق الله عليهم ، ففازوا بالجنة والرضوان يوم الفزع الأكبر .

٩ - وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ .

وأصحاب الشمال الذين أخذوا كتابهم بالشمال ، ما أهول عذابهم ، وما أقبح مصيرهم ، وما أفظع مآلهم .

وجملة : مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ . استفهام يراد به التهويل والتعجيب من ألوان العذاب التى وضعوا أنفسهم فيها .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ . (الحاقة : ١ ، ٢) . وقوله تعالى : ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ . (القارعة : ١ ، ٢) .

قال الآلوسى :

والمقصود التفخيم فى الأول ، والتفظيع فى الثانى ، وتعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل : فأصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة فى غاية سوء الحال .

١٠ - وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ .

هذا هو الصنف الثالث من الأصناف الثلاثة ، ولعل تأخيرهم فى الذكر - مع أنهم أسبق فى الفضل - ليتبع ذكرهم بالحديث عن جزائهم .

(أ) قيل : هم أتباع الرسل الذين سبقوا إلى الإيمان بالله وطاعة رسله بدون تلعثم .

(ب) وقيل : هم السابقون إلى الهجرة والصلوات والجهاد ، أو هم أهل القرآن .

(جـ) وقيل : هم «الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئِلُوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» ، كما ورد ذلك فى وصفهم عن النبى ﷺ .

(د) وقيل : هم المسارعون إلى كل ما دعا الله إليه .

قال ابن كثير :

وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين : هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمروا ، كما

قال تعالى : وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ... (آل عمران : ١٣٣) .

وقال تعالى : سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... (الحديد : ٢١) .

فمن سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى الخير ، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان . ا هـ[١٦] .

١١ - أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ .

هؤلاء السابقون هم المقربون إلى الله تعالى ، وهم فى قربه ومعيته ، ورضوانه وفضله ورعايته ، أو الذين قُرِّبت إلى العرش العظيم درجاتهم .

١٢ - فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

أى : هم فى جنات الخلد يتنعمون فيها ، أى أن لهم فضلاً ونعيمًا معنويًّا يقربهم من الله ، وهذه منزلة سامية عليا ، ولهم نعيم حسِّى بتمتعهم بجنات النعيم .

من تفسير ابن كثير

قال ابن أبي حاتم : قالت الملائكة : يا رب جعلت لبني آدم الدنيا ، فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة ، فقال : لا أفعل ، فراجعوا ثلاثًا ، فقال : لا أجعل من خلقت بيديّ كمن قلت له كُن فكان، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

رواه ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمرو موقوفًا .

من التفسير المنير

يكون الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف :

أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون .

أصحاب اليمين : هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، ويعطون كتبهم بأيمانهم .

وأصحاب المشأمة : هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، ويعطون كتبهم بشمائلهم .

والسابقون : وهم الأنبياء والمرسلون ، والمجاهدون والحكام العدول ، الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، والجهاد والتوبة ، والقضاء بالحق ، وهم المقربون بين يدي الله تعالى[٩٧] .

وهذه القسمة كقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ... (فاطر : ٣٢) .

★ ★ ★

صفة نعيم السابقين

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا
مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾
لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

المفردات :

ثـــــلـــــة : الثلة الجماعة قلت أو كثرت ، وقال الزمخشري : هم أمة من الناس كثيرة .

الأولـــيـــن : الأمم الماضية قبل الرسول ﷺ ، أو الأولين من صدر أمة محمد ﷺ .

الآخـــريـــن : أمة محمد ﷺ ، أو المتأخرين منهم .

مـــوضـــونـــة : من الوضن وهو النسج ، أى : منسوجة بالذهب بإحكام .

يـطـوف عـلـيـهـم : يدور عليهم للخدمة .

الــــولــــدان : الصبيان ، جمع ولد .

مـــخـــلـــدون : باقون على صفتهم ، لا يهرمون كأولاد الدنيا .

أكـــــــواب : آنية لا عرى لها ولا خراطيم .

أبـــاريـــق : واحدها إبريق ، وهو إناء له عروة (مقبض يمسك منه) وخرطوم .

قال عدى بن الرِّقاع :

ودَعَوا بالصبوح يومًا فجاءت　　　به قينة فى يمينها إبريق

كـأس مـن مـعـيـن : خمر جارية من العيون ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا .

لا يصدعون عنها : لا يحصل لهم صداع بسببها ، كما يحدث ذلك من خمر الدنيا .

ولا يـــنـــزفـــون : لا تذهب عقولهم بسببها .

وحـــور عـــيـــن : ونساء بيض ، واسعات الأعين حسانها .

الـلـؤلـؤ الـمـكـنـون : اللؤلؤ المستور المصون فى صدفه .

لـــــغـــــوا : فاحشًا أو ساقطًا من القول .

تـــأثـــيـــمـــا : حديثًا قبيحًا يأثم قائله .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن النعيم الذى يتمتع به السابقون ، وأهم نعيم هو القرب من الله جل جلاله ، وتفضيل ذلك فيما أعده لهم فى الجنة من الأسرّة والولدان والطعام والشراب والنساء ، والأحاديث الخالية من اللغو والفحش والإثم ، مع إفشاء السلام بينهم .

التفسير :

١٣ ، ١٤ - ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ .

إن السابقين المقربين إلى الله هم جماعة كثيرة من السابقين من الأمم ، من عهد آدم إلى محمد ﷺ ، الذين اتبعوا أنبياءهم واقتربوا منهم ، وجاهدوا فى سبيل تبليغ دعوتهم ، أو الأنبياء ومن سارع إلى تصديقهم والجهاد معهم .

وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ .

أى : المؤمنون السابقون من أمة محمد ﷺ قليل بالنسبة لمن سبق من الأمم ، وذلك لكثرة الأمم التى سبقت أمة الإسلام .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ... (الإسراء : ١٧) .

لقد أرسلنا عددًا كبيرًا من الرسل من بعد نوح ، منهم من قصصنا عليك يا محمد ، ومنهم من لم نقصص عليك .

وقد رجح الإمام ابن جرير الطبرى هذا الرأى ، ولكن الإمام ابن كثير رأى أن هذا الرأى ضعيف .

ثم قال ابن كثير :

لأن هذه الأمة الإسلامية هى خير الأمم بنص القرآن ، فالقول الراجح أن يكون المراد بقوله تعالى ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . أى : من صدر الأمة الإسلامية ، والمراد بقوله تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ . أى : من هذه الأمة.

روى عن الحسن أنه قرأ هذه الآية : وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ .

فقال : أمَّا السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين .

وعن محمد بن سيرين أنه قال فى هذه الآية : ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ . قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة[٩٨] .

وقد ثبت فى الصحاح أن رسول الله ﷺ قال : «خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»[٩٩] (أخرجه الشيخان) .

وقال ﷺ : «لا تزال طائفةٌ من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة» . وفى لفظ : «حتى يأتى أمر الله تعالى وهم كذلك»[١٠٠] .

ورأى بعض المفسرين أن أوّل كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعمّ الآية جميعَ الأمم ، كل أمة بحسبها .

وجاء فى حاشية الجمل :

وعبارة الخازن : وذلك لأن الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدّقوهم من الأمم الماضية ، أكثر من الذين عاينوا النبى ﷺ وآمنوا به . ا هـ .

١٥ ، ١٦ – عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ .

من نعيم السابقين أنهم يستقرُّون فى الجنة ، حال كونهم على أسرَّة منسوجة بخيوط الذهب ، مشبكة بالدرِّ والياقوت والزبرجد ، مستقرِّين على السرر متكئين عليها ، متقابلين مواجهة لا يرى بعضهم قفا بعض، فهم فى نعيم وسرور ، وصفاء وحبور ، لا يملّون ولا يكسلون ، ولا يتخاصمون ولا يتشاحنون .

١٧ ، ١٨ ، ١٩ – يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ .

يطوف على السابقين المقرَّبين من أهل الجنة ولدان يخدمونهم فى غضاضة الصبا ، لا يشيبون ولا يهرمون ، بل هم باقون على طراوة الصِّبية ، لا يتحولون عن ذلك ، وإلا فكل أهل الجنة مخلَّد لا يموت ، تحمل هذه الصبية فى يديها أقداحًا مستديرة الأفواه ، لا آذان لها ، ولا عُرَى ولا خراطيم ، وأباريق ذات عرى وخراطيم ، ويحملون كؤوسًا مترعة من خمر الجنة الجارية من الينابيع والعيون ، ولا تعصر عصرًا كخمر الدنيا ، فهى صافية نقيّة ، لا تتصدع رؤوسهم من شربها ، ولا يسكرون منها فتذهب عقولهم .

قال ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السُّكر ، والصداع ، والقىء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال . ا هـ .

فخمر الجنة لذةٌ بلا ألم ولا سكر ، بخلاف شراب الدنيا .

وقوله تعالى : لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ... لبيان نفى الضرر عن الأجسام .

وقوله تعالى : وَلَا يُنزِفُونَ . لبيان نفى الضرر عن العقول .

٢٠ ، ٢١ – وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ .

يجدون فى الجنة طائفة من الفواكه ، يتخيرون منها ما يُعجبهم أو ما يفضّلونه عن غيره ، فهم يختارون ويتخيَّرون أحسن الفواكه .

قال ابن كثير :

وفيه دليل على جواز تخير الفاكهة فى الدنيا وانتقاء الأنسب .

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . يجدون فى الجنة لحوم الطير التى يشتهونها ، وهذا التقديم من الولدان المخلّدين لمزيد التكريم للسابقين المقربين ، وإلا فقد جاء فى الأحاديث والآثار أن فاكهة الجنة ينالها القائم

والقاعد والنائم ، وأن الغصون تقترب من أهل الجنة ليقطفوا منها ما يشاءون ، قال تعالى : قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . (الحاقة : ٢٣) . والرجل من أهل الجنة إذا اشتهى الطير وقع الطير أمامه مشويًا ، والتقديم لمزيد من التكريم .

وتقديم الفاكهة على اللحم لأن أكلهم للتفكّه والتلذذ ، لا للجوع كحال أهل الدنيا ، فإن حاجة الجائع فى الدنيا إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة .

قال فى التفسير المنير : والحكمة فى تقديم الفاكهة على اللحم أنها ألطف ، وأسرع انحدارًا ، وأيسر هضمًا ، وأصح طبًا ، وأكثر تحريكًا لشهوة الأكل ، وتهيئة النفس للطعام . ا هـ .

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ - وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

ولهم فى الجنة حُورٌ . بيض . عِينٌ . مع شدة سَواد العين وشدة بياضها ، وواسعات الأعين حسانها ، مثل أنواع اللآلئ المكنونة المحفوظة فى صدفتها للمحافظة على صفاء لونها ، وبهجتها وبياضها .

قال تعالى فى آية أخرى : كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ . (الصافات : ٤٩) .

جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

إن هذا النعيم المعنوى الذى يتحقق بقربهم من ربهم ، والنعيم الحسىّ الذى يتحقق بالنعيم فى الجنة والأسرّة والولدان ، والأكواب والأباريق والخمر ، والفاكهة ولحم الطير ، والحور العين المحفوظة لهم ، هذا النعيم المتنوع فى التكريم هو الجزاء الحسن على أعمال صالحة قدّموها فى الدنيا ، كما قال تعالى : هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ . (الرحمن : ٦٠) .

٢٥ ، ٢٦ - لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا .

إنهم يعيشون فى وسط اجتماعى نظيف ، فليس فى أحاديث أهل الجنة ، لغو . باطل . وَلا تأثيم . ولا أحاديث تؤدى إلى ارتكاب الإثم والكذب ، هم ذاكرون للَّه تمتعًا وأنسًا به ، ليس فى أحاديثهم ما لا فائدة فيه من اللغو ، وليس فى أحاديثهم الكذب أو الغيبة أو النميمة أو أى باطل من الكلام .

إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا .

أى : إلا أنهم يسلمون على بعض ، أو يردُّون السلام على الآخرين ، فالملائكة تسلّم عليهم ، والله تعالى يحييهم بالسلام ، وهم يحيون بعضهم بالسلام ، فأنعم بها مَن حياة ، فيها السلام والأمان ، والتحية والإكرام .

قال تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا . (الأحزاب : ٤٤) .

وقال سبحانه وتعالى : وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ .
(الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

اللهم اجعلنا مع السابقين المقرَّبين ، واجعلنا معهم فى عليين ، اللهم الطف بنا واهدنا وأرضنا وأغننا ووفقنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، اللهم عافنا واعف عنا ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، اللهم ارزقنا الفردوس الأعلى فى الجنة ، تفضلاً منك ونعمة ، وعطفًا منك وفضلاً ، فإنك أنت الغفور الرحيم ، المليك المقتدر ، آمين .

★ ★ ★

أصحاب اليمين

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤
إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠ ﴾

المفردات :

السدر : شجر النبق .

مخضود : خضد شوكه ، أى قطع .

الطلح : شجر الموز .

منضود : مرصوص بعضه فوق بعض ، فليست له سوق بارزة .

وظل ممدود : وظل ممتد دائم ، لا يتقلص ولا يتفاوت .

مسكوب : يسكب لهم كما يشاءون ، بلا نصب ولا تعب .

فُرُش : واحدها فراش ، كسُرج وسراج .

مرفوعة : عالية منضدة .

عربا : واحدتهن عروب كصبور ، وهى حسنة التودد لزوجها .

أتـــــرابـــــا : متساويات فى السِّن .

ثـلـة من الأولـيـن : جماعة كثيرة من سابقى هذه الأمة .

وثلة من الآخرين : وجماعة كثيرة من متأخريها .

تمهيد :

لما بيَّن الله حال السابقين المقربين ، وأنواع نعيمهم ، شرع فى بيان أصحاب اليمين ، وعدَّد أوصاف نعيمهم ، من فواكه وظلال ومياه وفُرش ، ونساء حسان عذارى فى سن واحدة .

التفسير :

٢٧ – وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ .

يبدأ الحديث هنا عن أصحاب اليمين ، وهم من أهل الجنة ممن يأخذون كتابهم باليمين ، ومع ذلك فما أعظم حالهم، وما أكرم مآلهم، والاستفهام للتهويل والتفخيم .

والمعنى : وأصحاب اليمين لا يعلم أحد جزاءهم ولا ثوابهم ، إنه شىء عظيم .

٢٨ – فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ .

وهو النَّبْق الذى لا شوك فيه .

رُوى أن أُعرابيًا قال للنبى ﷺ : يا رسول الله ، لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، قال : «وما هى»؟ ، قال : السِّدر ، فإن له شوكا . قال رسول الله ﷺ : «أليس الله يقول : فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة» .

٢٩ – وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ .

وشجر موز قد نُضِّد حمله من أسفله إلى أعلاه ، أى متراكب ، قد رُصَّ بعضه فوق بعض ، ليست له ساق بارزة .

قال تعالى : وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . (ق : ١٠) .

أى : منظم مرصوص بعضه فوق بعض .

٣٠ – وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ .

أهل الجنة فى ظل دائم ممتد ، لا يتقلص ولا يتفاوت ولا يذهب ، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار أنَّه ظل أشجار الجنة الممتد مسافات بعيدة .

أخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، وذلك الظلّ الممدود» .

قال ابن مسعود : الجنة سجسج ، (أى : لا حر ولا برد) ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

ومعنى **مَّمْدُودٍ** . أى : لا زوال له ، فهو دائم .

قال تعالى : **أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا** ... (الرعد : ٣٥) . أى : وظلها دائم ، والظل ليس ظل الأشجار ، بل ظل يخلقه الله تعالى . ا هـ .

قال تعالى : **وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا** : (النساء : ٥٧) .

وقال تعالى : **فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ** . (المرسلات : ٤١) . إلى غير ذلك من الآيات .

٣١ - وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ .

ماء يجرى حيث شاءوا ، لا يحتاج إلى نهر يجرى فيه ، ولا أخدود يمنعه ، بل هو يجرى بالقدرة الإلهية حتى تقرَّ به عيون أهل الجنة .

قال القرطبى :

كانت العرب أصحاب بادية ، والأنهار فى بلادهم عزيزة ، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء ، فوُعدوا فى الجنة بأسباب النزهة ؛ وهى الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار وجريانها . ا هـ .

٣٢ ، ٣٣ - وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

فاكهة كثيرة متنوعة ، لا تنقطع عنهم أبدًا ، كما تنقطع فاكهة الصيف فى الشتاء .

وَلَا مَمْنُوعَةٍ . لا يحتاج المؤمن إلى دفع ثمن لها ، أو لا يُمنع منها بشوك ولا بُعد ولا حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها .

قال تعالى : **وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً** . (الإنسان : ١٤) .

قال ابن كثير فى تفسير الآيتين ما يأتى :

وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ... (البقرة : ٢٥)

أى : يشبه الشكلُ الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم .

وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى : «فإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها مثل قلال هجر» .

لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفا ، بل أُكلُها دائم مستمر أبدا ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء .

وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بُعد ، وفى الحديث : «إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى» (أخرجه الطبرانى) . اهـ .

٣٤ - وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ .

أى : فراش نضر ناعم مرفوع فوق أسرَّة ، أو فرش رفيعة القدر ، على أن رفعها معنوى بمعنى شرفها.

وقال أبو عبيدة : المراد بالفُرش النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، كما يكنى عنها باللباس ، ورفعهن فى الأقدار والمنزلة ، وقيل على الأرائك .

وأخرج النسائى ، والترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام»[١٠١] .

قال الآلوسى : ولا تستبعد هذا من حيث العروج والنزول ، فالعالم عالم آخر ، فوق طور عقلك . اهـ .

«تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ، ثم ترتفع به ، والله على كل شىء قدير»[١٠٢] .

٣٥ - إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً .

أعدنا إنشاءهن من غير ولادة ، وفى الحديث الشريف : «إن المنشآت اللاتى كنّ فى الدنيا عجائز عمشًا رُمْصًا ، خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عُربًا ، متعشقات محبَّبات ، أترابًا على ميلاد واحد» (رواه الطبرانى) .

قال فى التسهيل : ومعنى إنشاء النساء ، أن الله تعالى يخلقهن فى الجنة خلقًا آخر فى غاية الحسن ، بخلاف الدنيا ، فالعجوز ترجع شابة ، والقبيحة ترجع جميلة . اهـ .

وقال ابن عباس : يعنى الآدميات العجائز الشمط ، خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقًا آخر .

وقال أبو حيان : الظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذى لم يُسبق بخلق ، ويكون ذلك مخصوصًا بالحور العين .

فالمعنى : إنا ابتدأناهن ابتداء جديدا من غير ولادة ولا خلق أول .

والخلاصة : أن لعلماء التفسير رأيين فى معنى : إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ .

الأول : هنَّ نساء الدنيا ، يُعيد اللهُ إليهن الشباب والجمال والنضارة .

الثانى : هن اللائى ابتدئ إنشاؤهن ، وهن الحور العين .

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة كثيرة من الأحاديث النبوية الشريفة عند تفسير قوله تعالى : إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ .

٣٦ – فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا .

فجعلناهن عذارى ، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارًا .

٣٧ – عُرُبًا أَتۡرَابٗا .

عُرُبًا . جمع عروب وهى المتحببة لزوجها ، العاشقة له .

قال مجاهد : هنَّ العاشقات لأزواجهن ، المتحببات لهم ، اللواتى يشتهين أزواجهن .

أَتۡرَابٗا . أى : مستويات فى السنّ مع أزواجهن ، فى سن ثلاث وثلاثين سنة .

أخرج الترمذى ، عن معاذ مرفوعًا : «يدخل أهل الجنة الجنة جُرْدًا مُرْدًا ، مُكحَّلين ، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين» . والمراد بذلك تمام الشباب وكماله .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سألت النبى ﷺ عن قوله تعالى : إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابٗا . فقال : «يا أم سلمة ، هن اللواتى قُبضن فى الدنيا عجائز ، شمطًا ، عُمشًا ، رُمصًا ، جعلهن الله بعد الكبر أترابًا على ميلاد واحد فى الاستواء» . أخرجه الترمذى عن أنس مرفوعًا .

وأخرج الترمذى فى الشمائل أن امرأة عجوزًا جاءت إلى النبى ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فقال : «يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز» ، فولّت تبكى ، فقال : «أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، فإن الله تعالى يقول : إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا .

وقيل : أَتْرَابًا . أى : مستويات فى حُسن الخُلق ، وكريم الطباع ، لا تباغض بينهن ولا تحاسد ، يألفن ويُؤلفن .

٣٨ - لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ .

أى : أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ، ليستمتعوا بهن فى الجنة .

٣٩ ، ٤٠ - ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ .

أى : أصحاب اليمين جماعة كبيرة من الأمم السابقة ، وجماعة كبيرة من المتأخرين ، من أمة محمد ﷺ.

وقيل : المراد أمة محمد ﷺ ، والمعنى : جماعة من الأولين من أمة محمد ﷺ ، وجماعة من الآخرين من أمة محمد ﷺ .

أخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «هم جميعا من أمتى».

★ ★ ★

عذاب أصحاب الشمال

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ
﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾
فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

السموم : حر نارٍ ينفذ فى المسام .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

يحموم : دخان حارٌ شديد السَّواد .

لا بارد : لا هو بارد كسائر الظلال .

ولا كـــريـــم : ولا دافع أذى الحرّ لمن يأوى إليه ، بل هو حارّ ضارّ .

مـتــرفـيــن : منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على شيء مما جاء به الرُسل .

يصـــــرون : يقيمون ولا يقلعون .

الحنث العظيم : الذنب الكبير ، وهو الشرك بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله .

الـمـيـقـات : ما وُقّت به الشيء ، والمراد به يوم القيامة ، وسمّى به لأنه وُقّت به الدنيا .

شجر الزقوم : شجر ينبت فى أصل الجحيم ، كريه المنظر والرائحة .

الـهـيـم : الإبل العطاش التى لا تُروى لداء يصيبها ، فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقما شديدا.

الـنـزل : ما يقدّم للضيف إذا نزل تكرمة له .

تمهيد :

قسّمت السورة الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام ، وتحدّثت عن السابقين ، وعن أصحاب اليمين ، وهنا تتحدث عن الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال ، وتذكر أنواع العذاب الذى يلقونه .

التفسير :

٤١ – وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ .

أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم .

مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ .

وهذا الاستفهام للتهويل ، أى : هم فى حال لا يستطاع وصفها ، ولا يقدَّر قدرها ، من نكال ووبال وسوء منقلب .

٤٢ – فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ .

السموم : ريح حارة تدخل فى المسام ، فتُمرض أو تَقتل .

قال الرازى :

والأولى أن يقال : هى هواءٌ متعفن يتحرك من جانب إلى جانب ، فإذا استنشق الإنسان منه ، يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتله .

وَحَمِيمٍ . ماء متناهٍ فى الحرارة ، قال تعالى : وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

٤٣ - وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ .

ظل حار خانق من ، يَحْمُومٍ . دخان شديد السواد .

قال تعالى : ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ . (المرسلات : ٢٩ - ٣٣) .

لقد كان أصحاب اليمين فى ، ظل ممدود .

أما أصحاب الشمال فإنهم فى ظل خانق لافح حار، وهو ظل على سبيل المجاز .

٤٤ - لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ .

فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام .

وَلَا كَرِيمٍ . لا خير فيه .

قال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة (الكريم) فى النفى ، فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة .

والخلاصة :

إن السموم تضربهم فيعطشون ، وتلتهم تارة أحشاءهم فيشربون الماء فيقطّع أمعاءهم ، ويريدون الاستظلال بظلٍّ فيكون ظل اليحموم .

أى أنهم فى معاناة دائمة ، فإذا كان الهواء والماء والظلّ - وهى أبرد الأشياء وألطفها - حارةً لافحةً مفزعةً لهم ، فما بالك بحالهم مع حرارة النار ولهيبها .

اللهم إنا نعوذ بك من النار ، ومن عذاب النار ، ونسألك أن تدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

ثم ذكر القرآن سبب معاناتهم فقال :

٤٥ - إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ .

متنعمين فى الدنيا بألوان النعيم ، حتى بَشِمُوا من الشهوات ، وأذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، واستمتعوا بما يحل وما لا يحلّ ، ولم يقفُوا عند حدّ ، ثم إنهم لم يشكروا نعمة ربهم عليهم ، ولم يفكروا فيما

جاءت به الرُسل ، بل رفضوه أول وهلة ، خشية أن يفرض عليهم ترك الخمر والزنا ، ويوجب عليهم الصلاة والزكاة .

٤٦ - وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ .

أى : القسم بأنه لا بعث ولا حشر ، ولا قيامة ولا حساب ولا جزاء ، أو يُصرون على الكفر بالله وتكذيب الرسل ، وهو مخالف لعهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

قال تعالى : وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ... (النحل : ٣٨) .

وهم حانثون كاذبون فى ذلك القسم ، الذى ينكرون فيه البعث والحساب .

٤٧ - وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .

إنهم يستبعدون البعث بعد الموت ، ويذكرون أنهم سيصيرون رفاتا وعظاما وترابا ، وما أبعد هذه الأشياء عن الحياة .

٤٨ - أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ .

عطف على الآية السابقة .

والمعنى :

أو يبعث أيضا آباؤنا الأقدمون الذين طال عليهم العهد ، وأصبحوا رميما باليا أبعد شىء عن الحياة، أيبعثون مرة أخرى ؟ يقولون ذلك زيادة فى استبعاد البعث ، خاصة الآباء الذين طال عهدهم بالموت والبلى.

٤٩ ، ٥٠ - قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ .

أى : ردّ عليهم يا محمد وقل لهم مؤكدًا : إن الأولين السابقين من آبائكم ، والآخرين وهم أنتم ومن معكم ، ستبعثون جميعا ، وتجمعون جميعا يوم القيامة الذى وقّت الله أجله ، وعلم وقته .

قال تعالى : فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ - ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ .

ثم إنكم أيها الضّالون عن الهداية والإيمان بالله ورسله ، المكذّبون بالبعث والجزاء ، لداخلون فى جهنم ، فإذا اشتد جوعكم فيجب أن تأكلوا من شجر بشع مؤلم ، لأنه كريه المنظر كريه الطعم ، ويجب أن تملأوا بطونكم منه زيادة فى عذابكم .

٥٤ ، ٥٥ - فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ .

قال الزمخشرى :

والمعنى : إنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقّوم ، فإذا أكلوا وملأوا منه البطون سلّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم ، فيشربونه شرب الهيم . ا هـ .

وٱلْهِيمِ : الإبل العطاش ، أو المريضة التى لا تروى بشرب الماء ، أى : فلا يكون شربكم شربا معتادًا ، بل شُرب الهيم .

قال ابن عباس : ٱلْهِيمِ . الإبل العطاش الظِّماء .

وقال السدّى : ٱلْهِيمِ . داء يأخذ الإبل فلا تروى أبدًا حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبدًا .

٥٦ - هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ .

هذا الذى ذكرنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم القيامة ، فإذا كان هذا نزلهم - وهو ما يقدم للنازل مما حضر - فما ظنك بما ينالهم بعد دخولهم النار ، وجعل ألوان العذاب الشديد نُزُلا - أى : ما يُكرّم به النازل- فيه من التهكم ما لا يخفى .

ونظير ذلك قول الشاعر :

وكنّا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القَنَا والمرهفات له نُزلا

وجاء فى مختصر تفسير ابن كثير ما يأتى :

هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ .

أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم ، كما قال تعالى فى حق المؤمنين :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا. (الكهف : ١٠٧) .

أى : ضيافة وكرامة .

★ ★ ★

قدرة الله

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

أفرأيتم : أخبروني .

تمنون : أمنى أي أراق ، والمراد هنا : وضع النطفة في الرّحم .

قدرنا بينكم الموت : قضينا به بينكم ، وكتبناه عليكم .

وما نحن بمسبوقين : وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

على أن نبدّل أمثالكم : نأتي بخلق مثلكم (فتح القدير) .

وننشئكم فيما لا تعلمون : وننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا ، فيُجمِّل المؤمن ببياض وجهه ، ويُقبّح الكافر بسواد وجهه .

النشأة الأولى : خلقكم من نطفة ، ثم جعلكم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ، ثم كسا العظام لحما ، ثم أنشأه الله خلقا آخر ، أو خَلْق آدم ونشأته من تراب .

التفسير :

٥٧ – نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ .

نحن خلقناكم أيها الناس من العدم ، فهلا تصدّقون بالبعث ، فإن من قدر على البدء قادر على الإعادة.

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ١٢ – ١٦) .

أو خلقنا آدم من تراب ثم جعلناه بشرا سويا ، فهلا صدقتم أن من أوجدكم من العدم قادر على إعادتكم .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (الروم :٢٧) .

٥٨ ، ٥٩ - أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ .

أى : أخبرونى عن المنىِّ الذى تضعونه فى أرحام النساء ، هل أنتم تخلقونه وتنقلونه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، وتكسون العظام لحما وتنفخون فيه الروح ، أم نحن الذين أبْدعنا خلق الإنسان، بعد مراحل يمرُّ فيها الجنين فى بطن أمّه ؟

وإذا لم تخلقوا ولم تُوجدُوا فاعترفوا بقدرتنا على البدء والإعادة .

«إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمنى رحم المرأة ، ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها ، فى هذا الماء المهين ، تعمل وحدها فى خلقه وتنميته وبناء هيكله ونفخ الروح فيه» [١٠٣] .

٦٠ ، ٦١ - نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ .

حكمنا بالموت على كل إنسان من أهل السماوات والأرض ، وقد ساوى الله بين أهل السماوات والأرض ، سواء فى ذلك الشريف والوضيع ، والأمير والصعلوك .

قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... (آل عمران : ١٨٥) .

وقال عز شأنه : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧).

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ . فنذهب بكم ، ونأتى بخلق جديد أطوع لله منكم.

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر : ١٥ - ١٧) .

قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم ، لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا .

وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ .

ولسنا بعاجزين أيضا أن نعيدكم يوم القيامة فى خلقة لا تعلمونها ، ولا تصل إليها عقولكم، والغَرَضُ أن الله قادر على أن يهلكهم ، وأن يعيدهم ، وأن يبعثهم يوم القيامة ، ففى الآية تهديد واحتجاج على البعث.

قال الزمخشرى :

المعنى : إنا لقادرون على الأمرين معا ، على خلق ما يماثلكم ، وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم .

وقال القرطبى :

المعنى : وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيحشر المؤمن أبيض الوجه ، ويحشر الكافر أسود الوجه .

٦٢ - وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ .

أى : ولقد أيقنتم أن الله سبحانه وتعالى أنشأكم النشأة الأولى، حيث خلقكم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم من عظام ، ثم كسا العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فصار خلقًا سويًا .

فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ . فهلا تعتبرون وتفكرون بأن القادر على البدء قادر على الإعادة .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

قال قتادة : النشأة الأولى هى خلق آدم من تراب ، فهّلا تتذكرون أن من قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقوى وأقدر .

وفى الخبر : «عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدّق بالنشأة الآخرة ، وهو لا يسعى لدار القرار» .

وقد ساق القرآن عددا من الأدلة على وجوب البعث .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨-٨٣) .

وقال سبحانه وتعالى : أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا . (مريم : ٦٧) .

وقال عز شأنه : أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ . (القيامة : ٣٧ - ٤٠) .

★ ★ ★

الزرع والماء والنار

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨)
ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ
جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾

المفردات :

ما تحرثون : ما تبذرون حبّه وتعملون فى أرضه .

تزرعونه : تنبتونه فى الأرض .

حطاما : فتاتا ، من حطم الشىء يحطمه حطما .

فظلتم : فظللتم ، أى : فبقيتم ودمتم .

تفكهون : تتفكهون ، بمعنى تتعجبون من سوء حاله وتندمون ، وأصل التفكه : التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث.

إنا لمغرمون : لملزمون غرامة ما أنفقنا .

بل نحن محرومون : لا حظًّ لنا ، أو محرومون الرزق بالكلية .

تمهيد :

يقدم القرآن الكريم الدليل تلو الدليل على قدرة الله تعالى ، فيسألهم : أنتم تحرثون الأرض وتضعون البذرة ، لكن من ينبت الزرع ؟ إنه الله تعالى .

والماء الذى تشربونه ، هل أنتم أنزلتموه من السحاب ، أم الله هو الذى أنزله ؟

والجواب : نعم ، أنت يارب الذى تنزل المطر ، وتسوق السحاب ، وتنزل الماء .

وكذلك النار ، هل أنتم أوجدتم شجرتها ، أم نحن المنشئون لها ؟ لقد جعلها الله تذكيرًا بنار الآخرة ، وجعلها لأهل الدنيا متاعا للنازل فى قلب الصحراء ، حيث يَسْتَدْفِئ بها ، ويسوّى عليها طعامه وغذاءه .

التفسير :

٦٣، ٦٤ – أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ .

يستفهم القرآن هذا الاستفهام الذى يحرك العقول والقلوب ، فيقول : أرأيتم الفلاح حين يحرث الأرض ويسقيها ، ويضع فيها البذرة ويتركها ، من الذى ينبتها زرعا أخضر نضيرًا ؟ من الذى يسوق الهواء والماء وتفاعل التربة مع النبات حتى تتحول البذرة نباتا ينمو ويخرج على سطح الأرض ، كما تنمو الأطفال ؟

هل أنتم الذين تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحبّ ، أم نحن الفاعلون لذلك ؟ فإذا أقررتم بأن الله هو الذى يُخرج الحبّ وينبت الزرع ، فكيف تنكرون قدرته على بعث الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ؟.

٦٥ ، ٦٦، ٦٧ – لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

لو أردنا لجعلنا هذا النبات هشيما متكسِّرًا ، قبل استوائه وبلوغه مرحلة الحصاد.

فمكثتم تتعجَّبون أو تندمون على ما أنفقتم على الزرع من الحرث والبذر من غير حصول نفع أو نضوج ثمره .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا . (الكهف : ٤٢) .

وأصل التفكّه : التنقل بصنوف الفاكهة، واستعير للتنقل بألوان الحديث ، وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع ، وقد كُنى فى الآية عن التعجب ، أو الندم ، أو التلاوم .

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ .

يقولون : إنا لمغرمون ، أى : إنا لمحمَّلون الغُرم فى إنفاقنا ، حيث ذهب زرعنا ، وغَرِمْنا الحبّ الذى بذرناه .

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

يقولون تارة أخرى : بل نحن محرومون الرزق ، غَرَمْنَا قيمة البذر ، وحُرِمنا خروج الزرع .

٦٨ – أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ .

أخبرونى عن الماء الذى تشربون ، وهو نعمة كبرى لا يستغنى عنه إنسان .

قال تعالى : لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . (النحل : ١٠) .

ومن الماء يشرب الإنسان والحيوان والزرع .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

روى ابن أبى حاتم ، عن جابر ، عن أبى جعفر ، عن النبى ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال : «الحمد لله الذى سقانا عذبًا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجًا بذنوبنا» .

٦٩ - ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ .

أأنتم أنزلتم المطر من السحاب ، أم نحن المنزلون ؟

والجواب هو : ما أنزل المطر إلا الله سبحانه وتعالى ، والقرآن بهذا يُعدِّد نعم الله الظاهرة أمام أعينهم، فنزول المطر يحتاج إلى موافقات متعددة لا يقدر عليها إلا الله ، وهو سبحانه سائق السحاب ، ينزله على من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء . فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . (الروم : ٤٨) .

٧٠ - لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

لو نشاء جعلنا الماء العذب الفرات السائغ للشرب ، ملحًا أُجاجا تعافه النفس ، ولا يصلح لغرض من أغراض المعيشة ، كالطبخ أو سقى الزرع أو الرىّ .

فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

فهلا شكرتم ربكم ، واعترفتم بفضله فى حياتكم ، وتسخير الحرث والزرع ، وتسخير الماء العذب الفرات لكم . وهلا اعترفتم له بالقدرة على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم للبعث والحساب والجزاء.

٧١ - أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ .

أى : أخبرونى عن النار التى تقدحونها ، وتستخرجونها من الشجر الرطب .

٧٢ - ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ .

هل أنتم الذين زرعتم وأنشأتم وأوجدتم الشجرة التى تحرقونها بالنار فتستدفئون ؟

قال ابن كثير :

وللعرب شجرتان : إحداهما المرخُ ، والأخرى العفارُ ، إذا أُخذ منهما غصنان أخضران ، فحُكَّ أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار .

٧٣ - نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ .

أى : جعلنا نار الدنيا تذكرة ، تذكِّر الناس بشدة الحرارة وشدة الحريق، حتى يتذكروا نار الآخرة ، «ونار الدنيا جزءٌ من سبعين جزءًا من نار الآخرة» . (رواه الشيخان) .

وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ . يعنى بالمقوين : المسافرين .

وعن مجاهد : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقيل : المستمتعين من الناس أجمعين.

قال ابن كثير :

وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى ، من غنى وفقير ، الجميع محتاجون إلى النار للطبخ والاصطلاء والإضاءة ، وغير ذلك من المنافع .

وفى الحديث : «المسلمون شركاء فى ثلاثة : الماء ، والكلأ ، والنار» [١٠٤] (أخرجه أحمد ، وأبو داود).

٧٤ - فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ .

أى : دُم يا محمد على تنزيه الله تعالى الذى خلق الأشياء بقدرته ، فهو الذى خلق الإنسان من منىٍّ يمنى ، وهو الذى أنبت الزرع ، وهو الذى أنزل الماء من السحاب ، وهو الذى يسَّر ظهور النار للتذكّر بها والاستفادة منها .

فما أعظمه ، وما أكرمه ، وما أحلمه ، وما أكثر فضله ونعماءه .

★ ★ ★

إثبات النبوة وصدق القرآن

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ
كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾
فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ
﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ
أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ
جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات :

فلا أقسم : هذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ، ولَا : مزيدة للتأكيد .

مواقع النجوم : مغاربها أو منازلها .

مكنون : مستور مصون عند الله فى اللوح المحفوظ من السوء .

لا يمسه إلا المطهرون : المنزهون عن دنس الحظوظ النفسية .

مدهنون : متهاونون ، أو مكذّبون .

لولا : حرف يفيد الحثّ على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب .

الحلقوم : تجويف خلف تجويف الفمّ، وفيه ست فتحات: فتحة الفم الخلفية، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ، وهى مجرى الطعام والشراب والنَّفس.

غير مدينين : غير مربوبين مقهورين .

فَرَوْح : فله استراحة أو رحمة .

ريحان : رزق حسن .

فَنُزُلٌ : فجزاؤه نُزُلٌ .

حـــمـــيـــم : ماء تناهتْ حرارته .

تصليةُ جحيم : مقاساة لحرِّ النار ، أو إدخال فيها .

حق اليقين : حقّ الخبر اليقين الذى لاشك فيه .

فسبّح باسم ربك : فنزّه ربك عما لا يليق .

تمهيد :

فى ختام السورة يُقسم الحق سبحانه بمواقع النجوم ، أى : بمنازلها ومغاربها وحركتها وسيرها وأبعادها ، وهو أمر عظيم أىّ عظيم ، فهذه النجوم لها مجراتها ولها جاذبيتها ، ولا يصطدم نجم بآخر إلا لحكمة مقصودة .

يقسم الجبار سبحانه وتعالى بمواقع النجوم ، على صدق القرآن الكريم ، وأنه كتاب الله محفوظ من الشياطين ، لا يقترب مِنْه إلاَّ الملائكة المقربون ، مثل جبريل الأمين الذى ينزل بالوحى على رسول الله ﷺ، ثم ذكرت الآيات أقسام الناس عند خروج الروح ، وأنهم ثلاثة أقسام:

المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، ولكل منهم جزاء مناسبٌ له .

التفسير :

٧٥ - فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ .

جمهور المفسرين على أن المعنى : أُقسم بمواقع النجوم .

قال القرطبى :

لا : صلة فى قول أكثر المفسرين ، والمعنى : فأقسم ، بدليل قوله بعده :

٧٦ - وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ .

والمعنى :

أقسم بمنازل النجوم ، وأماكن دورانها فى أفلاكها وبروجها .

وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ .

وإن هذا القسم العظيم جليل ، لو عرفتم قدره لآمنتم به ، وانتفعتم به ، وذلك لما فى حركة النجوم وسيرها وأبعادها من كمال الحكمة ، وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن يلفت أنظارنا إلى هذا الكون الواسع الرحيب ، وأن يقسم ببعض مخلوقاته ليلفت الأنظار إلى عظمة التدبير ، وقدرة القدير .

يقول الفلكيون :

«إن مجموعة واحدة من المجموعات التى لا تحصى فى الفضاء الهائل الذى لا نعرف له حدودا ، مجموعة واحدة هى (المجرّة) التى تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ، تبلغ ألف مليون نجم ، وإن من هذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم ، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، ومنها ما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض .

ولا يوجد أى احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر ، أو أن يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض بآخر فى المحيط الهادى ، يسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد جدًّا ، إن لم يكن مستحيلا» (١٠٥) .

وقال جماعة منهم ابن عباس :

النجوم نجوم القرآن، ومواقعها أوقات نزولها ، فإن القرآن نزل جملة واحدة فى ليلة القدر ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة فى سماء الدنيا ، ثم نزل منجما مفرقا فى مدة الرسالة المحمدية وهى ثلاثة وعشرون عامًا .

٧٧ - ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ .

إن هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ كريم ، مرْضِىٌّ عنه ، رفيع القدر بين الكتب المنزلة من عند الله ، كثير المنافع ، كريمٌ على الله ، كريم على المؤمنين .

كريم لاشتماله على كريم الأخلاق ومعالى الأمور ، كريم لأنه يكرم حامله ويعظِّم قارئه ، وهو قرآن كريم ، تحضر الملائكة عند قراءته ، ويذكر الله القارئين له فى الملأ الأعلى .

وفى الحديث الشريف : «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم الرحمة ، وغشيتهم السكينة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده» (١٠٦) .

٧٨ - ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ .

فى كتاب مصون عند الله تعالى ، قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ.

٧٩ - ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ .

لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا الملائكة الأبرار الأطهار ، الذين طُهِّرت نفوسهم ، فهو بعيد كل البعد عن الشياطين .

قال تعالى : ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ . (عبس : ١٣ - ١٦)

وحين قالت قريش : تنزلت به الشياطين ، أخبر الله تعالى عنه قائلا :

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ . (الشعراء : ٢١٠-٢١٢).

وقال الفرّاء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به .

وذهب آخرون إلى أن معنى :

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ .

لا يمسُّ هذا القرآن إلا المطهَّرون من الحدث الأصغر والحدث الأكبر ، «قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب» [١٠٧] .

أى : لا ينبغى أن يمسّ القرآن إلا من هو على طهارة .

أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر ، والحاكم ، عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان الفارسى ، فانطلق إلى حاجة ، فتوارى عنّا ، ثم خرج إلينا ، فقلنا : لو توضأت ، فسألناه عن أشياء من القرآن ، فقال : سلونى فإنى لست أمسّه ، إنما يمسُّه المطهرون ، ثم تلا : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ . ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا .

قال المراغى فى تفسيره :

وقد ذهب جمهور العلماء إلى منع المحدث عن مس المصحف ، وبذلك قال على وابن مسعود وسعد ابن أبى وقاص ، و جماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى.

ورُوى عن ابن عباس ، والشعبى ، وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمُحْدِث مسّه . (يُراجع شرح المنتقى للشوكانى) .

وقال الحسين بن الفضل : المراد أنه لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق .[١٠٨] .

٨٠ - ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ .

أى : هذا القرآن الكريم منزل من الله رب العالمين ، فما أعظم من أنزله ، وما أكرم الكتاب الذى اشتمل على الهدى والتشريع ، والآداب ومكارم الأخلاق ، وأبواب السعادة فى الدنيا والآخرة .

فليس القرآن الكريم – كما يزعم الكافرون – من عند غير الله ، وليس شعرًا ، ولا سحرًا ، ولا كهانة، ولا أساطير الأولين ، بل هو قرآن كريم فى كتاب مكنون ، تنزيل من رب العالمين.

٨١ – أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ .

أفبهذا القرآن ، يا معشر الكفار ، أنتم مدهنون ، أى متهاونون .

وأصل (الادّهان) جعل الجلد مدهونًا بشىء من الدُّهن حتى يلين .

أى : لا تقرُّون فيه برأى واضح صريح جاد ، وتقولون هو كلام رب العالمين .

وعن ابن عباس والزجاج : مُّدْهِنُونَ . مكذّبون .

٨٢ – وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ .

وتجعلون جزاء رزقكم من الله أنكم تكذبون بمن منحكم هذا الرزق ، فتنسبون المطر إلى الرياح والأنواء ، رغم أن الرياح وسيلة وسبب ظاهرى ، أما المسبب الحقيقى فهو الله تعالى .

وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكواكب، وأما من قال : مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذى آمن بالكواكب وكفر بى» . (١٠٩) .

قال القرطبى :

وفى هذا بيان ، لأن ما يصيب العباد من خير ، فلا ينبغى أن يروه من قبل الرسائط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلوه بالشكر إن كان نعمة ، وبالصبر إن كان مكروها ، تعبدًا له وتذللا . اهـ .

٨٣ ، ٨٤ – فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ .

فى آيتين سابقتين استفهم منهم استفهاما إنكاريا على تكذيبهم بالقرآن ، وبكفرهم بنعمة الله وعدم شكره ، حين قال سبحانه : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . (الواقعة : ٨١ ، ٨٢)

وهنا يتحدّاهم ، ويذكر عجزهم وضعفهم أمام ظاهرة معلومة ، حين تبلغ روح القريب لهم الحلقوم ، ويقترب الموت ، ويظهر العجز والضعف ، ويلتفُّ حول الميت أقاربه وأحبابه ينظرون إليه وهو يعالج سكرات الموت ، ولا يستطيعون دفعه عنه ، مما يدلّ على عجز الإنسان ، وأنه مقهور مربوب للقدرة العليا التى تخلق وتوجد ، وتنفخ الروح ، وتميت الميّت ، وتدعو الإنسان إلى الاعتبار .

قال تعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ . (القيامة : ٢٦ – ٣٠) .

جاء فى التفسير الوسيط للأزهر بتصرف ما يأتى :

والروح : جسم لطيف سار فى البدن سريان الماء فى العود الأخضر ، وفى حياة الإنسان يتحرك ويدخل ويخرج ، ويقوم ويقعد ، ويأمر وينهى ، ويبيع ويشترى ، فإذا بلغت الروح الحلقوم حان الحين ، وظهر العجز ، ودنا الأجل ، والميت يجود بنفسه ، وأقاربه حوله يشاهدون ما يقاسيه من سكرات الموت وغمراته . ا هـ .

٨٥ – ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ .

الله أقرب إلينا فى كل لحظة ، أقرب إلينا بعلمه وملائكته ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ . (ق : ١٦) .

لكن فى هذه الحالة ، حين يحضر الأقارب والأحباب حول الميت ، ويشاهدون حشرجة الرُّوح وخروجها إلى بارئها ، والملائكة أقرب إلى الميت من المشاهدين له ، حيث تقبض روحه بأمر الله تعالى .

وقد نسب الله تعالى قبض الروح إليه سبحانه فى قوله : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ... (الزمر : ٤٢) .

كما نسب قبض الروح إلى ملك الموت فى قوله سبحانه : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ . (السجدة : ١١) .

كما نسب قبض الروح إلى الملائكة فقال سبحانه : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ . (الأنعام : ٦١) .

قال العلماء : الحياة والموت والكون كله بيد الله ، فنسب الله الموت إليه ، وملك الموت هو الذى يباشر نزع الروح من الجسد فنسبت الوفاة إليه ، ولملك الموت أعوان من الملائكة فنسبت الوفاة إليهم ، ولا تعارض بين الآيات ، فالمرجع كله إليه سبحانه وتعالى .

٨٦ ، ٨٧ – ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ .

تقيم الآيات الأدلة على عجز المخلوق ، وقدرة الخالق ، أى : إذا أنكرتم ألوهية الله وقدرته على البعث والحشر ، والحساب والجزاء : فأمامكم دليل عملى : حين تبلغ الروح الحلقوم ، وأنتم تشاهدون أقرب الناس إليكم يعالج سكرات الموت ، وأنتم عاجزون تماماً عن إعادته إلى الدنيا .

هلّا أيقنتم أن الذى يفعل ذلك ، ويقدر على الموت والحياة إله واحد ، وهو القائل فى كتابه : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ . (الملك : ١ ، ٢) .

وخلاصة المعنى :

هلّا إن كنتم غير خاضعين لقدرتنا ترجعون روح الميت إلى جسده إن كنتم صادقين فى اعتقادكم بأنه لا بعث ولا حساب ، أو فى توهمكم بأن هناك قوة أخرى غير الله ، يمكنها أن تساعدكم فى الشدائد والمحن .

وهكذا نجد الآيات تتحدّى الكافرين ، بل البشر أجمعين أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم واقفون حوله وقفة الحائر المستسلم العاجز عن فعل أى شىء من شأنه أن يدفع الموت ، أو يؤخر خروج الرُّوح ولو لزمن قليل .

٨٨ ، ٨٩ - ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ .

فى آيات سابقة أظهر القرآن عجز الإنسان أمام ظاهرة الموت .

قال الخازن فى تفسيره : وإذا لم يمكنكم إرجاع روح الميت إلى جسده ، فاعلموا أن الأمر إلى غيركم ، وهو الله تعالى فآمنوا به .

وهنا يذكر الله تعالى حال الناس بعد الوفاة ، ويقسّمهم إلى ثلاثة أقسام ، قد ذُكروا تفصيلاً فى صدر السورة ، وهم : المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

والمقربون هم السابقون ، المقربون إلى الله تعالى ، قد سبقوا إلى الإيمان وطاعة الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، واتباع المأمورات ، والتأدّب بأدب الإسلام ، والتسابق إلى مرضاة الرحمن ، هؤلاء عند الموت يحسّون بمنزلتهم فى الجنة ، وتبشرهم الملائكة بالجنة وريحانها وثمارها ونعيمها .

قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ...﴾ (إبراهيم : ٢٧) .

وعن مجاهد : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ : جنة ورخاء .

وقال قتادة : فروح ورحمة .

وقال غيرهم : فَرَوْحٌ . راحة من الدنيا ، وَرَيْحَانٌ . فرح بنعيم الآخرة .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، كما يقول ابن كثير فى تفسيره ، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور ، والرزق الحسن . ا هـ .

وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . والجنة الواسعة التى يتنعم فيها المقربون بألوان النعيم .

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عند تفسير هذه الآية .

منها ما رواه البخارى ، ومسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : «أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ، تسرح فى رياض الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش»[١١٠] .

وتفيد جملة من الأحاديث أن روح المؤمن تسبح فى الجنة ، حتى يُرجع الله الروح إلى الجسد عند البعث.

٩٠ ، ٩١ - وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ .

والمعنى : وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة ، الذين يأخذون كتابهم بيمينهم ، فإن الملائكة تتلقاهم بالسلام والأمان ، وتبشرهم بالجنة ، وتطمئنهم على حسن مستقبلهم ، وعلى رعاية الله لذريتهم بعد وفاتهم .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ - ٣٢) .

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ - وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ .

وأما إن كان المحتضر من ٱلْمُكَذِّبِينَ . بالقيامة والبعث والحساب ، ٱلضَّآلِّينَ . عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فأول ما يقدم له الحميم الذى يغلى غلياناً شديداً فيشوى وجهه ، ويقطع أمعاءه، ثم يصطلى بنار الجحيم التى تغمره من جميع جهاته ، فيذوق سعيرها ، ويقاسى ألوان عذابها .

٩٥ ، ٩٦ - إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ .

إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد ، من جزاء السابقين بالدرجات العلى فى الجنة ، ومن جزاء أصحاب اليمين بالسلام والأمان فى الجنة ، ومن جزاء المكذبين الضالين بعذاب جهنم والاصطلاء بنار الجحيم ،

هذه الحقائق المذكورة فى هذه السورة هى الحق الثابت الذى لا شك فيه ولا ريب ، وهى عين اليقين الذى لا يمكن إنكاره .

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ .

نزِّه الله تعالى عن العيب والنقص ، ونزِّهه عن أن يترك الناس سدى ، فإنه منزه عن الكذب ، ومنزه عن النقصان ، ومنزه عما يصفه به الظالمون .

أخرج أبو داود ، وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة : فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ . قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها فى ركوعكم»[١١١]

ولما نزلت : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . (الأعلى : ١) .

قال ﷺ : «اجعلوها فى سجودكم»[١١٢] .

أى أن نقول فى الركوع : «سبحان ربى العظيم» .

ونقول فى السجود : «سبحان ربى الأعلى» .

وروى البخارى فى آخر صحيحه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم»[١١٣] .

★ ★ ★

خلاصة موضوعات سورة الواقعة

١ – اضطراب الأرض ، وتفتت الجبال حين قيام الساعة .

٢ – الناس عند الحساب أزواج ثلاثة ، وذِكْرُ مآل كل زوج منهم .

٣ – اجتماع الأولين والآخرين فى هذا اليوم .

٤ – إقامة الأدلة على وجود الخالق .

٥ – إقامة البراهين على البعث والنشور والحساب .

٦ – إثبات أن هذه الأخبار حق لا شك فيه .

٧ – تبكيت المكذبين على إنكار الخالق .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (الواقعة) مساء الثلاثاء ٢ من رمضان ١٤٢١ هـ، الموافق ٢٨/١١/٢٠٠٠م، بمدينة المقطم بالقاهرة ، جمهورية مصر العربية ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★


تفسير سورة الحديد

أهــداف ســورة الحديــد

سورة الحديد مدنية ، وآياتها ٢٩ آية ، نزلت بعد سورة الزلزلة .

وهى سورة تعالج التقوى والصدق والإيمان ، وتحث على الصدقة والبذل ، والإخلاص فى التضحية، وتحذّر من غرور الدنيا وفتنتها .

جاء فى ظلال القرآن:

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كى تحقق فى ذاتها حقيقة إيمانها ، هذه الحقيقة التى تخلص بها النفوس لدعوة اللّه ، فلا تضن عليها بشىء ، ولا تحتجز دونها شيئاً .. لا الأرواح ولا الأموال ، ولا خلجات القلوب ، و لا ذوات الصدور .. وهى الحقيقة التى تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض، موازينها هى موازين اللّه، والقيم التى تعتز بها وتسابق إليها هى القيم التى تثقل فى هذه الموازين، كما أنها هى الحقيقة التى تُشعر القلوب بحقيقة اللّه ؛ فتخشع لذكره وترتجف وتفر من كل عائق وكلّ جاذب يعوقها عن الفرار إليه .[١١٤]

مطلع السورة

بدأت السورة ببيان قدرة اللّه العلى القدير، فهو الخالق الرازق ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، وهو سبحانه أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، وظاهر فى كل ما تراه العين من سماء وأرض وجبال وبحار ، وباطن فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو خالق الكون كله ، وهو القائم على حفظه، والمهيمن على جميع أمره ، والمطلع على خفايا النفوس ، والمحاسب على القليل والكثير ، والمجازى على الفتيل والقطمير.

ولما كان مدار السورة على تحقيق الإيمان فى القلب ، وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت فى إقرار هذه الحقيقة فى النفوس على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور المكية ، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر .

«وكان مطلعها خاصةً مجموعةً إيقاعات بالغة التأثير ، تواجه القلب البشرى بمجموعة من صفات اللّه سبحانه ، فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة ،

وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور» [١١٥] .

أدلة التوحيد

الآيات الأولى من السورة (١–٦) يمكن أن تكون عناصر لأدلة التوحيد وصفات الله العلى القدير . فكل شيء في الكون يتجه إليه بالعبادة ، ويعلن خضوعه وانقياده لقدرة الله : فالسماء مرفوعة ، والأرض مبسوطة ، والبحار جارية ، والهواء مسخر ، والشمس مسيرة ، والقمر باهر ، والكوكب زاهر ، وكل شيء في مداره يسير معلنا قدرة القدير ، مسبحا بلسان الحال ، مظهرا لله العبادة والخضوع .

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ١ – ٣) .

والقلب يهتز عند قراءة هذه الآيات وما بعدها ، يهتز من جلال القدرة الإلهية المؤثرة ، المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء، المهيمنة على كل شيء، العليمة بكل شيء .

يهتز إجلالا للخالق القادر العليم الخبير ، المطلع على خفايا الصدور ، يهتز القلب حين يجول في الوجود كله فلا يجد إلا الله ، ولا يرى إلا الله ، ولا يحس بغير الله ، ولا يعلم له مهربًا من قدرته ، ولا مخبأ من علمه ، ولا مرجعا إلا إليه، ولا متوجها إلا لوجهه الكريم .

تثبيت الإيمان

الآيات (٧–١١) دعوة إلى صدق الإيمان وتأكيده ، وحث على الإنفاق في سبيل الله . وظاهر من سياق السورة أنها كانت تعالج حالة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة ، فإلى جانب المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع الأمثال في تحقيق الإيمان ، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم في إخلاص نادر وتجرد كامل ، إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة كانت هناك في الجماعة الإسلامية فئة أخرى يصعب عليها البذل في سبيل الله ، وتشقّ عليها تكاليف العقيدة في النفس والمال ، وتزدهيها قيم الحياة الدنيا وزينتها ، فلا تستطيع الخلاص من دعوتها وإغرائها .

وهؤلاء بصفة خاصة نجد هذه الآيات تدعوهم إلى الإيمان وتحثهم عليه ، وتهتف بهم تلك الهتافات الموحية ، لتخلص أرواحهم من الإغراء ، والخلود إلى الأرض ، وترفعها إلى مستوى الإيمان الحق فيخاطبهم القرآن بقوله :

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . (الحديد : ٧ ، ٨) .

مشـاهد الآخـرة

تعرض الآيات (١٢ – ١٥) صورةً وضيئةً للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة :

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ... (الحديد : ١٢) .

والمشهد هنا جديد بين المشاهد القرآنية ، إنه مشهدٌ عجيب : هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم ، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئاً ، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم ، فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت ، وأشعت نورا يمتد منها فيُرى أمامها ويُرى عن يمينها ، إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات ، والذى أشرق فى أرواحها فَعَلَتْ طينتها ، أو لعله نور الأعمال الصالحة التى عملتها فى الدنيا ، ثم تبشرهم ملائكة الرحمن بجنات تجرى من تحتها الأنهار ينعمون فيها بالخلود والفوز العظيم .

ولكن المشهد لا ينتهى عند هذا المنظر الطريف اللطيف .. إن هناك المنافقين والمنافقات فى حيرة وضلال ، وفى مهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ، ويقولون لهم : انظروا إلينا لنقتبس من نوركم ، فيجيب المؤمنون بأن النور هنا هو نور العمل الصالح الذى عمل فى الدنيا ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل ، والجزاء الحق هنا من جنس العمل ، ولذلك يحال بين المؤمنين والكافرين، ويذهب المؤمنون إلى الرحمة والرضوان ، ويذهب المنافقون إلى عذاب النار وبئس المصير .

القلوب الخاشعة

الربع الثانى من سورة الحديد يشتمل على الآيات (١٦ – ٢٩) وفيها دعوة المؤمنين إلى أن تكون قلوبهم خاشعة قانتة ، تهتز لآيات الله وما نزل من الحق ، وتستجيب لنداء السماء ، وتؤثر الآخرة على الدنيا والباقية على الفانية .

ومضمون الآيات – كما ترى – امتداد لموضوع السورة الرئيسى : تحقيق حقيقة الإيمان فى النفس حتى ينبثق عنها البذل الخالص فى سبيل الله .

ويستهل الربع برَنّة عتاب من الله سبحانه للمؤمنين الذين لم يصلوا إلى المرتبة السامية فى الإيمان، وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال ، وتحذير من هذا المآل الذى

انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم ، مع إطماعهم فى عون الله الذى يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها ، قال تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ... (الحديد : ١٦) .

وتتبع هذه الدعوة إلى الخشوع والتقوى ، دعوة تالية إلى إقراض الله قرضا حسنا ، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه فى الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم . (انظر الآيتين : ١٨ ، ١٩) .

والآية (٢٠) رسم رائع ، وميزان عادل يضع قيم الدنيا كلها فى كفة ، وقيم الآخرة فى كفة .. حيث تبدو قيم الأرض لعبا خفيفة الوزن ، وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذى يستحق الاهتمام .

ومن ثم تهتف الآية (٢١) بهم ليسابقوا إلى قيم الأخرى .. فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للمتقين .

والآيتان (٢٢ ، ٢٣) درس مفيد فى الإيمان بالقضاء والقدر ، وبيان أن الأجل بيد الله الذى خلق النفوس وكتب أجلها ورزقها ، حتى لا نكثر الأسى على ما فاتنا ، ولا نكثر الفرح بما جاءنا فالقلب الموصول بالله ثابت فى المحن ، راض فى المنح .

وتعرض الآيات (٢٥ –٢٧) طرفا من تاريخ دعوة الله فى الأرض ، تبدو فيه وحدة المنهج واستقامة الطريق ، وأن الذى يحيد عنه فى كل عهد هم الفاسقون .

وفى الآية قبل الأخيرة من السورة هتاف ودعوة للمؤمنين لتقوى الله ، وصدق الإيمان برسوله ، وبذلك يعطيهم الله نصيبين من رحمته ، ويجعل لهم نورا يمشون به ويغفر لهم ، ففضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كما يزعمون ، إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

وهكذا تبدو السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، فى خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، منوعة ومتشابهة ، فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع فى القلب وطرقه وهو ساخن، وتلوين هذه المؤثرات أمام المخاطبين .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣) .

«وبعد .. فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة فى خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير ، وهى فى بدئها وسياقها وختامها ، وفى طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة هى فى هذا درس بديع للدعاة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس، وكيف يوقظون الفطرة، وكيف يستحيون القلوب ».[١١٦] .

قال الفيروزبادي :

معظم مقصود السورة : الإشارة إلى تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات ، فى الأرض والسماوات ، وتنزيه الحق فى الذات والصفات ، وأمر المؤمنين بإنفاق النفقات والصدقات ، وذكر حيرة المنافقين والمنافقات فى ساحة القيامة ، وبيان خسة الدنيا وعز الجنات ، وتسلية الخلق عند هجوم النكبات والمصيبات»[١١٧] فى قوله تعالى :

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد : ٢٣،٢٢) .

★ ★ ★

دلائل القدرة الإلهية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ
مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ
اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

سبّح : نزَّه الله ومجّده وقدَّسه .

العزيز : القويّ الغالب على كل شيء.

الحكيم : الذى يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب .

يحيى : يُحيى النُّطف ، فيجعلها أشخاصا عُقلاء فاهمين ناطقين .

ويميت : يميت الأحياء ، وهو على كل من الإحياء والإماتة قدير .

الأول : السابق على سائر الموجودات .

الآخر : الباقى بعد فنائها .

الظاهر : الذى ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت .

الباطن : الذى خفيت عنّا ذاته فلم ترها العيون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، ومشرق بجماله وكماله ، وظاهر بغلبته على مخلوقاته ، وتسخيرها لإرادته ، وباطن بعلمه بما خفى منها ، فلا تخفى عليه خافية.

ستة أيام : ستة أطوار ، أو ست مراحل ، وربّما ستة بلايين سنة .

استوى : جلس ، والاستواء هنا بمعنى استولى .

العرش : أصله : سرير المَلك ، وفى الاصطلاح الدينى : خَلْقٌ عظيمٌ محيط بالعالم ، منه تنزل التدبيرات الإلهية.

يلج : يدخل .

يعرج : يصعد .

يُولج : يُدخل .

ذات الصدور : مكنونات النفس ، وخفيات السرائر .

تمهيد :

سورة الحديد سورة عنيت بتثبيت العقيدة ، وحشد الدلائل على قدرة الله تعالى ، فهو سبحانه المنزَّه عن النظير والمثيل ، وهو المالك للسماوات والأرض ، وبيده الحياة والموت ، وهو ظاهر فى كل ما تراه العيون ، وهو باطن فلا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، وهو خالق الكون فى ست مراحل ، حيث كان الكون كرة ملتهبة ، مرَّت بها ستة بلايين سنة حتى صارت صالحة للحياة ، وكانت السمَّاء صمَّاء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وأجرى الهواء، وسخَّر الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وجعل الكون صالحا لحياة الإنسان عليه ، وهو عالم بما ينزل فى الأرض من كنوز ومعادن وبذور ، وما يخرج منها كالزرع والمعادن والبترول لمصلحة الناس ، ويجب إخراج زكاته ، وهو عالم بما ينزل من السماء كالمطر والملائكة ، وبما يصعد إليها من الدعاء .

وهو سبحانه يطيل الليل فى الشتاء ، بحيث يمتد إلى ١٤ ساعة ، وينقص النهار حتى يصل إلى ١٠ ساعات ، ثم يحدث العكس فى الصيف ، حيث يقصر الليل ويطول النهار ، وهو مطّلع على خفايا النفوس ، ومحاسب على خفيات السرائر .

التفسير :

١- سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

نزَّه الله ومجّده وعظَّمه ما فى السماوات من الملائكة والأبراج والأفلاك ، والسحاب والشمس والقمر، والفضاء والهواء ، وما فى الأرض من النبات والأنهار والبحار والأشجار ، والرمال والإنسان والحيوان ، والطيور والوحوش والزواحف والهوام ، وهو العزيز الغالب الذى لا يغلبه أحد ، الحكيم فى تصرفاته وأفعاله.

والتسبيح يكون بلسان المقال مثل تسبيح الإنسان والجانّ والملائكة وسائر العقلاء .

وقد يكون التسبيح بلسان الحال ، بمعنى أن دلالة المخلوقات التى فى الكون ، فيها إشارة إلى يد القدرة العليا التى تمسك بزمام هذا الكون ، وتحفظ نظامه ، وتدل بما فيه من نظام وإحكام على قدرة القدير، وحكمة العزيز ، ومن التسبيح بلسان الحال : ارتفاع السماء ، وحركة الشمس والقمر ، والليل والنهار، والنجوم والأبراج والأفلاك ، وجميع ذرات الأرضين ، وما فيها من جبال وبحار ، وشجر ودواب وغير ذلك ، كلّها مسبحة خاشعة خاضعة لذاته .

قال تعالى : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ... (الإسراء : ٤٤) .

قال المفسرون : قد جاء فى بعض فواتح السور (سَبَّحَ لِلَّه) بلفظ الماضى، وفى بعضها (يُسَبِّح لِلَّه) بلفظ المضارع ، وفيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبّحة لله أبدًا فى الماضى ، وستكون مسبحة فى المستقبل .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ... (الحج : ١٨) .

٢ – لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

لله تعالى وحده ملك السماء وما فيها ، وملك الأرض وما عليها وما فيها ، فهو المالك الحقيقى لهذا الكون ، ومُلك غير الله مُلك عارض ، أمّا مُلك الله لهذا الكون ، وحفظه وعنايته بهذا الكون ، فذلك مُلكٌ دائم، وهو سبحانه ذو قدرة بالغة ، لا يتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال .

وقريب من ذلك ما ورد فى آية الكرسى :

ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ... (البقرة : ٢٥٥) .

٣ – هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

أورد ابن كثير طائفة من الأحاديث عند تفسير هذه الآية ، منها ما يأتى :

عن العرباض بن سارية ، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبّحات قبل أن يرقد ، وقال : «إن فيهن آية أفضل من ألف آية» [١١٨].

والآية المشار إليها فى الحديث هى – والله أعلم – قوله تعالى : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

وقد أخرج الحافظ أبو يعلى الموصلى ، عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه، فيفرش له مستقبل القبلة ، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ثم همس ، ما أدرى ما يقول ، فإذا كان فى آخر الليل رفع صوته فقال : «اللهم ربَّ السماوات السبع ، ورب العرش العظيم ، إله كل شىء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شرّ كل شىء أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأوّل الذى ليس قبلك شىء، وأنت الآخر الذى ليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» [١١٩] . وأخرجه مسلم ، وأحمد .

فالله تعالى أوّل ليس لوجوده بداية ، ولا لبقائه نهاية .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .(الرحمن : ٢٦، ٢٧) .

وهو سبحانه ظاهر للعقول بالأدلّة والبراهين ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد.

وهو سبحانه باطن فلا تدركه الأبصار ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته.

وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

قد أحاط الله بكل شىء علما ، أحاط علمه بكل ذرة فى الكون ، لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو بكلّ شىء عليم.

٤ – هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

تسابق المسلمون إلى العمل بالقرآن الكريم ، وقد آمنوا بالمحكم ، وفوضوا إلى الله تعالى المتشابه ، واندفعوا إلى تحقيق مطالب الإيمان ، ففتحوا البلاد ، ونشروا دين الله فى الأرض ، وبعد الفتوح والهدوء وجدنا البحث فى الصفات وفى المتشابه .

فالسلف يقولون : نؤمن بها كما وردت ، ونفوض المراد إلى الله تعالى .

مثل قوله تعالى : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ .

قال الإمام مالك :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

أى أننا نؤمن بآيات الصفات كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل ، نؤمن بأن الله على العرش ، كيف شاء وكما شاء ، بلا حدٍّ ولا صفة يبلغها واصف .

أما مذهب الخلف فيقولون : حاشا وكلاًّ أن يُنزل الله قرآنا ، ويطلب منا تدبّره وفهمه والاستنباط منه، ثم نمنع أنفسنا من تأويله بمعانٍ تليق بذاته تعالى ، مثل:

يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... (الفتح : ١٠) . وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ . (طه : ٣٩) . ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ . (الحديد : ٤).

فيؤولون ذلك بقولهم : قدرة الله فوقِ قدرتهم ، ولتربّى بعنايتى وتوفيقى ، ثم استولى وغلب وقهر وَملك العرش ، وهو خلق عظيم محيط بالعالم ، منه تنزل التدبيرات الإلهية .

جاء فى تفسير المنار :

والمعنى الكلىّ المفهوم من العرش أنّه مركز نظام الملك ، ومصدر التدبير له ، وأن المتبادر فى الاستعمال اللغوى استعمالهم : استوى على عرشه ، بمعنى ملك أو استقام أمر الملك له ، وثُلَّ عرشه ، بمعنى هلك وزال ملكه ، ونحن نعلم أن عروش ملوك البشر تختلف مادة وشكلا ، وهى من عالم الشهادة ، وصنع أيدى البشر ، أما عرش الرحمن فهو من عالم الغيب الذى لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا، وحسبنا أن نفهم الجملة ، ونستفيد العبرة .

خلق السماوات والأرض

المتأمل فى الآيات التى تحدثت عن خلق السماوات والأرض وعن خلق الكون ، يخلص إلى النقاط الآتية :

١ – وجود مراحل ست للخلق عموماً .

٢ – تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .

٣ – خلق الكون ابتداء من كومة أوَّلية فريدة ، كانت تشكّل كتلة متماسكة، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك.

٤ – تعدد السماوات ، وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ – وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

٦ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدُّخان على حسب إشارة القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى .

وآيات القرآن الكريم يفسِّر بعضها بعضا ، ويكمل بعضها بعضا ، وقد أفاد القرآن أن الكون كان كرة ملتهبة ملتصقة ببعضها ، وكانت السماء رتقاء لا تُمطِر ، والأرض صمًّاء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات ، وسخَّر الهواء والفضاء، والشمس والقمر ، والأنهار والبحار والنبات ، ليعمر الكون بإرادة الله .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. (الأنبياء : ٣٠ - ٣٣).

معنى الآية :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...

أى : خلق الكون فى مقدار ستة أيام من أيام الله تعالى ، ولو شاء لخلق السماوات والأرض فى لمح البصر ، لكنه أراد أن يعلّم عباده الحكمة والصبر ، والأخذ بالأسباب ، واتّباع السنن الإلهية فى الجدّ والعمل والدأب ، وانتظار الوقت المناسب لإنضاج الثمرة ، أو اكتمال العمل .

وقد انعقد فى الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر للبحث فى عمر الدنيا ، وعمر الإنسان على هذا الكوكب، وذلك فى أبريل سنة ١٩٩٣ م ، ومِنْ نتائج المؤتمر أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن عمر الإنسان فى هذا الكون ٧ بلايين سنة ، أى أن خلق الكون قد استمر ٦ بلايين سنة ، حتى هدأت القشرة الملتهبة ، وأصبح الكون صالحا لحياة الإنسان ، ثم استخلف الله آدم لعمارة الأرض واستغلال طاقاتها ، وقدّر الله فى الأرض أرزاقها وأقواتها ، وحثّ الإنسان على أداء الصلاة ، ثم السعى على كسب الأرزاق .

قال تعالى : فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. (الجمعة : ١٠)

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...

ثم استولى على الملك ، يدبّره ويوصل كلَّ شىء فيه إلى كماله .

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ...

يعلم ما بداخل الأرض من مطر وأموات وبذور وحشرات ، وهوام وكنوز وغيرها ، علما تفصيليا ، ويعلم الله ، مَا يَخْرُجُ مِنْهَا . من نبات ونفائس ، ومعادن ونحوها ، كما قال تعالى :

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ... من الأرزاق والملائكة والرحمة والعذاب.

وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا . وما يصعد إليها من كلم طيب ودعوات وعبادات ، أو ذرات البخار ، أو جن يسترق السمع، أو أرواح تصعد إلى بارئها .

قال تعالى : إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ... (فاطر : ١٠) .

وقال تعالى : أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ... (الملك : ١٤) .

وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ...

هو سبحانه مع خلقه جميعا بعلمه وقدرته ، وتدبيره وإحاطته إحاطة تامَّة بجميع الموجودات .

قال تعالى : وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (يونس: ٦١) .

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

هو سبحانه مطلع وشاهد ، ورقيب وحسيب، تنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافًا تاما دون سبق خفاء فهو سبحانه سميع بصير .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لمّا سأله عن الإحسان : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». [١٢٠] .

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علىّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أنّ ما يخفى عليه يغيبُ

٥ – لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

هو المالك لأمرهما ، والمدبرّ لشئونهما ، والنافذ حكمه فيهما، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه.

إنه هو سبحانه المعزّ المذلّ، القابض الباسط ، المعطى المانع ، الكون فى قبضته ، والسماوات والأرض فى ملكوته وحفظه ، وإليه مرجع الخلائق جميعا ، فيحاسبهم على أعمالهم ، ويجازيهم على الإحسان إحسانا ، وعلى السوء سوءا .

قال تعالى : وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص: ٧٠).

٦ – يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل، فهو سبحانه يقلّب الليل والنهار ويقدّرهما بحكمته ومشيئته ، فتارة يطول الليل إلى ١٤ ساعة، ويقصر النهار إلى١٠ ساعات ، وتارة يحدث العكس ، يقصر الليل ويطول النهار ، وتارة يتركهما متعادلين ، وحينا يجعل الفصل شتاء أو ربيعا ، وحينا يكون صيفا أو خريفا ، ويقلّب الطقس فتراه بردًا ممطرًا عاصفا ، وتراه تارة أخرى مشمسا هادئًا ، ومرة حارًّا لافحا ، ومرة معتدلا ، وهو سبحانه العليم بالسرائر والضمائر ، والمطلع على النوايا والخفايا ، وفى ذلك حث على الإخلاص، والشكر لله على ما أولى وأنعم :

* * *

الحث على الصدقة

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ
لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ
إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ
أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي
يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

مستخلفين فيه : جعلكم سبحانه خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه .

وقد أخذ ميثاقكم : قيل : هو الميثاق الأول وهم فى ظهر آدم ، بأنَّ الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : الميثاق هو أنه منحكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر فيها .

الآيات البينات : القرآن .

الفتح : فتح مكة .

الحسنى : المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة .

يقرض الله : ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

التفسير :

٧ - ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ .

سبق أن بينت الآيات السابقة أن الملك بيد الله ، فهو سبحانه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو مطلع على النوايا والخفايا ، وهنا نجد تربية إلهية للمؤمنين :

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...

اصدقوا فى إيمانكم بالله ، وأنه وحده هو الخالق المستحق للعبادة ، واصدقوا فى إيمانكم بمحمد رسول الله ، وقد يُطلب من المؤمن الإيمان ، بمعنى : زيدوا فى إيمانكم وبالغوا فى تضحياتكم ، والتزموا بطاعة أوامر الله ورسوله ، وأخلصوا النية .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... (النساء : ١٣٦) .

وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...

فى النظم الشيوعية نجد العناية متجهة لتفخيم أمر المجتمع وحقوقه ، وفى النظم الرأسمالية تتجه العناية إلى حرية الفرد فى تثمير ماله ، أما النظام الإسلامى فقد اهتم بحق الفرد فى التملك ، وحرَّم العدوان على مال الآخرين ، فحرم السرقة والغصب والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، ثم أوجب للمجتمع حقًا فى الزكاة والصدقة والنذر والكفارات ، فأوجد التعاون بين الفرد والمجتمع ، بحيث إنه جعل الغنى موظفًا اجتماعيًا فى ماله ، فالمال مال الله ، والغنىّ مُستخلف عن الله فى رعاية المال وتثميره ، وإخراج الزكاة والصدقة منه .

أخرج الإمام مسلم ، والإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشِّخير قال : انتهيت إلى رسول اله ﷺ وهو يقول : «ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ؟ أو لبست فأبليت ؟ أو تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[١٢١] .

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

فالذين صدَّقوا وآمنوا بربهم ورسوله ، وأنفقوا مما منحهم الله ، ومما جعلهم مستخلفين فيه ، لهم ثواب عظيم ، وأجر كبير وهو الجنة ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون .

٨ - وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

أى شىء يمنعكم من الإيمان بالله ، والرسول محمد ﷺ قائم بينكم بالدعوة والتوضيح ، والحث على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؟

وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ...

ركّب الله فيكم العقول والأفكار ، وأودع فيكم التأمُّل والنظر ، وحثكم على استخدام الفكر والرأى ، واللبّ والفؤاد ، وبذلك ينتقل الإنسان إلى شاهد على أن هذا الكون لم يُخلق سدى ، ولن يترك عبثًا ، وأن وراء الكون البديع يد الله المبدع الخالق .

قال الشاعر :

وفـــى كـــل شـــىء لـــه آيـــة تـــدلّ عـــلـــى أنـــه الـــواحـــد

وقيل : معنى : وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ...

إشارة إلى عهد الله على بنى آدم ، حين أخذ الذرية من ظهر آدم عليه السلام ، وأخذُ عليها العهد والميثاق أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ... (الأعراف : ١٧٢) .

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

إن كنتم مؤمنين فى وقت من الأوقات ، فالآن أحرى الأوقات ، لقيام الحجج والبراهين عليكم .

أخرج البخارى فى كتاب الإيمان ، أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه : «أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا»؟ قالوا : الملائكة . قال : «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم» ؟ قالوا : فالأنبياء . قال : «وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم»؟ قالوا : فنحن . قال : «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيئون بعدكم ، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها»[١٢٢] .

قال ابن كثير :

وقوله تعالى : وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ .

كما قال تعالى : وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... (المائدة : ٧) .

ويعنى بذلك بيعة الرسول ﷺ .

٩ - هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

الوحى ينزل على رسول الله ﷺ حاملاً الهدى والبيان ، حاملاً دلائل الإيمان ، حاملاً أخبار البشرية ، وخلق الكون ، وخلق آدم ، واستخلافه فى الأرض ، وتاريخ البشرية ، وأخبار الرسل مع أقوامهم ، ومشاهد القيامة ، والبعث والحشر ، والجزاء والحساب ، والجنة والنار ، وكل هذه الآيات البينات من شأنها أن تُخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان ورسالة الإسلام .

وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

فى تشريعاته وتيسيزاته ، ومن رحمته الهداية وإرسال محمد ﷺ ، ومن رحمته رفع الحرج ، فأباح التيمم للمريض عند عدم قدرته على استخدام الماء ، وأباح الفِطْر للمريض والمسافر فى رمضان ، ثم القضاء أو الفدية .

قال تعالى : مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ... (المائدة : ٦) .

وقال سبحانه : يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ... (البقرة : ١٨٥) .

ومن رحمته قبول التوبة من عباده .

قال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ... (الأعراف : ١٥٦) .

فما أعظم رأفته ، وما أعظم رحمته ، فقد قسم الرحمة مائة جزء ، أنزل جزءًا واحداً فى الدنيا يتراحم به الناس ، وادّخر تسعة وتسعين جزءًا ، يرحم بها عباده يوم القيامة .

١٠ - وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أى شىء يمنعكم من الإنفاق فى مرضاة الله ، ونَصر دينه ، وتأييد رسوله ، وتبليغ دعوته ، ودَعم الجهاد فى تأييد الإسلام ، ومرضاة الرحمن ؟

والحياة الدنيا محدودة ، فستنتهى أعماركم ، ويؤول المال إلى وارثكم ، وفى ذلك الوقت لا تستطيعون الإنفاق ، وفى الأثر : (إن مالَك ما قدّمت ، ومال وارثك ما أخّرت) .

أو أن الناس جميعًا ستفْنى ، والله هو الباقى وحده ، وسيؤول إليه سبحانه ملك السماوات والأرض ، فملْك البَشر عارية محدودة ، ومُلْك الله باق خالد .

قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال تعالى : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...﴾ (الحديد : ٧) .

فالمال مال الله ، والإنسان مستخلف عليه لتثميره ووضعه فى حقه ، وكان الرجل من الصالحين يقول : هذا مال الله عندى ، ويقول : لله عندى سبعة أولاد ، وسبعون ألفاً من الدراهم .

والخلاصة :

أنفقوا من أموالكم فى سبيل الله قبل أن تموتوا ، ليكون ذلك ذخرًا لكم عند ربكم ، فبعد الموت لا تقدرون على ذلك ، إذ تصير الأموال ميراثاً لمن له السماوات والأرض .

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ...﴾

كان الإسلام غريبًا فى مكة ، مكث فيها النبى ﷺ ثلاثة عشر عامًا ، وكلُّ من آمن به مائتا رجل وامرأة ، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة بدأ الجهاد والقتال ، وخاض النبى ﷺ مع أصحابه اثنتين وخمسين غزوةً وسريّة ، مع أن مدة المدينة كلَّها كانت عشر سنوات ، أى أنه كان لا يمضى شهران فى المتوسط إلا والمسلمون يخوضون غمار غزوة مع رسول الله ﷺ ، أو سرية مع أمير من الصحابة ، وكان الوقت فيه عسرة ومشقة ، وقلةٌ فى المال ، فمن تطوَّع بماله ونفسه فى تلك الفترة ، وفى وقت الجهد والمشقة والكفاح ، كان أصدق قصدًا ، وأرغب فيما عند الله ، ثم فتحت مكة سنة ٨ هـ ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وجاء المال وجاءت المغانم ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة فى فتح حنين والطائف ، فقارن القرآن بين من أنفق قبل الفتح وضَحّى بنفسه وماله ، مثل أبى بكر الصديق الذى قدَّم ماله كلّه ابتغاء مرضاة الله ، ومن قدم ماله وجاهد بنفسه بعد الفتح .

قال تعالى : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ ...﴾

من أنفق المال وقاتل فى سبيل الله قبل فتح مكة ، أو قبل صلح الحديبية ، أعظم أجرًا وثوابًا ورضوانًا من الله ، من الذين أنفقوا أموالهم وبذلوا أنفسهم بعد فتح مكة ، أو بعد صلح الحديبية .

وجمهور العلماء على أن المراد بالفتح فتح مكة ، وقيل : الفتح : صلح الحديبية .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ...

أى : كلا من الذين أنفقوا وجاهدوا قبل الفتح ، والذين أنفقوا وجاهدوا بعد الفتح ، وعدهم الله الثواب العظيم والجنة ، أو عز الدنيا وشرف الآخرة ، وإن كان بينهم تفاوت فى مِقْدار الجزاء .

كما قال تعالى : لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٩٥) .

وفى الحديث الصحيح : «المؤمن القوىُّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير» .

لقد استوى الاثنان فى الخير ، وفى الجزاء بالحسنى والجنة ، لكن الله فاوت بين الاثنين فى الفضل ، وفضَّل من أنفق وجاهد فى وقت المشقة ، وقلة العدد وقلة المال ، حيث كان الإخلاص أظهر ، والرغبة فيما عند الله أوضح ، ومع ذلك جعل سبحانه جزاءً حسنًا لمن أنفق بعد الفتح وقاتل .

قال تعالى فى ختام الآية : وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

هو سبحانه مطلع على القلوب والنفوس ، عالم بالنَّوايا ، يعلم السر وأخفى ، وهو المجازى على أعمالكم ، فأخلصوا له النية .

١١ - مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

هذا استفهام للحثّ والتحضيض على الإنفاق فى سبيل الله ، وفى سائر وجوه الخير ، فالآية عامة فى كل خير ، أى : من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يعوِّضه الله أضعافًا كثيرة إلى سبعمائة ضعف ، مع الكرامة والبُشْرى بالجنة .

وقد كان للسابقين إلى الإسلام النصيب الأوفى من هذا القرض ، وذلك الجزاء الكريم .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تسبُّوا أصحابى ، فوالذى نفس محمد بيده ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا ، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[١٢٣] .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ... قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : «نعم يا

أبا الدحداح»، قال: أرنى يدك يا رسول الله، فناوله يده. قال: إنى أقرضت ربِّى حائطى (بستانى)، وكان له حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت لبيك، قال: اخرجى فقد أقرضته ربِّى عزّ وجل.

وفى رواية أنها قالت له: رَبِح بيعُك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها.

وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عِذْقٍ رداح، فى الجنة لأبى الدحداح».

وجاء فى مختصر تفسير ابن كثير:

(العِذق): القنو من النخل، والعنقود من العنب.

و(رداح): ضخم مخصب.

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ
بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ
وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات:

يسعى: يمضى مسرعًا.

نورهم: نور العمل الصالح الذى يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة.

بشراكم: ما تبشَّرون به.

انظرونا: انتظرونا، أو أمهلونا.

نـقـتـبـس : أصل الاقتباس : طلب القبس ، أى : الجذوة من النار ، والمراد نستضىء ونهتدى بنوركم .

الســـور : الحاجز .

مـن قـبـلـه : من جهته .

بـلـى : حرف جواب ، يأتى جواباً لاستفهام منفى ، كما فى الآية ، أو ردًّا لنفى نحو : إنك لم تكن معى أمس ، فتقول : بلى قد كنت معك .

فتنتم أنفسكم : الفَتن : إدخال الذَّهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار ، أى: أهلكتم أنفسكم بالمعاصى والشهوات .

تـربصـتـم : انتظرتم بالمؤمنين مصائب الزمان .

وارتـبـتـم : شككتم فى أمر البعث وفى أمر الدين .

الأمـانـىّ : الأباطيل من طوْل الآمال ، والطمع فى انتكاس الإسلام .

الـغـرور : الشيطان .

فـديـة : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك .

مأواكم النار : مقامكم ومنزلكم الذى تأوون إليه .

مـولاكـم : أولى بكم .

الـمـصـيـر : المآل والعاقبة .

تمهيد :

تصف الآيات مشهدًا من مشاهد القيامة ، فالمؤمنون يجدُون أمامهم نور الأعمال الصالحة ، ووجوههم مشرقة كالقمر ، ويتحرك النور أمامهم ، ومن جهة أيمانهم ، وتبشِّرهم الملائكة بالجنة وأنهارها ونعيمها ، والخلود فيها ، والفوز برضوان الله تعالى .

أما المنافقون فلا يجدون نورًا ، وهم فى ظلام دامس مطبق عليهم ، وهم فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ثم يمرُّ المؤمنون عليهم والنور يسير أمامهم ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انظروا إلينا حتى نهتدى بنوركم ونسير فيه إلى الجنة ، فيقول المؤمنون للمنافقين : ارجعوا إلى الدنيا ، فإنّ العمل الصالح فى الدنيا هو سبب النُّور اليوم ، وهو تهكم بهم ، فإنهم لا يستطيعون الرجوع إلى الدنيا ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

ثم يوضع حائط بين أهل الجنة وأهل النار ، من جهة أهل الجنة رحمة ونعمة ، ومن جهة المنافقين عذاب وشدة ، وهنا يبدأ حوار بين المنافقين والمؤمنين ، فيقول المنافقون للمؤمنين : ألم نكن معكم فى

الدنيا ، فى الصلاة والجهاد وغير ذلك ؟ فيقول المؤمنون : كنتم معنا بأجسامكم ، ولم تكونوا معنا بقلوبكم، حيث غرّتكم المظاهر والشهوات ، وغرّكم الشيطان ، وزين لكم الكفر والنفاق ، والشك فى دين الإسلام ، حتى جاءكم الموت وأنتم على النفاق والكفر ، فاليوم لا يقبل منكم فدية كما كان فى الدنيا ، ولا مأوى لكم إلا النار وبئس المصير .

التفسير :

١٢ - يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

هذا مشهد عظيم ، حين ترى المؤمنين والمؤمنات يتلألأ النور من أمامهم وعن أيمانهم ، إنَّه نور العمل الصالح ، يسير أمامهم ليستضيئوا به على الصراط ، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر فى سواد الليل، وتبشُّرهم الملائكة بالبساتين والنعيم المقيم ، والأنهار التى تجرى من تحتهم : أنهار من لبن ، وأنهار من خمر ، وأنهار من عسل ، وأنهار من ماء نقى نظيف ، وتبشرهم الملائكة بالخلود الأبدىّ السرمدىّ ، وبالفوز بالجنة ونعيمها ، وبالرضوان الإلهى ، والكرامة والنعمة ، فهم أهلٌ للنعيم الحسىّ فى الجنة ، مع النعيم المعنوىّ فى الكرامة والرضا الإلهى ، **وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ** ... (التوبة : ٧٢) .

لقد فاز المتقون فوزًا عظيمًا .

أخرج ابن أبى شيبة وغيره ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود أنه قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، يمرُّون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورًا من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى .

١٣ - يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ .

ما أشدّ هول هذا اليوم ، إنَّه يوم الجزاء ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

والمعنى :

انظر يا كل من يتأتى منه النظر ، الجزاء الحسن للمؤمنين ، نورهم يسعى أمامهم وعن يمينهم ، وتبشرهم الملائكة بالجنة ، ويُحبس المنافقون فى ظلام دامس : **ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** . (النور : ٤٠) .

عندئذ يمر المؤمنون فى موكب التكريم والتعظيم ، والنور المبين ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انتظرونا حتى نستضىء بجزءٍ من نوركم ، ونسير فيه إلى الجنة ، فيقول المؤمنون لهم : ارجعوا إلى الدنيا ، فاعملوا العمل الصالح الذى يكسبكم النور يوم القيامة ، وهو تهكم بهم لأنه لا رجعة إلى الدنيا أبدًا بعد القيامة ، كما أن اللبن لا يعود إلى الضرع بعد أن يُحلب منه ، ولله درّ القائل :

صاح هل رَيْتَ أو سمعت براعٍ ردّ فى الضّرع ما قرى فى الحلاب

لقد كان المنافقون يستهزئون بالمؤمنين فى الدنيا ، فردّ الله لهم جزاءً وفاقًا ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ . (البقرة : ١٥) .

فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ ...

أى : ضُرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب يحجز بين أهل الجنة وأهل النار .

بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ...

يفصل الله تعالى بين أهل الجنة وأهل النار بهذا السُّور الذى يحجز بين الفريقين ، جانب السُّور الذى يلى المؤمنين فيه الجنة والرحمة والثواب والنعيم ، وظاهر هذا السور وجانبه الذى يلى المنافقين والكفار يكون من جهته العذاب الأليم .

قال ابن كثير : هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أُغلق الباب ، ويبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وشك وحيرة .

١٤ - يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ .

ينادى المنافقون على المؤمنين قائلين لهم: ألم نكن معكم فى الدنيا نصلّى معكم الجمع والجماعات، ونقف معكم على جبل عرفات ، ونقاتل معكم فى الغزوات ، ونصلّى كما تصلّون ، ونصوم كما تصومون ، ونسير معكم فيما تفعلون ؟

قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ...

أى : قال لهم المسلمون : نعم كنتم معنا فى الظّاهر ، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق والخداع ، والاستكثار من متعة الدنيا وزينتها ، فعرَّضتم أنفسكم للنار .

وَتَرَبَّصْتُمْ . انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ، وظننتم أن أمر الإسلام إلى زوال .

وَٱرْتَبْتُمْ . شككتم فى أمر الدّين ، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبكم .

وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ . خدعتكم الأباطيل والأمانى الكاذبة ، بسعة رحمة الله لأمثالكم .

حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ . حتى فاجأكم الموتُ وأنتم على باطلكم .

وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . خدعكم الشيطان عن أنفسكم ، وزين لكم التمرُّد والمعاصى والابتعاد عن الإسلام وتبعاته .

قال المفسرون : الغَرور (بفتح الغين) الشيطان ، لأنه يغرُّ ويخدع الإنسان .

قال تعالى : فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٥ ، ٦)

١٥ - فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

فَٱلْيَوْمَ . وهو يوم القيامة ، ويوم الجزاء ، يتمنى الكافر أن يفتدى نفسه من العذاب بالدنيا وما فيها لو كان يملكها ، وهو يوم لا محسوبية فيه ولا شفاعة ، ولا تقبل فيه فدية : وهى ما يبذل لحفظ النفس عند النّائبة والمصيبة ، أى : لن يقبل من المنافقين ملء الأرض ذهبًا ، ولا من الذين كفروا بالدِّين ، ليفتدوا أنفسهم من العذاب .

مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

مقامكم ومنزلكم وإقامتكم الدائمة فى نار جهنم .

هِىَ مَوْلَىٰكُمْ . هى أولى بكم ، ولا ولىّ لكم سواها ، وبئس المرجع والمنقلب فى نار جهنم ، نعوذ بالله من حال أهل النار .

وفى الحديث الصحيح : «إن الله تعالى يقول للكافر : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا ، أكنت تفتدى بجميع ذلك من عذاب النار ؟ فيقول : نعم يا ربّ ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك ، وأنت فى ظهر أبيك آدم ، ألا تشرك بى ، فأبيت إلاَّ الشرك»[١٢٤] .

وجاء فى تفسير القرطبى : السعيد من لا يغترّ بالطمع ، ولا يركن إلى الخدع ، ومن أطال الأمل نسى العمل ، وغفل عن الأجل .

★ ★ ★

خشوع القلوب

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ
ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ
﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

ألـــم يـــأن : ألم يجئ ويحن الوقت ؟ الآن الآن قبل ألا يكون آن .

الـــخشـــوع : الخشية والخوف .

ذكـــر الــلـــه : مواعظه .

الـــحـــق : القرآن .

الذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

الأمـــــد : الزمن الممتد .

قست قـلـوبـهـم : صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة .

فـاســقــون : خارجون على حدود دينهم، رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواهٍ .

يُحـيـى الأرض : يجعلها خصبة بالنبات والزرع .

مـــوتـــهـــا : جدبها وقفرها .

الآيـــــات : البينات والحجج .

تـــعـــقـــلـــون : تتدبرون .

المُصّـدقـيـن : المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوى الحاجة .

الـقـرض الحسن : الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله .

الصِّـــدِّيـــق : من كثر منه الصدق وصار سجية له .

الشـــهـــداء : من قُتلوا فى سبيل الله ، واحدهم شهيد .

تمهيد :

تستنهض الآيات همم المسلمين وتحثهم على العناية بالقرآن ، وتنفيذ أوامر الإسلام ، وتنهاهم عن الفتور والكسل ، وعن التوانى فى تنفيذ أحكام الإسلام ، وألا يفعلوا كما فعل اليهود والنصارى حين طال عليهم العهد بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم ، وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيه .

ثم تفيد الآيات أنه لا يأس ولا قنوط من رحمة الله ، فكما أن الله يحيى الأرض الميتة بالماء ، فتهتزّ وتنبت نباتاً رابياً ، كذلك عندما يدخل الهدى إلى القلب ، يتحول من الجفاء إلى الإيمان ، ومن الكنود إلى الطاعة ، ومن اتباع الهوى إلى طاعة الله تعالى ، ثم ذكرت التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

التفسير :

١٦ - أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ .

القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، وتحتاج إلى التذكير والموعظة لتقلع عن الغرور بالدنيا والارتكان إليها ، ولتذكُّر الآخرة ومواقفها والعمل لها .

ومعنى الآية :

ألم يأن الأوان ، ألم يحن الوقت ليجدد المؤمنون التوبة إلى الله تعالى ، والرجوع إليه ، والاعتصام بحبله ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ؟

أما حان الوقت لتخشع قلوب المؤمنين لمواعظ الله وآياته ، التى ترقّق القلوب ، وتدمع العيون ، وتذكّر الآخرة ؟

أما حان الوقت للنظر فى كتاب الله نظر تأمل وعبادة ، ورقّة وطاعة ؟

أما حان الوقت للتمسك بالقرآن ، وبعُرى الإسلام ، والابتعاد عن اتباع اليهود والنصارى الذين طال عليهم العهد ، وبَعُدت المدّة الزمنية بينهم وبين أنبيائهم ، فقست قلوبهم وتحجّرت ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، لا ترق ولا تلين لسماع التوراة والإنجيل ؟

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ .

وكثير من أهل الكتاب خارجون على تعاليم السماء ، ضعفت صلتهم بكتب الله ، واتخذوا كتاب الله وراءهم ظهريًا .

قال ابن كثير :

نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم ، من اليهود والنصارى ، لمَّا تطاول عليهم الزمن بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد(١٢٥) .

وقال ابن عباس : استبطأ الله قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، فقال : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ...(١٢٦) الآية

١٧ - ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

القلوب إذا أُهملت صدأت وخمدت ، ولكن لن ييأس المؤمن من فضل الله وهدايته ، ولن يملّ من التوبة والرجوع إليه سبحانه ، فكما أن الأرض الجافة الصلبة إذا نزل عليها الماء اخضرّت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فكذلك يُحيى الله القلوب بعد قسْوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلالهم ببراهين القرآن ودلائله ، ونور الهداية وإشراق التوجيه ، وفضل العناية الإلهية .

قد أوضحنا لكم الآيات والحجج كى تتدبروها ، وتعقلوا ما فيها من المواعظ ، وتعملوا بموجب ذلك .

١٨ - إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

يحث القرآن على الصدقة والتصدّق ابتغاء وجه الله ، وتذكر الآية هنا أن المتصدقين والمتصدقات الذين تصدقوا بأموالهم رغبة خالصة فيما عند الله ، فكأنهم أقرضوا أموالهم للَّه فى الدنيا ، لينالوا ثواب ذلك فى الآخرة ، فأىُّ شرف وأى فضل أعظم من ذلك .

إن المتصدّق يضع المال فى يد الله قبل أن يضعه فى يد الفقير ، فينميه ويباركه ، ويضاعفه أضعافاً كثيرة ، ويعطى على الحسنة عشرًا إلى سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك أجر كريم ، وجزاء عظيم ، وكرامة عظمى لهؤلاء الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقدّموا أموالهم رخيصة فى مرضاة الله تعالى ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والليث بن سعد وأمثالهم .

والمُصَّدق هو المتصدق ، أُدغمت التاء فى الصاد ، ويمكن أن يراد بالمصدّقين الذين تكرر صدقهم مع الله فى عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم ، فاستحقُّوا لقب المصَّدقين ، أى أهل الصدق مع الله تعالى ، فهى من التصديق لا من الصدقة ، ويمكن أن ينطبق الوصفان على شخص واحد ، فهو يتصدق كثيرًا ابتغاء وجه الله ، وهو صادق مع الله ، كثير التصديق لكلام الله ، ومن أصدق من الله حديثًا .

١٩ - وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ .

إذا صدق المؤمن فى إيمانه وتصديقه بالله ورسله ، فتح الله أمامه أبواب الرقىّ إلى الدرجات العلى، فالإيمان لمن صدق لا لمن سبق ، ليس فى الإسلام كهنوت أو خصوصية تقصر الرقىّ إلى الدرجات العلى على أسرٍ معينة أو فئةٍ معينة .

فسلمان الفارسى صدق فى إيمانه ، فقال ﷺ : «سلمان منا آل البيت» [١٢٧] . ومثل ذلك صهيب الرومىّ ، وبلال الحبشىّ ، وتخلّف عن ركب الرسالة أبو لهب القرشىّ .

وهنا يسجِّل القرآن وسامًا للمؤمنين الصادقين فى إيمانهم ، فيجعلهم فى درجة الصدِّيقين ، وفى درجة الشهداء الذين ضحُّوا بأرواحهم وأنفسهم فى سبيل الله ، فأدخلهم الله الجنة ، وجعل أرواحهم فى حواصل طير خضر تسبح حول الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتشرب من رحيقها المختوم ، كما ورد فى الحديث الصحيح .

والمفسرون لهم رأيان فى تفسير هذه الآية :

الرأى الأول :

أن لها موضوعين فقط هما : المؤمنون ، والكافرون .

والمعنى :

والذين آمنوا بالله ربًّا وخالقًا وإلهًا واحدًا أحدًا ، وآمنوا بالرسل أجمعين ولم يفرقوا بين أحد منهم ؛ هؤلاء هم الصديقون الذين صدقوا فى إيمانهم فحازوا درجة الصدّيقية ، ودرجة الشهادة فى سبيل الله .

قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صدّيق وشهيد . (عن تفسير الفخر الرازى) .

الرأى الثانى :

معنى الآية كالآتى :

والذين آمنوا بالله ورسله هم فى منزلة الصديقين ، والذين استشهدوا فى سبيل الله هم فى منزلة عليا عند الله تعالى ، لهم أجر الشهادة فى سبيل الله ، ولهم النور الموعود الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

أى أن الآية أشارت إلى ثلاثة أصناف :

١ – الذين آمنوا بالله ورسله لهم درجة الصدِّيقين .

٢ – الشهداء عند الله تعالى فى أعلى الجنان لهم ثوابهم ونورهم .

٣ – الذين كفروا بآيات الله أولئك أصحاب الجحيم .

وقد أورد الحافظ ابن كثير الرأيين فى تفسيره ، واستشهد للرأى الثانى بقوله :

قال أبو الضحى : **أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ** . ثم استأنف الكلام فقال : **وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ** .

وعن ابن مسعود قال : هم ثلاثة أصناف : المُصدقون ، والصديقون ، والشهداء ، كما قال تعالى : **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا * ذَ ٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا** . (النساء : ٦٩ ، ٧٠) .

وفى الآية نجد أربعة أصناف : الأنبياء ، الصديقين ، الشهداء ، الصالحين .

والأمر فى حقيقته راجع إلى فضل الله ونعمته وألطافه وكرمه .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة ترفع مِنْ شأن مَنْ صدَّق بالله ورُسله ، وتُبيِّن أنه فى الغرف العليا فى الجنة ، التى يتطلع أهل الجنة إليها ، كما نتطلع إلى نجوم السماء .

روى الشيخان ، ومالك فى الموطأ أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرىّ الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم» . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : «بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين» (١٢٨) .

الشهداء :

أما منزلة الشهداء فقد تكرر ذكرها فى القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، لقد جادوا بأرواحهم وأنفسهم فى سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ، فجعلهم الله عنده أحياء ، كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (آل عمران : ١٦٩ – ١٧١) .

وأخرج الشيخان وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : «ما أحد يدخل الجنة يحبّ أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة»[١٢٩].

من المنتخب فى تفسير القرآن

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ .

والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم ، أولئك هم الصديقون والشهداء ، منزلةً وعلوّ مرتبة ، لهم ثواب ونور يوم القيامة ، مثل ثواب الصديقين والشهداء ونورهم ، والذين كفروا وكذّبوا بآيات الله أولئك هم أصحاب النار لا يفارقونها أبدا .

مقارنة

بينما نجد المؤمنين الصادقين فى إيمانهم ترتفع أقدارهم ودرجاتهم فى معيّة الله وكرامته ، مع الثواب الجزيل ، والنور المبين ، نجد جزاء الكافرين الذين كذبوا بآيات الله ، وجحدوا حقائق الإيمان ، وكفروا بالله ورسله ، نجد أنهم يلازمون الجحيم كأنهم أصحابها ، لا يفارقونها أبدًا : أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ .

اللهم إنا نعوذ بك من النار ومن عذاب النار ، ومن كل عمل يقربنا إلى النار ، اللهم أدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

★ ★ ★

صفة الدنيا

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ
(٢٠) سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ
(٢١) مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن
نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٢٢) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ
بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٤) ﴾

المفردات :

اللعب : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان .

اللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه .

زينة : كالملابس الفاخرة يتزين بها أهلها .

تفاخر : بالأنساب والأموال ، أو تكبرّ وتعالٍ .

تكاثر فى الأموال : مباهاة بكثرة العدد والعُدَد .

الغيث : المطر .

الكفار : الزرّاع .

يهيج : يبتدئ فى اليبس والجفاف بعد خضرته ونضارته .

حطاما : هشيما متكسرا من يبسه .

الغرور : الخديعة .

فى الأرض : كالجدب والفاقة .

فى أنفسكم : كالمرض وموت الأحباب .

فى كتاب : هو اللوح المحفوظ .

نبرأها : نخلقها .

تأسوا : تحزنوا .

ما فاتكم : من نعيم الدنيا .

ما آتاكم : ما أعطاكم .

المختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له فى نفسه .

فخور : كثير الفُخر بالأشياء العارضة كالمال والجاه .

تمهيد :

القرآن الكريم كتاب هداية ، وهو تنزيل الحكيم الحميد ، وهو سبحانه يتخوَّل[١٣٠] عباده بالموعظة ، فتتحول القلوب إلى الإيمان واليقين بأن الدنيا متاع ، وهى عَرَض عابر ، يأكل منها البّر والفاجر ، والآخرة حياة مستمرة ، تستحق التضحية والجهاد ، وقد رسم القرآن صورة للدنيا فى سرعة زوالها ، وعاجل تحوّلها ، بزرع أخضر نامٍ ، يعجب به الزُّراع ، ثم يتحول الزرع إلى الشيخوخة والكبر ، حين يحين موسم الحصاد ، وتنتهى حياة الزرع ، كما تنتهى حياة الإنسان .

هذه هى الدنيا ، أشبه بلَعِب الأطفال ، ولهو اللاهين ، وزينة عابرة فى الملبس والمظهر ، ثم تنتهى الدنيا ، وتبقى الآخرة وجها لوجه ، وفيها العذاب الشديد للكافرين ، والمغفرة والرحمة للمؤمنين .

ثم حث القرآن على التسابق فى عمل الخير فى الدنيا ، للوصول إلى جنة واسعة أعدها الله للمتقين، تفضلاً منه ونعمة ، ثم تستمر الآيات فى الدعوة إلى تكامل الشخصية ، والشكر على النعماء ، والصبر على البأساء ، والرضا بأسباب القضاء ، فقد كتب الله فى الأزل على كل نفس عمرها ورزقها ومستقبلها ، حتى لا تحزن حزنًا مفرطًا على مفقود ، ولا تفرح فرحًا مطغيًا على موجود .

التفسير :

٢٠ - ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ .

الدنيا إلى فناء ، وهى مزرعة للآخرة ، وينبغى أن يعرف المؤمنون حقيقة الدنيا ، هى مظاهر كلعب الأطفال ، ولهو الشباب ، وزينة النساء ، وتفاخر بين أهل الدنيا بالملبس والمظهر ، أو التفاخر بالأموال والأولاد ، أو التباهى بما ملك الإنسان أو حازه ، فالدُّنيا ليست مذمومة فى ذاتها ، لأنها يمكن أن تكون وسيلة لمرضاة الله ، وللصدقة وعمل الخير ، ولكن المذموم هو الغرور بالدنيا وحبها ، والرغبة المسرفة فى المظهر والمنصب ، والجاه والسلطان ، بدون نية صالحة .

روى عن سعيد بن جبير أنه قال : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى ، وطلب الآخرة ، فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

مثال الدنيا

الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، فهى تحلى لتمرّ ، وتعطى لتأخذ ، وقد حذّرنا القرآن من الغرور بالدنيا والتشبّع بها ، فالمغرور من غرته الدنيا عن الآخرة ، ومن اعتبر الدنيا غايته فأخذ يركض وراء ما فيها من مال وجاه وسلطان مع أنه زائل ، والمتعلق بالدنيا كالطفل المتعلق باللعب واللهو ، والزينة والمظهر ، فإذا بلغ مرحلة الرجولة العقلية رأى بعين قلبه أن الدنيا إلى فناء ، وأن الآخرة إلى بقاء ، وإذا غرّت الدنيا الكفار والفجّار والسطحيين فى إيمانهم ، فينبغى ألا تغرّ المؤمنين الصادقين .

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ...

أى : ما مثل الدنيا فى سرعة تحوّلها وفنائها وانقضائها ، إلا كمثل زرع أصابه غيث من المطر النافع ، فاخضرّ ونما ، وصار بهجة للناظرين ، يُعجب الزُّرَّاع ويجعلهم فى غبطة وحبور ، وبهجة وسرور ، لكن خضرة الزرع وجماله وشبابه لا تدوم ، فبعد فترة محدودة يقترب موسم الحصاد ، فيصفرُّ الزرع ، ويدنو قطف الثمرة ، وتتحول الأوراق إلى وقش متكسّر يابس ، ثم تكون هشيما تذروه الرياح .

ملحوظة :

الكفار : الزرّاع ، وسمّى الزارع كافرا ، لأنه يكفر النبات ، فيستره بالأرض ، ويسقيه حتى ينبت ، وسمى الكافر بالله كافرا ، لأنه ستر نعمة الله عليه وجحدها ، فلم يؤمن بالله .

ثم ذكر القرآن هنا عاقبة المنهمكين فى الدنيا ، المغترّين بلهوها وعبثها وزينتها ، المنشغلين بها عن الإيمان والجهاد وطلب ما عند الله ، وذكر عاقبة المتقين المعرضين عن الغرور بالدنيا ، الطالبين لرضوان ربّهم ، فقال :

وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ...

أي : هذه هي الدنيا الفانية ، ثم يفتح القرآن العيون على الآخرة ، والناس فيها صنفان : صنف في عذاب شديد دائم لمن كفر بالله وأهمل تعاليمه ، وصنف في مغفرة من الله تعالى ، وبحبوحة من رضوانه ، لأنه أطاع ربّه وعمل بأوامره ، وجعل دنياه مزرعة لآخرته .

روى ابن جرير ، وجاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «موضع سوط في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها ، اقرأوا : وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ .»[١٣١]

وأخرج البخاري ، وأحمد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «للْجنّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك»[١٣٢] .

قال ابن كثير في تفسير الآية :

هكذا الدنيا ، تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزًا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أوّل عمره وعنفوان شبابه ، غضًّا طريًّا ، لين الأعطاف ، بهيّ المنظر ، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا ضعيف القوى . ا هـ .

قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ .

ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فان زائل ، خادع لمن ركن إليها واغترّ بها ، وظن أنها غاية ونهاية ، فمن ألهته الدنيا عن الآخرة فهو المغبون ، ومن نظر إلى الدنيا نظرة فاحصة ، فاعتبرها وسيلة وتزوّد منها بالصالحات فهو الناجح .

إن لله عبادًا فُطنا ... طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيّ سكنا
جعلوها لُجّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنا

ويقول الآخر :

إنما الدنيا كبيت ... نسجته العنكبوت
كل ما فيها لعمري ... عن قريب سيموت
إنما يكفيك منها ... أيها الراغب قوت

ونحن إذا نظرنا إلى روح الإسلام ، نجد أنه لا يدعو إلى الانعزالية ، ولا إلى رفض الدنيا ، وإنما يريد الإسلام مسلمًا متوازنًا ، يعمر الدنيا بالعلم والزراعة والصناعة ، والتفوق الطبى والعلمى والأخلاقى ليكون نموذجًا رائعاً يعمر الدنيا بالقيم والعمل والأمل ، ولذلك قال الله تعالى : وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا... (القصص : ٧٧) .

وفى الحديث الصحيح : «إن لربك عليك حقا ، وإنّ لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقّه»[١٢٢] .

وفى القرون الوسطى الإسلامية وردت مواعظ كثيرة ، وأشعارٌ متعددة ، تزهّد الناس فى الدنيا ، والغنى والتفوّق والتقدم ، وأُصيب الناس بالتواكل والكسل ، والزهد والانحطاط ، ولا أقول التواضع ، بينما نهض الغرب وقوّيت جيوشه وأساطيله ، فاستعمر بلاد الإسلام ، ورأينا مصر والسودان والعراق تحت حكم إنجلترا ، ورأينا الجزائر والمغرب والشام تحت حكم فرنسا ، ثم جاءت الصحوة الإسلامية الحديثة ، فاختفت نغمة الزهد الأبله ، والمسكنة والانحطاط ، ورأينا دعوة للأمة الإسلامية إلى استرداد مكانها ومكانتها، لتكون بحق كما قال الله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... (آل عمران : ١١٠) .

وكما قال سبحانه : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... (البقرة : ١٤٣) .

ومن هذه الوسطية ألا نترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، بل نعمل للدنيا لنكون فيها سادة وقادة، وأعزّاء أقوياء ، ونجعل من الدنيا وسيلة لإعزاز ديننا وأنفسنا .

وفى الحديث الشريف : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» .

وقد تكرر فى القرآن الكريم وصف الدنيا ، وسرعة تحوّلها ، وغرور أهلها بها ، ثم تفلّتها من بين أيديهم ، مثل قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً . (الكهف : ٤٥ ، ٤٦) .

وإلى جوار ذلك دعوة رائدة إلى العمل والتفوّق .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . (الكهف : ٣٠) .

والخلاصة :

علينا أن نملك الدنيا ثم نزهد فيها ، ونجعلها وسيلة لعزّ الدنيا وسعادة الآخرة ، وأن يكون المسلم صاحب شخصية متوازنة ، تعمل للدنيا بدون طمع أو جشع ، وتعمل للآخرة بكل قصد سليم ونية صالحة، ودعاء خالص لله : رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . (البقرة : ٢٠١) .

٢١ – سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

بادروا وسارعوا مسارعة المتسابقين إلى أسباب مغفرة الله لكم ، وذلك بالتوبة النصوح ، والعمل الصالح ، وإخلاص النية ، وبادروا وسارعوا إلى عمل صالح يكون وسيلة لجنّة واسعة ، عرضها كعرض السماء والأرض معًا ، وإذا كان هذا قدر عرضها ، فما ظنك بطولها ؟

هذه الجنة أعدَّها الله ، وجعلها كاملة الأوصاف ، فيها ألوان النعيم ، والحور العين ، والأنهار والأشجار ، والظلال والآرائك ، وألوان الطعام والشراب والفاكهة ، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها الخلود الأبدىّ السرمدى ، وقد أعدها الله للذين آمنوا بالله ورسله ، وصدَّقوا بذلك عن يقين ، وعملوا بما أمر الله ، واجتنبوا نواهيه .

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ...

هو تفضّل منه ورحمة ، وحنان وعناية ، وعطف وبر بالصالحين ، فهو الذى هداهم ووفقهم ، ثم أعدّ لهم الجنة ، فضلاً منه ونعمة .

وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

والله تعالى صاحب الفضل العظيم الواسع ، فما أجل أنعمه ، وما أعظم فضله ، وما أجل هدايته وتوفيقه ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ... (إبراهيم : ٣٤) .

يقول أحد السلف الصالح : أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، يطلبها منا ثم يعطينا عليها الجنة، إن هذا لفضل عظيم .

يشير إلى قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ... (التوبة : ١١١) .

فيا سعادة من أدرك السباق ، ومن حظى بالإيمان واليقين ، ومن فاز بجنة عرضها كعرض السماوات السبع والأرضين ، ويا سعادة من أنعم الله عليه بفضله ، وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم .

جاء فى الحديث الصحيح : أنّ فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، وبالدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال : «وما ذاك» ؟ قالوا : يصلّون كما نصلّى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال : «أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا منْ صنع مثلما صنعتم ؟ تسبِّحون وتحمدون وتكبرون دُبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين» ، قال : فرجعوا ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١٢٤] .

فالسعيد حقا من تعرض لفضل الله وعنايته ، وحبّه ورعايته ، فمن وجد الله وجد كلّ شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

ويقول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

وإذا كان من الله عون للفتى ... تهيّأ له فى كل أمر مراده

إن ثمن ذلك دوام الإخلاص ، واليقين بالله ، والحرص على رضاه ، والبعد عن معصيته ، وإظهار العجز والضعف أمام قدرته ، والحرص على أن ينظر منك إلى قلب طاهر ، ونفس مطمئنة ، وزهد فى الدنيا ، وحرص على الآخرة ، واتباع لهدى القرآن ، واقتداء بالنبى ﷺ ، وتعظيم للصحابة والتابعين ، وغيرة على الإسلام والمسلمين ، حتى تحظى بحبّه ورضاه .

قال تعالى : **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ** ... (المائدة : ٥٤) .

وفى الحديث الصحيح : «ما تقرب عبدى إلىَّ بشىء أحبّ إلىَّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يز عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويد التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألنى لأعطينه»[١٢٥] .

٢٢ - مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

الكون كلّه فى قبضة الله ، وفى تقديره وفى علمه ، فالله تعالى هو خالق الكون ، وهو خالق الإنسان ، وهو المدبّر والمنظم لهذا الكون ، بما فيه من سماء وأرض ، وإنس وجن ، وحيوان وطيور ، وزواحف ووحوش ،

وأنهار وبحار، وفلاة وأشجار، وسائر الموجودات، وما يقع من مصيبة فى الأرض من فساد زراعة أو عاهة فى الزرع، أو غرق أو حريق، أو فى الأنفس من مرض أو فقر أو عاهة، إلا وهو مكتوب فى الأزل، فقد قدَّر الله مقادير الأشياء من قبل أن يخلق السماء والأرض، وأحكم كل شىء وفصّله تفصيلاً، وكل شىء كائن فى علمه تعالى وتقديره من قبل أن يحدث، وذلك أمر هيّن عليه، وإن كان صعبا على البشر.

٢٣ - لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

لقد أبدع الله القضاء والقدر، وكتب على كل نفس عمرها وأجلها وحظها، وفقرها أو غناها، وشقاءها أو سعادتها، حتى لا يحزن إنسان على مفقود حزنًا يخرجه عن الاعتدال والتماسك، لأن أجلها قد خُطّ فى الأزل، فإذا انتقلت نفس إلى الموت أو الهلاك فإنما تُحقق ما كتب عليها فى الأزل.

وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ...

أى: لا تفرحوا فرحًا مطغيًا يخرجكم عن حدّ الاعتدال، ويخرجكم عن الشكر للّه صاحب النعمة، إلي البطر والاختيال والتباهى بما حدث، كأنه من صنع الإنسان.

ونلاحظ أن الحزن على المفقود فطرة إنسانية، والفرح بالنعمة فطرة إنسانية، فكيف ينهى الله عن الحزن على المفقود، أو الفرح بالموجود ؟

والجواب: إنما نهى الله عن الحزن الذى يجرّ إلى الجزع والقنوط والهلع، وينسى الإنسان القضاء والقدر، وأن كل نفس قد كتب عليها ما يصيبها، وهى لا تزال حملاً فى بطن أمّها، وقد خُطَّ فى القدر كلّ شىء يصيبها، وكذلك الفرح فطرة فى النفس، تحتاج إلى اليقين بأن الله هو المعطى والمتفضل والمانح لهذه النعمة، لكنّ بعض الناس يختال ويفتخر، ويتطاول على عباد الله بأنعم الله، ويجره ذلك إلى الطغيان ويُلْهيه عن الشكر.

قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا، والحزن صبرًا.

ولا يصح النهى عن شىء من طبائع البشر، كالفرح والحزن والغضب، وإنما النهى وارد على مقدمات الغضب، وتعاطى أسبابه، وقد أُمر الإنسان عند الغضب أن يتذكر هوان الدنيا، وأن متاعها قليل، وأنها إلى فناء حتى يهدأ غضبه، وكذلك عند الحزن يتذكر القضاء والقدر، وثواب الصبر على المصيبة، وأجر الصابرين الراضين المؤمنين، الذين يفوضون إلى الله الأمور، وكذلك عند الفرح والسرور يذكر المؤمن فضل الله عليه، فيزداد شكرًا وعرفانًا وتواضعًا، ويقينًا بأن مصدر النعمة هو الله تعالى.

وفى الحديث الصحيح : «عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابته نعماء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»(١٣٦) .

فالمؤمن الحق هو نور الله فى الأرض ، والمؤمن متجانس مع هذا الكون ، والمؤمن خليفة الله حقا فى أرضه ، وهو قَدَرٌ من أقدار الله ، وهو راضٍ عن الله ، وهو شاكر على النعماء ، صابر على البأساء ، راضٍ بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره .

وغير المؤمن تخرجه المصيبة عن اتزانه وتماسكه ، وربَّما جره ذلك إلى المرض أو الانتحار أو الانكسار ، وغير المؤمن ينظر إلى النعمة على أنها من كدّه وعلمه وخصوصيته ، وربما نسى الشكر ، وربما نسى أن الفضل للّه ، وهو صاحب الفضل الكبير .

٢٤ – ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

الله تعالى لا يحب كل مختال فخور ، أى لا يحب كل متكبر متباهٍ بماله أو ولده أو جاهه أو جماله ، لأنه لا يرى لغيره حقا عليه ، ثم بيَّن صفات هذا المختال الفخور ومن على شاكلته ، بأنهم هم الذين يبخلون على عباد الله بزكاة أموالهم ، ويضنُّون بالصَّدقة والعطاء والمساعدة ، والمساهمة فى رعاية الفقراء والمساكين ، ثم يحثُّون غيرهم على هذا البخل ، حتى يشيع البخل بين الناس .

وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

ومن يعرض عن الله وعن شكره ، وعن إعطاء حق الله فى ماله وجاهه ، فإن الله وحده هو الغنى عن عباده ، المحمود على حسن فعاله ، لا يضره بخل البخيل ؛ ولا تنفعه طاعة الطائع .

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ . (إبراهيم : ٨)

وقال عز شأنه : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

★ ★ ★

الغاية من بعثة الرسل

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

أرسلنا رسلنا : أرسلنا الأنبياء إلى الأمم .

البينات : المعجزات والحجج .

الكتاب : أريد به الجنس ، أى : كتب الشرائع كالتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، والصحف .

الميزان : العدل .

القسط : الحق .

وأنزلنا الحديد : خلقناه ، وأخرجناه من المعادن .

بأس شديد : قوة نافعة متعددة ، تتخذ منه آلات الحرب والصناعات الثقيلة ، والمبانى الضخمة ونحو ذلك.

منافع للناس : يدخل فى صناعات كثيرة مفيدة للناس .

وليعلم الله : علم مشاهدة ووجود فى الخارج .

من ينصره ورسله : من ينصر دينه وينصر رسله ، باستخدام الأسلحة وآلات الحرب من الحديد فى مجاهدة الكفار.

بالغيب : ينصرونه ولا يبصرونه بعيونهم .

تمهيد :

أرسل الله الرسل ، وأنزل معهم كتب السماء ، وهى فى جملتها كتاب واحد يحثّ على الفضائل ، وينهى عن الرذائل ، ويوضح العقيدة فى الإلهيات والنبوات ، ويوضح الشريعة فى العبادات والمعاملات ، وأمر الله بالعدل فى القضاء ، وأنزل الحديد لتأديب الخارجين على دين الله أو شريعته ، وهذا إشارة إلى أن الكتاب يمثل سلطة التشريع ، والعدل يمثل سلطة القضاء ، وإنزال الحديد يمثل السلطة التنفيذية .

التفسير :

٢٥ – لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

تالله لقد أرسلنا رسلنا لهداية الناس وإرشادهم إلى توحيد الله تعالى ، واتباع مكارم الأخلاق ، واجتناب الرذائل والمنكرات ، وأعطينا الرسل المعجزات التى تؤيدهم وتصدّقهم ، فهى بمثابة قول الله تعالى لعباده : صدق عبدى فى كل ما يبلّغ عنى ، وقد أعطى الله كل نبى معجزة مناسبة له ، مثل ناقة صالح ، وعصا موسى مع تسع آيات بينات ، كاليد والجراد والطوفان ، والضفادع والدم والسنين ، وغرق فرعون وملئه ، وأعطى عيسى إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإحياء الموتى بإذن الله ، وأعطى محمدًا ﷺ القرآن المعجز المتحدّى به ، المهيمن على الكتب السابقة ، ومعه معجزات أخرى ، كما أمر الله الرسل بالعدل فى الأحكام ، ليتبع الناس ما أمروا به من الحق والعدل والإنصاف ، وتقوم حياتهم على ذلك ، فيتعاملون مع بعضهم البعض بالعدل والإنصاف والقسط ، فى جميع أمورهم الدينية والدنيوية ، فهم الحراس على تنفيذ الأحكام ، واحترام الشرائع ، واتباع الرسل .

وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ...

أراد الله لعباده أن يكونوا حماة لدينه ، مدافعين عنه بكل سلاح وبكل قوة ، والسورة تُسمى بأهمّ شىء فيها ، أو أغرب شىء فيها ، لذلك سُمّيت هذه السورة بسورة الحديد ، وكأن الله تعالى يرشد عباده إلى تسخير الحديد فى صناعاتهم الثقيلة والخفيفة ، وأدوات الطعام ومرافق المنازل ، وأساس المبانى والعمارات ، ومرافق الحياة الاقتصادية ، وآلات الزراعة ، والأسلحة المتعددة ، والقطارات والبواخر ، والطائرات والسيارات ، فالحديد معدن متفاوت الثمن ، متفاوت المنافع ، ما بين حديد التسليح ، وتروس الساعة ، وهو وسيلة الدفاع عن الدولة ضد المعتدين ، ومن الإعجاز أنك تجد الحديد مستخدمًا فى البندقية والرشاش والرادار والدبابة والغواصة والطائرة ، وأدوات كشف الألغام ، وما يكتشف فى المستقبل عن مزايا هذا المعدن ، والنواحى المتعددة التى لم تكن تخطر على بال القارئ لهذه الآية وقت نزول القرآن ، مما يدل على اشتمالها على الإعجاز الغيبى ، لأن الذى أنزلها هو العليم بعباده .

وفى الآية دعوة للمؤمنين إلى التحصن بالقوة لحماية دينهم ولإرهاب أعدائهم .

كما قال تعالى : وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . (الأنفال : ٦٠) .

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

ليشاهد الله ، ويعلم علم مشاهدة ووجود ، من ينصر الله باتباع أمره ، والمسارعة إلى الجهاد فى سبيل الله ، وينصر رسله بإخلاص ونية صالحة ، تقصد وجه الله بعملها ، متيقنة بوجود ربِّها ورقابته ، وإن لم تبصره بعينها ، ولكنها تراقبه بقلوبها ويقينها .

إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

فهو سبحانه قوى قادر ، عزيز قاهر غالب ، يستطيع دفع عدوان الظالمين ، ولكنه حثَّ عباده على الجهاد والتضحية والفداء ، وبذل النفس والنفيس فى مرضاة الله ونصرة الرسل ، وإحقاق الحق والعدل ، لينالوا شرف الدنيا وسعادة الآخرة .

روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «بُعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجُعل رزقى تحت ظلّ رمحى ، وجُعلت الذّلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبّه بقوم فهو منهم»[١٢٧] .

ما أحوج المسلمين إلى قراءة كتاب ربهم ، قراءة تفهم ووعى ، ليتخذوا منه زادًا نافعًا مفيدًا ، يأخذ بأيديهم إلى العزة والمنعة ، والتفوق الدينى والدنيوى .

★ ★ ★

وحدة الشرائع فى أصولها ، وصلة الإسلام بما قبله

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

جعلنا فى ذريتهما النبوة : جعلنا فى ذرية نوح وإبراهيم النبوة .

والكتاب : الكتب الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن .

فمنهم مهتد : من الذرية ، أو من المرسل إليهم .

فاسقون : خارجون عن الطريق المستقيم .

قفينا : أتبعنا .

الإنجيل : الكتاب الذى أنزله الله على عيسى وفيه شريعته .

رأفة : دفع الشر باللطف واللّين .

ورحمة : جلب الخير والمودة والحسنى .

رهبانية : هى الانقطاع عن الناس للعبادة، واتخاذ الصوامع فى الجبال وغيرها ، والامتناع عن لذيذ الطعام والشراب ، واعتزال النساء، والتعبد فى الغيران والكهوف .

ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن فى دينهم .

إلا ابتغاء رضوان الله : استثناء منقطع ، أي : لكنّهم ابتدعوها بقصد مرضاة الله .

فما رعوها : لم يرعها الجميع ، ولم يحافظوا عليها .

فآتينا الذين آمنوا : آتينا الذين آمنوا بعيسى الإيمان الصحيح .

منهم : من أتباعه .

فاسقون : خارجون عن حال الاتباع .

برسوله : محمد ﷺ .

كفلين : نصيبين ، والكفل : الحظّ والنَّصيب .

لئلا يعلم : لكي يعلم .

ألا يقدرون : أي : لا ينالون شيئًا مما ذكر من فضل الله وهو النبوة ، ولا يستطيعون التصرف فيه.

تمهيد :

بعد بيان أن الله أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأمر الخلق بنصرتهم ، أبان تعالى وحدة النبوة سلالةً ، ومعنى فى ذرية نوح وإبراهيم ، ووحدة التشريع ، ووحدة الكتاب ، أى الكتب السماوية الأربعة : التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، ثم ذكر أن من آمن بعيسى ثم آمن بمحمد ﷺ فإن له نصيبين من رحمة الله ، لإيمانه برسوله ثم إيمانه بمحمد ﷺ .

ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ، لا يختص بها قوما دون قوم ، وفى ذلك ردٌّ على اليهود الذين ادَّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة لا تخرج منهم إلى غيرهم ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

التفسير :

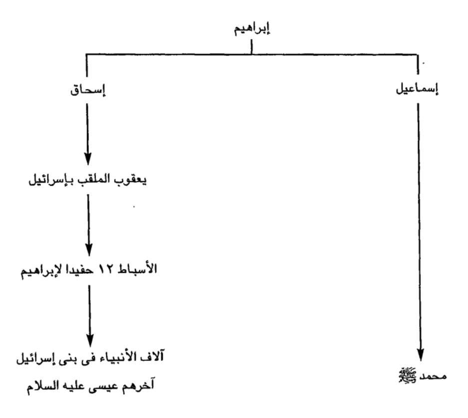
٢٦ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ .

أى : أرسلنا نوحا إلى قومه ، وأرسلنا إبراهيم إلى قوم آخرين ، ولم يرسل الله رسولا بعد نوح إلا من ذريته ، ولم يرسل الله رسولا بعد إبراهيم إلا من ذريته وسلالته ، كما قال سبحانه فى الآية الأخرى :

وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ... (العنكبوت : ٢٧).

والآية تشير إلى وحدة الرسالات والنبوات ، ووحدة الكتب السماوية فى مضمونها وتشريعاتها ووصاياها ، فهى كتب الله لهداية عباد الله ، لكن البشر انقسموا إلى فريقين : فريق مهتدٍ بهدى السماء فله أجره وثوابه ، وفريق خرج عن الطريق المستقيم وعليه وزره وعقابه .

وقد تميز عهد نوح بالطوفان الذى يعتبر طوراً جديداً فى مسيرة الإنسانية ، ولذلك قيل عنه إنه آدم الثانى ، أما إبراهيم فهو أبو الملّة ، فله موقف مع أبيه ، وموقف مع ابنه حيث ارتحل به إلى مكة ، ثم نبع زمزم ، وقصة السعى بين الصفا والمروة ، وذبح الأضحية فى شريعة محمد ﷺ لإحياء ذكرى عزيمة إبراهيم على ذبح ولده ، ويمكن التأمل فى شجرة الأنبياء فى التوضيح التالى :



٢٧ - ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ .

بعد نوح وإبراهيم أرسلنا رسلنا تترى ، رسولا بعد رسول ، كما ذكر القرآن الكريم جهاد الرسل وكفاحهم فى دعوة أقوامهم إلى الإيمان ، وتحمَّل الرسل الإيذاء ، وصبروا وصابروا حتى نصرهم الله .

وكان عيسى ابن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وقد بشَّر برسالة محمد ﷺ ، وأعطاه الله الإنجيل مشتملا على صَيْحات روحانية، وسكب الله فى قلوب أتباع عيسى (الرأفة) وهى الشفقة واللين ، و(الرحمة) وهى التعاطف فيما بينهم ، كما قال سبحانه عن أتباع محمد ﷺ : رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . (الفتح : ٢٩) .

وتعرَّض أتباع عيسى للقتل والتعذيب ، فاختاروا طائعين (الرهبانية) وهى ترك الشهوات والنّساء ولذائذ الطعام ، وهاجروا إلى الصوامع والأديرة فى الصحراء ، متعبدين لله تعالى ، وما طلب الله منهم ذلك ، وما فرضه عليهم ، لكنهم نذروه والتزموا به أمام الله ، رغبة فى رضوانه ومرضاته .

ثم تحولت الرهبانية بعد فترة إلى طقوس خالية من الروح ، والله لا ينظر إلى الصورة والشكل ، وإنما ينظر إلى القلب ، وما يسكن فى الروح والفؤاد .

وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ...

والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى : ما كتبنا عليهم الرهبانية ، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، ونلحظ إنصاف القرآن الكريم لأتباع عيسى ، حيث وصفهم بالرأفة والرحمة والرهبانية والتقشّف رغبة فى مرضاة الله .

ونجد مثل ذلك فى آيات القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، كما حفظ التاريخ صورًا يرويها بها الرواة عن النجاشى ، وعن وفد نجران ، وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين فى الإسلام بحكم ما استقرّ فى قلوبهم من الحق مُذْ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق .

فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..

فما حافظوا على هذه الرهبانية التى ألزموا أنفسهم بها ، ولم يستمروا فى إخلاصهم وتجردهم، ورغبتهم فى مرضاتهم لربهم ، «بل أصبحت الرهبانية فى الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح، واتخذها الكثيرون مظهراً عاريا من الحقيقة ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم » [١٣٨] .

فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ .

فأعطينا المؤمنين إيمانا صحيحا ثوابهم الذى يستحقونه بالإيمان ، وكثير من هؤلاء المترهبين ، فَـٰسِقُونَ . خارجون عن حدود الله وطاعته ، بأكلهم أموال الناس بالباطل ، وبسلوكهم المنحرف .

روى الحافظ أبو يعلى ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : «لا تشدّدوا على أنفسكم ، فيشدّد عليكم ، فإن قوما شدّدوا على أنفسهم فشُدِّد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات» . وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ...

وروى الإمام أحمد ، عن إياس بن مالك ، أن النبى ﷺ قال : «لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل» . [١٣٩].

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى تفسير هذه الآية ، وكذلك ابن جرير الطبرى والقرطبى، وهى تفيد أن بنى إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وأن ثلاث فرق من أتباع عيسى عليه السلام التزموا بالحق واتباع الدين الحق .

الفرقة الأولى : قاتلت الجبابرة، فقُتِلتْ وصبرت ونَجَتْ.

الفرقة الثانية : لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة ، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقُتِلتْ وقطّعت بالمناشير ، وحُرّقت بالنيران ، فصبرتْ وَنَجَتْ .

الفرقة الثالثة : لم تكن لها قوة ، ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت، وهم الذين ذكر الله تعالى : **وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِم ...**

أخرجه ابن أبى حاتم ، ورواه ابن جرير بطريق أخرى ولفظ آخر .

وأخرج الإمام أحمد أن أبا سعيد الخدرى قال : يا رسول الله ، أوصنى ، فقال ﷺ : «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض» [١٤٠] .

٢٨ - **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** .

نلاحظ أن سورة الحديد تطرق القلوب طرقا متتابعا مفيدا ، وتدعو إلى الإيمان ، وتحثّ على الخشوع لذكر الله، وتحثّ على اتباع الرُسل ، والجهاد فى سبيل الله .

وفى الآيتين الأخيرتين من السورة - أى فى هذه الآية والتى تليها - نجد دعوة راشدة تقول :

يا أيها الذين آمنوا بالله ، الزموا التقوى ومراقبة الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم الله نصيبَيْن من رحمته الواسعة ، ونصيب واحد نعمة كبيرة ، لكن الله جعل للمؤمنين برسول الله ﷺ نصيبين وافرين من رحمته .

وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ...

إنه فضل وراء فضل ، والمعنى : يهبكم الله نورا لهدايتكم إلى الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، والإنسان مهما أوتى من العقل محتاج إلى هداية الله ونوره وفضله .

قال المفسرون :

يجعل لكم نوراً تمشون به على الصراط تهتدون به فى الآخرة ، وهدى تبصرون به العمى والجهالة فى الدنيا .

وقال فى ظلال القرآن :

وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...

هى هبة لدنيّة يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله ، هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ، ولا تلتوى بها الطريق .. نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصى ، فالإنسان مهما وُهب من النور إنسان يدركه التقصير ، فيحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . ا هـ .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

عظيم المغفرة ، واسع الرحمة .

٢٩ - لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

كان أهل الكتاب يقولون : إن سلسلة الرسل كلها فى نسل يعقوب - الملقب بإسرائيل - والكتاب والشرع ليس إلا لنا ، والله خصّنا بهذه المنزلة من بين جميع العالمين .

سبب النزول

أخرج ابن جرير ، عن قتادة قال : بلغنا أنه لما نزلت : يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ... حسد أهل الكتاب المسلمين عليها ، فأنزل الله : لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ...

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد ، قال : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبى فيقطع الأيدى والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا ، فأنزل الله : لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ... يعنى بالفضل : النبوة ، وتفيد آيات القرآن الكريم أن أهل الكتاب كانوا يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه :

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا ... (البقرة : ١٣٥) .

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ... (البقرة : ١١١) .

فبيّن القرآن أن النبوة والرسالة والفضل الإلهى منحة من الله يمنحها لمن يشاء ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وقد ضاعف الله الأجر والثواب ، والنور والمغفرة للمؤمنين الذين صدقوا فى إيمانهم بالله ، وصدّقوا رسوله محمداً ﷺ ، فجعل لهم أجران ، حتى يعلم أهل الكتاب أنّهم لا يقدرون على ردّ أى شىء من فضل الله، وأن النبوة والرسالة ، والفضل الإلهى بيد الله ، يعطيه من يشاء من عباده ، وقد اختار الله محمداً ﷺ لرسالته ، وجعله الرسول الخاتم ، وأنزل عليه آخر كتبه ، وأعطى لأمته ثوابا مضاعفاً ، فضلا منه ونعمة ، والله تعالى ، ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . العطاء الواسع والجزاء الأوفى .

أخرج البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدّب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران» (١٤١).

وقد ذكر بعض المفسرين أن الله تعالى لما أنزل الآيات (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤) من سورة القصص ، وفيها ما يفيد أن أهل الكتاب لهم أجران ، حيث قال تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ... (القصص : ٥٤). قالوا : يا معشر المسلمين ، أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم .

فأنزل الله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ردًّا على قولهم : ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم .

وأفاد الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

أن الله أعطى المسلمين أجرين لأنهم آمنوا بالرسل السابقين جميعا فلهم أجر ، وآمنوا برسالة محمد ﷺ فلهم أجر ثانٍ .

وكذلك أهل الكتاب : إذا آمنوا بأنبيائهم وآمنوا بمحمد ﷺ فلهم أجران ، فإذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فقد حُرموا من كل أجر ، لأن رسلهم بشرت بمحمد ﷺ .

وقد ذكر القرآن ذلك على لسان عيسى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .
(الصف : ٦)

فإذا لم يؤمن الكتابى بمحمد ﷺ فإنه يُحرم كل أجر ، حيث خالف وصية نبيه ، ثم لكفره بمحمد رسول الله وخاتم النبيين .

ونتذكر هنا كلام أصحاب علوم القرآن : (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ، فنجد أن الآية عامة تشمل المسلمين وتشمل أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، فلهم جميعا كفلان ونصيبان من رحمة الله وفضله ، والله ذو الفضل العظيم .

من تفسير ابن كثير

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ . أى : ضعفين . مِن رَّحْمَتِهِۦ . وزادهم : وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ... يعنى : هدًى يتبصر به من العمى والجهالة ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ . ففضَّلهم بالنور والمغفرة .

وهذه الآية كقوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . (الأنفال : ٢٩) .

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ، قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئًا ؟ قالوا : لا ، قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء» [١٤٢] .

وروى البخارى ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ ، قال : «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً ، يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار ، فقالوا : لا حاجة

لنا فى أجرك الذى شرطت لنا ، وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم ، فقال : أكملوا يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر ، قالوا : ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه ، فقال : أكملوا بقية عملكم ، فإنما بقى من النهار شىء يسير ، فأبوا ، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور »(١٤٣).

ولهذا قال تعالى : **لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ** . أى : ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله .

وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

قال ابن جرير : **لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ** ... أى : ليعلم ، وعن ابن مسعود أنه قرأها : (لكى يعلم) لأن العرب تجعل (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** ... (الأعراف :١٢) .

وكقوله تعالى : **وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** (الأنعام : ١٠٩) (١٤٤).

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الحديد

١ – صفات الله وأسماؤه الحسنى، وظهور آثاره فى بدائع خلقه .

٢ – الحضّ على الإنفاق فى سبيل الله .

٣ – بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة .

٤ – ثواب المتصدِّقين الذين أقرضوا الله قرضا حسنا .

٥ – ذم الدنيا وبيان أنها لهو ولعب وزينة .

٦ – الترغيب فى الآخرة والاجتهاد فى العمل لها .

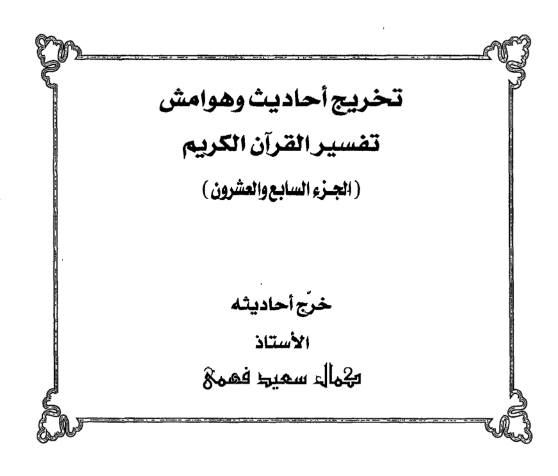
٧ – اليقين بالقَدَر ، والصبر فى المصائب ، والشكر على النعماء .

٨ – ذم الاختيال والفخر والبخل .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير الجزء (السابع والعشرين) ظهر يوم الثلاثاء ٧ من شوال ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٠٠١/١/٢ م ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ونسأله العون والتوفيق ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السابع والعشرون)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمي

(١) أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا:

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ، وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨ ،٩) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ...﴾ ثم انصرف الرجل فقال : «ردوا على» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا ، فقال : «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» . ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور:

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤١٠٥) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٩٥٦) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال : «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» .

(٣) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة (٤١٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣١٢ ، ٣١٣٠) ، وفى المغازى (٤٠٧٦ ، ٤٠٨٦) ، وفى تفسير القرآن (٤٣٣٣) ، ومسلم فى الزهد (٥٢٩٢ ، ٥٢٩٣) ، وأحمد (٤٣٣٣ ، ٤٩٧٤ ، ٥٠٩٠) . من حديث عبد الله بن عمر بلفظ : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ....» الحديث .

(٤) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، نقلا عن المنتخب فى تفسير القرآن بإشراف وزارة الأوقاف المصرية .

(٥) تفسير المراغى ، تأليف أحمد مصطفى المراغى ، جزء ٢٧ صفحة ١٠ .

(٦) إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح:

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يا رسول الله ، كيف انشراح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» . قلنا : يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرك من حديث ابن مسعود .

(٧) تفسير المراغى ، والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٨) تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى:

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٦٦) وابن ماجة فى الزهد (٤١٠٧) وأحمد فى مسنده (٨٤٨١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك» . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب وأبو خالد الوالبى اسمه هرمز . قال السيوطى فى الدر : وأخرج الحاكم وصححه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقا ، يا ابن آدم ، لا تباعد منى فأملأ قلبك فقرا ، وأملأ يديك شغلاً» . قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى ، وفيه سلام الطويل وهو متروك . وقال السيوطى فى الدر أيضاً : وأخرج أحمد وأبو نعيم عن خيثمة قال : مكتوب فى التوراة : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل أملأ قلبك شغلا ولا أسد فقرك . وقال فى موضع آخر : وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ﴾ الآية . ثم قال : «يقول الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك» .

قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : صحيح ، وأقره الذهبى فى التلخيص لكنه فى كتاب الزهد نقله عن التوراة بهذا اللفظ ، ثم قال : وروى مرفوعاً ولا يصح . انتهى . وفيه عند الترمذى أبو خالد الوالبى عن أبيه ، وأبوه لا يعرف كما فى المنار وزائد بن نشيط لا يعرف أيضاً .

(٩) يمين الله ملأى:

رواه البخارى فى التوحيد(٧٤١٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) وابن ماجة فى المقدمة (١٩٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٥٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء وبيده الأخرى الفيض – أو القبض – يرفع ويخفض» .

(١٠) انظر تفسير المراغى ، للأستاذ أحمد مصطفى المراغى .

(١١) ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء : «ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» ، يعنى : يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم .

(١٢) ثم رفع بى إلى البيت المعمور:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس .

(١٣) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت:

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يدخل أحدا عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب»

(١٤) جعل الله الرحمة مائة جزء:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٠٠) ومسلم فى التوبة (٢٧٥٢) من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» .

(١٥) سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٥٤) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٣٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾ . قال : كاد قلبى أن يطير .

(١٦) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشافعى ، الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر .

(١٧) سبحانك اللهم وبحمدك:

رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٥٩) والدارمى فى الاستئذان (٢٦٥٨) وأحمد (١٩٢٧٠) من حديث أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يقول بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس : «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» . فقال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ، فقال : «كفارة لما يكون فى المجلس» .

(١٨) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض :

رواه البخارى فى التهجد (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (١٢٨٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٣٤٠) ، والنسائى فى قيام الليل (١٦٠١) ، وأبو داود فى الصلاة (٥٦٦) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٤٥) ، وأحمد (٢٥٧٥) ، ومالك فى النداء للصلاة (٥٤١) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٤٨) .

(١٩) فجلس فمسح النوم عن وجهه:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٩٨) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها وهى خالته قال : فاضطجعت على عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله فى طولها فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجلس فمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران ، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلى قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى اليمنى يفتلها بيده فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح .

(٢٠) إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر:

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٧٥) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب».

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه، من حديث محمد بن فضيل عن رشدين بن كُريب وسألت محمد بن إسماعيل عن محمد ورشدين بن كريب أيهما أوثق قال: ما أقربهما، ومحمد عندى أرجح، قال: وسألت عبدالله بن عبد الرحمن عن هذا فقال: ما أقربهما، ورشدين بن كريب أرجحهما عندى، قال: والقول عندى ما قال أبو محمد ورشدين أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رشدين ابن عباس ورآه.

(٢١) لم يكن على شىء من النوافل أشد:

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٤) وأبو داود فى الصلاة (١٢٥٤) وأحمد (٢٣٦٤٧) من حديث عائشة أن النبى ﷺ لم يكن على شىء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح.

(٢٢) ركعتا الفجر خير من الدنيا:

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٥) من حديث عائشة عن النبى ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

(٢٣) إن الله كتب على ابن آدم حظه:

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٣)، وفى القدر (٦٦١٢)، ومسلم فى القدر (٢٦٥٧)، وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢)، وأحمد (٧٦٦٢، ٢٧٤٣٧، ٢٧٠٢٣)، من حديث أبى هريرة.

(٢٤) ينزل الله إلى سماء الدنيا:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٣٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٣، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم. ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى. ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على.

(٢٥) قرأ والنجم فسجد بها وسجد من معه:

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٧٢) من حديث عبدالله رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قرأ والنجم فسجد بها وسجد من معه غير أن شيخا أخذ كفا من تراب فرفعه إلى جبهته فقال: يكفينى هذا، قال عبدالله: فلقد رأيته بعد قتل كافرا.

(٢٦) ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد :

رواه البخارى فى بدء الوحى (٢) عن عائشة أم المؤمنين رضى اللَّه عنها أن الحارث بن هشام رضى اللَّه عنه سأل رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول» ، قالت عائشة رضى اللَّه عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .

(٢٧) لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى :

رواه مسلم فى الإيمان (١٧٣) من حديث عبداللَّه قال : لما أسرى برسول اللَّه ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها قال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : فأعطى رسول اللَّه ﷺ ثلاثا : أعطى الصلوات ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك باللَّه من أمته شيئا .

(٢٨) ورفعت لى سدرة المنتهى :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس بن مالك وفيه : «.. ورفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها كأنه قلال هجر وورقها كأنه آذان الفيول ، فى أصلها أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فسألت جبريل ، فقال : أما الباطنان ففى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ..» الحديث .

(٢٩) اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى :

ذكره الهيثمى فى المجمع (٣٨/٦) وقال : رواه الطبرانى ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

(٣٠) ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا اللَّه :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥١٧) من حديث أنس بن مالك أنه ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام .. الحديث . وفيه : ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا اللَّه ، حتى جاء سدرة المنتهى ودنا للجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى اللَّه إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .. الحديث .

(٣١) رأيت نورا :

رواه مسلم فى الإيمان (١٧٨) من حديث عبد اللَّه بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيت رسول اللَّه ﷺ لسألته ، فقال : عن أى شىء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت ؛ فقال : «رأيت نورا» .

(٣٢) اللَّه مولانا ولا مولى لكم :

رواه البخارى فى المغازى (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى اللَّه عنه قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى ﷺ جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد اللَّه ، وقال : «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» ، فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد اللَّه : عهد إلى النبى ﷺ ألا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا

وأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : «لا تجيبوه» فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : «لا تجيبوه» فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك ، قال أبو سفيان : اعل هبل . فقال النبي ﷺ : «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال : «قولوا : الله أعلى وأجل» . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي ﷺ : «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال : «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم» . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .

(٣٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابوني ، المجلد الثالث ص ٤٠١ .

(٣٤) إن الله كتب على ابن آدم حظه :

رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٣) ، وفي القدر (٦٦١٢) ، ومسلم في القدر (٢٦٥٧) ، وأبو داود في النكاح (٢١٥٢) ، وأحمد (٧٦٦٢ ، ٢٧٤٣٧ ، ٢٧٠٢٣) ، من حديث أبي هريرة .

(٣٥) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابوني ، المجلد الثالث ص ٤٠٣ .

(٣٦) ويلك قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك :

رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢) وفي الأدب (٦٠٦١ ، ٦١٦٢) ومسلم في الزهد (٣٠٠٠) وأبو داود في الأدب (٤٨٠٥) وابن ماجة في الأدب (٣٧٤٤) وأحمد في مسنده (١٩٩٠٩ ، ٢٧٥٣٩) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ وسلم فقال : «ويلك قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك» مرارا ، ثم قال : «من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحدا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه» .

(٣٧) تفكروا في مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذات الله :

هكذا ذكره ابن كثير في تفسيره ونسبه لأصحاب السنن ، إلا أنه لم يرد في أي من كتب السنن ، ولعله وهم منه رحمه الله .

(٣٨) إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك :

رواه أحمد (٢٥٦٧١) من حديث عائشة . وذكره السيوطي في «الصغير» (٢٠٣٠) ونسبه لابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان عن عائشة . وقال : حسن . وقال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة . أما الذي أشار إليه العراقي فرواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٤) ، وأبو داود في السنة (٤٧٢١) ورواه مسلم في الإيمان (١٣٦) عن مختار بن فلفل عن أنس ابن مالك مرفوعاً : «قال الله عز وجل : إن أمتك لا يزالون يقولون : ما كذا ما كذا ، حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله».

(٣٩) بعثت أنا والساعة كهاتين :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم في الفتن (٢٩٥١) من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، قال : وضم السبابة والوسطى .

(٤٠) سجد بالنجم وسجد معه المسلمون :

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٧١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ سجد بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

(٤١) إذا مات ابن آدم انقطع عمله :

رواه مسلم فى الوصية (٣٠٨٤) ، والترمذى فى الأحكام (١٢٩٧) ، والنسائى فى الوصايا (٣٥٩١) ، وابن ماجة فى المقدمة (٢٣٨) ، وأحمد (٨٤٨٩) ، والدارمى فى المقدمة (٥٥٨) . وهو بلفظ : «إذا مات الإنسان ....» الحديث . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٤٢) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٤٠٤ .

(٤٣) التفسير المنير أ.د. وهبة الزحيلى ١٢٩/٢٧ دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان .

(٤٤) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية ، الجزء ٢٧ ص ٤٤ .

(٤٥) تفسير القرطبى ، المجلد ٧ ص ٦٤٧١ ، دار الغد العربى ، العباسية – القاهرة .

(٤٦) حاشية الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، الشهير بتفسير الجمل ، الجزء الرابع ص ٢٣٦ وما بعدها ، باختصار وانتقاء .

(٤٧) إن أمى افتلتت نفسها :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رجلا قال للنبى ﷺ : إن أمى افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : «نعم» .

(٤٨) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، الشهير بتفسير الجمل ، الجزء الرابع ض ٢٣٧ ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، وانظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر ، المجلد ١٤ ص ١٠٦ .

(٤٩) تفسير القرطبى ، مجلد ٧ ص ٦٤٧١ .

(٥٠) إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٠١) ومسلم فى الإيمان (١٢٨ ، ١٣٠) وأحمد فى مسنده (٧١٥٥) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف» .

(٥١) انظر تفسير المراغى بتعديل واختصار .

(٥٢) هو زوج حليمة السعدية مرضعة النبى ﷺ ، وكان أهل مكة إذا أرادوا تحقير النبى نسبوه إلى زوج أمه من الرضاع .

(٥٣) السفار : هم المسافرون .

(٥٤) أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية :

رواه البخارى فى المناقب (٣٨٦٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه : أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما .

(٥٥) انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين :

رواه مسلم فى صفة القيامة (٢٨٠١) من حديث عبدالله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اشهد» .

(٥٦) بعثت أنا والساعة كهاتين :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٣٩) .

(٥٧) لا عدوى ولا طيرة :

ذكره البخارى تعليقا فى الطب باب الجذام من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» . ورواه البخارى فى الطب (٥٧١٧ ، ٥٧٥٧ ، ٥٧٧١ ، ٥٧٧٥) ومسلم فى السلام (٢٢٢٠) وأبو داود فى الطب (٣٩١١ ، ٣٩١٢) وأحمد فى مسنده (٨١٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» ، فقال أعرابى : يا رسول الله ، فما بال إبلى تكون فى الرمل كأنها الظباء فيأتى البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها ؟ فقال : «فمن أعدى الأول» .

رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٣ ، ٥٧٧٢) ومسلم فى السلام (٢٢٢٥) وابن ماجة فى المقدمة (٨٦) وفى الطب (٣٥٤٠) وأحمد فى مسنده (٦٣٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «لا عدوى ولا طيرة والشؤم فى ثلاث : فى المرأة والدار والدابة» . رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٦ ، ٥٧٧٦) ومسلم فى السلام (٢٢٢٤) وأبو داود فى الطب (٣٩١٦) والترمذى فى السير (١٦١٥) وابن ماجة فى الطب (٣٥٣٧) وأحمد فى مسنده (١١٩١٤) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة» . رواه مسلم فى السلام (٢٢٢٢) وأحمد فى مسنده (١٣٧٠٣) من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا غول» . ورواه أبو داود فى الطب (٣٩٢١) وأحمد فى مسنده (١٥٠٥) من حديث سعد بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول : «لا هامة ولا عدوى ولا طيرة وإن تكن الطيرة فى شىء ففى الفرس والمرأة والدار» . ورواه ابن ماجة فى الطب (٣٥٣٩) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» . ورواه أحمد فى مسنده (٤١٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : «لا يعدى شىء شيئا» . فقام أعرابى فقال : يا رسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله ﷺ : «فما أجرب الأول ، لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومصيباتها ورزقها» . ورواه أحمد فى مسنده (٧٠٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد ، والعين حق» .

(٥٨) اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت :

رواه أبو داود فى الطب (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر قال : أحمد القرشىُ قال : ذكرت الطيرة عند النبى ﷺ فقال : «أحسنها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك» .

(٥٩) التفسير المنير أ.د. وهبة الزحيلى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ١٦٩/٢٧ .

(٦٠) انظر التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر ، المجلد ١٤ ص ١٤٢ ، مطبعة السعادة – القاهرة ، وفى ظلال القرآن (الجزء ٢٧ ص ٩٢) .

(٦١) كان يقرأ فيهما بـ(ق والقرآن المجيد) و(اقتربت) :

رواه مسلم فى صلاة العيدين (٨٩١) من حديث عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى : ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ(ق والقرآن المجيد) و(اقتربت الساعة وانشق القمر) .

(٦٢) اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩١٥) وفى المغازى (٣٩٥٣) وفى التفسير (٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) وأحمد فى مسنده (٣٠٣٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ وهو فى قبة : «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ، وهو فى الدرع فخرج وهو يقول : «سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» .

(٦٣) كل شىء بقدر :

رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٥) من حديث طاوس أنه قال : أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شىء بقدر ، قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : «كل شىء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز» .

(٦٤) استعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شىء فلا تقل :

رواه مسلم فى القدر (٢٦٦٤) وابن ماجة فى المقدمة (٧٩) وفى الزهد (٤١٦٨) وأحمد فى مسنده (٨٥٧٣ ، ٨٦١١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

(٦٥) انظر تفسير المراغى ، المجلد ٩ الجزء ٢٧ صفحة ١٠١ ، والتفسير المنير ، الجزء ٢٧ ص ١٨٦ .

(٦٦) إن المقسطين على منابر من نور :

رواه مسلم فى الإمارة (١٨٢٧) والنسائى فى آداب القضاة (٥٣٧٩) وأحمد فى مسنده (٦٤٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» .

(٦٧) من كتاب (الله والعلم الحديث) للأستاذ عبد الرازق نوفل (ص ٤٦ ، ٤٧) .

(٦٨) المصدر السابق ص (٤٧ ، ٤٨) .

(٦٩) المصدر السابق ص (٥١ ، ٥٢) .

(٧٠) المصدر السابق ص (٧١ ، ٧٢) .

(٧١) المصدر السابق ص (٧٢ ، ٧٣) .

(٧٢) المصدر السابق ص (٧٣ ، ٧٤) .

(٧٣) المصدر السابق ص (١٠١ ، ١٠٢) .

(٧٤) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، تفسير الجزء ٢٧ ص ٩٩ – ١٠٤ .

(٧٥) تفسير النسفى ١٥٩/٤ ، والمعنى : يظهرها أمام أعين الناس ولا يبتكرها اليوم بل يقضى بوقوعها ، ومن أصول الإيمان أن نؤمن بالقضاء والقدر ، والقضاء : ما وقع أمام الناس ، والقدر : ما قدر الله وقوعه فى الأزل .

(٧٦) تفسير النسفى ١٥٩/٤ .

(٧٧) تفسير الجلالين ص ٤٩٤ .

(٧٨) **يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :**

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجة (٤٢٧٥) وأحمد (١٥٤/٥ ، ١٦٠ ، ١٧٧) وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(٧٩) **إن لربك عليك حقا :**

رواه البخارى فى الصوم (١٩٦٨) وفى الأدب (٦١٣٩) والترمذى فى الزهد (٢٤١٣) من حديث أبى جحيفة قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كل ، قال : فإنى صائم قال : ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم ، فنام ثم ذهب يقوم فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبى ﷺ : «صدق سلمان» . ورواه البخارى فى الصوم (١٩٧٤ ، ١٩٧٥) وفى النكاح (٥١٩٩) وفى الأدب (٦١٣٤) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) والنسائى فى الصيام (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٦٨٢٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال : دخل علىَّ رسول الله ﷺ فذكر الحديث ، يعنى : «إن لزورك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا» ، فقلت : وما صوم داود ؟ قال : «نصف الدهر» . ورواه أبو داود فى الصلاة (١٣٦٩) وأحمد فى مسنده (٢٥٧٧٦) من حديث عائشة أن النبى ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال : «يا عثمان ، أرغبت عن سنتى» ؟ قال : لا والله ولكن سنتك أطلب ، قال : «فإنى أنام وأصلى ، وأصوم وأفطر وأنكح النساء فاتق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر ، وصل ونم» .

(٨٠) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٩٦) وعبد بن حميد فى مسنده (١٤٧٧) وأحمد فى مسنده (٦/١٥٣ ، ١٦٨) .

(٨١) انظر المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، الطبعة العاشرة ، مطابع الأهرام التجارية ص ٦٤٥ .

(٨٢) ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٥) من حديث أنس ، أن النبى ﷺ قال : «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» . وقال : هذا حديث غريب وليس بمحفوظ .

(٨٣) يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث :

ذكره الهيثمى فى المجمع (١٠/١٨٣) وعزاه للطبرانى فى الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبى مدرك ، عن أنس . وسلمة بن حرب مجهول كشيخه أبى مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث فى ترجمته ، وفى الميزان : أبو مدرك قال الدارقطنى : متروك فلا أدرى هو أبو مدرك هذا أو غيره ، وبقية رجاله ثقات . وانظر : ابن حبان فى الثقات (٦/٣٩٨) . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٣٥٨) ، من حديث أبى هريرة قال : «.. وإذا اجتهد فى الدعاء قال يا حى يا قيوم» . اهـ . وقال : حديث غريب ، وذكره فى نفس الباب برقم (٣٤٤٦) ، من حديث أنس بن مالك قال : كان إذا كربه أمر قال : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» . اهـ .

(٨٤) جنتان من فضة آنيتهما:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٧٨ ، ٤٨٨٠) وفى التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم فى الإيمان (١٨٠) وفى الجنة (٢٨٣٨) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٧) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٦) والدارمى فى الرقاق (٢٨٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩١٨٣) من حديث عبد اللّه بن قيس (أبى موسى الأشعرى) أن رسول اللّه ﷺ قال : «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا ، من كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون ، جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من كذا آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه فى جنة عدن» .

(٨٥) إن المرأة من نساء أهل الجنة :

رواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود عن النبى ﷺ قال : «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك بأن اللّه يقول : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لأريته من ورائه» .

(٨٦) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ص ٤٢٥ ، تحقيق محمد على الصابونى .

(٨٧) إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٣٨) من حديث عبد اللّه بن قيس عن النبى ﷺ قال : إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا» .

(٨٨) ألظوا بيا ذا الجلال :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٨٢) .

(٨٩) اللهم أنت السلام ومنك السلام :

رواه مسلم فى المساجد (٥٩٢) من حديث عائشة قالت : كان النبى ﷺ إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول : «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» .

(٩٠) فى ظلال القرآن ١٣٩/٢٧ .

(٩١) عبد الرازق نوفل ، (الله والعلم الحديث) ، ص ٣٣ .

(٩٢) انظر المنتقى للشوكانى .

(٩٣) بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى ٤٥١/١ .

(٩٤) بصائر ذوى التمييز ٤٥٢/١ .

(٩٥) فى شهاب البيضاوى : «هذا ليس بموضوع ، وقد رواه البيهقى وغيره» .

(٩٦) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٩٧) التفسير المنير أ.د وهبة الزحيلى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، الجزء ٢٧ صفحة ٢٤٤ .

(٩٨) مختصر تفسير ابن كثير ، بتحقيق محمد على الصابونى ، المجلد ٣ ص ٤٢٩ .

(٩٩) خير القرون قرنى :

رواه البخارى فى الشهادات (٢٤٥٨) ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٤٦٠١) ، وأحمد فى مسنده (٣٤١٣ ، ٣٧٦٧) ، والترمذى فى المناقب (٣٧٩٤) ، وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٥٣) من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١٠٠) لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين :

رواه البخارى تعليقا فى الاعتصام باب : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين ووصله فى المناقب (٣٦٤٠) ، وفى الاعتصام (٧٣١١ ، ٧٤٥٩) ، والدارمى (٢٤٣٢) ، وأحمد (١٧٦٦٩ ، ١٧٧٠١) من حديث المغيرة . ورواه مسلم فى الإمارة (١٩٢٠) ، وأبو داود فى الفتن (٤٢٥٢) ، والترمذى فى الفتن (٢٢٢٩) ، وابن ماجة فى المقدمة (١٠) ، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث ثوبان بن بجدد . ورواه البخارى فى المناقب (٣٦٤١ ، ٧٤٦٠) ، ومسلم فى الإمارة (١٠٣٧) ، وأحمد (١٦٤٣٩ ، ١٦٤٨٥) من حديث معاوية . ورواه الدارمى (٢٤٣٣) من حديث عمر بن الخطاب . ورواه أحمد (٨٠٧٥) من حديث عبد الرحمن ، ورواه أحمد (٢٠٣٤٦ ، ٢٠٣٧٥) من حديث جابر بن سمرة ، ورواه الترمذى (٢١٩٢) ، وابن ماجة (٦) ، وأحمد (١٥١٧٠ ، ١٩٨٤٩) من حديث قرة بن إياس . ورواه مسلم فى الإيمان (١٥٦) ، وفى الإمارة (١٩٢٣) ، وأحمد (١٤٣١٠ ، ١٤٧٠٧)

من حديث جابر . ورواه أبو داود فى الجهاد (٢٤٨٤) ، وأحمد (١٩٣٥٠ ، ١٩٤١٩) من حديث عمران بن حصين . ورواه أحمد (١٦٥١٧) من حديث سلمة بن نفيل . ورواه أحمد (٢١٨١٦) من حديث صدى بن عجلان . ورواه أحمد (١٨٨٠٤) من حديث زيد بن أرقم . ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٧) من حديث عبد الرحمن . ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٩) من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : قام معاوية . ورواه أحمد (٢٠٤٢٦) اسم مبهم .

(١٠١) ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة :

رواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٤٠) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : «ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة» . وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد ، وقال بعض أهل العلم فى تفسير هذا الحديث : إن معناه : الفرش فى الدرجات وبين الدرجات كما بين السماء والأرض .

(١٠٢) صفوة التفاسير محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٣٠٩ .

(١٠٣) فى ظلال القرآن الجزء ٢٧ .

(١٠٤) المسلمون شركاء فى ثلاث :

رواه أبو داود فى البيوع (٣٤٧٧) وأحمد فى مسنده (٢٢٥٧٣) من حديث رجل من المهاجرين من أصحاب النبى ﷺ قال : غزوت مع النبى ﷺ ثلاثا ، أسمعه يقول : «المسلمون شركاء فى ثلاث ، فى الكلأ والماء والنار» .

ورواه ابن ماجة فى الأحكام (٢٤٧٢) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «المسلمون شركاء فى ثلاث ، فى الماء والكلأ والنار ، وثمنه حرام» . قال أبو سعيد : يعنى : الماء الجارى .

(١٠٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، نقلا عن كتاب (الله والعلم الحديث) ص ٣٣ .

(١٠٦) ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى :

رواه أبو داود فى الصلاة (١٤٥٥) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» .

ورواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) والترمذى فى القراءات (٣٩٤٥) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(١٠٧) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ص ٤٣٩ ، تحقيق محمد على الصابونى .

(١٠٨) تفسير المراغى ، الجزء السابع والعشرون ص ١٥١ .

(١٠٩) من آمن بى وحمدنى على سقياى :

بهذا اللفظ رواه النسائى فى الاستسقاء (١٥٢٥) من حديث زيد بن خالد الجهنى قال : مطر الناس على عهد النبى ﷺ فقال : «ألم تسمعوا ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال : ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا فأما من آمن بى وحمدنى علىٰ سقياى فذاك الذى آمن بى وكفر بالكوكب ، ومن قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك الذى كفر بى وآمن بالكوكب» .

ورواه البخارى فى الأذان (٨٤٦) ومسلم فى الإيمان (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «هل تدرون ماذا قال ربكم» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ومؤمن بالكوكب» .

(١١٠) أرواح الشهداء تجعل فى حواصل طير خضر :

رواه مسلم فى الإمارة (٣٥٠٠) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٣٧) والدارمى فى الجهاد (٢٣٠٣) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧١٩) من حديث عبد الله بن مسعود . ورواه أحمد (٢٥٩١٣) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٥٦٥) من حديث كعب ابن مالك . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أبو داود فى الجهاد (٢١٥٨) وأحمد (٢٢٦٧) من حديث ابن عباس . ورواه ابن ماجة (١٤٩٣) من حديث أم بشر بنت البراء بن معرور .

(١١١) اجعلوها فى ركوعكم :

رواه أبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٧) والدارمى فى الصلاة (١٣٠٥) وأحمد فى مسنده (١٦٩٦١) من حديث عقبة بن عامر قال : لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال رسول الله : «اجعلوها فى ركوعكم» ، فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال «اجعلوها فى سجودكم» .

(١١٢) اجعلوها فى سجودكم :

انظر ما قبله .

(١١٣) كلمتان خفيفتان على اللسان :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٤٠٦) وفى الأيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٩٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٦) وأحمد فى مسنده (٧١٢٧) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده» .

(١١٤) فى ظلال القرآن ٢٧/١٤٩ .

(١٦٥) فى ظلال القرآن ٢٧/١٥١ .

(١١٦) فى ظلال القرآن ٢٧/١٨٠ .

(١١٧) بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى ١/٤٥٣ .

(١١٨) فيهن آية أفضل من ألف آية :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٥٧) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢١) وأحمد فى مسنده (١٦٧٠٩) من حديث العرباض ابن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : «إن فيهن آية أفضل من ألف آية» .

(١١٩) اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧١٣) من حديث سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء ، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر . وكان يروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

(١٢٠) أن تعبد الله كأنك تراه :

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ، وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨ ، ٩) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» ، قال : يارسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» ، قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ... ﴾ ثم انصرف الرجل فقال : «ردوا علىّ» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا فقال : «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٢١) يقول ابن آدم مالى مالى :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٥٨) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٢) وفى التفسير (٣٣٥٤) والنسائى فى الوصايا (٣٦١٣) وأحمد فى مسنده (١٥٨٧٠) حديث عبد الله بن الشخير قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال : يقول ابن آدم : مالى مالى قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» . ورواه مسلم فى الزهد (٢٩٥٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يقول العبد مالى مالى ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» .

(١٢٢) أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا :

نسبه ابن كثير للبخارى فى الإيمان ، فقال : وقد روينا فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه : «أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا ؟» قالوا : الملائكة ، قال : «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟» قالوا : فالأنبياء ، قال : «وما لهم لا

يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟» قالوا : فنحن ، قال : «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها» (أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان) . اهـ .

ولم أره فيه ، ولم يعزه غيره للبخارى !! فليحرر .

(١٢٣) لا تسبوا أصحابى :

رواه البخارى فى المناقب (٣٦٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» .

ورواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٠) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» .

(١٢٤) فقد سألتك ما هو أهون من هذا :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٣٨ ، ٦٥٥٧) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده (١١٩٠٣) من حديث أنس يرفعه : «إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا : لو أن لك ما فى الأرض من شىء كنت تفتدى به ؟ قال : نعم قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ألا تشرك بى فأبيت إلا الشرك» .

(١٢٥) مختصر تفسير ابن كثير .

(١٢٦) رواه ابن أبى حاتم .

(١٢٧) سلمان منا أهل البيت :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٦٩٦) بلفظ : «سلمان منا أهل البيت» . ونسبه للطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك عن عمرو بن عوف وقال : صحيح .

قال المناوى فى فيض القدير : جزم الحافظ الذهبى بضعف سنده ، وقال الهيثمى : فيه عند الطبرانى كثير بن عبد الله المزنى ضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات .

(١٢٨) إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : «بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» .

(١٢٩) ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا:

رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٨١٧) ومسلم فى الإمارة (١٨٧٧) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» .

(١٣٠) يعطيها لهم على فترة بعد فترة ، وفى صحيح البخارى : كان ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا والملل وفى رواية : يتخوننا ، أى : يعظنا على فترات متباعدة ، أو يقدّم الموعظة عند المناسبة .

(١٣١) وموضع سوط أحدكم من الجنة :

رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدى رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : «رباط يوم فى سبيل اللّه خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل اللّه أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» .

(١٣٢) الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٨٨) من حديث عبد اللّه رضى اللّه عنه ، قال : قال النبى ﷺ : «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك» .

(١٣٣) لربك عليك حق :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٧٩)

(١٣٤) ذهب أهل الدثور بالأجور :

رواه مسلم فى الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبى ذر أن ناسًا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول اللّه ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : «أوليس قد جعل اللّه لكم ما تصدقون ، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة وفى بضع أحدكم صدقة» . قالوا : يا رسول اللّه ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر» .

(١٣٥) ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إن اللّه قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» . قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(١٣٦) عجباً لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول اللّه ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(١٣٧) بعثت بالسيف حتى يعبد الله :

رواه أحمد فى مسنده (٥٠٩٣) من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم» .

(١٣٨) فى ظلال القرآن ، الجزء ٢٧ ص ١٧٩ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(١٣٩) لكل نبى رهبانية :

رواه أحمد فى مسنده (١٣٣٩٦) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل» .

(١٤٠) وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام :

رواه أحمد فى مسنده (١١٣٦٥) من حديث أبى سعيد الخدرى ان رجلا جاءه فقال : أوصنى ، فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض.

(١٤١) ثلاثة لهم أجران :

رواه البخارى فى العلم (٩٧) من حديث أبى بردة عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» . ثم قال عامر : أعطيناكها بغير شىء ، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة .

(١٤٢) أخرجه الإمام أحمد .

(١٤٣) رواه البخارى فى صحيحه .

(١٤٤) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثالث .

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (السابع والعشرين)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (السابع والعشرون)

ويليه الجزء (الثامن والعشرون)

بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته




تفسير سورة المجادلة

أهـــداف ســـورة المجادلـــة

(سورة المجادلة مدنية ، وآياتها ٢٢ آية ، نزلت بعد سورة المنافقون)

تربية إلهية

سورة المجادلة حافلة بآداب التربية وتهذيب السلوك ، وتحذير المسلمين من مكايد المنافقين .

لقد نزلت هذه السورة بعد سورة المنافقون ، وكانت الجماعة الإسلامية فى المدينة لا تزال فى طور الإعداد والتكوين ، وكان المسلمون يتألفون من المهاجرين والأنصار ، وقد انضم إليهم من لم يتلق من التربية الإسلامية القدر الكافى، ومن لم يتنفس فى الجو الإسلامى فترة طويلة ، كما دخل فى الإسلام جماعة من المنافقين ، حرصوا على الاستفادة المادية وأخذوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويعرضون ولاءهم على المعسكرات المناوئة للمسلمين ، وهى معسكرات المشركين واليهود .

وقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكبير المقدر لها فى الأرض جهودًا ضخمة وصبرا طويلا ، وعلاجا بطيئا فى صغار الأمور وكبارها .

ونحن نشهد فى هذه السورة – وفى هذا الجزء كله – طرفا من تلك الجهود الضخمة ، وطرفا من الأسلوب القرآنى كذلك فى بناء تلك النفوس ، وفى علاج الأحداث والعادات والنزوات ، كما نشهد جانبا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

«ونشهد فى سورة المجادلة بصفة خاصة صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ، وهو يصنعُها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته، ويبنى فى ضميرها الشعور الحى بوجوده سبحانه معها فى أخص خصائصها ، وأصغر شئونها ، وأخفى طواياها ، وحراسته لها من كيد أعدائها خَفِيّه وظاهره ، وأخذها فى حماه وكنفه ، وضمها إلى لوائه وظله ، وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التى تنضوى إلى كنف الله، وتنتسب إليه ، وترفع لواءه فى الأرض» (١) .

قصة المجادلة

سميت سورة المجادلة بهذا الاسم لاشتمالها على قصة المرأة المجادِلة ، وقد افتتح الله بها السورة حيث قال سبحانه : قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ . (المجادلة : ١).

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده ، وأبو داود فى كتاب الطلاق من سننه ، عن خولة بنت ثعلبة قالت: فىَّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىَّ يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت علىَّ كظهر أمى .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ، وكان ذلك أول ظهار فى الإسلام ، فندم أوس لساعته ، ثم دعاها لنفسه – أى : طلب ملامستها – فأبت وقالت : والذى نفسى بيده لا تصل إلىَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن أوسا تزوجنى وأنا شابة غنية ذاتُ أهل ومال ، حتى إذا أكل مالى، وأفنى شبابى ، وتفرق أهلى ، وكبرت سنى ، ظاهر منى، وقد ندم ، فهل من شىء تجمعنى به وإياه تفتينى به ؟ فقال ﷺ : «حرمت عليه ، أوما أراك إلا قد حرمت عليه» .

فأعادت الكرّة والرسول ﷺ يعيد عليها نفس الجواب ، حتى قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، قد طالت له صحبتى ، ونثرت له بطنى ، وإن له صبية صغارا ، إن ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتتضرع ، وتشكو إلى الله ، فنزلت الآيات الأربع من صدر سورة المجادلة ؛ فقال رسول الله ﷺ : «يا خولة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا» ، ثم تلا عليها الآيات ، وقال لها : «مريه فليعتق رقبة» ، قالت : يا رسول الله ، ليس عنده ما يعتق ، قال : «فليصم شهرين متتابعين» ، قالت : والله إنه لشيخ ما له من صيام ، قال : «فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر» ، قالت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده ، فقال رسول الله : «فإنا سنعينه بعِرْق من تمر» ، قالت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بعرق آخر ، قال الرسول : «قد أصبت وأحسنت ، فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيرا» ، قالت : ففعلتُ .

تلك قصة الظهار ، وهى تشير إلى رعاية السماء لهذه الجماعة المؤمنة ، ونزول الوحى يجيب على أسئلتها ويحل مشاكلها ، ويربى نفوسها ويهذب أخلاقها ، ويأخذ بيدها إلى الصراط القويم .

وقد تضمنت الآيات إحاطة السميع البصير بكل صغيرة وكبيرة ، واطلاعه على جميع الأعمال ، وبينت أن المسارعة إلى ألفاظ الظهار والطلاق منكر وزور ، وأن الزوجة غير الأمّ ، فالأم حملت وأرضعت وقد حرم الله على الإنسان الزواج بأمه ، والزوجة أحل الله زواجها .

ثم رسم القرآن طريق الحل لمن بدرت منه بادرة بالظهار فقال لامرأته : أنت عليَّ كظهر أمي ، ثم أراد أن يرجع عن ذلك وأن يراجع زوجته ، فعليه أن يكفر عن هذا الذنب بتحرير رقبة ، فإن لم يجد فإنه يصوم ستين يوما ، فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكينا ، وفى ذلك نوع من التهذيب والتأديب حتى يضبط الناس أعصابهم ، ويحفظوا ألسنتهم فى ساعة الغضب والتهور .

أهداف السورة

تبدأ السورة بهذه البداية الكريمة، وهى سماع اللّه العلى القدير لشكوى امرأة فقيرة مغمورة ، وقد استمع إليها اللّه من فوق سبع سماوات ، وكان صوتها ضعيفا لا يكاد يُسمِع من يجلس بجوارها .

وفى البخارى ، والنسائى ، عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : الحمد للّه الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول اللّه ﷺ فى جانب البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ (المجادلة : ١) . إلى آخر الآيات الأربع من صدر السورة .

وفى الآيتين (٥ ، ٦) تأكيد على أن الذين يحادون اللّه ورسوله – وهم أعداء الجماعة المسلمة التى تعيش فى كنف اللّه – مكتوب عليهم الكبتُ والقهرُ فى الأرض ، والعذاب المهين فى الآخرة ، مأخوذون بما عملوا ، أحصاه اللّه عليهم ، ونسوه هم ، وهم فاعلوه ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ . (المجادلة: ٦) .

والآية ٧ من سورة المجادلة تؤكد سعة علم اللّه وإحاطته بما فى السماوات والأرض، واطلاعه على السر والنجوى ، ورقابته لكل صغير وكبير ، ثم محاسبة الجميع بما قدموا يوم القيامة ، والآية تخرج هذه المعانى فى صورة عميقة التأثير، تترك القلوب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة ، وهى مأخوذة بمحضر اللّه الجليل : ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ . (المجادلة :٧) .

وفى الآيات (٨ – ١٠) يشهّر القرآن بموقف المنافقين الذين يبيتون الكيد والدس للمؤمنين ، ويهددهم بأن أمرهم مكشوف ، وأن عين اللّه مطلعةٌ عليهم ، ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصيةِ الرسول مسجلةٌ ، وسيحاسبون عليها ويلقون جزاءهم فى جهنم وبئسَ المصير .

ثم تستطرد الآيات إلى تربية المسلمين وتهذيب نفوسهم بهذا الخصوص ، فتنهاهم عن الحديث الخافت المحتوى على الإثم والعدوان ومعصية الرسول . وذلك يؤكد أنه كان بين جماعة المسلمين قوم لم يترسخ الإيمان فى قلوبهم ، وكانوا يقلدون المنافقين فى التناجى بالهمز واللمز والإثم والمعصية ، وكان القرآن يواكب هؤلاء جميعا ، فيكشفُ المنافقين ، ويرشدُ المسلمين ، ويُنزل الهدى والرحمة للناس أجمعين .

والآيات (١١ – ١٣) ، استطراد فى تربية المسلمين ، وتعليمهم أدب السماحة والطاعة فى مجلس الرسول ﷺ ، ومجالس العلم والذكر ، وهو أدب رفيع قدمه القرآن من عشرات القرون ليحث الناس على التعاون والتكافل والسلوك المهذب : إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ ... (المجادلة : ١١) . كما تحث الآيات على توقير العلم ، وترسم أدب السؤال والحديث مع رسول اللّه ﷺ ، وتحث على الجد والتوقير فى هذا الأمر.

ويبدأ الربع الثانى فى السورة بالآية ١٤ ، وقد تحدثت مع ما بعدها عن المنافقين الذين يتولون اليهود ويتآمرون معهم ، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين .

وهم فى الآخرة كذلك حلافون كذابون ، يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب اللّه ، كما كانوا يتقون بهما فى الدنيا ما يواجههم من غضب رسول اللّه والمؤمنين ، مع توكيد أن الذين يحادون اللّه ورسوله كتب اللّه عليهم أنهم فى الأذلين ، وأنهم هم الأخسرون ، وأن اللّه ورسله هم الغالبون .

وفى ختام السورة نجد صورة كريمة للمؤمن الذى يستعلى بإيمانه ، ويجعل الإيمان هو النسب وهو الحياة ، وهو العقيدة الغالية التى تصله بالمؤمنين والمسلمين ، وتحجب مودته عن أعداء اللّه ، ولو كانوا أقرب الناس إليه .

وكذلك كان المهاجرون والأنصار الذين ضحوا بكل شىء فى سبيل العقيدة ، فكتب اللّه فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وجعلهم مثلا أعلى لكل فئة مخلصة ولكل مسلم مخلص ، فمودة المسلم وحبه وإخلاصه وتعاونه لا تكون إلا للمسلمين الصادقين ، ثم هو فى نفس الوقت يحجب مودته عن الخائنين وإن كانوا أقاربه أو أصهاره أو عشيرته .

ومن سمات هذا الدين أن تحب للّه وأن تكره للّه : أن تحب المتقين ، وتصل المؤمنين ، وتتعاون مع الهداة الصالحين ، وأن تحجب مودتك عن الفاسقين لأنك بهذا تنفذ أمر اللّه وتهجر من عصى اللّه . (ومن أحب من أحب اللّه ، فكأنما يحب اللّه) .

المقصد الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى:

معظم مقصود سورة المجادلة هو : «بيان حكم الظهار ، وذكر النجوى والسرار ، والأمر بالتوسع فى المجالس ، وبيان فضل أهل العلم ، والشكاية من المنافقين ، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان» [٢] . والحكم على الأول بالفلاح ، وعلى الثانى بالخسران .

قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .(المجادلة : ٢٢) .

★ ★ ★

أحكام الظهار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ
إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ
تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ
أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

سمع : أجاب وقبل ، كما يقال : سمع الله لمن حمده .

التى تجادلك فى زوجها : هى خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية .

تجادلك : تراجعك الكلام فى أمره ، وفيما صدر منه فى شأنها .

وتشتكى إلى الله : تبثُّ إليه ما انطوت عليه نفسها من غمّ وهمّ ، وتضرع إليه أن يزيل كربها .
وزوجها : هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت .

السمع : صفة تدرك بها الأصوات ، أثبتها الله تعالى لنفسه .

تحاوركما : تراجعكما فى الكلام ، من حار إذا رجع .

الظهار : هو أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمّى ، أى محرمة ، وقد كان هذا أشد طلاق فى الجاهلية .

إنْ أمـــهــــاتــــهــــم : ما أمَّهاتهم .

مــــنــــكــــرا : المنكر ما ينكره العقل والشرع والطبع .

زورا : كذبا منحرفًا عن الحق .

يـعـودون لـمـا قـالـوا : يرجعون عما قالوا ، ويريدون وطْءَ نسائهم ، بعد أن حرّموه على أنفسهم .

فـتـحـريـر رقـبـة : فعليه إعتاق عبد أو جارية .

من قـبـل أن يـتـمـاسَّـا : من قبل أن يجامعها ، وهذا من كنايات القرآن عن المخالطة الخاصة بين الزوج وزوجته .

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله : ذلك التغليظ فى الكفارة لكى تعملوا بشرائع الله التى شرعها ، فلا تعودوا إلى الظهار الذى هو من شرائع الجاهلية .

حـــدود الـــلـــه : أحكام شريعته التى لا يحل تركها .

لـــلـــكـــافـــريـــن : الذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

تمهيد :

هذا الجزء في معظمه توجيهات إلهية للأمة المسلمة ، وهذه السورة مشتملة على هذه التوجيهات ، مبينة لرقابة الله العلى القدير ، وسمعه ومشاهدته ومحاسبته ، وتلبيته لدعاء امرأة من عوام النَّاس كانت تشكو إلى الله تعالى حالها ، بعد أن ظاهر زوجها منها ، وحَرَّمها على نفسه ، كما حَرُمت عليه أُمّه ، وقد لامه القرآن على هذا العمل ، وبيَّن أنه منكر وزور ، فالزوجة أحَلّ الله لزوجها جماعها والاستمتاع بها كزوجة ، والأمّ حرَّم الله زواجها .

ثم ترسم الآيات طريق الحلّ لمن وقع فى هذا المنكر ، ويتمثل ذلك فيما يأتى على الترتيب :

١ - عتق رقبة ، أى إعتاق عبد أو أمة .

٢ - صيام ستين يومًا متتابعة ، قبل أن يخالط زوجته مخالطة الأزواج .

٣ - إطعام ستين مسكينا .

وهذه الأمور الثلاثة على الترتيب ، فإذا كان لا يستطيع إعتاق عبد لعدم وجود الرِّق ، فإنه مكلف بصيام ستين يوما متتابعة ، فإذا كان لا يستطيع ذلك ، فإن عليه أن يطعم ستين مسكينًا . وهذه العقوبة ليرتدع الناس عن الحلف بالظهار ، ويتوبوا عن إيقاع الظهار على زوجاتهم ، ويلتزموا بهدى الله وتنفيذ ما أمر به .

سبب النزول

جاء في مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، ما يأتى :

روى الإمام أحمد ، عن خولة بنت ثعلبة ، قالت : فىّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىّ يومًا فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنتِ علىَّ كظهر أمى ، قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل علىّ ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت : قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبنى فامتنعت بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابًا ، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : «يا خولة ، ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه» ، قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فىّ قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سُرِّى عنه فقال لى : «يا خولة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنًا» ، ثم قرأ علىّ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة» ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : «فليصم شهرين متتابعين» ، قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر» ، قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : «فإنا سنعينه بعرق من تمر» ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بعرق آخر ، قال : «قد أصبت وأحسنت ، فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً» . قالت : ففعلت [٣].

هذا هو الصحيح فى سبب نزول هذه السورة .

قال ابن عباس : أول من ظاهر من امرأته (أوس بن الصامت) أخو عبادة بن الصامت وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك ، فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقًا ، فأتت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن أوسًا ظاهر منى ، وإنا إن افترقنا هلكنا ، وقد نثرت بطنى منه وقدمت صحبته ، وهى تشكو ذلك وتبكى ، ولم يكن جاء فى ذلك شىء ، فأنزل الله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «أتقدر على رقبة تعتقها» ؟ قال : لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها ، قال : فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه ، ثم راجع أهله [٤].

التفسير :

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ .

بهذه البداية الرائعة تبدأ سورة المجادلة ، وتسمَّى المجادَلة بفتح الدال ، والمجادِلة بكسرها . وكلاهما جائز .

والمجادِلة بكسر الدال هى خولة بنت ثعلبة ، وزوجها هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت الصحابى الجليل .

وكان أوس بن الصامت قد كبرت سنّه وساءت خلقه ، فدخل على زوجته يوما فراجعته فى شىء ، فغضب ، وقال لها : أنت علىّ كظهر أمِّى ، وكان هذا أول ظهار فى الإسلام ، وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ، فندم أوس من ساعته ، وجاءت زوجته خولة بنت ثعلبة للنبى ﷺ تشكو حالها وتقول : يا رسول اللَّه ، إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، لى مال وجمال وعشيرة ، فانتظر حتى ذهب مالى ، وولّى جمالى، وتفرق أهلى فظاهر منِّى ، وقال لى : أنتِ علىَّ كظهر أمِّى ، فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله ، تجمعنى بها وإياه فحدِّثْنى بها ، فقال ﷺ : «ما أُمِرْت فى شأنك بشىء حتى الآن ، ما أُراك إلا قد حرمت عليه» .

قالت : يا رسول الله ، إنّى أنجبت منه أولاداً ، كان بطنى لهم وعاء ، وكان ثديى لهم سقاء ، وكان حجرى لهم كفاء ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وإن ضمهم إليه ضاعوا .

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك خراب بيتى وتشرّد أولادى وضياع زوجى ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى ظُلل على رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن فيها ، فقال ﷺ : «يا خولة ، أبشرى» ، قالت : خيرا ، فقرأ عليها هذه الآيات الأربع من أول سورة المجادلة .

ونلحظ استجابة السماء، واستجابة الله العلى القدير ، مالك الملك والملكوت ، ذى العزة والجبروت ، لامرأة من عوام الناس ، ونزول القرآن بشأنها ، واستماع الله لشكواها ، وحوارها مع رسول الله ﷺ .

ومعنى الآية :

لقد استجاب الله أو سمع قول المجادِلة خولة بنت ثعلبة التى جاءت إليك تجادلك فى شأن زوجها الذى ظاهر منها ، وقال لها : حرمت علىّ كما حرمت علىَّ أُمِّى ، وجعلت تجادلك ، وتردّ عليك ، وتقول إن زوجها لم يذكر طلاقا ، وإنما ذكر الظهار فقط ، ثم اتجهت بشكواها إلى الله وهو سبحانه يسمع تحاورها معك أيها الرسول ، وترديدها للشكوى ، إن الله سَمِيعٌ . لكل شىء، مهما كان خفيا أو هامسا ، بَصِيرٌ . بكل شىء مهما كان دقيقا ، فسبحانه وتعالى من سميع بصير .

أخرج البخارى ، والنسائى ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ فى جانب البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل :

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ .

والآية بعد ذلك وقبله ، رسالة موجهة إلى كل قلب : ما أقرب الله إليك وأنت لا تشعر قربه ، وما أحبك إليه وأنت لا تشعر حبّه ، إنّه يسمعك ويراك ، ويعلم متقلبك ومثواك ، ألا تستحيى منه حق الحياء ، بأن تحفظ السمع وما وعى ، والبطن وما حوى ، وأن تذكر الموت والبلى .

والآيةُ موجهة إلى كل زوج وزوجة : حافظوا على بيوتكم ، وعلى أولادكم ، وعلى استقراركم ، وعلى عُشّ الزوجية هادئاً هانئاً بالمودة والرحمة ، والألفة والتضحية ، والصبر والوفاء ، فبهذه الصفات تربّى الأسر ، وتنشأ الذريّة الصغيرة فى كنف العطف والرعاية ، ونجد شبابا صالحا وفتيات صالحات ، يساهمون جميعًا فى مجتمع سليم وأمة كريمة ، لتكون بحق : خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... (آل عمران : ١١٠) .

٢ - ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ .

تبيِّن هذه الآية حكم الظهار ، وأنه حرام وعدوان ، بل قال بعضهم إنه من الكبائر ، لأنَّه إقدام على تبديل حكم اللّه بغير إذنه ، ولهذا أوجب فيه الكفارة العظمى تأديبا للمسلم ، وتحذيراً لغيره من هذا السلوك .

والمعنى :

الذين يحرِّمون زوجاتهم علي أنفسهم ، ويقول الواحد منهم لزوجته : أنت عليّ كظهر أمِّى ، هم خاطئون مزوِّرون ، قائلون للمنكر والكذب ، فالزوجة ليست أمًّا ، ولا تأْخُذُ حُكْم الأمّ .

الأمّ هى التى ولدتك وأرضعتك ، وأوجب الله لها الخضوع والطاعة ، وحسن المعاملة والتلطف ، والبرّ وعدم العقوق ، والزوجة أحل الله لك الاستمتاع بها ، وأمرك بحسن عشرتها ، وعند نُشُوزها أمرك بوعظها وهجرها ، وضربها ضربًا غير مبرِّح ، رغبة فى استدامة العشرة ، وأوجب عليك الصبر عليها ، والنفقةَ والمودة والرحمة .

أما أن تقول لها : أنت عليّ كظهر أمِّى ، فهذا منكر ينكره الشرع والطبع ، وهو زور وكذب وباطل، فأقلعوا عنه ، وتوبوا إلى الله منه ، فإن الله عظيم العَفْو عن التائبين ، وهو واسع المغفرة وعظيم الرحمة لكلّ توّاب مهتدٍ ، نادم على ذنبه ، رجّاع إلى ربّه .

٣ – وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

الذين يظاهرون من نسائهم ويحرِّمون زوجاتهم عليهم كما حُرِّمت أمهاتهم ، ثم يعدلون عن رغبتهم فى التحريم ، ويرجعون عن قولهم : أنت علىَّ كظهر أمى ، أو يرغبون فى جماع زوجاتهم ومعاشرتهن ، والعدول عن التحريم والعودة مرة أخرى إلى الحياة الزوجية ، هؤلاء يلزمهم **تحرير رقبة** . أى : عتق عبد أو أمة من قبل أن يجامع زوجته .

هذا وعظ وتأديب وتربية من الله تعالى لهؤلاء المظاهرين ، والله مطلع على أعمالكم ، خبير بكل ما تفعلونه ، فراقبوه سبحانه حتى يطلع منكم على قلب سليم وسلوك مستقيم .

٤ – فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

تفيد الآيات ما يأتى :

من قال لامرأته : أنت علىّ كظهر أمِّى ، ثم ندم ورغب فى الرجوع إلى الحياة الزوجية مع زوجته ، فعليه كفارة بفعل واحدة من ثلاث على الترتيب :

أولا : عتق رقبة ، فإن عجز عن ذلك – كما فى هذه الأيام لعدم وجود أرقاء أصلا – انتقل إلى الكفارات الأخرى .

ثانيا : صيام ستين يوما متتابعة من قبل أن يجامع زوجته .

ثالثا : إذا عجز عن الصيام ، فإنه يطعم ستين مسكينا طعاما مشبعاً كافيا .

وهذه الأمور على الترتيب ، فلا يلجأ إلى الصيام إلا عند العجز عن عتق رقبة ، ولا يلجأ إلى الإطعام إلا عند العجز عن صيام ستين يوما متتابعة ، فإذا عجز عن الصيام أطعم ستين مسكينا إطعاما مشبعا .

وذهب الشافعى وغيره إلى أنه يكفيه إعطاء مدٍّ واحد لكل مسكين ، ورأى أبو حنيفة جواز إعطاء القيمة ، بل هى أفضل إذا كانت أنفع للفقير .

ويمكن تقدير قيمة إطعام الفقراء بزكاة الفطر التى قدّرها العلماء بخمسة جنيهات عن كل فرد فى شهر رمضان سنة ١٤٢١ هـ ، فنقول : يعطى لستين مسكينا ، كل مسكين منهم خمسة جنيهات ، أو ما

يعادلها ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، بأن يضاعف القيمة إذا كان من أهل اليسر ، فيعطى لكل مسكين ١٠ جنيهات ×٦٠ = ٦٠٠ جنيه (ستمائة جنيه) ، مقدار الكفارة للمظاهر من زوجته .

ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لقد شددنا العقوبة حتى يرتدع المتلاعبون بحرمات الله ، وتكون هذه العقوبة رادعا للمعتدين ، ليعودوا إلى طريق الإيمان بالله ورسوله ، واحترام أوامر الشرع ، والالتزام بآداب الدين ، وهذه حدود الله وأحكامه الفاصلة بين الحق والباطل ، فالزموها وقفوا عندها ، ومن استهان بحدود الله ، وصدَّ عن شرائعه ، وكفر بهديه ، فله عذاب أليم موجع فى الآخرة .

وإطلاق لفظ الكافرين على المتعدِّى على حدود الله للزجر والردع .

كما قال سبحانه وتعالى : وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . (آل عمران : ٩٧) .

فى أعقاب الآيات

فى هذه الآيات الكريمة تكريم للمرأة ، ورفع لغبن الجاهلية عنها ، حيث نهى القرآن عن الظهار واعتبره منكرا وزورا ، ثم سجل عقوبة كبيرة على قائله ، ليردَّه إلى حظيرة الإيمان ، ولم تكن الآيات أحكاما شرعية فحسب ، وإنما ضمت إلى ذلك تكريم المرأة وإنصافها ، واستجابة السماء لها ، ولا عجب إذا رأينا الخلفاء يكرمون المرأة ، ويستمعون لشئونها ويلبّون طلبها ، ويكرمون خولة بنت ثعلبة ، ويقولون : قد سمع الله تعالى لها .

من التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وتفسير ابن كثير :

روى ابن أَبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات : أن خولة بنت ثعلبة رأت عمر رضى الله عنه وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته ، فوقف لها ودنا منها وأَصغى إليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : يا أَمير المؤمنين ، حبست رجال قريش على هذه العجوز ، قال : ويحك ، أَتدرى مَنْ هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأَة سمع اللَّه لشكواها من فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، واللَّه لو لم تنصرف حتى أَتى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها .[٥].

وفى رواية أخرى : أَن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه والناس معه على حمار ، فاستوقفته طويلاً ووعظته ، وقالت : يا عمر ، قد كنت تدعى عُميراً ، ثم قيل لك : عمر ، ثم قيل لك : يا أَمير المؤمنين ، فاتق اللَّه

يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب – وهو واقف يسمع كلامها – فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟[١] .

★ ★ ★

الرقابة الإلهية

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ
وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ
ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ
مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن
ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

يحادون : يشاقون ويعادون ، وأصل المحادّة : الممانعة ، ومنه قيل للبواب : حدّاد .

كُبتوا : خُذلوا ، وقال المبرد : كبت الله فلانا ، إذا أذلّه ، والمردود بالذلّ مكبوت .

مهين : يلحق بهم الهوان والذلّ .

فينبئهم بما عملوا : يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريعاً لهم .

أحصاه الله : أحاط به عدًّا ، ولم يغب عنه شيء منه .

شهيد : مشاهد لا يخفى عليه شيء .

ألم تر : ألم تعلم .

ما يكون : ما يوجد .

النجوى : التناجي والمسارّة ، وقد تُستعمل في المتناجين ، كما قال تعالى : وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ... (الإسراء : ٤٧) . أي : أصحاب نجوى .

تمهيد :

تحدثت آيات سابقة عن رعاية الله للمؤمنين ، واستجابته لشكوى المجادِلة ، وهنا يتهدد المخالفين الذين يعادون حدود الله وأحكامه ، ويفرُّون من أوامره وشرائعه ، بأن الله سيذلهم كما أذلّ من كفر بالرسل بالغرق وألوان الهلاك ، أو كما أذلّ قتلى بدر وأذلّ قريشًا ومن شايعها ، ثم يلفت نظرهم إلى يوم القيامة ، حيث يخبرهم بأعمالهم كاملة ، ويجازيهم عليها جزاءً وفاقًا .

وتصوِّر الآيات علمه تعالى الشامل ، وإحاطته بكل ما فى السماوات والأرض ، فهو يعلم السرّ والنجوى ، لا يتناجى ثلاثة إلا كان رابعهم ، ولا يتناجى خمسة إلا كان سادسهم ، ولا يتناجى أقل من ذلك ولا أكثر إلا كان معهم بعلمه وإحاطته ، ثم يخبرهم بما عملوه يوم القيامة ، إنه سبحانه بكل شىء عليم ، إن هذه الرقابة الإلهية هى التى أيقظت الضمائر والقلوب ، وجعلت الإنسان مراقبًا لله ، خائفًا من معصيته ، راغبًا فى طاعته .

التفسير :

٥ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

المحادة : المعاداة والمخالفة فى الحدّ ، أى : الذين يختارون لأنفسهم حدودًا غير ما حدّه الله ورسوله ، فهم ينفرون من حدود الله وأحكامه ، ويرتضون أحكامًا تخالفها وتضادّها ، هؤلاء أخزاهم الله وأذلّهم كما أذلّ أعداء الرسل ، من عهد نوح ومن بعده من المرسلين .

لقد شرّع الله الشرائع ، وفصَّل الآيات ، وحدَّد الحدود ، ونظَّم المواريث والآداب ، وأمر بغض البصر وحفظ الفروج ، والبعد عن الزنا والربا ، وأمر بصلة الأرحام وبر الوالدين وإكرام الجار ، ورعاية اليتامى والمساكين ، والضعفاء والفقراء ، ونهى عن الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكمل الله دينه .

قال سبحانه وتعالى : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... (المائدة : ٣)

فهناك وعيد عظيم لمن وضعوا أمورًا خلاف ما حدده الشرع ، وسموها قانونًا .

قال الآلوسى والمراغى فى تفسير الآية :

نعم إنه لا بأس بالقوانين السياسية ، إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحلّ والعقد ، على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات ، إذا كانت لا تخالف فى أحكامها روح التشريع الدينى ، كتعيين مراتب

التأديب للزجر على المعاصى والجنايات التى لم ينص الشارع فيها على حدٍّ معين ، بل فوّض الأمر فيها للإمام ، وليس فى ذلك محادة لله ورسوله ، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل .

وفى كتاب (الخراج) للإمام أبى يوسف إشارة إلى ذلك ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين إذا قال بشىء لم يكن منصوصًا عليه بخصوصه ، ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه[٧] .

ودليل الاجتهاد فيما لم تنص عليه الشريعة أن النبى ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى إلى اليمن قاضيًا ومفقّهًا وأميرًا وجامعًا للزكاة ، قال له : «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء» ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : «فإن لم يكن فى كتاب الله» ؟ قال : فبسنّة رسول الله ﷺ . قال : «فإن لم يكن فى سنّة رسول الله ﷺ » ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو – أى لا أقصّر – قال : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله»[٨] . (رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة) .

٦ – يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

فى الآية السابقة ذكَّر سبحانه هؤلاء المحادّين لله ورسوله بالخزى والهوان فى الدنيا ، وبالعذاب الشديد فى الآخرة .

وهنا يقول : اذكر لهم أيها الرسول الأمين يوم يبعثهم الله جميعًا للحساب والجزاء ، فيخبرهم بأعمالهم ، وبما كسبت أيديهم من ظلم وعسف ، لقد أحصاه الله وضبطه وحفظه ، وهم قد نسوه وأهملوه ولم يتذكَّروه ، وظنوا أنهم لن يحاسَبُوا عليه .

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

هو مطلع وشاهد ، وعالم وناظر لا تخفى عليه خافية ، وهو سبحانه بكل شىء عليم ، فَيَا وَيْحَ من بارزه بالمعاصى ، ويا هلاك من استهان بحدود الله ، وزيَّنت له نفسه أن تشريع البشر أحسن أو أحكم من تشريع الله ، وهو سبحانه الخالق الرازق العليم بما يُصلح عباده .

٧ – أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

تشير الآية إلى علم الله الواسع ، ورقابته وشهادته وحضوره بالرؤية والمعية المعنوية ، فهو سبحانه منزه عن الكمّ والكيف ، ومنزه عن أن يكون جسمًا أو حالاً فى جسم ، فمعية الله للبشر معية رقابة ومشاهدة ،

وعلم واطلاع ، وهو سبحانه لا يحلّ فى مكان ، ولا يمرّ عليه زمان ، وكل من المكان والزمان من خلقه تعالى ، فلا يجتمع ثلاثة إلا كان رابعهم ، ولا خمسة إلا كان سادسهم ، ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه ، إلا هو معهم بعلمه وشهادته ، ثم يخبرهم بأعمالهم التى عملوها يوم القيامة ، فهو سبحانه محيط بكل كلام ، عليم بكل شىء .

أما لماذا خص العدد بذكر ثلاثة أو خمسة ، أو أقل أو أكثر ، فهو مجرد مثال ، والعدد غير مقصود ، لأنه تعالى يعلم ما فوق ذلك وما دون ذلك ، لكنه على طريقة القرآن فى إبراز المعنى المجرد ماثلاً فى صور ملموسة محسوسة ، صورة أشخاص يتناجون ، اثنان كل منهما يقاوم الآخر ، وثالث يكون بمنزلة الحكم ، فالله تعالى مطلع ومشاهد لهذه المجموعة ، أو لمجموعة أكثر منها أو أقل منها ، إنه محيط بالأفراد وبالجماعات ، وبالعائلات والأسر والبلاد ، وهو سبحانه بكل شىء عليم ، وبهذا العلم المحيط يحاسب عباده يوم القيامة .

قال تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . (التوبة : ٧٨) .

ولعلنا نلمح من الآية أن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فى جماعات قليلة العدد ، ثلاثة أو خمسة ، فكشف الله سترهم ، وأخبرهم أنه عليم بهم ، مطّلع على مناجاتهم ، وسيحاسبهم ويجازيهم على ذلك يوم القيامة .

قال تعالى : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ . (الزخرف : ٨٠) .

من تفسير ابن كثير

حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بقوله تعالى : وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ... معية علمه تعالى ، ولا شك فى إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شىء ، ثم قال تعالى : ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

★ ★ ★

النّجوى

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا
اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ
فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون .

الإثم : المعصية والذنب .

العدوان : الاعتداء على غيرهم ، كمعصية الرسول ومخالفته .

لولا يعذبنا الله : هلا يعذبنا بسبب ذلك .

حسبهم جهنم : عذاب جهنم كافٍ لهم فى الآخرة .

يصلونها : يقاسون حرّها .

تمهيد :

كان اليهود والمنافقون يُبيّتون السوء للمسلمين ، ويتهامسون ويتخافتون فى أقوالهم ، فإذا مرّ بهم أحد المسلمين أوْهمُوه أن شرا قد أصاب أقاربه ، فاشتكى المسلمون ذلك لرسول الله ﷺ ، فنهى اليهود عن ذلك ، ونصح المنافقين بالابتعاد عمّا يسىء إلى مسلم ، لكنهم عادوا إلى الإثم والعدوان ، فنزلت الآيات تفضحهم وتكشف سوء أدبهم ، فقد كانوا يقولون للنبىّ ﷺ : (السَّام عليكم) وهو الموت ، ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان رسولاً لعذبنا الله للاستخفاف به ، فتوعدهم الله بعذاب جهنم ، وفيه كفاية وجزاء لأعمالهم .

ثم نصح الله المؤمنين بأن يكون تناجيهم بالبر والتقوى ، والصالح العام ، ولا يكون بالإثم والعدوان كما يفعل اليهود والمنافقون ، ثم بيّن القرآن أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ووسوسته

لليهود والمنافقين ، حتى يحزن المؤمنون بهذه النجوى ، مع أن المؤمنين فى حرز من الشيطان بالإيمان بالله وقدره ، والتوكل عليه .

التفسير :

٨ - أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

تفيد هذه الآيات أن فريقًا من اليهود والمنافقين كانوا يكيدون للإسلام والمسلمين ، ويتناجون بما يسوء بعض المسلمين ، وقد اشتكى المسلمون إلى رسول الله ﷺ ، فنهى اليهود عن ذلك ، ونصح المنافقين بالبعد عنه ، لكنهم عاودوا هذه المناجاة فيما بينهم .

قال القرطبى :

نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فَشَكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا ؛ فنزلت .

وفى الآية تعجيب من حالهم ، أى : ألم تشاهد يا كل من يتأتى منه المشاهدة ، الذين نهاهم الرسول ﷺ عن النجوى بالإثم والكيد ، ثم هم يعودون لما نُهوا عنه ، ويكررون العودة إليه ، لأن الفعل المضارع يفيد الحال والاستقبال والتجدد ، فقد كان اليهود والمنافقون شوكة فى جنب المسلمين ، وكانوا يتناجون فى صوت خافت بالكيد والدسّ والفتنة والأذى للمسلمين ، ومخالفة أمر الرسول ﷺ ، ومن سوء أدبهم أنهم كانوا إذا دخلوا على النبى ﷺ قالوا له : (السَّام عليكم) ، وهى كلمة عبرية معناها : الموت عليكم ، مع أن الله حيا رسوله فى التشهد بقوله : «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا . (الأحزاب : ٥٦) .

وقال تعالى : وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . (الصافات : ١٨١) .

وقال سبحانه وتعالى : وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ... (النمل : ٥٩) .

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن أناسًا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السَّام عليك يا أبا القاسم ، فقال ﷺ : «وعليكم» . قالت عائشة : قلت : عليكم السام ، ولعنكم الله وغضب عليكم . وفى رواية : عليكم السام والذام واللعنة .

فقال ﷺ : «يا عائشة ، إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش» ، فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ، فقال : «يا عائشة ، أو ما سمعت أقول وعليكم» ؟ فأنزل الله تعالى : وَإِذَا جَآءُوكَ ... الآية[٩] .

وهذا يدّل على الدور السيئ لليهود ، وإيذائهم للإسلام ولرسول الله ﷺ .

وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ...

ويقولون فيما بينهم : هلاّ يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبيًّا ، فلو كان نبيًّا حقًّا لعذبنا الله على هذا الكلام .

قال فى ظلال القرآن :

وظاهر من سياق السورة ، من مطلعها ، أن الله قد أخبر الرسول ﷺ بما كانوا يقولونه فى أنفسهم ، وبمجالسهم ومؤامراتهم . ا هـ .

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

إن الله مطّلع وشاهد على مؤامراتهم وخيانتهم ونجواهم ، واجتماعاتهم المشتملة على الكيد والدسّ وتبييت السوء للمسلمين ، وقد كشف أمرهم فى الدنيا ، وأجّل العقوبة الكبرى إلى الآخرة ، حيث يصطلون بنار جهنم ، ويقاسُون حرَّها ولهيبها ، والهوان والخزى والذلّ فى عذابها .

قال ابن العربى :

كانوا يقولون : لو كان محمد نبيًّا لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به ، وجهلوا أن البارى حليم لا يعاجل بالعقوبة .

وقد ثبت فى الصحيح : «لا أحد أصبر على الأذى من الله ، يدعون له الصاحبة والولد ، وهو يعافيهم ويرزقهم» ، فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم ، وفضحًا لبواطنهم ، وتكريمًا لرسوله ﷺ[١٠] .

٩ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

يؤدب الله المسلمين بذلك الأدب الإلهى الذى يجعل المسلم مراقبًا لله فى السرّ والنجوى ، فينادى الله المؤمنين بأن يكون تناجيهم الخافت وحديثهم الخاص مخالفًا لمناجاة اليهود والمنافقين .

فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ...

وفيه تربية وتعريض باليهود والمنافقين .

وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...

أى : لا تتناجوا بالشرّ والعدوان على الغير ، أو السوء والكيد ، أو مخالفة أمر الرسول ﷺ ، بل عليكم بالتناجى بالخير والعفاف ، والطاعة والتقوى ، والبعد عما نهى الله عنه .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

وراقبوا الله الذى يراكم ، ويطّلع على مناجاتكم ، ولا تخفى عليه خافية من شئونكم ، ثم يحاسبكم عند الحشر والجزاء يوم تحشرون وترجعون إليه .

١٠ – إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

أى : إن الشيطان هو الذى يحرض المنافقين واليهود على التناجى بالسوء والعدوان ، وإيذاء المسلمين وإيهامهم أن سوءا قد أصاب أقاربهم ، هذه حيل الشيطان فى تحريض أتباعه ، ليفعلوا أشياء تصيب أحد المسلمين بالحزن ، أو الرعب أو الخوف ، مع أن عقيدتنا فى القضاء والقدر تفيد أن أحدًا لا يضرّ أو ينفع إلا بإذن الله ومشيئته وإرادته ، وعلى الله وحده فليتوكل وليعتمد وليثق المؤمنون ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين ، فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم .

أخرج البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه»[١١] .

النجوى يوم القيامة

أخرج البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أن قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأمّا الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ، ألا لعنة الله على الظالمين»[١٢] .

★ ★ ★

أدب المجالس

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

تفسحوا في المجالس : توسعوا في أماكن الجلوس .

فافسحوا : فتوسعوا .

انشزوا : انهضوا للتوسعة على المقبلين .

فانشزوا : فانهضوا ولا تتباطأوا .

يرفع الله الذين آمنوا : يرفع منزلتهم يوم القيامة .

والذين أوتوا العلم درجات : ويرفع العالمين منهم خاصة ، درجات في الكرامة وعلو المنزلة .

تمهيد :

حذر القرآن من أسباب البغض والفرقة فيما سبق ، حيث نهى عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وهنا يحث على أسباب المحبة والمودة والصفاء ، وذلك بالتوسعة في مجالس العلم والذكر والقتال وسائر المجالس ، وإذا طلب القائد من شخص ترك مكانه لآخر فينبغي أن يستجيب ، فإن في ذلك سببًا لرفعة شأنه ، وعلوّ أجره ، والله تعالى مطلع على القلوب والنفوس ، وخبير بما فيها .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري ، عن قتادة قال : كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ، ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ ، فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل أنها نزلت يوم جمعة ، وقد جاء ناس من أهل بدر ، وفي المكان ضيق ، فلم يُفْسَح لهم ، فقاموا على أرجلهم ، فأقام ﷺ نفراً بعدّتهم وأجلسهم مكانهم ، فَكَرِهَ أولئك النفر ذلك ، فنزلت .

التفسير :

١١ – ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

تضع هذه الآية نظاما جميلا عند اجتماع المسلمين فى الجمعة والأعياد ، والعزاء والأفراح ، وأماكن القتال وسائر ألوان الاجتماع ، فترشدهم إلى عدم الالتصاق بالمكان ، وترشدهم إلى عدم التضييق على القادمين ، بل ينبغى أن يتفسحوا ويوسعوا للقادمين ، ويتعاونوا معهم ، وهو أدب ينبغى اتباعه فى كل مناحى الحياة ، ومبدأ يجب أن يطبق فى الرغبة فى مساعدة الآخرين ، وتسهيل أمورهم، لمن يملك ذلك ، فإن الله تعالى يعاون من فعل ذلك ، كما قال ﷺ : «الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» .(١٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

إذا طُلب منكم التضحية بمجلسكم القريب من الرسول ﷺ أو منْ ولى الأمر ، أو صاحب السلطان ، أو صاحب المنزل ، فاسمعوا وأطيعوا ، ولا تظنوا أنّ فى ذلك غبناً لكم ، أو نقصا لمنزلتكم ، فقد وعد الله سبحانه وتعالى برفع درجة المؤمنين جزاء صدقهم فى إيمانهم .

كما وعد الله برفع منزلة العلماء والفقهاء درجات إلى أعلى ، وفى ذلك بيان لفضل العلم ، وحث على التعلّم والتعليم ، ودعوة إلى معرفة كتاب الله وسُنة رسوله ، وآراء الفقهاء والعلماء ، فإن ذلك من أسباب العزّ فى الدنيا ، والارتقاء فى درجات الجنة فى الآخرة .

كما تحث الآية على الإخلاص ، ونظافة القلب ، والتعاون مع أفراد الأمة ، والتواضع ، والاستجابة لما يُطلب من المسلم فى سبيل الصالح العام .

وفى الحديث الشريف : «ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه ، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزّا ، فاعفوا يعزكم الله» (١٤) .

وقد ختم الله الآية بقوله : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ . فهو سبحانه مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها ، ومنها أعمال القلوب التى لا تجد غضاضة ولا كراهية عند التوسعة لإنسان قادم ، ولا تكره أن تقوم من المجلس إذا طُلب منها ذلك منْ أجل المصلحة.

فى أعقاب التفسير

١ – أخرج الشيخان ، وأحمد ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسّحوا وتوسّعوا» . (١٥) .

٢ – قال ابن كثير فى تفسيره :

اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال :

فمنهم من رخّص فى ذلك محتجا بحديث : «قوموا إلى سيّدكم» ، ومنهم من منع ذلك محتجا بحديث : «من أحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» (١٦) .

ومنهم من فصّل فقال : يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبى ﷺ حاكما فى بنى قريظة فرآه مقبلاً ، قال للمسلمين : «قوموا إلى سيدكم» (١٧) . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم، فأمّا اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم ، وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك .

وفى الحديث المروى فى السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة رضى الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم ، فالصدّيق رضى الله عنه يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبا عثمان وعلىّ لأنهما كانا ممن يكتب الوحى ، وكان يأمرهما بذلك ، كما روى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يقول : «ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثمّ الذين يلونهم» (١٨).

٣ – قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره :

وقوله تعالى : يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ . مطلق فى كل ما يطلب الناس الفسحة فيه ، فى المكان ، والرزق ، والصدر والقبر ، والجنة ، واعلم أنَّ الآية دلت على أنّ كلّ من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : «لايزال الله فى عون العبد مازال العبد فى عون أخيه» (١٩) .

٤ – قال ابن مسعود :

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ...

مدح الله العلماء فى هذه الآية ، ثم قال ابن مسعود : يا أيها الناس افْهَمُوا هذه الآية ، ولترغّبكم فى العلم ، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات.

٥ – قال القرطبي في تفسيره :

بيّن في هذه الآية أن الرفعه عند الله بالعلم والإيمان ، لا بالسبق إلى صدور المجالس ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء» . فَأَعْظِمْ بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ .

٦ – جاء في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ما يأتي :

روى مسلم ، وأحمد ، عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمرُ استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى ، رجلاً من موالينا ، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاضٍ ، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين» [٢٠] . (حديث حسن رواه ابن ماجة ، عن عثمان رضي الله عنه) .

ثم قال ابن كثير : وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في «شرح كتاب العلم» من صحيح البخاري ، ولله الحمد والمنة [٢١] .

وعن ابن عباس : خُيّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ؛ فأُعطي المال والملك معه .

★ ★ ★

الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ
فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ
بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

ناجيتم الرسول : أردتم مناجاته والتحدّث معه .

فقدموا بين يدى نجواكم صدقة : قدموا قبل مناجاة الرسول ﷺ صدقة تضعونها بين يديه ليدفعها للفقراء ، وفي ذلك نفع للفقراء ، وتعظيم لقدر الرسول ﷺ ، وحث على عدم الإفراط

فى الأسئلة ، وفيه تمييز بين المنافقين والمؤمنين ، فالمنافق محبٌّ للدنيا ضنين بالمال ، وبإخراج صدقة .

خير لكم وأطهر : أزكى للنفوس ، وأبعد عن الريبة وحبّ المال .

أأشفقتم : أخفتم ، أو شقّ عليكم .

تاب الله عليكم : قبل توبتكم ، أو رخّص لكم فى المناجاة من غير تقديم صدقة .

تمهيد :

كان بعض الناس يكثر السؤال لرسول الله ﷺ من غير حاجة شديدة لذلك ، والرسول بشر له حاجات خاصة، ويحتاج إلى وقت لمناجاة ربه ، ووقت لتبليغ الرسالة ، ووقت لتنظيم أمور الدعوة ، وكان بعض الأغنياء يقضى وقتا أطول فى مناجاة رسول الله ﷺ حتى شق ذلك عليه ﷺ ؛ فأنزل الله تعالى آية تأمر بتقديم صدقة للفقراء بين يدى أسئلتهم لرسول الله ﷺ .

ولم يستمر العمل بهذه الآية إلاَّ وقتا قليلاً ، ثم أنزل الله تعالى الآية التالية لها ، التى ترفع هذا التكليف ، وتطلب عوضا عنه المحافظة على الصلاة، وإخراج الزكاة ، وطاعة الله ورسوله .

سبب النزول :

١ – أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ ، حتى شقّوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيّه فأنزل : **إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً** ... فلما نزلت صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد ذلك : **ءَأَشْفَقْتُمْ** ... الآية .

٢ – وأخرج الترمذى وحسّنه ، وغيره عن علىٍّ قال : لما نزلت : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً** ... قال لى النبى ﷺ : «ما ترى ، دينار» ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فنصف دينار» ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فكم» ؟ قلت : شعيرة ، قال : إنك لزهيد ، فنزلت : **ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ** ... الآية ، فبى خفف الله عن هذه الأمة .[٢٢]

٣ – وقال مقاتل بن حيان : نزلت الآية فى الأغنياء ، وذلك أنَّهم كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك ، من طول جلوسهم ومناجاتهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأمَّا أهل العسرة فلم يجدوا شيئا ، وأمّا أهل الميسرة فبخلوا ، واشتدّ ذلك على أصحاب النبى ﷺ ، فنزلت الرخصة .

التفسير :

١٢ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

يا أيها الذين آمنوا ، إذا رغبتم فى مناجاة الرسول ﷺ ، والخلوة به للإجابة على أسئلتكم ، فقدِّموا صدقة قبل المناجاة ، يأخذها الرسول ﷺ ويتصدق بها على الفقراء ، فقد قال ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء لا تحلّ لنا صدقه» .

وكان من صفاته ﷺ فى الكتب السابقة أنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وتقديم الصدقة بين يدى المناجاة فيه منفعة للفقراء ،وتعويد للأغنياء على الصدقة ، وتطهير للنفس من الشح، وفيه استجماع قوى السائل ، فإذا كان السائل فقيرا لا يجد صدقة يقدمها فقد أسقط الله عنه ذلك التكليف ، وغفر له ورحمه ، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة ، لقوله تعالى : فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

وظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجبا ، لأن الأمر للوجوب ، ويتأكد ذلك بقوله فى آخر الآية : فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فإن ذلك لا يقال إلاّ لترك الوجوب ، وقال بعضهم : إن الأمر هنا للندب والاستحباب .

والأول أظهر ، حيث نسخ الله وجوب تقديم صدقة عند مناجاة الرسول ﷺ بالآية التى تليها .

وأنكر أبو مسلم الأصفهانى وقوع النسخ ، وقرر أن الأمر بتقديم الصدقة على النجوى لتمييز المؤمن المخلص من المنافق ، فلما تحقق الغرض انتهى الحكم ، أى أن ذلك التكليف كان مقدَّرا بغاية مخصوصة فوجب انتهاؤه بانتهاء تلك الغاية ، فلا يكون هذا نسخا .

قال الإمام فخر الدين الرازى : وهذا الكلام حسنٌ ما به بأس . ا هـ .

أى أنه كان أمرًا مرحليا مؤقتا ، مقصودا منه تخفيف الضغط على الرسول ﷺ بكثرة الأسئلة والمناجاة ، ومعرفة المؤمن الذى يهون عليه المال فى سبيل المناجاة من المنافق الذى يُعظِّم المال ، فلما تحقق ذلك أسقط الله ذلك التكليف .

والمشهور عند الجمهور أن الأمر بتقديم الصدقة قبل المناجاة منسوخ بقوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ ... الآية .

١٣ - ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُون .

أى : أبخلتم وخفتم الفقر خشية أن تقدموا عددا من الصدقات ، كلما أردتم مناجاة رسول الله ﷺ ؟ وفى هذا الاستفهام عتاب رفيق رقيق ، وتوجيه للمسلمين إلى أهمية المحافظة على وقت الرسول ﷺ ، وبيان قيمة الوقت الذى يقضيه السائل فى مناجاته وحده ، وخلوته به وحده ، والنبى ﷺ على عاتقه شئون أمَّةٍ بأسرها .

قيل : كان العمل بالآية السابقة عشرة أيام ، وقيل : كان يوماً واحداً .

لقد كان الحق سبحانه وتعالى يربِّى هذه الأمة ويهذبها ، ويرشدها إلى الأمثل والأفضل ، ويطهرها ويزكيها بآداب الوحى الإلهى ، وما إن تحقق المراد حتى خفف الله عن الأمة وجوب تقديم الصدقة قبل المناجاة .

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُون .

فحين لم تقوموا بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ﷺ فقد عذركم الله وقبل توبتكم ، أو تاب عليكم بمعنى غفر لكم وخفف عنكم، فافعلوا ما فرض عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله فى جميع ما تؤمرون به .

وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُون .

فهو محيط بنواياكم وأعمالكم ، ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير وشر .

قال تعالى فى هذا المعنى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ .

(الزلزلة: ٧ ، ٨)

وقال سبحانه وتعالى : وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ .
(النجم : ٣٩ - ٤١) .

وجاء فى التفسير المنير للأستاذ وهبة الزحيلى :

وليس فى الآية إشارة إلى وقوع تقصيرٍ من الصحابة فى تقديم الصدقة ، فقد يكون عدم الفعل لأنهم لم يناجوا ، ولا يدل أيضا قوله : وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ . على أنهم قصَّروا ، لأن المعنى : أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفًا ، ومثل هذا يجوز أن يُعبر عنه بالتوبة [٢٣] .

★ ★ ★

حال المنافقين الذين يوالون غير المؤمنين

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ
جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ
اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا
يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ
فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

ألم تر : تنظر، أو أخبرني، وهو أسلوب يراد به التعجيب للمخاطب من حال هؤلاء المنافقين .

الذين تولّوا : والوا ووادّوا وأحبُّوا ، وهم المنافقون .

قوما غضب الله عليهم : هم اليهود .

ويحلفون على الكذب : وهو قولهم : والله إنا لمسلمون .

اتخذوا أيمانهم جُنة : أعدّوها سترا ووقاية ليخلصوا من المؤاخذة .

فصدّوا عن سبيل الله : صدّوا بأيمانهم الناس عن دين الله ، بالتحريش والتثبيط .

من الله شيئا : من عذاب الله شيئا ، من الإغناء .

يوم يبعثهم : اذكر لهم ذلك اليوم .

فيحلفون له : أنهم مؤمنون .

استحوذ : استولى عليهم ، وأحاط بهم ، وغلب على عقولهم .

حزب الشيطان : أعوانه وأتباعه وأنصاره .

تمهيد :

كان المنافقون شوكة فى جنب المسلمين ، وكانوا يوالون اليهود ويمدُّونهم بالمعلومات عن المسلمين ، والقرآن هنا يتعجب من حالهم ، فهم يتولون اليهود بالمودة والمؤازرة ، واليهود قوم غضب الله عليهم ،

ولعنهم وجعل منهم القردة ، والمنافقون كالشاة الحائرة بين قطيعين من الغنم ، فهى مترددة فى اتباع أيهما ، فهم يوالون اليهود ، ويتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين ، فليسوا من المسلمين حقا ، وليسوا يهوداً .

قال تعالى : مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... (النساء : ١٤٣) .

وقد أنذرهم الله بالعذاب ، وأبان بواعث أفعالهم وكذبهم وحلفهم بالله كذبا ، مع علمهم بأنَّها يمين غموس ، فهم أتباع الشيطان وأنصاره .

من أسباب النزول :

أخرج أحمد ، والحاكم وصححه ، عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ فى ظل حجرة وقد كاد الظل يتقلّص ، فقال : «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعينى شيطان ، فإذا جاءكم لا تكلموه» ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال له حين رآه : «عَلامَ تشتمنى أنت وأصحابك» ؟ فقال : ذرنى آتك بهم ، فانطلق ، فدعاهم ، فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا ، فأنزل الله : يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ... (المجادلة : ١٨) .

التفسير :

١٤ – أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

ألم تنظر يا محمد إلى هؤلاء المنافقين ، يتظاهرون بالإسلام ، ثم يقدمون العون والدعم والمودة والمؤازرة لليهود الذين غضب الله عليهم ، وجعل منهم القردة .

والمنافقون مذبذبون مترددون حائرون ، كالشاة الحائرة بين قطيعين من الغنم ، تتردد فى الانحياز إلى أىِّ القطيعين ، وكذلك المنافقون ليسوا من المسلمين ، فهم يدَّعون الإسلام كذبا ، وليسوا من اليهود بل من عملائهم .

قال تعالى : مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً . (النساء : ١٤٣)

وإذا انكشف أمرهم وواجههم النبى ﷺ بسوء طويتهم، أقسموا أنهم مسلمون ، أو أنهم لا يضمرون للنبى ﷺ أىَّ سوء، وهم يعلمون أنها يمين غموس فاجرة كاذبة ، فهم يقسمون كاذبين مع علمهم أنهم كاذبون .

قال تعالى : إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ . (المنافقون : ١) .

١٥ - أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

هيأ الله لهم يوم القيامة عذابا أليما ، حيث قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . (النساء : ١٤٥) .

وذلك بسبب سوء فعالهم وغشهم للمسلمين ومعاداتهم، ونصحهم للكافرين وموالاتهم ، ألا ساء ما فعلوا من الأعمال القبيحة ، والتلوّن والخداع والكذب ، وإن ذا الوجهين لا يكون وجيهًا عند الله .

١٦ - ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

جعلوا من أيمانهم الكاذبة وقاية وستراً لحفظ دمائهم ، وتستروا تحت إظهار الإسلام وإبطان الكفر ، وبذلك ثبّطوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وبثّوا الفتن بين ضعاف الإيمان ، فصدّوهم عن سبيل الله ودينه .

لذلك أعدّ الله لهم عذابا مؤلماً ، يلازمه الذل والهوان فى نار جهنم ، فهو عذاب شديد مؤلم ، وهو فى نفس الوقت مشتمل على الذلّ والمهانة لهم ، جزاء خداعهم وكذبهم .

١٧ - لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

كان المنافقون يحرصون على جمع المال ، ويرون الأولاد عُدَّة لهم فى تنفيذ مهامّهم ، وادّعوا أنهم سينتصرون يوم القيامة بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ؛ فنزلت الآية .

وتفيد الآية أنه لن ينفعهم أىّ شىء يوم القيامة ، وإنما ذكر المال والولد لعناية المنافقين بهما .

قال تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .

لقد حُرموا نعيم الجنة ، واستبدلوا ذلك بالإقامة الدائمة فى جهنم ، حتى كأنهم أهلها المخلّدون فيها .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٦ ، ٣٧) .

١٨ - يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ .

أى : حين يبعثهم الله جميعًا من قبورهم ، ويساقون للوقوف بين يدى علام الغيوب ، فيحلفون بالله ويقولون : وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام : ٢٣) .

فإن من شبَّ على شىء شاب عليه ، ومن شاب على شىء مات عليه ، ومن مات على شىء بُعث عليه ، فهؤلاء تعوَّدوا على اليمين الغموس ، حتى بين يدى علام الغيوب الذى لا تخفى عليه خافية ، يحلفون أمامه فى الآخرة كما كانوا يفعلون فى الدنيا ، ظانين أن هذه اليمين ستجعلهم يفلتون من عذاب الله فى الآخرة .

قال أبو حيان :

والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على علام الغيوب ، ويجرونه مجرى المؤمنين فى عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ؟ والمقصود : أنهم تعودوا الكذب حتى كان على ألسنتهم فى الآخرة كما كان فى الدنيا . ا هـ .

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ .

إنهم حقًا أهل كذب ونفاق وخداع ، لذلك أكد الله كذبهم بأداة الاستفتاح ، وبحرف (إن) ، وبإسمية الجملة .

ونحو الآية قوله تعالى : **ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** . (الأنعام : ٢٣ ، ٢٤) .

١٩ - ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَـٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ .

لقد استولى الشيطان على عقولهم وأفكارهم ، فأنساهم ذكر الله وطاعته ، فذكروا الدنيا وأموالها وأولادها ومغانمها ، ونسوا ذكر الله ، أولئك المنافقون هم حزب الشيطان وأتباعه ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ، فقد باعوا آخرتهم ، واشتروا دنياهم ، وباعوا جنَّة عرضها السماوات والأرض ، واشتروا الدرك الأسفل من النار .

قال الكرمانى :

علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره ، من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكّر فى آلاء الله ونعمائه ، والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان ، ويُشغل عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها[٢٤] .

★ ★ ★

ولاء المؤمنين لله وحده

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ
حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

يحادون : يعادون ويشاقُّون ويخالفون ، فهم في حدّ ، والشرع والهدى في حدّ .

الأذلين : المغلوبين ، أذلّ خلق الله .

كتب الله : قضى وحكم .

لأغلبن : بالحجة والقوة .

يوادون من حاد الله : يصادقون .

ولو كانوا آباءهم : ولو كان المحادُّون أقرب الناس إليهم .

أو عشيرتهم : العشيرة هي القبيلة ، والجمع عشيرات وعشائر .

كتب في قلوبهم الإيمان : أثبت الإيمان في قلوبهم .

أيدهم : قوّاهم .

بروح منه : بنور من عند الله يقذفه في القلوب ، فتطمئن وتسكن .

حزب الله : جنده وأنصار دينه ، يتبعون أمره ويجتنبون نهيه .

هم المفلحون : الفائزون بخير الدّارين .

تمهيد :

فى ختام سورة المجادلة يذكر القرآن خسارة المنافقين ، وسبب خسارتهم وهو مشاقة الله تعالى ورسوله ﷺ ، ومخالفة أمرهما ، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن قضائه المبرم بنصر الرُّسل وهزيمة أعدائهم ، ثم ذكر أن الإيمان لا يجتمع فى القلب مع مودَّة أعداء الله ، لأن من أحب أحدًا امتنع أن يحبّ مع ذلك عدوّه .

أسباب نزول الآية ٢٢

لَّا تَجِدُ قَوْمًا ...

أخرج ابن أبى حاتم ، والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى سننه ، عن ابن عباس عن عبد الله بن شوْذب ، قال : نزلت هذه الآية فى عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، فنزل قوله تعالى : **لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ** ... الآية .

وقال الرازى : إن الأكثرين اتفقوا على أن قوله تعالى : **لَّا تَجِدُ قَوْمًا** ... نزل فى حاطب بن أبى بلتعة ، وإخباره أهل مكة بمسير النبى ﷺ إليهم لما أراد فتح مكة .

التفسير :

٢٠ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ .

إنّ الذين يعادون الله ورسوله ، فيكرهون دين الله ، ويعادون رسول الله ، ويبغضون شرع الله ، هؤلاء الكفار الملحدون ، أو المنافقون المارقون ، أو اليهود المعاندون ، أو كلّ قوة تشتمل على بغض دين الله ومعاداة هذا الدين ، هؤلاء يذلّهم الله فى الدنيا أشد الذلّ ، ويكتب عليهم القهر والمهانة والخيبة والهوان ، فإن أصابوا خيرًا فى الدنيا أو عُلوًّا فى الأرض ، فلن يفلتوا من عذاب الآخرة ومهانتها ، ليتحقق وَعْد اللّه بأنهم فى الأذلين ، أى مجموعة من هو أشدّ ذلاً وأكثر مهانة وهوانًا .

وقد جاءت هذه الآية فى أعقاب الحديث عن المنافقين ومُوَالاتهم لليهود ، يبتغون عندهم الأمان والرفعة وحسن المستقبل ، فبين الله أنّ هناك حزبين أو طريقين : حزب الله أو طريق الله ، ومآله النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، وحزب الشيطان أو طريق الشيطان ، وهو حزب أعداء الإسلام ، أو أتباع الشيطان ، وكيد هؤلاء ضعيف ، ومآلهم الذلّ والهوان .

٢١ - كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

قضى الله وأثبت ذلك ، وأيَّده وأكده ، وهو أن تكون الغلبة والنصر لرسل الله وأوليائه وأحبابه ، وأتباع دينه وشرعه ورسله ، فالله غالب على أمره وهو سبحانه ، **قَوِىٌّ** . لا يغلبه غالب ، **عَزِيزٌ** . لا يغلبه على مراده

كائن مهما كان ، وقد حدث ذلك فى تاريخ البشرية ، حيث نصر الله المرسلين وهزم المكذبين ، فقد نصر الله نوحًا وأغرق الكافرين به ، وكذلك نصر هودًا وصالحًا وشعيبًا وموسى ، وأهلك المكذبين بهم .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

وقيل : إن المراد بغلبة الله ورسله ، الغلبة بالحجة لاطرادها ، وهو خلاف الظاهر ، فالعاملون المخلصون ينصرهم الله فى النهاية ، وقد يتأخَّر النصر لحكمة إلهية ، هى امتحان المؤمنين واستثارة إخلاصهم واستعدادهم ورغبتهم .

قال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ... (يوسف : ١١٠) .

وقال تعالى : ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ . (محمد : ٤) .

وفى هذا المعنى قال تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . (الصافات : ١٧١ – ١٧٣) .

وقال مقاتل فى سبب نزول هذه الآية :

لما فتح الله تعالى مكة والطائف وخيبر وما حولها للمؤمنين ، قالوا : نرجو أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أُبَى : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددًا وأشد بطشًا من أن تظهروا عليهم ، فنزلت الآية : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

٢٢ – لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

لا ينبغى ولا يجوز لمن آمن بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، أن يجمع فى قلبه بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين حب الكافرين الفاسقين ؛ لأن من أحب الله ورسوله كره عدوهما من الكفار والفسّاق والمنافقين ، ولو كان هذا الكافر الفاجر أقرب الناس إليه ، كالأب والابن والأخ والقريب من العشيرة ، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا إيمانهم لله ، واستعلوا بإيمانهم على موالاة أعداء الله مهما كانت قرابتهم .

أولئك ثبَّت الله الإيمان فى قلوبهم ، كما يثبت القول والعهد بكتابته ، ومنحهم الرضا والتوفيق ، والهدى والروح الطاهرة المتصلة بالله ، وأعدَّ لهم فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فيها نعيم مقيم ، وخلود أبدى سرمدى ، مع قربهم من الله تعالى ورضوانه عنهم ، فقد فقدوا مودة آبائهم وأقاربهم من أجل مرضاة الله ، فعوضهم الله رضوانه عليهم ، فلا يسخط عليهم أبدا ، ومنحهم الرضا بالجنة ونعيمها ، والرضا لقربهم من ربهم ومحبته ، فيا لها من نعمة ، نعمة الرضا المتبادل بينهم وبين ربهم وخالقهم ، الرضا بين العبد الفانى والإله الباقى ، الرضا بين المخلوق الضعيف والخالق القوى المتين ، الرضا بين مؤمن أرضى ربه فى الدنيا فأرضاه الله فى الآخرة .

أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

هؤلاء أحباب الله وأولياؤه ، وأهل رضاه ومحبته ، ومن كان فى طريق الله ومرضاته فإنه أهل للفلاح والنجاح ، والفوز فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة .

فى أعقاب تفسير الآية

قال ابن كثير فى تفسيره :

نزلت هذه الآية فى أبى عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وفى أبى بكر الصديق همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، وفى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ، وفى عمر بن الخطاب قتل قريبًا له يومئذ ، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . ا هـ .

أى أن منهم من قتل أباه ، ومنهم من قتل ابنه ، ومنهم من قتل أخاه ، ومنهم من قتل قريبًا له ، ومنهم من قتل بعض أفراد عشيرته وأسرته ؛ فأنزل الله تعالى : وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...

ومعنى هذا أن الله أنزل هذه الآية فيهم ، أى أنَّها مما ينطبق معناها عليهم ، ومما يشرح بعض مدلول الآية ، فقد قال علماء علوم القرآن : (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ، أى أن الآية عامة فى كل مؤمن يجعل مودَّته وطاعته وإخلاصه لله ، ولا يوالى أى قريب أو حبيب إذا كان من أعداء الله ، والآية مع ذلك تنطبق على أفراد من الصحابة قتلوا بعض أقاربهم مرضاة لله تعالى فى غزوة بدر ، أو فى غيرها من المواقع .

من تفسير القاسمي بتصرف

تنبيهات

الأول :

من أشباه هذه الآية قوله تعالى : لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ... (آل عمران : ٢٨) .

وقوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ . (التوبة : ٢٤) .

قال ابن كثير :

ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يُفَادَوْا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى يا رسول الله ، هل تمكننى من فلان – قريب لعمر – فأقتله ، وتُمكن عليًّا من عقيل ، وتُمكن فلانًا من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين ؟ .

الثانى :

قال ابن كثير : فى قوله تعالى : رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ... سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الثالث :

يفهم من قوله تعالى : حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... وقوله فى آية أخرى : لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ... (الممتحنة : ١) . أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادُّون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة والبغضاء ، وهم الذين أخبر عنهم قبلُ بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحادّين لنا ، أى الذين على حدًّ منا ومجانبة لشئوننا ، تحقيقًا لمخالفتنا ، وترصدًا للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضى بأداء الجزية لنا وسالمنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذى ذكرناه ،

ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم ، فقد عاد النبى ﷺ يهوديًا ، وعرض عليه الإسلام فأسلم – كما رواه البخارى[٢٥] .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك كما لزم المسلمين – كما فى (الإقناع) و(شرحه) .

وقال ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) فى الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبى ﷺ كان يجيب من دعاه فيأكل طعامه ، وأضافه يهودى بخبز شعير وإهالة سنخة ، وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب ، وشرط عمر رضى الله عنه ضيافة من مرّ بهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عزّ وجلّ ذاك فى كتابه ، ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعامًا فدعوه فقال : أين هو ؟ قالوا : فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعلىّ رضى الله عنه : اذهب بالناس . فذهب علىٌّ بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل علىّ رضى الله عنه ينظر إلى الصورة ، وقال : ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل . انتهى .

والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ . (الممتحنة : ٨ ، ٩) .

قال السيد ابن المرتضى اليمانىّ فى (إيثار الحق) : عن الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر أن الموالاة المحرمة بالإجماع هى أن تحب الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته ، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتى فى أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق[٢٦] .

★ ★ ★


تفسير سورة الحشر

أهـــداف ســورة الحشـــر

(سورة الحشر مدنية، وآياتها ٢٤ آية ، نزلت بعد سورة البينة)

وقد نزلت فى بداية السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب ، وهى تحكى قصة غزوة بنى النضير ، ولكنها على طريقة القرآن تحكى أحداث الغزوة وما صاحب هذه الأحداث ، وتربى النفوس وتؤكد على معالم الإيمان ، وبذلك يكون القصص هادفًا ، ورواية الأحداث وسيلة عملية لتقويمها ، ومعرفة حكم الله فيها واستنباط العظة والعبرة منها .

والقرآن الكريم فيه القصة ، وفيه أحداث التاريخ ، وفيه العظة والعبرة ، وفيه الحكم والتشريع ، وفيه التهذيب والتربية ، وقد استطاع أن يمزج ذلك كله بطريقته الخاصة ، ليصل به إلى قلب المؤمن ، وليسهم فى بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح والأمة الصالحة .

قال تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ...
(آل عمران : ١١٠)

غزوة بنى النضير[٢٧]

قدم رسول الله ﷺ المدينة ومعه رسالته الهادية، وقد آمن به جمع من المهاجرين والأنصار ، ثم عقد معاهدات مع يهود المدينة على حرية الأديان ، وعلى المعايشة السلمية فى المدينة ، وعلى ألا يكون اليهود عليه ولا له .

«وكان يهود بنى النضير حلفاء الخزرج ، وبينهم وبين المسلمين عهود خاصة يأمن بها كل منهم الآخر »[٢٨] ، لكن بنى النضير لم يوفوا بهذه العهود حسدًا منهم وبغيًا ، فقد ذهب رسول الله ﷺ فى عشرة من أصحابه إلى محلة بنى النضير ، يطلب منهم المشاركة فى أداء دية قتيلين ، بحكم ما بينه وبينهم من عهود ، فاستقبله زعماء اليهود بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم بينما كانوا يدبرون أمرًا لاغتيال رسول الله ﷺ ومن معه . وكان ﷺ جالسًا إلى جدار من بيوتهم فقال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فهل من رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقى صخرة عليه فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن

جحاش بن كعب : أنا لذلك ، فصعد ليلقى صخرة على رسول الله ، فاطلع ﷺ على قصدهم ، فقام كأنما ليقضى أمرًا ، فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحرب بنى النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذى بينه وبينهم ، وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف – من بنى النضير – فى هجاء رسول الله ﷺ ، وما قيل من أن كعبًا ورهطًا من بنى النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ، مما جعل رسول الله ﷺ يأذن لمحمد بن مسلمة فى قتل كعب بن الأشرف فقتله . ولما كان التبييت للغدر برسول الله ﷺ فى محلة بنى النضير ، فلم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم .

ثم أرسل النبى إليهم محمد بن مسلمة ليقول لهم : اخرجوا من بلادى لقاء ما هممتم به من الغدر .

وتجهز الرسول لقتال بنى النضير وحاصر محلتهم ، وأمهلهم ثلاثة أيام – وقيل عشرة – ليفارقوا المدينة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم .

وتهيأ بنو النضير للرحيل ، ولكن المنافقين فى المدينة أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة ، وقالوا لهم : لا تخرجوا من دياركم ، وتمنعوا فى حصونكم ونحن معكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، وقد حكى القرآن عمل المنافقين وشهّر بنفاقهم وكذبهم .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . (الحشر : ١١ – ١٣) .

وقد طمع اليهود فى معونة المنافقين ومؤازرتهم ، فتحصنوا فى حصونهم وتأخروا عن الجلاء ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فحاصرهم ﷺ وضيق عليهم الخناق ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم ، ثم قذف الله الرعب فى قلوب اليهود ، ولم يجدوا معونة من المنافقين ، ويئسوا من صدق وعودهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، فأجابهم النبى إلى طلبهم ، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون .

ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ، ومن أكابرهم حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق .

ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام ، وقد أسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب .

وكانت أموال بنى النضير فيئًا خالصًا لله والرسول ، ولم يوجف[٢٩] المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف ، وأبو دجانة سماك بن خرشة ، وكان المهاجرون قد تركوا بلادهم وأموالهم وهاجروا فرارًا بدينهم إلى المدينة ، وقد استقبلهم الأنصار بالبشر والترحاب والمعونة الصادقة والإيثار الكريم ، فلما واتت الفرصة وزع النبى الفىء على المهاجرين خاصة لتحسين أحوالهم المادية ، ولكيلا يكون المال متداولاً بين الأغنياء وحدهم .

قال تعالى : وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الحشر : ٦) .

تسلسل أفكار السورة

١ – وصفت سورة الحشر حصار بنى النضير ، وعناية السماء بالمؤمنين ، وانتهاء الحصار بجلاء اليهود وانتصار المؤمنين . (الآيات :١ – ٤) .

٢ – تحدثت عن قطع المسلمين للنخيل وبينت أن ذلك كان بأمر الله ليذل به اليهود ويخزى الفاسقين . (الآية : ٥) .

٣ – ذكرت حكم الفىء والغنائم التى غنمها المسلمون من بنى النضير ، وبينت أنها توزع على المهاجرين لسد حاجتهم ، ولا يعطى منها شىء للأنصار لأنها ليست غنيمة حرب استخدم فيها الكرّ والفرّ وركوب الإبل والخيل ، ولكنها غنيمة حصار محدود انتهى بتسليم اليهود بعد أن ألقى الله الرعب فى قلوبهم . (الآيتان : ٦ ، ٧) .

٤ – باركت السورة كفاح المهاجرين وخروجهم من مكة إلى المدينة حفاظًا على الدين وفداء للعقيدة ، كما باركت كرم الأنصار وأريحيتهم ، ووصفتهم بالسماحة والإيثار ، والمحبة للبذل والعطاء .

كما باركت الأجيال اللاحقة التى وُلدت فى محاضن الدعوة ، وكانت ثمرة كريمة لترابط المهاجرين والأنصار . (الآيات : ٨ – ١٠) .

٥ – حملت السورة على المنافقين ، وكشفت نفاقهم وكيدهم ، واتهمتهم بالجبن والصغار . (الآيات : ١١ – ١٣) .

٦ – بينت أن اللقاء بين المنافقين وأهل الكتاب لقاء فى الظاهر فقط ، وبينهم من العداوة والإحن ما يظهر فى الشدائد : بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ... (الحشر : ١٤) .

٧ – أشارت إلى قصة الشيطان مع عابد يسمى برصيصا ، حيث أغراه الشيطان بارتكاب الفاحشة ثم استدرجه إلى الكفر ثم تولى عنه وخذله ، ومثله كمثل المنافقين ، زينوا لليهود المقاومة والتحصن ضد المسلمين ثم خذلوهم . (الآية : ١٦) .

٨ – فى الجزء الأخير من السورة تلتفت الآيات إلى المؤمنين فتأمرهم بالتقوى والعمل الصالح ، وتبين فضل القرآن وأثره فى هداية القلوب . (الآيات : ١٨ – ٢١) .

٩ – تختم السورة بذكر أسماء الله الحسنى فهو سبحانه مالك الملك (القدوس) تقدست أسماؤه وتنزهت عن النقص، (السلام) الذى يشمل عباده بالأمان والطمأنينة ويمنحهم السلامة والراحة، (المؤمن) واهب الأمن وواهب الإيمان ، (المهيمن) الرقيب على كل شىء ، (العزيز) الغالب ، (الجبار) القاهر ، (المتكبر) البليغ الكبرياء والعظمة ، (البارئ) الموجد ، (المصور) خالق الصور للكائنات ، ومن معناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شىء شخصيته الخاصة ، (له الأسماء الحسنى) الدالة على الصفات العالية والكمال المطلق ، فهو سبحانه متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص .

المقصد الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الحشر هو : الخبر عن جلاء بنى النضير ، وقسم الغنائم ، وتفصيل حال المهاجرين والأنصار ، والشكاية من المنافقين فى واقعة بنى قريظة ، وذكر برصيصا [٣٠] ، والنظر إلى العواقب ، وتأثير نزول القرآن ، وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته ، وبيان أن جميع المخلوقات تدل على عظمته وكماله وتنزيهه ، فى قوله سبحانه : **هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** . (الحشر : ٢٤) .

النظام الاقتصادى فى الإسلام

أشارت الآية السابعة من سورة الحشر إلى الحكمة من توزيع الفىء على المهاجرين وحدهم دون الأغنياء من أهل المدينة فقال تعالى : **كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ** ... (الحشر : ٧) . أى : كيلا يكون الفىء – أى الغنيمة – متداولاً بين الأغنياء دون الفقراء ، وهذه قاعدة هامة من قواعد النظام الاقتصادى فى الإسلام .

وقد احترم الإسلام الملكية الفردية لأنها حافز طبيعى للعمل والإنتاج ، ولكنه قلم أظفار هذه الملكية ، وحارب جبروت المال وطغيانه بما يأتى :

١ – فرض الإسلام الزكاة وجعلها نسبة متفاوتة حسب التعب فى كسب المال : فزكاة المال نسبتها ٢,٥٪ وكذلك زكاة التجارة ٢,٥٪ من رأس المال ، وزكاة الزراعة ٥٪ أو ١٠٪ ، وقريب منها زكاة الماشية ، وزكاة الركاز وهو المال أو البترول أو المعادن والكنوز التى توجد فى باطن الأرض نسبتها ٢٠٪ .

وهكذا كلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر ، لأن الفضل لله فى ظهور الكنز أو البترول فكانت النسبة ٢٠٪ ، والجهد ظاهر من العبد فى التجارة والعمل فى الحياة فنسبة الزكاة فيها ٢,٥٪ .

٢ – حرّم الإسلام الربا والاحتكار ، وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء ، أى يتداوله الأغنياء ولا يصل إليه الفقراء .

٣ – جعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، وأن يفرض الضرائب فى أموال الأغنياء عند خلو بيت المال .

٤ – جعل هناك صدقات موسمية مثل : صدقة الفطر ، والأضحية ، والهدى فى الحج ، والكفارات مثل : كفارة اليمين ، والظهار ، والفطر فى رمضان ، وكلها تنتهى إلى إطعام المساكين أو كسوتهم والتوسعة عليهم .

٥ – حث الإسلام على الصدقة والتراحم والتكافل والمودة والتعاطف بين الناس ، وبذلك نجد أن النظام الاقتصادى فى الإسلام نظام متميز ليس فيه مساوئ الرأسمالية أو الشيوعية ، بل فيه محاسنهما مع التجرد من عيوبهما ، وذلك نظام العليم الخبير ، البصير بالنفوس الذى أعطى للإنسان حق التملك ثم جعله موظفًا فى ماله يجب عليه أن ينفق وأن يتصدق عن طواعية ورغبة فى الثواب العاجل والآجل .

قال تعالى : وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقال سبحانه : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦١) .

ويقول المرحوم أحمد شوقى فى الهمزية النبوية التى مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء [٣١]

وإذا عفوت فقادرًا ومقدرًا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء

وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى [٣٢] وللقلوب بكاء

وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة [٣٣] ... بالحق من ملل الهدى غراء

الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء

والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء

الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء [٣٤]

داويت متئدًا [٣٥] وداووا طفرة [٣٦] ... وأخف من بعض الدواء الداء

تمهيد :

سورة الحشر تسمى : سورة بنى النضير .

روى البخارى[٣٧] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير ، وهم قوم من اليهود ، وهى مدنية ، وآياتها أربع وعشرون بلا خلاف[٣٨] .

وجاء فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ما يأتى :

بدأت السورة بأن الله سبح له ونزهه عما لا يليق به كل شيء فى السماوات والأرض ، وأنه العزيز الذى لا يُغلب ، الحكيم فى تصرفاته وتشريعه ، ومن آثار عزته وحكمته ما تحدثت عنه السورة من عاقبة بنى النضير - وهم من اليهود بالمدينة - وكانوا قد صالحوا النبى ﷺ بعد الهجرة على ألا يكونوا عليه ولا له ، فلما كانت هزيمة المسلمين فى يوم أُحد نكثوا عهدهم ، وحالفوا قريشًا عليه ﷺ ، فحاصرهم فى حصونهم التى ظنوا أنها تمنعهم ثم أجلاهم عن المدينة ، ثم بينت حكم الفيء ، وهو ما كان من الغنائم بلا حرب ولا إسراع بركوب الخيل ونحوها ، فذكرت أنه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وللفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم تحدثت عن الأنصار وفضلهم[٣٩] .

وفى حديث الآيات عن الأنصار تطرقت إلى إيثارهم المهاجرين على أنفسهم ، ولو كان بهم حاجة إلي ما آثروهم به ، ولفتت النظر إلى ما كان من وعود المنافقين لبنى النضير ، فى قولهم لهم : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ... وقولهم : وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ... (الحشر:١١) . وفضحت كذبهم وتغريرهم فى ذلك .

ثم خلصت السورة إلى تذكير المؤمنين بما ينبغى أن يكونوا عليه من تقوى الله ، والتزود للمستقبل القريب والبعيد ، وألا يكونوا كالذين أعرضوا عن الله فأنساهم أنفسهم ، وختمت ببيان شأن القرآن وعظيم تأثيره ، ذلك لأن الذى أنزله هو الله الذى لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى[٤٠] .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم
مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

سبح لله : نزهه ومجده وعظمه ، بدلالته على قدرة خالقه وعلمه وإتقان مخلوقاته .

العزيز : القادر الغالب ، الذى لا ينازعه أحد .

الحكيم : الذى يفعل أفعال الحكمة والصواب ، أو الذى يُتقن خلق الأشياء ويحكمها .

الذين كفروا من أهل الكتاب : هم يهود بنى النضير وكانت منازلهم قرب المدينة .

لأول الحشر : كانوا أول من أجلاهم الرسول ﷺ عن ديارهم فى جزيرة العرب ، والحشر : الإجلاء والإخراج ، ثم أُجلى سائر اليهود والنصارى فى أيام عمر بن الخطاب ، وهو الحشر الثانى .

ما ظننتم أن يخرجوا : لأنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وأهل عدد وعدة .

أنهم مانعتهم حصونهم من الله : ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله .

من حيث لم يحتسبوا : أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر بباله أنه يأتيهم من تلك الجهة ، وذلك غزو لهم ، لإخراجهم من بلاد العرب .

التفسير :

١ - سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

كل شيء في الأرض أو في السماوات يسبح الله وينزهه ويعظمه ، إما بلسان الحال وإما بلسان المقال .

أما لسان الحال فإن السماء العالية والجبال الراسية والبحار الجارية والليل المظلم والنهار المضيء والقمر الباهر والكوكب الزاهر والنبات والفضاء والهواء ، وما في الكون من تكامل وإبداع يدل دلالة واضحة على أن وراء هذا الكون البديع يدا حانية تمسك نظامه وتحفظ توازنه وتدبّر شئونه ، وكل ما نراه في الكون من جمال وإبداع وتناسق ، هو من أثر هذه القدرة العليا .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وهذه الآثار المتعددة تشهد بتنزيه الله عن الشريك والنظير ، وتقول بلسان الحال : سبحان الله العزيز الحكيم ، القوي القدير الذي يحكم الصنعة ويدبر الأمر ، وهو على كل شيء قدير .

وأما لسان المقال ، فكما تسبح الإنس ، والملائكة والجن ، يقول الله تعالى : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

٢ - هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ .

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب – وهم يهود بني النضير – من ديارهم عند أول إخراج لهم من جزيرة العرب ، وما كنتم تظنون أن يخرجوا ، لأنهم كانوا أهل عدد وعدة ، وقد ظنوا في أنفسهم أن حصونهم المنيعة تصدُّ عنهم بأس الله إذا نزل بهم ، فأخذهم الله من حيث لم يظنوا أن يؤخذوا من جهته ، وألقى في قلوبهم الفزع الشديد ، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ليتركوها خاوية ، وأيدي المؤمنين ليقضوا على تحصنهم ، فاتعظوا بما نزل بهم يا أصحاب العقول .

٣ - وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ .

وهؤلاء اليهود الأغرار لو لم يكتب عليهم الجلاء إلى الشام وبقوا في ديارهم لعذبهم الله في الدنيا بالقتل والأسر ، كما فعل بالمشركين في غزوة بدر الكبرى ، هذا إلى ما أعده الله لهم من العذاب والنكال يوم القيامة .

٤ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

وإنما استحق يهود المدينة ما فعله بهم الرسول ﷺ وأصحابه من الحشر والإخراج عن ديارهم ، بما كانوا يشاقون الله ورسوله ، من نقض عهودهم للرسول بعد وقعة بدر ، ثم كذّبوا ما أنزله الله على رسله المتقدمين من البشارة بمحمد ﷺ ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

أى : ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد العقاب ، وينزل به الخزى والهوان فى الدنيا ، والنكال السرمدى فى الآخرة .

★ ★ ★

توزيع الفئ والغنائم

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ
أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ
بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

المفردات :

من لينة : هى النخلة تحمل البلح أيًّا كان لونه ، وقيل : هى نخلة العجوة ، وهى من كرائم النخل عندهم . وجمعها : لين .

فبإذن الله : فالله أذن لكم فيه ، فلا لوم عليكم .

وليخزى الفاسقين : ليغيظ أصحاب النخل من اليهود ويذلهم .

وما أفاء الله على رسوله : من أموال بنى النضير ، أى : رده على رسول الله .

فما أوجفتم عليه : يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفا : أسرع فى سيره ، وأوجفه صاحبه إيجافًا : إذا حمله على السير السريع

مـــن خـــيـــل ولا ركـــاب : من : زائدة . والركاب : ما يركب من الإبل ، واحده : ناقة .

يسـلـط رسـلـه عـلـى مـن يشـاء : من أعدائه ، أى : يبعثه عليهم لتأديبهم والانتقام منهم .

كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم : حتى لا يكون الفىء مقصورًا على الأغنياء ، يتداولونه بينهم ، يأخذه هذا مرة ، ويأخذه هذا أخرى ، ولا يأخذ الفقراء منه شيئًا .

ومـا آتـاكـم الـرسـول فـخـذوه : ما أعطاكم الرسول مما أفاء الله عليه من أهل القرى فخذوه

التفسير :

٥ - مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ .

كانت غزوة بنى النضير فى السنة الرابعة ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان نخيلهم ومنازلهم فى ناحية المدينة على ميلين منها ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء ، وفى أثناء الحصار هجم بعض المهاجرين على نخيلهم ، يستأصلونه أو يحرقونه إغاظة لهم ، فنهاهم بعض المهاجرين عن ذلك ، وقالوا : إنما النخل من غنائم المسلمين ، فصاح اليهود منكرين على العرب قطع نخيلهم وإحراقه ، ولم يكن العرب قطعوا من النخيل إلا شيئًا قليلاً لا يجاوز نخلة أو ست نخلات على الأكثر ، وعلم النبى بما كان ، وشق ذلك عليه وعلى بقية المسلمين ، ولكن الله سبحانه أنزل فى ذلك قوله : **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ...** ورفع اللوم عن قاطعى النخل ، لأن كل فريق مجتهد فيما ذهب إليه .

٦ - وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

وأما أموال بنى النضير فقد جعلها الله تعالى لرسوله خاصة ، لأن المسلمين لم يبذلوا فيها جهدًا ولا مئونة ، ولم يحركوا إليها خيلاً ولا إبلاً ، لأن الجلاء قد اتفق عليه صلحًا بينهم وبين الرسول ﷺ فلم يكن للمسلمين حق فى تلك الأموال التى آلت إلى رسول الله ﷺ دون حرب ، والله تعالى يسلط بعض رسله لإذلال بعض أعدائه ، كما أذل بنى النضير إذ غدروا بالنبى ، وحالفوا عليه مشركى مكة .

٧ - مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

أما الأموال والغنائم التى استولى عليها المسلمون فى جرب بنى قريظة ، فإنها قسمت بين المحاربين لأن بنى قريظة لم يُحشروا ولم يخرجوا عن أوطانهم وإنما قتلهم المسلمون بسيوفهم . وقرى اليهود : أشهرها

قرية بنى النضير ، وقريظة ، وفدك ، وخيبر . وقد تبين الحكم فى أموال بنى النضير فى الآية السابقة ، ومثلها ما فتح صلحًا مثل فدك ، وأما غنائم سائر القرى مما فتح عنوة ، فإن خمسه لله والرسول ، وأربعة أخماسه تقسم بين المقاتلين .

قال تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... (الأنفال : ٤١) .

وقد بين الله فى الآية الحكمة فى إعطاء الفقراء والمساكين نصيبًا من أموال الغنائم ولو لم يحاربوا ، إن ذلك لمنع كثرة الأموال فى أيدى الأغنياء الذين يشهدون المعارك ، وحرمان الفقراء الذين لا يقوون على أن يشهدوا الحرب .

★ ★ ★

فضائل المهاجرين والأنصار

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

المهاجرين : الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ رغبة فى الدين ونصرة له ، وتركوا ديارهم وأهليهم وأموالهم .

تبوأوا الدار والإيمان : المراد بالدار : دار الهجرة ، وهى المدينة ، أى : تمكنوا منهما تمكنًا شديدًا ، ولازموهما .

يحبون من هاجر إليهم : فقد آمنوا بالله ورسوله ، وأحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم معهم فى أموالهم ومساكنهم .

ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا : لا يجد الأنصار فى نفوسهم حسدًا ولا غيظًا مما أوتى المهاجرون من الفىء ، وإشراكهم فى أموالهم .

ويؤثرون على أنفسهم : الإيثار : تقديم غيرك على نفسك فى حظ من حظوظ الدنيا ، رغبة فى حظوظ الآخرة .

ولو كان بهم خصاصة : أى : حاجة إلى المال الذى آتوه المهاجرين .

ومن يوق شح نفسه : الشح : البخل مع حرص ، ويوق : يحفظه الله من شح نفسه .

والذين جاءوا من بعدهم : الذين هاجروا بعدما قوى الإسلام ، ويشمل جميع المؤيدين لدعوة الإسلام حتى آخر الزمان .

غلاً : غشًا وبغضًا وحسدًا .

تمهيد :

لم يكن لرسول الله ﷺ رغبة فى اختزان الأموال لنفسه وأسرته وأهله ، ومال الفىء الذى أفاءه الله عليه من بنى النضير وخيبر وفدك وغيرها ، لم يكن يأخذ منه إلا نفقة عياله لسنة ، ثم يرد ما يبقى بعد ذلك على فقراء المهاجرين والأنصار ، ومن لا مال له من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل المنقطعين عن أموالهم وبلادهم وأهليهم ، وقد بينت الآيات الثلاث (٨ - ١٠) ثلاثة أصناف من الذين كان يعطيهم من فيئه ، أو من الخمس الذى كان لله ورسوله من غنائم الحروب .

التفسير :

٨ - لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ .

الصنف الأول : فقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من مكة إلى المدينة ، وتركوا أموالهم بها مؤثرين الهجرة مع رسول الله ﷺ نصرة لدين الله ، وهم صادقو النية فى ذلك .

٩ – وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

والصنف الثانى : أهل المدينة الذين سكنوها ، وبادروا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وأحبوا من هاجر إليهم مع النبى من المهاجرين ، وقاسموهم أموالهم ومساكنهم ، وكانوا لا يجدون فى نفوسهم حسدًا على ما أوتوا من الفىء أو من أموالهم الخاصة ، وكانوا يؤثرون المهاجرين بما فى أيديهم ولو كانوا محتاجين إليه .

١٠ – وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

والصنف الثالث : فقراء المهاجرين إلى المدينة فى أزمنة متلاحقة بعد هجرة النبى ﷺ إليها .

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أولى الناس بأن يرعى النبى مصالحهم ويعطيهم من فيئه الخاص ، ومن الخمس الذى جعله الله لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وعلى هذا التصرف نشأ المجتمع الإسلامى فى المدينة نشأة مثالية ، جعلت كل فرد فيه يبحث عن مصلحة إخوانه فى هذا المجتمع قبل أن يفكر فى مصلحة نفسه ، وفى مصلحة الدين الجديد قبل أن يبحث عن مصالح أهله وعياله ، وبهذه الروح العالية أقدموا على الحروب والفتوح فى خلافة الراشدين ، فدان لهم العالم ، ونشروا رسالة الإسلام ومحاسنه فى دنيا المادة والظلم والغش ، وحرمان الفقراء ، وأثرة الأقوياء ، فطهروا العالم القديم من أبشع جرائمه ، وأنشأوا روحًا من الأخوة الإسلامية بين الأجناس والأقوام الذين كانوا على طول الدهر متعادين متخاصمين ، وبهذا تسنَّى لهم أن يجمعوا تراث العالم القديم من المعرفة ، وعصارة حضاراته المتعاقبة ومزجوا كل ذلك بتراث الإسلام ، فأخرجوا لأنفسهم حضارة جديدة قوامها العلم والدين ، وقد نعم بها العالم عدة قرون ، ولا يزال كثير من أمم الشرق يعيشون فى ضوء هذه الحضارة ، حتى يوم الناس هذا . فأين ذلك كله من حال المجتمع المكى فى بدء عصر الرسالة المحمدية ، وقد وبخهم الله بقوله : كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . (الفجر : ١٧ – ٢٠) .

★ ★ ★

المنافقون واليهود

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن
نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم
مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى
مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

نافقوا : أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم .

الإخوان : الأصدقاء ، واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة .

أشد رهبة : أى : إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم من الله .

لا يفقهون : لا يعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق خشيته .

جميعا : أى : مجتمعين .

محصنة : أى : بالدروب والخنادق وغيرها .

جدر : حيطان ، واحدها جدار .

بأسهم : أى : الخلاف بينهم دائم .

شـــتـــى : متفرقة ، واحدها شتيت .

وبال أمرهم : سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأ وبيل ، أى : وخيم سيئ العاقبة .

تمهيد :

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفًا ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء التى تقدمت - أردفه بذكر ما حصل من مناصحة المنافقين - عبد الله بن أُبى بن سلول ورفقته - لأولئك اليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ، ومحاربتهم رسول الله ﷺ ، بما قصه الله علينا وفصّله أتم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ، وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضًا ويغوونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصًا مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وأبو نعيم ، عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من بنى عوف ، منهم عبد الله بن أُبى بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

التفسير :

١١ - أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ .

أَلَمْ تَرَ . أسلوب يراد به التعجب من حال المتحدث عنه ، وبيان أن أمره غاية فى الغرابة ، وموضع للدهشة والحيرة .

فهؤلاء قوم من منافقى المدينة لهم أقوال تخالف ما يبطنون ، منهم عبد الله بن أُبىّ وشيعته ، رأوا رسول الله ﷺ شرع يحاصر بنى النضير ويقاتلهم ، فأرسلوا إليهم يقولون لهم : إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا ولا نسلمكم لمحمد أبدًا ، فجِدّوا فى قتالهم ، ولا تهنوا فى الدفاع عن دياركم وأموالكم ، حتى إذا اشتد الحصار ، وأوغل المسلمون فى الدخول فى ديارهم ، وتحريق نخيلهم ، وهدم بيوتهم ، رأى بنو النضير أن تلك الوعود كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، وأنهم بين أمرين :

١ - الاستسلام وقبول حكم محمد ﷺ فيهم .

٢ - إفناؤهم وتخريب ديارهم .

وقد أدخل الله الرعب فى قلوبهم ، فاختاروا الدنيّة ، وقبلوا الجلاء عن الديار ، واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لا عهود لهم ولا وعود ، كما هو دأبهم فى كل زمان ومكان .

وبعد أن كذّبهم على سبيل الإجمال كذبهم تفصيلاً ليزيد تعجيب المخاطب من حالهم ، وليبين له مبلغ خبث طويتهم ، وشدة جبنهم وفزعهم من القتال ، وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لاكتها ألسنتهم ، وقلوبهم منها براء ، فقال :

١٢ - لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ .

أى : لئن أُخرج بنو النضير من ديارهم فأُجلوا عنها ؛ لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج من ديارهم ، ولئن قاتلهم محمد ﷺ لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار منهزمين عن محمد وأصحابه ، وهاربين منهم خاذلين لهم ، ثم لا ينصر الله بنى النضير .

وهذا إخبار بالغيب ، ودليل من دلائل النبوة ، ووجه من وجوه الإعجاز ، فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه .

والخلاصة : أن بنى النضير أُخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا فما نصروهم ، ولو كانوا قد نصروهم لتركوا النصرة وانهزموا وتركوا أولئك اليهود فى أيدى الأعداء .

ثم ذكر السبب فى عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين فى قتال ، فقال :

١٣ - لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

أى : إنهم يخافونكم أشد مما يخافون الله ، ومن ثم لم يجرءوا على الدخول معكم فى قتال ، وتركوا اليهود يحكم عليهم الرسول بما يشاء .

ثم ذكر سبب الرهبة لهم من دون الله ، فقال :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

أى : وكانت هذه الرهبة لكم فى صدورهم أشد من رهبتهم لله من أجل أنهم لا يفقهون قدر عظمته تعالى ، فهم لذلك يستخفّون بمعاصيه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم .

ونحو الآية قوله تعالى : إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ... (النساء : ٧٧) .

١٤ - لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ .

أى : إن هؤلاء اليهود والمنافقين قد أُلقى الرعب فى قلوبهم ، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين ، لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ ، بل يقاتلونكم فى قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها ، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصرون .

ثم بيَّن أن من أسباب هذا الجبن والخوف التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب ، فقال :

بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ...

أى : بعضهم عدو لبعض ، فلا يمكن أن يقاتلوا عدوًّا لهم وهم فى تخاذل وانحلال ، ومن ثم استكانوا وذلوا .

وفى هذا عبرة للمسلمين فى كل زمان ومكان ، فإن الدول الإسلامية ما هدّ كيانها ، وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلها أفرادًا وجماعات .

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ...

أى : إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين خِلْتهم متفقين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف لما بينهم من إحن وعداوات ، فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة .

وفى هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وحث للعزائم الصادقة على حربهم ، فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه ازداد نشاطًا ، وازدادت حميته ، وكان ذلك من أسباب نصرته عليه .

ثم بيَّن أسباب التفرق وانحلال الوحدة ، فقال :

ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ .

أى : ذلك التفرق من جراء أن أفئدتهم هواء ، فهم قوم لا يفقهون سر نظم هذه الحياة ، ولا يعلمون أن الوحدة هى سر النجاح ، ومن ثَمَّ تخاذلوا وتفرقت كلمتهم ، واختلف جمعهم ، واستهان بهم عدوهم ، ودارت عليهم الدائرة .

١٥ - كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : مثل بنى النضير مثل اليهود من بنى قينقاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبى ﷺ يوم السبت فى شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة ، وأجلاهم إلى أذرعات بالشام ، وذاقوا سوء عاقبة كفرهم إثر عصيانهم قبل وقعة بنى النضير التى كانت سنة أربع للهجرة .

والخلاصة : إنهم قد كانت لهم أسوة ببنى قينقاع ، فجروحهم لا تزال دامية ، وآثار خذلانهم لا تزال بادية للعيان ، وقد كان من حق ذلك أن يكون عبرة ماثلة لهم ، ولكنهم قوم لا يفقهون ولا يعتبرون بالمثلات التى يرونها رأى العين ، وكانت لهم عبرة فى معركة بدر حيث هزم الكافرون .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه سوى علام الغيوب .

١٦ - كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

أى : مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بنى النضير بالنصرة إن قوتلوا ، أو الخروج معهم إن أُخرجوا . ومثل بنى النضير فى غرورهم بوعودهم وإسلامهم إياهم فى أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم – كمثل الشيطان الذى غرّ إنسانًا ووعده بالنصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه ، فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه ، وقال : إنى أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك ، لئلا يشركنى معك فى العذاب .

والخلاصة :

أن مثل اليهود فى اغترارهم بمن وعدوهم بالنصرة من المنافقين بقولهم لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولما جد الجد واشتد الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة – كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر والعصيان ، فلما دخل فيه تبرأ منه وتنصل ، وقال : إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

ولا تجد مثلاً أشد وقعًا على النفوس ، ولا أنكى جرحًا فى القلوب من هذا المثل ، لمن اعتبر وادّكر ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

١٧ - فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ .

أى : فكان عاقبة الآمر بالكفر والداخل فيه الخلود فى النار أبدا ، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر كيهود بنى النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة .

★ ★ ★

تقوى الله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

ما قدمت : أى شىء قدمت .

غد : هو يوم القيامة ، سُمى بذلك لقربه ، فكل آت قريب ، كما قيل : وإن غدًا لناظره قريب .

نسوا الله : أى : نسوا حقه ، فتركوا أوامره ، ولم ينتهوا عن نواهيه .

فأنساهم أنفسهم : أى : أنساهم حظوظ أنفسهم ، فلم يقدموا لها خيرًا ينفعها .

التفسير :

١٨ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر .

وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ...

أى : ولتنظروا ماذا قدمتم لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم من توقع العذاب حيارى .

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ...

تكرير للتوكيد ، لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التى هى الزاد فى الميعاد .

ثم وعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، فقال :

إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى أنه تعالى عليم بأحوالكم لا يخفى عليه شىء من شئونكم ، فراقبوه فى جليل أعمالكم وحقيرها ، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقير والقطمير ، والقليل والكثير ، ولا يفوته شىء من ذلك .

١٩ - وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ .

أى : ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها على عباده ، فران على قلوبهم وأنساهم العمل الصالح الذى ينجيهم من عقابه ، فضلّوا ضلالاً بعيدًا فجازاهم بما هم له أهل ، وما هم مستحقون ، جزاءً وفاقًا لما دسوا به أنفسهم وأوقعوها فى المعاصى والآثام ، ومن ثم حكم عليهم بالهلاك قائلاً :

أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ .

أى : أولئك هم الذين خرجوا على طاعة الله فاستحقوا عقابه يوم القيامة .

ونحو الآية قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . (المنافقون : ٩) .

خطب أبو بكر فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل ، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم ، فقال : وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ... أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال تعالى : إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ . (الأنبياء : ٩٠) . لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم .

٢٠ - لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

أى : لا يستوى الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود فى النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة .

ونحو الآية قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الجاثية : ٢١) .

وقوله تعالى : أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ . (ص : ٢٨)

ثم بيّن عدم استوائهما ، فقال :

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

أى : أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباعهم للشهوات الفانية ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابهما ، وأن الفوز لأصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نُبهوا له ، كما تقول لمن عق أباه : هو أبوك ، تجعله كأنه لا يعرف ذلك فتنبهه إلى حق الأبوة الذى يقتضى البر والعطف .

★ ★ ★

لله الأسماء الحسنى

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ
ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

المفردات :

خاشعا : منقادًا متذللاً .

متصدعا : متشققا .

خشية الله : خوفه وشديد عقابه .

الغيب : ما غاب عن الحس من العوالم التى لا نراها .

والشهادة : ما حضر من الأجرام المادية التى نشاهدها .

القدوس : المنزه عن النقص .

الســــــلام : الذى سلم الخلق من ظلمه إذ جعلهم على نظم كفيلة برقيهم .

المـــؤمـــن : أي : واهب الأمن ، فكل مخلوق يعيش فى أمن ، فالطائر فى جوه ، والحية فى وكرها ، والسمك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا .

العـــزيـــز : الغالب على أمره .

الجـــبـــار : الذى جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه .

المـــتـــكـــبـــر : البليغ الكبرياء والعظمة .

سبحان الله عما يشركون : أي : تنزه ربنا عما يصفه به المشركون .

الخـــالـــق : المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة .

البـــارئ : أي : المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التى وضعها ، والغرض الذى خلقت له .

المـــصـــور : أي : الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد .

الأســـمـــاء الحسنى : أي : الأسماء الدالة على محاسن المعانى التى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته ، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف .

تمهيد :

بعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين ، والضالين من اليهود وغيرهم ، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى استعدادًا ليوم القيامة – ذكر هنا أن لهم مرشدًا عظيمًا ، وإمامًا هاديًا هو القرآن ، الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب ، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة ، لما فيه من وعد ووعيد ، وبشارة وإنذار ، وحكم وأحكام ؛ فلو أنا ألهمنا الجبل عقلاً ، وفهمه وتدبَّر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم ولا تخشع ، ولاتتصدع من خشيته ، وقد فهمتم من الله أمره ، وتدبرتم كتابه ؟

وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المُنزل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السماوات والأرض ، وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

التفسير :

٢١ – لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : لو جُعل فى الجبل عقل كما جُعل فيكم أيها البشر ، ثم أُنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله .

وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، وفيه توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن ، وتدبر ما فيه من القوارع التى تذل لها الجبال الراسيات .

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : وهذه الأمثال التى أودعناها القرآن وذكرناها فى مواضعها التى ضربت لأجلها ، واقتضاها الحال من نحو قوله تعالى : وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ... (البقرة : ٧٤) . وقوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ... (البقرة : ٧٤) . وقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ... (الرعد : ٣١) . هذه الأمثال جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فمن الناس من وفقه الله واهتدى بها إلى سواء السبيل ، وفاز بما يرضى ربه عنه ، ومنهم من أعرض عنها ونأى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وأدخله فى سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تُبقى ولا تذر .

٢٢ – هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ .

فى هذه الآيات إلى آخر السورة ذكر القرآن طائفة من أسماء الله الحسنى تتضمن صفاته العلى ، التى جلّت أن يشاركه فيها المخلوقون .

منها : ٱللَّهُ . وهو عَلَم على رب الأرباب ، المتفرد باستحقاق العبادة دون غيره من كل من سُمى إلهًا أو ربًا ، وعُبد من غير أن يكون مستحقًا لأن يعبد .

وقد أحاط علم الله بجميع الأشياء ، فهو يعلم ما غاب عنا ، وما حضر وشوهد وتحققت معرفته .

هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ . المبالغ فى رحمة عباده ، و ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ . صفتا مبالغة من الرحمة ، وهى الإنعام والتفضل على المحتاج .

٢٣ - هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وكرر قوله : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ . تثبيتًا لمعنى الجملة ، وتقريرًا له فى النفوس .

هو ٱلْمَلِكُ : الحاكم بأمره فى الدنيا والآخرة ، لا يشاركه فى ملكه شىء .

وهو ٱلْقُدُّوسُ : أى الطاهر ، أو المنزه عن كل نقص .

وهو ٱلسَّلَـٰمُ : الذى يمنح عباده الأمن من عذابه .

ٱلْمُهَيْمِنُ : الشهيد على عباده ، يرقب أعمالهم ، ويجازيهم عليها .

ٱلْعَزِيزُ : القوى الغالب ، الذى لا يغلبه ولا يقهره شىء .

ٱلْجَبَّارُ : صاحب الجبروت والقدرة العالية .

ٱلْمُتَكَبِّرُ : الذى تَرَفَّع عن كل نقص ، وتعظم عما لا يليق به .

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ : أسبح الله وأنزهه عما يشركون معه من الأوثان .

٢٤ - هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

هو المعبود الخالق ، المبدع للأشياء على غير مثال سابق ، والذى يصور المخلوقات فى أحسن الصور . وهذه بعض أسمائه الحسنى التى سمى بها نفسه ، وكل شىء فى السماوات والأرض يسبح له وينزهه ، مفصحًا بلسان مقاله أو مشيرًا بلسان حاله : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

★ ★ ★

أهم ما ترشد إليه سورة الحشر

١ - إن تجربة إجلاء النبى ﷺ يهود بنى النضير عن المدينة إلى خيبر ، ثم إلى الشام ، فى السنة الرابعة من الهجرة ، كانت تجربة ضرورية ، إبعادًا للدسائس والمكايد والفتن عن معقل الإسلام الحديث ، وقد كان بنو النضير بعد غزوة بدر قد عاهدوا النبى ﷺ أن يلزموا الحياد بينه وبين قريش ، ثم نقضوا ذلك العهد ، وخالفوا ما عاهدوا عليه فى غزوة أحد ، ثم حاولوا قتل النبى بإلقاء رحى عليه من سطح منزل لهم ، حين ذهب إليهم يفاوضهم فى تحمل بعض ديات القتلى من بنى عامر ، فأطلعه الله على سوء نيتهم ، وعاد إلى المدينة ، فأذن الله له فى إجلائهم عن ديارهم ، فأمرهم بالجلاء ، وهو الحشر الأول ، فتمنعوا منه فى حصن البويرة ، فحاصرهم فيه ست ليال ، ثم صالحوه على الجلاء ، على أن له أموالهم وبيوتهم ، ولهم ما تحمل الإبل فكانوا يخربون البيوت قبل أن يخرجوا منها ، ويأخذون معهم ما تستطيع الإبل حمله .

وقد كانت محالفة بنى النضير قريشاً ونصرتهم على النبى فى غزوة أحد ، عملاً سياسيًا يدل على قصر نظر اليهود وغباوتهم ، فقد حسبوا أن فى ذلك قضاء على الإسلام وهو لا يزال فى مهده ، ولم يحسبوا أن المدينة كانت مركز القوة الإسلامية المتحمسة ، وفيها الرسول وكبار أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وهى أقرب إلى قرى اليهود من مكة ، التى فيها كفار قريش حلفاء اليهود ، فهم إذن لا يأمنون صولة أهل المدينة بهم إذا هم أحدثوا حدثًا يؤذى جماعة المسلمين . أما ما كان بينهم وبين منافقى أهل المدينة من حلف ومودة ، فقد تبين لهم بعد الجلاء أنه لم يكن إلا أحاديث سمر ، لا معول عليها إذا جد الجد ، ودنا منهم الخطر ، أو كأنه كما قال تعالى : كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . (النور : ٣٩) .

والعبرة المستفادة من قصة جلاء بنى النضير عن ديارهم إلي خيبر ثم إجلائهم جميعًا إلى أرض المحشر بالشام ، أن هذا الجلاء قد تم على حين غفلة ، وبسرعة لم يكن المسلمون ولا اليهود يحسبون أنه يتم بمثلها ، لأن اليهود كانوا أهل حلقة (سلاح) وأهل حصون يتمنعون فيها عند الخطر ، أشهرها : البويرة والوطيح والسلالم ونطاة والكتيبة . فلذلك يقول الله تعالى : مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ . (الحشر : ٢) .

ولكن عناية الله بأمر دينه وكتابه ورسوله ﷺ وصحابته الصادقى الإسلام ، ملأت قلوب اليهود رعبًا وفزعًا ، فأذعنوا للجلاء ، ورضوا بالخروج ، وفى ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر .

أما الحشر الثاني فهو ما كان في خلافة عمر بن الخطاب الذي أجلى جميع اليهود والنصارى عن جزيرة العرب ، وقال في ذلك كلمته الحكيمة الرائعة : (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان) .

٢ – في صدر الإسلام ، وفي دولة الراشدين ، والدولتين الأموية والعباسية ، صورة رائعة من رعاية الطبقات الفقيرة من المهاجرين والأنصار ، وذوي قربى النبي ﷺ ، واليتامى الذين لا مال ولا عائل لهم ، والمساكين وابن السبيل .

فقد جعل الإسلام لهذه الأصناف من الضعفاء حقوقًا ثابتة في الفيء ، وفي غنائم الفتح والانتصار على الأعداء .

فأما الفيء فهو ما عاد إلى المسلمين من الأموال والخيل والسلاح والرقيق ، بدون أن يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، كأموال بني النضير ، وحكمه أن يئول كله إلى الرسول ﷺ يعطى منه من يشاء ، ويحفظ منه القليل لنفقة أهله وعياله مدة عام . وقد ردّ النبي ﷺ أكثر أموال بني النضير على فقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من مكة دارهم ، ونُهبت أموالهم وثرواتهم بأيدي أعداء الإسلام فكانوا يأكلون مال من ليس له بمكة أسرة قوية تدافع عن أهله ، وتحافظ على ماله . وإلى ما فعل النبي ﷺ من الاستيلاء على فيء بني النضير ، وتصرفه فيه على ما يراه من مصلحة المسلمين ، تشير الآية الكريمة من هذه السورة : وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الحشر : ٦) . ومثل ذلك كل فيء أفاءه الله على رسوله كأموال خيبر وفدك من قرى اليهود .

أما الغنائم التي يغنمها المسلمون من أعدائهم بإيجاف الخيل والركاب ، وبالقتل والقتال ، فإنها كانت تُخمس خمسة أخماس :

خمس منها : لله والرسول وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس الباقية تُقسم على المقاتلين .

والذي يُقسم بينهم هو كلّ شيء يمكن نقله من مكان إلى مكان مثل : الدراهم والدنانير ، والخيل والإبل ، والسلاح ، دون الرقيق والأرض ، فإن لهما حكمًا خاصًا .

والخمس الذي جُعل لله ورسوله ومن سماهم الله في قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... (الأنفال : ٤١) .

فالذي لله يُنفق على إنشاء أو إصلاح المرافق العامة كالمساجد .

والذى للرسول يُجعل فى نفقته ونفقة عياله وأزواجه ، وما يطرأ عليه من ضيف أو غرم فى دية أو نحو ذلك .

وأما سهم ذوى القربى ، فيُصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، لأنهم منعوا أن يأكلوا من مال الصدقات (الزكاة) .

وأما سهم اليتامى فيصرف لمن لا مال له منهم ، أو لمن له مال ولا يمكنه الوصى منه .

وأما سهم المساكين فيُصرف للفقير الذى ليس عنده قوت يومه ، وللعاجز الذى أقعدته الزمانة والسن عن مزاولة العمل لكسب قوته .

وأما سهم ابن السبيل ، فيُعان منه المسافر الغريب الذى نفد ماله وزاده ، وهو لا يجد مالاً يستطيع به العودة إلى بلاده وأهله الذين انقطع عنهم .

هذه صورة من أعمال البر التى كفلها الإسلام للفقراء فى غنائم الحروب ، لتحقيق العدل الاجتماعى الذى عبَّر عنه القرآن بقوله : كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ... (الحشر:٧) . أى : حتى لا يكون المال متداولاً بين أغنيائكم وذوى القدرة على شهود المعارك والحروب ، على حين يحرم منه الضعفاء والعجزة الذين لا يستطيعون إلى شهود الحروب والمعارك سبيلاً .

فأين هذه الصورة المشرقة من رعاية حقوق الفقراء فى الدولة الإسلامية الناشئة ، من تلك الصورة القاتمة التى كانت للفقراء فى المجتمع المكى القديم البالى ، الذى أنكر المتكبرون فيه حقوق الضعفاء والفقراء والعجزة واليتامى والمساكين ، فوبخهم الله على ذلك وذمهم بقوله تعالى : كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . (الفجر: ١٧ – ٢٠) .

وبقوله تعالى : فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ . (البلد: ١١ – ١٨) .

ومن الأموال العامة التى تقسم بين الناس أموال الخراج والصدقات ، وهى الزكاة ، فإن إمام المسلمين يتولى جمعها وتقسيمها على أصناف مخصوصين بينتهم الآية الكريمة فى سورة التوبة : إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (التوبة : ٦٠) .

ولن تبرأ علل المجتمعات أو تتحسن صورتها ، إلا إذا اشتدت الرعاية بشئون الفقراء ، واهتم الأغنياء بصرف حقوق الفقراء فى الزكاة والصدقات ، ومضاعفة ضروب البرّ والتبرعات ، حتى نمسح آثار الفقر والمسكنة ، ونُقوِّى أواصر الترابط والتعاون بين طبقات الأمة ، لتصبح يدًا واحدة ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا .

قال تعالى : وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقال سبحانه وتعالى : وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . (الذاريات : ١٩) .

★ ★ ★

فى أعقاب سورة الحشر

أسماء الله الحسنى

أورد الإمام ابن كثير أسماء الله الحسنى في تفسيره ، وكذلك أ.د محمد سيد طنطاوى نقلا عنه، وكذلك أ.د وهبة الزحيلى فى التفسير المنير فقال ما يأتى :

ويحسن ذكر الحديث المروى فى الصحيحين، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال : «إن للَّه تعالى تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر» .

ورواه أيضاً الترمذى وابن ماجة بالزيادة التالية ، وأذكر هنا لفظ الترمذى :

«هو اللَّه الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملِك ، القُدُّوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبَّار ، المتكبِّر ، الخالق ، البارئ ، المصوِّر ، الغفَّار ، القهَّار ، الوهَّاب ، الرزَّاق ، الفتَّاح ، العليم ، القابض، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعزُّ ، المذِلُّ ، السميع ، البصير ، الحكَم ، العَدْل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفورُ ، الشكورُ ، العلىُّ ، الكبير ، الحفيظ ، المُغيث ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحقُّ ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيُّوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصَّمَد ، القادر ، المقتدر ، المقدِّم ، المؤخِّر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البرُّ ، التوَّاب ، المنتقم ، العفوُّ ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المُقْسِطُ ، الجامع ، الغنىُّ ، المغنى ، المعطى ، المانع ، الضارّ ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور» . [٤١]

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (الحشر) سنة ١٩٨٥م ، وأضيفت إلى التفسير سنة ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠١م .

★ ★ ★


تفسير سورة الممتحنة

أهـــداف ســـورة الممتحـــنة

(سورة الممتحنة مدنية ، وآياتها ١٣ آية ، نزلت بعد سورة الأحزاب)

ولها ثلاثة أسماء : سورة الممتحنة ، وسورة الامتحان ، كلاهما لقوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ... (الممتحنة : ١٠) .

والاسم الثالث : ســورة المــودة ، لقــوله تعــالى : تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ... (الممتحنة : ١) .

وقوله : تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ... (الممتحنة : ١) .

وقــوله : عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ... (الممتحنة : ٧) .

قصة نزول السورة

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، واستطاع أن يؤلّف بين المهاجرين والأنصار ، وأن يضع أسس الدعوة الإسلامية ، وأن يصنع أمة تميزت بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة ، وقد وقف كفار مكة فى وجه الدعوة الإسلامية ، وتمت عدة معارك بين المسلمين والمشركين منها غزوات بدر وأُحد والخندق والأحزاب والحديبية ، ثم توقفت هذه المعارك بعد صلح الحديبية ، وكان أهم نصوص الصلح : وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين ، وأن من أراد أن يدخل فى حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل فيه .

وعلى إثر ذلك دخلت قبيلة خزاعة فى حلف رسول الله ﷺ ، ودخلت قبيلة بكر فى حلف قريش .

ثم إن قريشا نقضت العهد بمساعدتها قبيلة بكر حليفتها على قتال خزاعةَ حليفة النبى ﷺ حتى قتلوا منهم عشرين رجلا ، وقد لجأت خزاعةُ إلى الحرم لتحتمى به ، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها، فاستنصرت خزاعة برسول الله ﷺ ، وذهب رجال منهم إلى المدينة فأخبروا رسول الله بما كان من غدر بكر بهم ومعاونة قريش عليهم ، وأنشد عمرو بن سالم بين يديه :

يارب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا [٤٢]
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير [٤٣] هجدا وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرا أيدا [٤٤] وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال له رسول الله ﷺ : «نُصرت يا عمرو بن سالم» .

وأخذ رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، وطوى الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول الأمين لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بهم ، فدعا الله قائلا : «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها» .

حاطب يُفشى السر

كان حاطب بن أبى بلتعة من كبار المسلمين ، وقد شهد مع النبى ﷺ غزوة بدر مخلصا فى جهادها ، ولكن فى النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى فى بعض الأحيان عليها ، وتهوى بها من المنازل العالية إلى الحضيض . لقد كتب حاطب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بعزم المسلمين على فتح مكة ، واستأجر امرأة من مزينة تسمى سارة ، وجعل لها عشرة دنانير مكافأة ، وأمرها أن تتلطف وتحتال حتى توصل كتابه إلى قريش ، فأخذت المرأة الكتاب فأخفته ، وسلكت طريقها إلى مكة ، ثم أخبر الله رسوله بما صنع حاطب ، فأرسل النبى ﷺ على بن أبى طالب والزبيرَ بن العوام فى إثر المرأة ، فأدركاها فى الطريق، واستخرجا منها الكتاب فأحضراه إلى رسول الله ﷺ ، فدعا رسولُ الله ﷺ حاطبا فأطلعه على الكتاب ، ثم قال له : «ما حملك على هذا» ؟ . فقال حاطب : يا رسول الله ، لا تعجل علىّ ، فوالله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم [٤٥] عليهم ، ولم أفعل ذلك ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإيمان .

ورأى النبى صدق لهجة حاطب وحسن نيته فيما أقدم عليه من ذلك الذنب ، فقال لمن حوله : «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به» . ونظر النبى إلى ماضى الرجل فى الجهاد ، وحسن بلائه فى الذود عن حرمات الإسلام فرغب فى العفو عنه .

أما عمر بن الخطاب فقد كبر عليه أمرُ هذه الخيانة ، فنظر إلى حاطب وقال له : قاتلك الله ، ترى رسولَ الله يُخفى الأمر وتكتب أنت إلى قريش ؟ يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فتبسم رسول الله من حماسة عمر وقال : «وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» . فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم . [٤٦]

وفى هذه الحادثة أنزل الله صدر سورة الممتحنة يحذر المؤمنين من أن يوالوا عدوهم ، أو يطلعوه على بعض أسرارهم مهما كان السبب الذى يدفع إلى ذلك ، فإن العدو عدو حيثما كان ، وموادة العدو خيانة ليس بعدها خيانة .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ... (الممتحنة : ١) .

فكرة السورة

تسير السورة مع النفس الإنسانية تحاول جاهدة أن تربى المسلمين تربية خاصة ، عمادها الولاء للدعوة وحدها ، والمودة لله، والمحبة والتجمع على دعوة الله .

على هذا المعنى قامت الدعوة الإسلامية ، وظهر الإيثار والأخوة بين المهاجرين والأنصار .

ومن شعائر هذا الدين بغض الفاسقين والملحدين فى دين الله ، وقد انتهزت السورة فرصة ضعف حاطب، فجعلت ذلك وسيلة عملية لتهذيب النفوس ، ورسم المثل الأعلى للمسلم .

وقد عالجت السورة مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ، ليخرج المسلم من الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى.

«لقد كان القرآن بهذا الأسلوب فى التربية ينشئ فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيما جديدة، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان، ووظيفة المؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى .

وكان كأنما يجمع هذه النباتات الصغيرة الجديدة فى كنف الله ، ليعلمهم الله ، ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد ، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ، وأنه يريد بهم أمرا ويحقق بهم قدرا ، ومن ثم فهم يوسمون بسمته ، ويحملون شارته ، ويُعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعا فى الدنيا والآخرة ، وإذن فليكونوا خالصين له، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته فى عالم الشعور وعالم السلوك» .[٤٧]

تسلسل أفكار السورة

سورة الممتحنة من أولها إلى آخرها تنظم علاقة المسلمين بالمشركين ، وتدعو إلى تقوية أواصر المودة بين المسلمين ، وحفظ هذه الوشائج قوية متينة بين المؤمنين ، وتبين أن عداوة الكافرين للمسلمين أصيلة قديمة ، فقد أخرجهم كفار مكة من ديارهم وأهلهم وأموالهم . (الآية :١) ، وإذا انتصر المشركون عليهم عاملوهم معاملة الأعداء ، رجاء أن يعودوا بهم من الإيمان إلى الكفر ، وحينئذ لا تنفعكم ، أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ... (الممتحنة :٣) . ولا تنجيكم من عقاب الله . (الآيتان : ١ ، ٢) .

ثم ترسم السورة مثلا أعلى وقدوة حسنة بإبراهيم الخليل ومن معه من المؤمنين ، حين آمنوا بالله وأخلصوا له النية ، وتجردوا من كل عاطفة نحو قومهم المشركين ، وأعلنوا براءتهم من الشرك وأهله ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، فلما تأكد لإبراهيم إصرار أبيه على الشرك تبرأ منه .

ذلك ركب الإيمان ، وطريق المؤمنين فى تاريخ البشرية يتسم بالتضحية والفداء ، والاستعلاء على رغبات النفس فى صلة الأقارب من المشركين ، فالمودة لله وللمؤمنين . (الآيات : ٤ –٦) .

ولعل الله أن يهدى هؤلاء المشركين فيدخلوا فى دين الله ، وبذلك تتحول العداوة إلى مودة ، وقد فتحت مكة بعد ذلك وعاد الجميع إخوة متحابين . (الآية : ٧) .

وقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فهو نبى الهدى والسلام ، والإسلام فى طبيعته دين سلام ، فاسمه مشتق من السلام ، والله اسمه السلام ، والإسلام لا يمنع من موالاة الكفار والبر بهم وتحرى العدل فى معاملتهم ، ما داموا لم يقاتلونا فى الدين .

ولكن الإسلام ينهى أشد النهى عن موالاة الكفار المقاتلين أو الذين يستعدون لقتال المسلمين ، ويرى كشف خطط المسلمين لهم خيانة للعقيدة وللأمة الإسلامية .

«وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة ، وجعلها هى الراية الوحيدة التى يقف تحتها المسلمون ، فمن وقف معهم تحتها فهو منهم ، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم ، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ، ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها ، ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه ».[٤٨] . (الآيتان : ٨ ، ٩) .

وكان صلح الحديبية ينص على أن من جاء مسلما بدون إذن وَليِّه يرده المسلمون إلى أهل مكة ، ومن جاء إلى مكة مشركا لا يردونه .

ثم أسلمت نساء من أهل مكة جاء أزواجهن يطلبونهن ، فنزلت هذه الآيات تؤيد أن المرأة لا يصح أن ترد إلى زوجها الكافر ؛ لأنها لا تحل له بعد أن آمنت بالله وبقى الزوج على الشرك ، وكانت المرأة تُمتحن ، أى : تحلف بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله ، فإذا حلفت كان لنا الظاهر والله أعلم بالسرائر ، عندئذ تعيش فى المجتمع المسلم ، فإن تزوجت أعاد زوجها المسلم إلى الزوج المشرك ما أنفقه عليها ، وكذلك إذا ذهبت زوجة مسلمة إلى المشركين مرتدة ، فإذا تزوجت يرد المشركون للمسلم المهر الذى دفعه لها . (الآيتان : ١٠ ، ١١) .

ثم بيّن الله لرسوله ﷺ كيف يبايع النساء على الإيمان وقواعده الأساسية ، وهى التوحيد ، وعدم الشرك بالله إطلاقًا ، وعدم اقتراف المحرمات وهى السرقة والزنا .. ثم طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به ، أى امتثال المأمورات واجتناب المحرمات . (الآية :١٢) .

وفى ختام السورة نجد آية تجمع الهدف الكبير ، فتنهى عن موالاة من غضب الله عليهم من اليهود والمشركين . (الآية : ١٣) .

مقصود السورة إجمالا

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود السورة هو : النهى عن موالاة الخارجين عن ملة الإسلام ، والاقتداء بالسلف الصالح فى طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدّعين بمطالبة الحقيقة ، وأمر الرسول ﷺ بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفة ، والتجنب من أهل الزيغ والضلالة ، فى قوله تعالى :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ . (الممتحنة : ١٣) .

★ ★ ★

النهى عن موالاة الكفار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا
جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي
سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ
بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

المفردات :

عدو الله : من كفر به أو أشرك به ، ولم يؤمن بما أنزل فى كتبه .

عدو المؤمنين : من خانهم ، أو أضرّ بمصالحهم ، أو قاتلهم ، أو أعان على قتالهم .

أولياء : جمع ولىّ ، أى : صديق توليه بالسرّ .

المودّة : المحبة والإخلاص ، والمراد هنا : النصيحة وإرسال أخبار الرسول ﷺ .

الحق : دين الإسلام ، والقرآن .

بما أخفيتم : بالذى أخفيتموه ، أنا أعلم به منكم .

ضلّ : أخطأ طريق الهدى .

سواء السبيل : السواء فى الأصل : الوسط ، والمراد هنا : الطريق المستوى ، وهو طريق الحق .

إن يثقفوكم : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم .

يبسطوا إليكم أيديهم : بالقتل والضرب والمساءة .

بـالسـوء : بما يسوءكم بالسبّ والشتم .

وودّوا لـو تـكـفـرون : تمنوا كفركم .

لن تنفعكم أرحامكم : لن تفيدكم قراباتكم .

ولا أولادكـم : الذين توالون المشركين لأجلهم .

يـفـصـل : يقضى ويحكم ، وقرئ (يُفَصِّل) بالبناء للمجهول مع التشديد أو التخفيف .

تمهيد :

هذه السورة تتلاقى مع ما سبقها من سور على تربية المسلمين ، وتأكيد وحدتهم ، وبعث عوامل القوّة والصمود فى نفوسهم ، ومقاومة لحظات الضعف فى نفوسهم .

والسورة علاج للجماعة كلها وإن نزلت بسبب ضعف شخْصٍ منها ، ففى رواية الشيخين البخارى ومسلم وغيرهما ، ما يفيد أن النبى ﷺ كان يتجهز لفتح مكة سرًا ، وقال : «اللهم خذ العيون والأبصار عن قريش حتى نَبْغتها فى بلادها» ، ثم أرسل حاطبُ بن أبى بلتعة رسالة سرية مع امرأة من مزينة ، وفيها : (اعلموا أن محمداً رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم) .

وأعلَم الله رسوله بخبر هذا الخطاب ، فأرسل النبى ﷺ جماعة من أصحابه ، فأحضروا الخطاب من المرأة ، واستقدم النبى ﷺ حاطبا واستمع إليه وإلى اعتذاره وعفا عنه ، فنزلت سورة الممتحنة تحث المسلمين على عدم موالاة الأعداء الذين كفروا بالإسلام ، وأخرجوا المسلمين والرسول الكريم من ديارهم ، فلا يليق بمن خرج مهاجراً ومجاهداً أن يوالى أعداء الله ، والله مطلع على الخفايا والنوايا ، ومن يُفْشِ سرّ رسول الله ، أو يفعل ما يؤذى المسلمين ، فقد انحرف عن الجادة وترك الطريق المستقيم .

ثم أخذ القرآن يحرّض المؤمنين على التماسك ، فيبين أن هؤلاء الأعداء إذا انتصروا عليكم سلّطوا عليكم الأذى باليد واللسان ، وتمنوا أن تكفروا كما كفروا ، وإذا اتبعتموهم أضلوكم ، وفى يوم القيامة لن تنفعكم أولادكم ولا أقاربكم ، والله هو الذى يحكم بينكم بنفسه ، وهو عليم وخبير بأعمالكم .

التفسير :

١ – ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

نداء علوى إلهى لجماعة المؤمنين ، بألا يتخذوا أعداء ربِّهم ودينهم ، وهم أعداء لهم فى نفس الوقت ، ألا يتخذوهم أولياء وأحبابا ، يلقون إليهم بالمحبة والمودة ، وأسرار النبى ﷺ والمؤمنين .

والحال أن هؤلاء الكفار قد كفروا بالإسلام والقرآن ورسالة محمد ﷺ ، وحاولوا قتل الرسول ﷺ ، أو حبسه أو نفيه ، فأذن الله له بالهجرة .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

كما أحكموا الحصار على المسلمين حتى هاجروا فراراً بدينهم من مكة إلى المدينة ، وكلُّ جريمة النبيّ ﷺ والمهاجرين أنهم آمنوا بالله تعالى ربًّا واحداً صمداً .

كما قال سبحانه وتعالى : وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ . (البروج : ٨) .

إن كان خروجكم من مكة جهاداً فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، فلا تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء ، تفضون إليهم بالمحبة ، وتهمسون لهم بأسراركم ، وخطط النبى ﷺ ، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ، والأعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ، ومن يوال الأعداء ويلق إليهم الأسرار ، فقد حاد عن طريق الحق والصواب ، وحاد عن قصد السبيل التى توصّل إلى الجنة والرضوان الإلهى .

٢ – إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ .

إن يظهروا عليكم، أو ينتصروا عليكم ، أو يلقوكم قادرين عليكم ، متمكنين من أذاكم ، تظهر لكم عداوتهم ، ويحاولوا النيل منكم والاعتداء عليكم بأيديهم مقاتلين لكم ، وبألسنتهم بالسبّ والشتم ، والسوء والأذى ، ويتمنوا أن تعودوا كفاراً مثلهم .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً .. (النساء : ٨٩) .

٣ – لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

لن تنفعكم قرابتكم ولا أولادكم يوم القيامة ، إذا خنتم المسلمين وأفشيتم أسرارهم من أجل أقربائكم وأولادكم ، فمن وجد الله وجد كلّ شيء ، ومن فقد الله فقد كل شى ، وكان حاطب بن أبى بلتعة قد أفشى سرّ رسول الله ﷺ من أجل أسرته وأهله وولده ، فقال الله له : إذا أغضبت ربك ونبيّك ، وضعفت من أجل أولادك ، فإن هؤلاء لن ينفعوك يوم القيامة ، بل الذى ينفعكم هو ما آمركم به ، فاستقيموا على هدايتى وتوجيهى ، فإنى بصير بأعمالكم ، خبير بأسراركم ، وسأجازيكم على أعمالكم ، بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

وقريب من معنى الآية قوله تعالى : يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . (عبس :٣٤- ٣٧) .

★ ★ ★

التأسى بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ
وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ
أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن
يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

أسوة : الأُسوة (بضم الهمزة وكسرها وبهما قُرئ) من يؤتسى به ، كالقدوة لمن يقتدى به ، والجمع : أُسَى .

برآء : واحدهم بريء ، كظُرفاء وظريف ، والمراد : متبرئون ومنكرون لما تعملون .

ومما تعبدون : أى : الأصنام والكواكب وغيرها .

البغضاء : البغض والكراهية .

لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : لا تسلطهم علينا ، فيفتنونا بعذاب لا نحتمله ، من قولهم : فتن الفضة ، أى : أذابها.

يرجو الله : يؤمل ثوابه .

واليوم الآخر : مجيئه، والجزاء فيه .

ومن يتول : يعرض عن النصيحة .

تمهيد :

فى صدر السورة نهاهم القرآن عن موالاة الكافرين ، وعن كشف أسرار المسلمين ، وهنا يقول لهم : هلاّ اقتديتم بإبراهيم والذين معه ، إذ تبرأوا من قومهم وعادوهم ، وقالوا لهم : إنا برآء منكم .

قال الفراء :

يقول : أفلا تأسيت يا حاطب ، بإبراهيم حين تبرأ من أهله ، لتعلم أن الحب فى الله ، والبغض فى الله ، من أوثق عرى الإيمان .

التفسير :

٤ - قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ .

حثّ الله المؤمنين فى صدر السورة على عدم موالاة الأعداء الذين أخرجوهم من ديارهم ، وحذرهم من تمرير الأخبار السرية إليهم ، فالله مطلع على السرّ والعلن .

وهنا يضرب مثلا عمليا ، وقدوة فعلية تمت على يد إبراهيم خليل الله والذين معه من المؤمنين ، مثل سارة زوجته ، ولوط ابن أخيه ، فإنهم اعتصموا بإيمانهم ، وأعلنوا براءتهم وبغضهم ونفورهم من الكفار ، ومما يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان .

وكانوا واضحين تماما ، فلم يكتفوا باعتقاد الإيمان بالله تعالى ، بل أعلنوا للمشركين أنّ الحق والباطل لا يجتمعان ، لذلك قال المؤمنون أتباع الخليل إبراهيم لأعدائهم الكافرين :

كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ...

نحن على إيماننا بالله ، كَفَرْنَا بكم ، وجَحَدْنا معبوداتكم ، فلا نؤمن بالأصنام والأوثان ، بل نؤمن بالله وحده ، ونظهر العداوة والبغضاء للكافرين والمشركين ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، فإذا فعلوا ذلك صاروا إخواننا فى الدِّين، فالحب لكم كل الحبّ عند إيمانكم بالله ، والبغض لكم كل البغض عند كفركم وعبادتكم للأصنام والأوثان .

إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ...

عليكم بالاقتداء بإبراهيم والذين معه ، فى إعلان البراءة والعداوة للمشركين وللأصنام التى يعبدونها، لكن لا تقتدوا بإبراهيم فى استغفاره لأبيه ، فإنّه إنما استغفر له بسبب موعدة وعدها إياه ، حين قال له: سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا . (مريم : ٤٧) .

فلمّا تبين لإبراهيم أن والده آزر مصمم على الشرك تبرَّأ منه ، كما قال سبحانه وتعالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ . (التوبة : ١١٤) .

ونجد إبراهيم الخليل هنا يصرّح صادقا بأن أمر الهدى والتوفيق والقبول والإيمان بيد الله تعالى ، فهو يعدُ أباه بالاستغفار ، ويخبره فى نفس الوقت أنه لا يملك له من أمر الله شيئا ، فهو سبحانه وحده المعين على الهدى ، والموفق له ، وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... (الإنسان : ٣٠) .

وذلك فى معنى قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... (القصص : ٥٦) .

ثم اتجه إبراهيم والذين معه بالدعاء إلى الله قائلين :

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ .

إن اعتمادنا وثقتنا ورجاءنا على الله وحده ، وبالله وحده ، إليه أنبنا ورجعنا ، وإليه وحده المصير والمرجع يوم القيامة .

لقد كان إبراهيم والذين آمنوا معه قلةً معدودة ، لكن إيمانهم بالله وتوكُّلهم عليه جعلهم مضرب الأمثال فى التجرُّد والإيمان ، وإظهار البراءة من أعداء الله .

وقال بعض المفسرين :

إن هذا الدعاء يحتمل أن يكون توجيها وتعليما من الله لعباده المؤمنين ، فمن وجد الله وجد كل شىء ومن فقد الله فقد كل شىء ، وكأنّ القرآن هنا يوجّه المؤمنين إلى الاعتماد على الله والإنابة إليه ، مهما كانوا قلة ، فإن الله يجبر ضعفهم ، ويلبّى دعاءهم ، وعليهم أن يقولوا :

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ .

٥ – رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

أى : لا تظهرهم علينا بالغلبة والتفوّق ، فيغريهم ذلك بفتنتنا وإيذائنا .

قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا .

وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا بذلك .

وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هم عليه . واختاره ابن جرير (٤٩) .

ولبعض العلماء رأى آخر فى فهم الآية ، وهو أن المراد بالفتنة هنا : اضطراب حال المسلمين وفساده ، وكونهم لا يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم فى وجوه الخير ، فيكون المعنى : يا ربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة، فيترتب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا بحجة أنه لو كان ديننا سليماً لظهر أثره على أتباعه ، ولكانوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخّر (٥٠) .

ويجوز أن يكون المعنى :

لا تجعلنا مفتونين بسبب محبة الذين كفروا والتقرُّب إليهم ، ومتابعتهم فى سلوكهم ، وتقليدهم فى ملابسهم وأفعالهم .

أى : لا تجعلنا مفتونين بهم ، مسخَّرين لهم (٥١) .

وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

اغفر لنا ما فرط منا من الذنوب ، واجعلنا واثقين بفضلك ، إنك أنت ، ٱلْعَزِيزُ. الغالب الذى لا يذلّ من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء من توكل عليه ، ٱلْحَكِيمُ . الذى لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة .

وتكرار النداء للمبالغة فى التضرع والجؤار.

٦ – لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

أقسم لقد كان لكم – أيها المؤمنون – فى إبراهيم ومن معه أسوة وقدوة حسنة ، ونموذج يُتَّبع ، لمن كان يرجو فضل الله وثوابه ، ويخاف عقابه فى اليوم الآخر .

ومن يُعرض عن الإيمان بالله واتّباع أمره ، فإن الله غنى عنه وعن أمثاله ، وعن الخلق أجمعين ، وهو المحمود فى ذاته وصفاته .

قال تعالى : إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ . (إبراهيم : ٨) .

★ ★ ★

سماحة الإسلام

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾
لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ
إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

عسى : كلمة تفيد رجاء ما بعدها ، فإذا صدرت من الله عز وجل فما بعدها مُحقق الوقوع .

أن تبرّوهم : أى : تفعلوا البرّ والخير لهم .

وتقسطوا إليهم : وتعدلوا فيهم بالبر والإحسان .

المقسطين : العادلين .

وظاهروا : وساعدوا .

أن تولوهم : أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم .

تمهيد :

يبشر الله المسلمين بمستقبل أفضل ، يجمع شملهم مع أعدائهم ، ويهديهم للدخول فى الإسلام ، وتعود المودّة والرحمة والمغفرة من الله لجموع المسلمين ، فهو سبحانه قدير وغفور رحيم ، وقد أنجز الله تعالى وعده ، وفتح لهم مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وجمع الإسلام شمل هذه العائلات ، ورأينا أعداء الأمس أصدقاء اليوم.

قال تعالى : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣) .

وقد رخَّص اللَّه تعالى للمسلمين في صلة الذين لم يقاتلوهم فى الدِّين من الكفار، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم ، لكنه يحرِّم عليهم موالاة الأعداء الذين أخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم ، فمن يتولَّ هؤلاء الظالمين المعتدين فإنه يكون ظالما لنفسه ، ولجماعة المسلمين ، فما أعظم سماحة الإسلام ، حيث قال : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ...﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

وحيث أباح لنا موالاة المُسَالمين الموادعين من أهل الذِّمة ، وعيادة مرضاهم ، وأكل ذبائحهم ، والتعاون معهم فى شئون الحياة .

وإنما حرَّم موالاة المحاربين والمعتدين ، وحرَّم كشف خبايانا للأعداء ، ورأينا النبى ﷺ يزور جاراً له يهوديا عندما مرض ، وكان ذلك سببا فى إسلام اليهودىّ كما ورد فى الصحيحين ، وقد أخرجه البخارى فى : ٧٥ – باب عيادة المرضى ، و : ١١ – باب عيادة المشرك حديث رقم ٧١٤ ، عن أنس .

وعلى الحاكم المسلم أن يشمل الموادعين من أهل الذمة بالحفظ والرعاية ، وإنقاذ أسراهم ، وتحقيق معنى (لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا) ، لذلك عاش أهل الكتاب فى كنف الحُكْم الإسلامى آمنين مطمئنين ، وكان منهم الوزراء والعلماء ، والباحثون والمؤرخون والاقتصاديون .

والأقباط فى مصر نموذج لهذه المعاملة ، فمنهم الوزراء والسفراء وقادة الجيوش ، والشعب المصرى نسيج متكامل ، تتزاور فيه الأسر المسلمة مع الأسر المسيحية ، وتتبادل معها التهانى بالأعياد ، والتعاون فى الرحلات والمشروعات ، ورؤساء الدين الإسلامى والمسيحى يتبادلون التهانى بالأعياد ، والتعاون فى الأنشطة المتعددة ، فالأديان السماوية كلها من عند الله ، والله تعالى أمرنا بالتسامح والتعاون على البرّ والتقوى .

قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ...﴾ (المائدة : ٢) .

التفسير :

٧ – ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

كانت هناك عداوة بين المسلمين وأهل مكة ، وقد حذَّر القرآن من موالاة الأعداء ، وحذَّر من نقل أسرار المسلمين إليهم ، وقد استجاب المسلمون لتوجيه القرآن ، فبشَّرهم الله بهداية أهل مكة ، ودخولهم فى الإسلام ، وجَمْع شمل الأسر فى المستقبل ، وقد حقق الله وعده ، ففتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وتحول أعداء الأمس إلى مسلمين مؤمنين ، منضمين تحت لواء الإسلام ، وألَّف الله بين قلوب الجميع ، فصاروا إخوانا متحابين .

قال تعالى : وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ... (آل عمران : ١٠٣) .

٨ - لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ .

لا ينهاكم الله عن البرّ والعدل مع الكفار الذين لم يقاتلوكم بسبب دينكم ، ولم يخرجوكم من دياركم، ولم يعاونوا على إخراجكم ، أن تحسنوا إليهم فى معاملاتهم ، وتكرموهم وتمنحوهم صلتكم ، وتعدلوا بينهم ، إن الله يحبّ أهل البرّ والتواصل والحق والعدل .

جاء فى التفسير الكبير للرازى ما يأتى :

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى خزاعة ، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً ، فرخّص الله فى برّهم والإحسان إليهم .

وأخرج الشيخان ، وأحمد ، عن أسماء بنت أبى بكر ، أنها قالت : قدمت أُمِّى - وهى مشركة - فى عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ - تعنى فى صلح الحديبية - فأتيتُ رسول الله ﷺ ، فقلت : يارسول الله ، إن أمِّى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : «نعم ، صِلِى أمك» ، فأنزل الله تعالى : لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . (٥٢) .

وجاء فى الحديث الصحيح : «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» . والعبرة هنا أيضا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٩ - إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ .

إنما ينهى الله تعالى عن موالاة المقاتلين ، أو التقرب إليهم ، أو كشف الأسرار لهم ، مثل أهل مكة الذين قاتلوا المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وعاونوا وساعدوا فى إخراجهم ، هؤلاء وأشباههم من المقاتلين ، أمثال اليهود فى إسرائيل الذين يُقَتِّلون إخواننا الفلسطينيين ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويتعاونون على إخراجهم ، هؤلاء وأمثالهم من الفئات والدول المعتدية على المسلمين ، لا تجوز مودّتهم ولا نَقْل أخبار المسلمين إليهم .

وقد ذكر ابن زيد وقتادة أن موادعة المسالمين وترك قتالهم ، كان فى صدر الإسلام ، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ ... (التوبة : ٥) . (انظر تفسير القرطبى) .

والذى عليه جمهور العلماء أنه لا نسخ ، لأن الآيات تقرر حكما يتفق مع شريعة الإسلام فى كل زمان ومكان ، وهو أننا لا نؤذى إلاَّ من آذانا ، ولا نقاتل إلاَّ من أظهر العداوة لنا بأية صورة من الصُّور ، والنبى ﷺ كان يستقبل الوفود التى تأتيه لمناقشته فى بعض الأمور ، مقابلة كريمة ، ويتجلّى ذلك فيما فعله مع وفد نجران ، ووفد تميم وغيرهما .

والإمام ابن جرير الطبرى عند تفسير هذه الآيات ذكر آراء من قال إن فيها نسخا ، وآراء من قال إنها محكمة لا نسخ فيها ، ثم عقب على ذلك بقوله الآتى : وأَوْلى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى بقوله تعالى :

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ ...

جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبرُّوهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ... ويشمل كل من كانت صفته كذلك ، دون تخصيص لبعضٍ دون بعض .

ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ، ممن بينه وبينهم قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب ، غير محرّم ، ولا منهى عنه ، إذا لم يكن فى ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب على عورةٍ لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح .[٥٢] .

وفى آخر الآية نجد هذا التعقيب :

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ .

أى : لا تتخذوا من عاداكم وقاتلكم وأخرجكم من دياركم ، أحبابا وأصفياء وأنصارا

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ .

ومن يتخذ هؤلاء المعتدين أولياء وأحبابا ، فإنه يكون ظالما لدينه ولأمته ولنفسه ، حيث والى أعداء دينه وأعداء أمّته .

★ ★ ★

امتحان المهاجرات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا
مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ
مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

المفردات :

فامتحنوهن : فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم ، موافقة قلوبهن لألسنتهن فى الإيمان .

علمتموهن : ظننتموهنّ .

إلى الكفار : إلى أزواجهن الكفار .

أجورهن : مهورهنّ .

عصم : واحدها عصمة ، وهى ما يُعتصم به من عقد وسبب .

الكوافر : واحدتهنّ كافرة .

فعاقبتم : فكانت العُقْبى لكم ، أى : الغلبة والنصر لكم حتى غنمتم منهم .

تمهيد :

تم صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وأهل مكة على شروط ، من بينها ما يأتى :

١ – وضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات .

٢ – من أراد أن يدخل فى حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل فيه .

٣ – من جاء إلى محمد ﷺ مسلما بدون إذن وليّه يرده للمشركين ، ومن جاء مرتدًا إلى المشركين لا يردونه ، وكذلك من جاءت مرتدة عن الإسلام لا يردّها المشركون للمسلمين .

وبعد إتمام صلح الحديبية جاء رجال مسلمون من أهل مكة ، فردّهم النبى ﷺ وفاء بالعهد ، وقال لهم : «لعل الله أن يجعل لكم فرجا» .

ثم جاءت نساء مهاجرات من مكة إلى المدينة فأمر الله بامتحانهن ، فإذا كن مؤمنات فلا يحلّ أن يرجعن إلى الكفار .

التفسير :

١٠ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

قال المفسرون :

إن صلح الحديبية كان قد تضمّن أنّ من أتى أهل مكة من المسلمين لا يُردّ إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة - يعنى المشركين - رُدّ إليهم ، فجاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ ، فخرج فى إثرها أخواها عُمارة والوليد فقالا للنبىّ ﷺ : ردّها علينا بالشرط ، فقال النبى ﷺ : «كان الشرط فى الرجال لا فى النساء» ، فأنزل الله الآية [٥٤].

وأخرج الشيخان ، وأحمد ، عن ابن عباس : كانت المرأة تُستحلف أنّها ما هاجرت بُغضا لزوجها ، ولا طمعا فى الدنيا ، وأنها ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله ، ورغبة فى دين الإسلام .

ضوء على الآية

فى بداية الإسلام كان يحل للمسلم زواج الكافرة وإبقاء عقد زواجها ، وكل يحل للمرأة المسلمة زواج المشرك .

قال ابن كثير :

ولهذا كان حال أبى العاص بن الربيع ، زوج ابنة النبى ﷺ ، زينب رضى الله عنها ، وقد كانت مسلمة ، وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأسارى يوم بدر ، بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلاده لها ، كانت لأمّها خديجة ، فلما رآها الرسول ﷺ رقّ لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا» . ففعلوا فأطلقه رسول الله ﷺ ، على أن يبعث ابنته إليه ، فوفّى له بذلك ، وصَدَقَهُ فيما

وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان ، فردّها عليه بالنكاح الأوّل ، ولم يحدث لها صداقًا . ا هـ .

معنى الآية

يا أيها الذين آمنوا ، إذا جاءت إليكم نسوة مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان ، لائذات بجماعة المسلمين ، فامتحنوهنّ واختبروهنّ للتأكد من صدقهنّ ، فتُقْسِمُ المهاجرة أنَّها ما هاجرت من بغض زوج ، ولا ابتغاء دنيا، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، وأنها ما هاجرت إلا حبًّا لله ورسوله ، ورغبة فى دين الإسلام .

وهذا الاختبار ، مع استكشاف ما يحيط به ، يجعلنا نرجّح النتيجة منه ، ونحكم بما يغلب على ظننا لأن الله تعالى وحده هو العليم بإيمان المؤمنين .

فإذا تيقنًا من صدق إيمانهنّ ، فلا يجوز أن نُرجع المرأة المهاجرة إلى دار الكفر ، خشية الفتنة عليها ، ولأنها لا تحلّ لزوجها الكافر ، ولا تحل لزوجها الكافر معاشرتها ، حيث إنها مؤمنة وهو كافر ، فلا يجوز أن يعلو الرجل الكافر فوق المرأة المؤمنة ، وكان هذا أول قرار فى تحريم زواج المؤمنة من كافر .

قال الآلوسى :

والتكرير للتأكيد والمبالغة فى الحرمة ، وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك ، حيث قال تعالى : لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ . فأفاد حرمة عودة المؤمنة إلى الكافر ، ثم كرر وأكّد فقال : وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . أى : ولا الأزواج الكفار يحلّون للمؤمنات طالما بقوا على كفرهم .

ومن عدالة القرآن هنا أنه أمر بإعطاء الزوج الكافر ما أنفقه على زوجته من صداق وغيره ، فلا يجمع عليه خسران الزوجة وخسران المال ، ثم أباح للمسلمين زواج المهاجرات بشرط أن يدفعوا لهن الصداق .

قال الخازن :

أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وإن كان لهن أزواج كفار ، لأن الإسلام فرّق بينهنّ وبين أزواجهن الكفار ، وتقع الفرقة بانقضاء عدّتها . اهـ .

وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ...

فمن كانت له زوجة كافرة فى مكة ، أو دار الكفر ، فقد انقطعت العلاقة الزوجية بإسلامه وكفرها ، فلا تعتبر زوجة له .

قال القرطبى :

المراد بالعصمة هنا : النكاح ، يقول : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها فليست امرأته ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدّارين.

قال إبراهيم النخعى :

نزل قوله تعالى : وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ... فى المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين ، فلا يمسك زوجها بعصمتها .

وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ...

إذا ذهبت امرأة مسلمة إلى الكفار مرتدة ، فمن حق زوجها أن يطلب من الكفّار الصداق ، وهو المهر الذى دفعه لها ، ويقول لأهلها : هاتوا مهرها .

وكذلك من حق من جاءت زوجته مسلمة مهاجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أن يقول للمسلمين : هاتوا مهر زوجتى ، وكان هذا إنصافاً وعدْلا بين الحالتين .

ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ...

هذه الأحكام هى من تشريع الله الحكم العدل ، الذى يقضى بالحق بينكم وبين أعدائكم ، وتأتى هذه الفقرة بمثابة التأكيد والترسيخ لما سبق من أحكام وتشريع ، خاصة أن الآية تشرّع لأول مرة تحريم زواج الكافر من المؤمنة ، وتحريم زواج المؤمن من المشركة ، والمعروف أن القرآن كله تشريعُ اللّه وحكمه ، لكنه كان يعقّب على بعض الأحكام بما يؤكد وجوب تنفيذها ، وفى صدر سورة النساء تحدثت آيات عن توزيع الميراث ، ثم عقّبت بقوله تعالى : تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِداً فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ . (النساء : ١٣ ، ١٤) .

وفى آخر الآية يقول الله سبحانه وتعالى :

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فهو سبحانه وتعالى عليم بمصالح عباده ، حكيم فى تشريعاته ، وقد التزم المؤمنون بهذه الأحكام ، فدفعوا ما أُمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهنّ ، وأبى المشركون أن يردّوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المؤمنين .

١١ – وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ .

إذا لحقت امرأة أحد المسلمين بدار الكفّار ، ثم يسّر الله للمسلمين النصر على الكفار والغلبة عليهم ، والحصول على الغنائم ، فإن المسلم الذى ذهبت زوجته إلى دار الكفّار ، يُعوَّض بما يوازى مهرها من الغنيمة قبل أن تُقسّم .

ومن معنى الآية : أن تكون هناك مقاصّة ومعاوضة ، فالزوجة المرتدة يُعوّض زوجها بمهرها من أسرتها ، أو من زوجها المشرك ، كما يعطى لزوج المسلمة المهاجرة مهر زوجته ، حتى لا يجتمع عليه خسران زوجته ، وخسران المال الذى دفعه لها.

روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعطى المهر للذى ذهبت زوجته إلى الكفار من الغنيمة قبل أن تُقسَّم ، ولا ينقُصُ من حقّه شيئا .

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ .

إن من لوازم الإيمان تقوى الرحمن ، فراقبوا الله تعالى الذى آمنتم به ، والتزموا بتنفيذ أحكامه ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وراقبوه والتزموا بطاعته وتقواه .

والتقوى هى : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

★ ★ ★

بيعة النساء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ
وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ
وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ
أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

يبايعنك : يعاهدنك بالتزام الطاعة .

ولا يقتلن أولادهن : ولا يئدن البنات .

ببهتان : بزُور وكذب بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

يفترينه : يختلقنه كذبًا .

في معروف : في أمر برٍّ وتقوى .

فبايعهن واستغفر لهن الله : فالتزم لهنّ ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

غضب الله عليهم : طردهم من رحمته .

من الآخرة : من ثوابها ونعيمها .

من أصحاب القبور : من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور .

تمهيد :

تكررت البيعة من رسول الله ﷺ ، ووقعت غير مرة ، ووقعت في مكة بعد الفتح وفي المدينة .

روى البخاري ، عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ... إلى قوله : غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : «قد بايعتك» ، كلامًا ، ولا والله ما مسَّت يده يد امرأة في المبايعة قط ، ما بايعهنَّ إلا بقوله : «قد بايعتك على ذلك»[٥٥] .

وروى أحمد ، عن أميمة بنت رقيقة التيمية ، قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن ، ألا نشرك بالله شيئًا – حتى بلغ – ولا يعصينك فى معروف ، فقال : «فيما استطعتنّ وأطقتنّ» ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : «إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة»[٥٦] .

التفسير :

١٢ – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

تشتمل الآية على مكارم الأخلاق التى بايع الرسول ﷺ عليها النساء .

والمعنى :

يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات مبايعات لك ، ومعاهدات على هذه الأمور ، وهى :

﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ . من صنم أو حجر .

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ . من مال الناس شيئًا .

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ . وقد حذر القرآن من الزنا ، وبيَّن أنه فاحشة وساء سبيلاً .

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ . ولا يئدن البنات ، كما كنّ يفعلن فى الجاهلية ، أو لا يقتلن الأجنة فى بطونهن ، فإنّ ذلك عدوان وقتل للنفس بغير حق .

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ...

ولا يلحقن الأطفال الأجانب بأزواجهن كذبًا وزورًا ، أو: ولا يأتين بكذب وزور من قبل أنفسهن ، واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما .

قال المفسرون : كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل ، التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده ، فالمراد بالآية اللقيط .

وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ...

ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهنّ به من معروف ، أو نهيتهن عنه من منكر ، بل يسمعن ويطعن .

فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ .

فبايعهن يا رسول الله على ذلك ، واطلب لهنّ من الله الصفح والغفران ، لما سلف منهنّ من الذنوب .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أي : واسع المغفرة عظيم الرحمة .

ملحق بتفسير الآية

١ – قال أبو حيان :

كانت بيعة النساء فى ثانى يوم الفتح ، على جبل الصفا ، بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وكان رسول الله ﷺ على الصفا ، وعمر أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهنّ عنه ، وما مست يده ﷺ يد امرأة أجنبية قط .

وكانت هند بنت عتبة – وهى التى شقت بطن حمزة يوم أحد – متنكرة فى النساء ، فلما قرأ النبى ﷺ عليهن الآية ، قال : عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ... قالت هند : وكيف نطمع أن يُقبل منّا ما لم يقبلْ من الرجال ؟ تعنى أن هذا بيّنٌ لزومه ، فلما قال : وَلَا يَسْرِقْنَ . قالت : والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان – أى القليل وبعض الشىء من ماله – لأنه رجل شحيح ، ولا أدرى أيحلّ لى ذلك أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال لها : «وإنك لهند بنتُ عُتبة» ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبىّ الله ، عفا الله عنك . فلما قرأ : وَلَا يَزْنِينَ . قالت : أو تزنى الحرة ؟ فلما قرأ : وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ . قالت : ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا ، فأنت وهم أعلم وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسّم رسول الله ﷺ . فلما قرأ : وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ . قالت هند : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا يأمر الله إلا بالرُّشد ومكارم الأخلاق . فلما قرأ : وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ . قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء[٥٧] .

٢ – بايع رسول الله ﷺ الرجال أيضًا على بنود بيعة النساء .

روى البخارى ، عن عبادة بن الصامت قال : كنّا عند النبىّ ﷺ فقال : «أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا» ، قرأ آية النساء (أى : آية بيعة النساء) ، ثم قال : «فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له» (٥٨) .

بيعتا العقبة

فى مرحلة الإعداد للهجرة ، وتعرُّض النبى ﷺ للوفود ، قابل وفود المدينة المنوّرة ، وتمت بيعتا العقبة الأولى والثانية ، وكان لهما أبعد الأثر فى تهيئة المدينة المنورة لاستقبال الإسلام ، واحتضان الدعوة الإسلامية ، وكانت المدينة مرتكزًا للإسلام ودعوته ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا .

روى محمد بن إسحاق ، وابن أبى حاتم ، عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنّا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئًا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، وقال : «فإن وفيتم فلكم الجنة» .

بيعة الرضوان

بيعة الرضوان تمت عند الحديبية ، عندما أرسل النبى ﷺ إلى أهل مكة عثمان بن عفان ، فاحتبسه أهل مكة وأشيع أنه قد قتل ، فقال ﷺ : «لا نبرح حتى نناجز القوم» ، وبايع ﷺ المسلمين على الموت وعلى ألا يفرّوا ، وقد بارك الله هذه البيعة وزكّى أهلها فى كتابه العزيز ، حيث قال تعالى : لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح : ١٨) .

ما يستنبط من الآية :

دلت الآية على تحريم الشِّرك بالله ، والسرقة ، والزنا ، وقتل الأولاد ، أى وأد البنات الذى كان فى الجاهلية ، ويلحق به الإجهاض ، وإسقاط المرأة نفسها بدون عذر شرعى ، كما دلت الآية على تحريم إلحاق الأولاد اللقطاء بغير آبائهم ، وعصيان شرع الله فيما أمر ونهى .

ولم تقتصر المنهيات على هذه الأمور الستة ، فقد ورد فى الحديث النهى عن التولّى يوم الزحف ، وعن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وعن عقوق الوالدين ، وعن الزنا والربا والسحر واليمين الغموس ، وغير ذلك .

روى أحمد ، والشيخان ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منَّا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية»[٥٩] .

ويفيد الحديث الدعوة إلى الصبر والتصبُّر ، واحتساب الثواب عند الله ، والنهى عن الهلع والجزع ، وعدم الرضا بالقضاء والقدر .

وسبق أن ذكرنا أن النبى ﷺ بايع الرجال على ما بايع عليه النساء ، فصارت الآية عامة للرجال والنساء .

وقد ذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره جملة من الأحاديث التى تدل على أن هذه البيعة قد تمّت فى أوقات متعددة ، وفى أماكن مختلفة ، وأنَّها شملت الرجال والنساء .

١٣ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ .

هذه الآية ختام سورة الممتحنة ، وقد ذكر فى صدرها النهى عن موالاة الكافرين الأعداء ، أو إرشادهم إلى أسرار المسلمين ، ويأتى الختام مؤكداً للصدر ، يأتى ختام السورة هُتافًا بالمؤمنين ، ألاَّ يقدِّموا مودتهم لليهود أو المشركين الذين يئسوا من نعيم الآخرة لإقبالهم على الدنيا ، واهتمامهم بها ، والعمل لها ، كأنَّه لا أمل فى نعيم الآخرة ، كما يئس كفار مكة وأشباههم من لقاء الموتى أصحاب القبور ، لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحشر والثواب والعقاب .

قال قتادة :

قد يئس الكفَّار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا .

وقيل فى هذه الآية معنى آخر ، قال ابن كثير :

كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير ، قال ابن مسعود : قوله تعالى : كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ . معناه : كما يئس هذا الكافر إذا مات ، وعاين ثوابه واطلع عليه .

وقال الزمخشرى : روى أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ، فنزل قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ... الآية .

★ ★ ★


تفسير سورة الصف

أهـداف سـورة الصـف

(سورة الصف مدنية ، وآياتها ١٤ آية ، نزلت بعد سورة التغابن)

وهى سورة تدعو إلى وحدة الصف ، وتماسك الأمة ، وتحث على الجهاد ، وتنفّر من الرياء ، وتبين أن الإسلام كلمةُ الله الأخيرةُ إلى الأرض ، وأن رسالات السماء كانت دعوة هادفة لبناء الإنسان والدعوة إلى الخير والعدل ، وقد أرسل الله موسى بالتوراة ، فلما انحرف اليهود عن تعاليم السماء أرسل الله عيسى عليه السلام مجددًا لناموس التوراة ، ومبشرًا برسالة محمد ﷺ .

وقد كانت رسالة محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ، متممة للرسالات السابقة ، مشتملة على مبادئ الحق واليسر والعدل والمساواة ، وقد كره المشركون انتصار النور والخير فحاولوا مقاومة هذه الدعوة وإطفاء نورها ، ولكن الله أيد الإسلام حتى طوى ممالك الفرس والروم ، وعمَّ المشارق والمغارب .

وقد حاولت الصليبية الحاقدة اجتياح بلاد الإسلام فى فترات متعددة ، من بينها الحروب الصليبية التى انتهت بهزيمة المعتدين وانتصار المسلمين ، ووجهت الصليبية ضرباتها للمسلمين فى الأندلس ، وحاولت تصفية الإسلام أيام الدولة العثمانية ، وأطلقت على تركيا لقب : الرجل المريض ، وعلى البلاد التى تحت يدها : تركة الرجل المريض ، فلما قام كمال أتاتورك بإعلان إلغاء الخلافة الإسلامية كبر له الغرب وهلل ، وتراجعت جيوشه من أمام تركيا ، وجعلوا من أتاتورك بطلاً عملاقًا لقضائه على الخلافة الإسلامية .

وفى هذه الأيام تقوى الحركة الإسلامية فى تركيا ، وتمتلئ المساجد والمدارس الإسلامية بالباحثين وتشتد سواعد الحزب الإسلامى هناك ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

سبب نزول السورة

جمهور المفسرين على أن صدر هذه السورة نزل حين اشتاق المسلمون إلى معرفة أحب الأعمال إلى الله ، فأنزل الله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ . (الصف : ٤) .
فلما أخبرهم الله بأن أفضل الأعمال بعد الإيمان هو الجهاد فى سبيل الله ، كره قومٌ الجهاد ، وشق عليهم

أمره ؛ فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ . (الصف : ٢ ، ٣) .

هدفا السورة

لسورة الصف هدفان رئيسيان :

الهدف الأول : الدعوة إلى الجهاد والحثّ عليه ، والتحذير من كراهيته والفرار منه ، وبيان ثوابه وفضله ، وأنه تجارة رابحة . وتبع ذلك ترسيخ العقيدة ، ووجوب اتفاق الظاهر مع الباطن ، ووجوب الطاعة للقائد ، وتماسك الأمة ، وترابط بنيانها حتى تصبح صفًا واحدًا ، محكم الأساس ، قوى الوشيجة والرباط ، كأنه بنيان مرصوص .

فالآيات الأربع الأولى دعوة إلى الجهاد ، وتحذير من الخوف والجبن ، وبيان أن العقيدة السليمة تستتبع التضحية والفداء ، حتى يصبح جيش الإسلام قوى البناء متلاحم الصفوف .

والآيات (١٠ – ١٢) صورة رائعة لفضل الجهاد وثوابه فهو أربح تجارة ، وأفضل سبيل للمغفرة ودخول الجنة ، وهو باب النصر والفتح ، والبشرى للمؤمنين بالسيادة والعزة .

والهدف الثاني : بيان وحدة الرسالات ، فالرسالات الإلهية كلها دعوة إلى التوحيد ، وثورة على الباطل ، وإصلاح للضمير ، وإرساء لمعالم الفضيلة ، ومحاربة للرذيلة .

وقد دعا الرسل جميعًا إلى توحيد الله ، وتكفل كل رسول بإرشاد قومه وهدايتهم ونصحهم إلى ما فيه الخير ، وتحذيرهم من الانحراف والشر .

وفى سورة الصف نجد الآية الخامسة تبين رسالة موسى لقومه ، وتذكر عنت اليهود ، وإيذاءهم لموسى وتجريحهم له ، وانصرافهم عن روحانية الدعوة إلى مادية المال .

وفى الآية السادسة نجد عيسى عليه السلام يجدد أمر الناموس ، ويصيح باليهود صيحات ضارعة ، ويعظهم ويدعوهم للإيمان ، ويحثهم على الصدقة ، والعناية بالروح ، وتقديم الخير لوجه الله .

والمسيح يبشر برسالة أحمد خاتم المرسلين ، فالرسالات كلها حلقات متتابعة فى تاريخ الهداية والإصلاح ، والإسلام كان ختام هذه الرسالات وآخرها ، والمهيمن عليها ، فقد حفظ تاريخها في القرآن ، ودعا إلى الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل .

قال تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ . (البقرة : ٢٨٥) .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يقولون : لو وُضعت هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الرسل»[٦٠] .

وقال تعالى : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ . (البقرة : ١٣٦) .

وفى آخر آية فى السورة دعوة للمسلمين أن ينصروا دين الله ، كما نصر الحواريون دين عيسى ، أيام كان دينه توحيدًا خالصًا ، والعاقبة دائمًا للمتقين .

والعبرة المستفادة من هذه الدعوة هي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية ، المختارين لهذه المهمة الكبرى .

استنهاض همتهم لنصرة الله ، ونصرة دينه ورسالته وشريعته : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ ... (الصف : ١٤) .

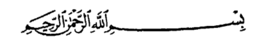
المقصد الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الصف هو : عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها ، وتشريف صفوف الغزاة والمصلين ، والتنبيه على جفاء بنى إسرائيل ، وإظهار دين المصطفى ﷺ على سائر الأديان ، وبيان التجارة الرابحة مع الرحمن الرحيم ، والبشارة بنصر أهل الإيمان على الكفر والخذلان .

★ ★ ★

وحدة الصف



﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ
۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ ﴾

المفردات :

سبح لله : نزهه عما لا يليق ومجّده ، ودلّ عليه.

لِمَ : لأى شيء تقولون : قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ، والمراد بذلك : التأنيب والتوبيخ ، لمن صدر منهم الكذب .

كَبُر : عَظُم .

المقت : أشد البغض وأعظمه ، ورجل مقيت وممقوت ، إذا كان يبغضه كل أحد .

صفًّا : صافّين أنفسهم ، أو مصفوفين . .

بنيان مرصوص : بنيان متلاصق محكم لا فرجة فيه ، قال المبرد : تقول : رصصت البناء ، إذا لاءمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

سبب النزول:

تلتقى كتب الحديث والتفسير على أن سبب نزول الآيات الأولى من سورة الصف ، أنه كان ناس من المؤمنين يقولون : لوددنا أن الله دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فلما نزل الجهاد كرهوه ، فأنزل الله الآيات تحثهم على الوفاء بالعهد ، وتناسق الأقوال مع الأفعال .

التفسير :

١ - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

جميع ما فى السماوات ، من ملائكة وأجرام وكواكب ، وشموس وأقمار ، وجميع ما فى الأرض من الحيوانات والنباتات وغيرهما ، يسبّح لله بلسان الحال ، فوجود هذا النظام البديع ، من سماء مرفوعة ، وأرض مبسوطة ، وجبال راسية ، وبحار جارية ، وهواء وفضاء ونبات ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وظلام ونور ، كل ذلك يدل على وجود قدرة عالية تمسك بنظام هذا الكون وتحفظ توازنه .

وقد يكون التسبيح بلسان المقال ، بمعنى أن يخلق الله فى هذه الكائنات وسائل للتسبيح والتعظيم لله ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾ (الإسراء : ٤٤) .

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

يا أيها الذين صدقوا وآمنوا بالله ربًا ، لم تقولون قولاً ولا تلزمون أنفسكم بالوفاء بهذا القول ، وتخرجونه من حيز القول إلى حيز العمل ؟ .

حيث قال بعضهم : لوددنا معرفة أحب الأعمال إلى الله حتى نفعلها ، فلما بيَّن الله أن أحب الأعمال إليه هو الجهاد فى سبيله ، كرهوا ذلك ، أو تخاذلوا فى غزوة أحد ، والآية وسيلة ربانية للسموّ ، والالتزام بتنفيذ الأقوال والأعمال .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »[٦١]

وفى رواية: «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

وقد ذهب الجمهور إلى أن الآية نزلت حين تمنوا فَرْض الجهاد عليهم ، فلما فُرض عليهم نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً * أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ...﴾ (النساء : ٧٧ ، ٧٨) .

قال ابن كثير: وهذه الآية إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولا ثم لا يفى به .

٣ – كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ.

عَظُم جرما عند الله أن تقولوا قولا ولا تعملون به ، مثل أن تأمروا الناس بالمعروف ولا تفعلونه ، أو تنهوا الناس عن المنكر وتفعلونه .

قال تعالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ... (البقرة : ٤٤) .

ويمكن أن تنطبق الآية على خلف الوعد ، فإن خلف الوعد مذمة ومفسدة ، وفيه إخلال بالثقة بين الأفراد والجماعات ، وما أسوأ خلف الوعد ، وأقبح بصاحبه ، لذا كان مبغوضا عند الله أشد البغض ، ومعاقبا عليه ، كما هو مبغوض مستنكر عند الناس جميعا .

وفى مقابل ذلك مدح الله صدق الوعد ، فقال تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . (مريم : ٥٤) .

٤ – إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ.

إن الله تعالى يحب المقاتلين فى سبيله أفراداً وجماعات فى حالة ائتلاف واتحاد وتوافق ، متراصّين متحدين ، هدف واحد ، وصف واحد ، كأنهم بناء واحد أحكم وضع حلقاته ، حتى كأن البناء قطعة واحدة مترابطة ، وهذه الوحدة تبعث الهمة فى النفوس ، والشجاعة فى الأفراد والجماعة .

ونلمح عناية الإسلام بتكوين الأفراد ليكونوا لبنة صالحة فى مجتمع صالح ، وتكريم القرآن الكريم للجهاد والشهادة والتضحية فى سبيل الله ، وكذلك السنَّة المطهرة ، مع الحث على لزوم الجماعة ووحدة الصف .

روى الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يضحك الله إليهم : رجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صُفّوا للصلاة ، والقوم إذا صُفّوا للقتال » . [٦٢]

والبنيان المرصوص : هو البنيان المحكم المتماسك .

قال الفرّاء : المعقود بالرصاص .

وقال المبرد : رصصت البناء : لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، ومنه : الرصيص، وهو انضمام الأسنان .

★ ★ ★

وحدة الرسالات

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ
إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ
بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ
وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ
عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

تؤذونني : تخالفون أمري بترك القتال .

زاغوا : مالوا عن الحق ، وأصروا على الزيغ والانحراف عن الحق ، الذي جاء به موسى عليه السلام .

أزاغ الله قلوبهم : صرفها عن قبول الهداية .

الفاسقين : الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق ، المصرّين على الغواية .

مصدقا لما بين يدي من التوراة : مصدقا لما تقدمني وجاء قبلي من التوراة .

ومن أظلم : لا أحد أشد ظلما .

افترى : اختلق بادّعاء الشركاء له .

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل .

نور الله : الحق الذي جاء به الرسول ، من مثل قولهم : هذا سحر مفترى .

متمّ نوره : متمّ الحق ، ومبلّغه غايته .

بالهدى : بالقرآن .

دين الحق : الملة السمحة : (الإسلام) .

ليظهره : ليعليه ويرفعه .

على الدين كله : على سائر الأديان .

سبب نزول الآية (٨) :

جاء فى تفسير القرطبى : حكى الماوردى ، عن عطاء ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ أبطأ عليه الوحى أربعين يوما ، فقال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود أبشروا ، فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتمّ أمره ، فحزن رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، واتصل الوحى بعدها .

التفسير :

٥ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

تسجل الآية جهاد موسى كليم الله مع قومه ، فقد صبر وصابر ، واحتمل أذاهم ، فقد اتهموه بأنه آدر كبير الخصية ، فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا . (الأحزاب : ٦٩) . وأغروا امرأة زانية أن تتهم موسى بأنه والد طفلها ، فأنطق اللّه الصبىّ ببراءة موسى.

ونجى الله موسى وقومه من فرعون ، وعبر بهم موسى البحر ، فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩) .

وما كاد موسى يذهب لميقات ربّه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلَّهم السامرىّ : فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ . (طه : ٨٨) .

وطلبوا من موسى أن يحكم بينهم فى قتيل وجد بين قريتين ، وكل قرية تتهم الأخرى ، فطلب موسى من قومه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ، فأخذوا يتشددون على أنفسهم ، ويسألون عن صفة البقرة ، ثم عن لون البقرة ، ثم عن عمر البقرة ، وبعد لأى ذبحوها ، وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ . (البقرة : ٧١) .

وطلبوا يوم عطلة يكون مقدسًا ، فلما كُتب عليهم السبت اعتدوا فيه ، ووقفوا أمام الأرض المقدسة متخاذلين ، يقولون : يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ... (المائدة : ٢٢) .

فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع ، تبجّحوا وكفروا وقالوا :

يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ . (المائدة : ٢٤) .

لهذا وغيره توجه إليهم موسى معاتبا فى مودة ، يقول :

يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ...

فلما أعرضوا عن هدى التوراة ، وروح الدين ، واستجابة المؤمنين ، طَمَس الله على قلوبهم .

فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ .

إن من خرج على دين الله ، وتكبّر وتجبَّر على هدى السماء ، يسلب الله عنه الهدى والتوفيق ، لأنهم لا يصلحون لخلافة السماء وهم على هذا الزيغ والفسوق والخروج عن أمر الله .

٦ – وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

واذكر حين قال عيسى ابن مريم لبنى إسرائيل : إنى رسول الله إليكم ، فهذه سلسلة الرسالات ، كلّها من عند الله ، وعيسى يؤيد الشرع والناموس الذى سبقه ، ويبشر بأحمد الذى يأتى بعده .

وقد بشَّرت التوراة بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل .

قال تعالى : ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...
(الأعراف : ١٥٧) .

وأقرّ بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا بهذه الحقيقة ، وأن اليهود كانوا يتواصون بكتمها .

وأناجيل النصارى تذكر هذه البشارة ، وكذلك التوراة ، حيث جاء فى الفصل العشرين من السِّفر الخامس من التوراة :

(أقبل الله من سيناء ، وتجلّى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، معه الربوات الأطهار عن يمينه) .

وسيناء مهبط الوحى على موسى ، وساعير مهبط الوحى على عيسى ، وفاران جبال مكة ، مهبط الوحى على محمد ﷺ .

وجاء فى إنجيل يوحنا ، فى الفصل الخامس عشر :

(قال يسوع المسيح : إنَّ الفارقليط روح الحق ، الذى يرسله أبى ، يعلِّمكم كل شىء) .

والفارقليط : لفظ يدل على الحمد ، وهو إشارة إلى أحمد ومحمد ، اسمى النبى ﷺ .

وفى الصحيحين ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : «إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشَرُ الناس على قدمى – أى بعدى – وأنا العاقب» .[٦٣] ، أى : الآخر الآتى بعد الأنبياء .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «أنا محمد ، وأنا أحمد ، والحاشر ، والمقفّى ، ونبى الرحمة والتوبة والملحمة» . [٦٤] .

تلك بشارات الرسل بمحمد ﷺ ، لكن حين ظهر أنكره المنكرون ، وادعوا أن رسالته سحر وكذب .

فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

فلما جاء محمد ﷺ بالمعجزات الواضحات وبالقرآن المبين ، قال اليهود قوم موسى ، والنصارى قوم عيسى : هذا سحر واضح لا شك فيه .

وقيل : معنى الآية : فلما جاء عيسى قومه بالبينات والمعجزات قال المكذبون له : هذا الذى جاءنا به سحر واضح ظاهر .

بشارة الرسل بمحمد ﷺ

كانت دعوة إبراهيم عليه السلام أن يرسل فى العرب رسولا منهم ، يقرأ عليهم آيات الله ، ويطهِّرهم ويعلمهم القرآن والسنة المطهرة ، وعلى لسان إبراهيم الخليل يأتى هذا الدعاء : رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (البقرة : ١٢٩) .

من تفسير ابن كثير

وقال محمد بن إسحاق ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : «دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام» [٦٥].

وقال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أُمّي التي رأت وكذلك أُمّهات النبيين يرين» (٦٦) .

وروى أحمد ، عن أبي أمامة قال : قلت : يا رسول الله ، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام» (٦٧) .

وقال عبد الله بن مسعود : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلاً ، منهم : عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى ، فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له : إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا ، قال : فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك ، فابعث إليهم ، فبعث إليهم ، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، فسلّم ولم يسجد ، فقالوا له : مالك لا تسجد للملك؟ قال : إنا لا نسجد إلا للّه عزّ وجل ، قال : وما ذاك ؟ قال : إن اللّه بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا للّه عزّ وجلّ ، وأمرنا بالصلاة والزكاة . قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم ، قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأُمّه؟ قال : نقول كما قال اللّه عزّ وجلّ : هو كلمة اللّه وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر، ولم يعترضها ولد ، قال : فرفع عوداً من الأرض ، ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، واللّه ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول اللّه ، وأنه الذي نجده في الإنجيل ، وأنه الذي بَشَّر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، واللّه لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فردَّتْ إليهما (٦٨).

والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها عن أُممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموْازرته إذا بُعث ، وكان أول ما اشتهر الأمر في الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكّة أن يبعث اللّه فيهم رسولاً منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ،ولهذا قال : «دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أُمي التي رأت» . أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص ، فذكره صلوات اللّه عليه .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

قال ابن جريج : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ . أحمد ، أي : المبشر به في الأعصار المتقادمة ، المنوه بذكره في القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات ؛ قال الكفرة والمخالفون ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . (٦٩) .

٧ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

الإسلام دين الله إلى البشرية كلها ، فالإسلام بمعنى الانقياد لحكم الله تعالى ، يطلق على ملة إبراهيم ، وديانة موسى ، ورسالة عيسى ، ورسالة محمد ﷺ .

فمن يكذّب برسالة عيسى فقد أعظم على الله الفرية ، حين يدعوه رسولٌ إلى الإيمان بالله تعالى ، ويقدّم له معجزات بينات ، فيدَّعى أن هذا سحر ظاهر بيّن .

هذا هو الرأى الأول فى تفسير الآية ، وخلاصته : لا أحد أشد ظلما للحقيقة ، من هذا الذى يفترى الكذب على الله ، فيُكذِّب عيسى فى رسالته ، ويتهمه بأنه ساحر ظاهر السحر .

أمّا الرأى الثانى فتقريره كالآتى :

إن رسالة محمد ﷺ ثابتة فى أعماق الكون ، وقد لبى الله برسالة محمد ﷺ دعوة إبراهيم ، و بشارة موسى وعيسى ، فلما ظهر محمد ﷺ كذّبه بنو إسرائيل ، والحال أن محمداً ﷺ كان يدعوهم إلى الإسلام : الدين الحق ، والرسالة الأخيرة إلى البشرية ، فكذب بنو إسرائيل برسالة محمد ﷺ رغم أنهم ، يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ... (البقرة : ١٤٦) .

من تفسير الطبرى

يقول تعالى ذكره :

ومن أشد ظلما وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب ، وهو قول قائلهم عن النبى ﷺ : هو ساحر ، وما جاء به سحر ، فكذلك افتراؤه على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ، يقول : إذا دُعى إلى الدخول فى الإسلام، قال على الله الكذب ، وافترى عليه الباطل (٧٠) .

وقال المفسرون :

بشّر كل نبىٍ قومه بنبينا محمد ﷺ ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة فى هذا الموضع لأنه آخر نبى قبل نبينا محمد ﷺ ، فبيّن تعالى أن البشارة به عمّت جميع الأنبياء ، واحدا بعد واحد ، حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام ، آخر أنبياء بنى إسرائيل .

فلا يكون أحدٌ أظلم ممن يدعوه ربّه للإسلام على لسان نبيه ، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله ، بتسمية نبيّه ساحراً ، وتسمية آيات الله المنزلة سحراً . (٧١) .

٨ - يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ .

يريد المشركون بمكة واليهود بالمدينة أن يطفئوا نور دين الله ، وهو الإسلام ، وأن يوقفوا دعوة محمد ﷺ، وأنَّى لهم ذلك ، فهم كمن يحاول أن يطفئ نور الشمس بنفخة من فمه ، أو من يريد أن يضرم النار فى الرماد ، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء، وهو مثل يضرب لمن يريد عمل المستحيل .

قال الشاعر :

أرى العنقاء تكبُر أن تُصادا فعاند من تطيق له عنادا

وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ .

تكفَّل الله تعالى بنصرة هذا الدين ، وحفظ القرآن الكريم ، ما دام أهله قائمين بأمر الله ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وقد انتصر الإسلام فى مكة والمدينة والجزيرة العربية، وامتد إلى بلاد الفرس والروم ، ومصر وشمال أفريقيا وآسيا ، ودانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض فى مدى قرن من الزمان.

« ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقيا ، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى» [٧٢] .

لقد أكمل الله للمسلمين دينهم ، وأتمَّ عليهم نعمته ، ورَضِىَ لهم الإسلام دينا ، يحبونه ويجاهدون فى سبيله ، لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فنشره الله فى الآفاق ، وأعلاه على الأديان .

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإنَّ ملك أمتى سيبلغ ما زُوى لى منها» [٧٣] .

ومعنى : «زوى لى الأرض» ، أى : جمعها حتى رآها النبى ﷺ ، والمعنى : أن هذا الدين سينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد كان سبب نزول الآية أن الوحى تأخر على رسول الله ﷺ أربعين يوما ، ففرح كعب بن الأشرف ، وبشَّر اليهود بانتهاء أمر محمد ، فأنزل الله هذه الآية ، واتصل الوحى بعدها ، وانتصر الإسلام على اليهودية الحاقدة فى غزوات بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير ، ثم فتحت خيبر .

وحاولت اليهودية الحاقدة بأصابعها وكيدها النيل من دولة الخلافة ، وزيَّفت بطلا هو كمال أتاتورك ، وتحاول الآن ابتلاع أجزاء كبيرة من فلسطين ، لكن انتفاضة الشعب الفلسطينى مستمرة ، وأكتب

الآن هذه السطور فى شوال ١٤٢١هـ – يناير ٢٠٠١ والانتفاضة الفلسطينية مستمرة ، تقدم الشهداء كل يوم أمام عنت الصهيونية وتجبّرها، واستخدامها الأسلحة المحرمة دوليا .

والأمل فى الله أن يجمع شمل العرب والمسلمين ، وأن يُثبّت أقدامهم ، وأن ينزل عليهم نصره وفضله ومعونته ، إنَّه سبحانه : نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ . (الأنفال : ٤٠) .

٩ – هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

فالله هو الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ ، حاملا دين الهداية ، ودين الحق والعدل ، ليكون هذا الدِّين الإسلامى كلمة الله الأخيرة إلى خلقه .

فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب والصحف ، وأنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، وجعل الإسلام هو الرسالة الكاملة الأخيرة التى تتوافق مع العقل والنقل، وتُناسب كل زمان ومكان، لاتّفاق الإسلام مع الفطرة .

قال أبو السعود : لقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام ، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ، وقد ذكر القرطبى ذلك فى تفسيره ، وأفاض (فى ظلال القرآن) فى شرح الآيات .

★ ★ ★

التجارة الرابحة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ
نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

أدلـــــكـــم : أرشدكمْ .

تـــــجــــارة : التجارة هنا : العمل الصالح ، وهى فى الأصل : تداول البيع والشراء لأجْل الكسب .

طـــيـــبـــة : طاهرة مستلذة .

جــنــات عــدن : بساتين إقامة وخلود .

وفــتــح قــريــب : وفتح عاجل ، وهو فتح مكة .

أنصــار الــلــه : الناصرون لدينه .

الــحــواريــون : أصفياء عيسى وخواصه .

أيّـــدنـــــا : قوينا وساعدنا .

عـلـى عـدوّهـم : الكفار .

ظــاهــريــن : غالبين .

تمهيد:

لوّن القرآن الكريم فى أساليب دعوته ، ونوّع فيها ، وصرّف فى ألوان القول ، وعداً بالجنة أو تخويفا من النار .

وهنا يعرض سلعة رابحة ، هى الجنة ، فى أسلوب من التشويق ، فيبين أن مدّة الدنيا محدودة ، ومن يبع ماله للّه ، ويقدّم نفسه للجهاد فى سبيل الله ، فإنه يقدّم رأس المال لصفقة متميزة .

يدفع العَبْدُ ماله ويقدم نفسه للجهاد فى سبيل الله ، ويشترى مغفرة من الله ، وجنة متميزة بكلّ المتع وفوق ذلك يجد نصرًا من الله وفتحًا قريبًا ، وبشارة بالعزة والسيادة .

التفسير :

١٠ – يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

نزلت هذه السورة تُشوِّق المسلمين إلى الجهاد ، ونزلت هذه الآيات أيضا على أسلوب التشويق ، فهى تُشوق المسلمين إلى تجارة رابحة ، وتقول : يا أيها الذين آمنوا بالله ربًا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، هل أخبركم وأرشدكم إلى تجارة رابحة ، تنقذكم من عذاب جهنم ، وتقربكم إلى الجنة .

١١ – تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

وكأنّ سائلا سأل فقال : وماهى تلك التجارة ؟ فكان الجواب هو: الإيمان بالله ورسوله ، أى شدة اليقين والتصديق ، وتأكيد الإيمان وتعميقه ، كما قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ... (النساء : ١٣٦) .

ثم قال تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾

وقدّم الجهاد بالمال هنا على الجهاد بالنفس ، لأن الموضوع موضوع تجارة رابحة ، فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، فالمال عصبُ الجهاد ، وبه تشترى الأسلحة والأطعمة للمجاهدين ، وينفق به عليهم ، وعلى الاستخبارات عن العدوّ ، وعلى الاستحكامات الحربية .

وبعد الجهاد بالمال يأتى الجهاد بالنفس ، ويشمل ذلك القتال والتطوع للفداء ، وتفجير المجاهد نفسه فى ممتلكات العدوّ وأفراده ، وسائر أدوات نصر المسلمين ، والنيل من أعدائهم .

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

أى : هذا الأمر – وهو الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس – خير لكم على الإطلاق من أموالكم وأنفسكم .

وفى معنى الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ...﴾ (التوبة :١١١) .

لكنه قدّم النفس على المال فى سورة التوبة ، حيث الموضوع موضوع شراء فقدم النفس على المال ، أما هنا فى سورة الصف فقد كان الموضوع موضوع تجارة ، والتجارة يقدم فيها المال على النفس هكذا يقول بعض المفسرين ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الموضوع موضوع تنويع وتشويق من القرآن الكريم ، وأن القرآن لوّن فى أساليب البيان ، فأحيانا يقدم النفس على المال ، وأحيانا يقدّم المال على النفس ، من باب التنويع والتغيير ، والله أعلم .

١٢ – ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

تأتى هذه الآية فى موقع الجزاء لما سبقها ، أى : إن تؤمنوا وتجاهدوا كان جزاؤكم عند الله تعالى أن : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ . أى : يمحو عنكم سيئاتكم ، ويسترها عليكم ، ولا يحاسبكم عليها .

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾

والفعل : ﴿يُدْخِلْكُمْ﴾ . مجزوم لأنه واقع فى جزاء الشرط ، أى : إن تؤمنوا وتجاهدوا : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾

فنعم الجزاء مغفرة الذنوب ، وستر العيوب ، ومحو السيئات ، ودخول جنات وبساتين مخضرة مثمرة ناضرة ، تجرى المياه من تحتها ، ثم يصف سبحانه مساكن المؤمنين المجاهدين والمؤمنات المجاهدات حيث يقول : وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

وهنا نجد الجزاء رابحا مفيدا مضاعفا ، فنعم الجزاء الجنة ، ونعم الجزاء مساكن المجاهدين الذين ضحُّوا بمساكنهم فى الدنيا ابتغاء أن يعوضهم الله فى الآخرة مساكن طيبة الريح ، عظيمة النفع ، فى جنات عَدْنٍ. أى : إقامة خالدة لا يخرجون منها ، ذلك هو الفوز العظيم ، والربحُ الباهر ، فقد باعوا دنياهم واشتروا آخرتهم ، باعوا أنفسهم لله فى الدنيا واشتروا خلودا أبديا سرمديا .

١٣ – وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

ونعمة أخرى ، وفائدة أخرى تحبُونها وتشتاقون إليها ، لأنها عاجلة فى الدنيا .

نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ . نصر للإسلام وأهله على أعدائه .

وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .

أى : فتح مكة ، والأولى أن يقال : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية عامة ، خالدة باقية إلى يوم القيامة .

فكلما تعمّق إيمان المؤمنين ، وأخلصوا فى الجهاد لله بالمال والنفس ، كان جزاؤهم مغفرة الذنوب ، ودخول الجنة والمساكن الطيبة ، وكانت لهم فائدة أخرى فى الدنيا ، هى معونة الله لهم بالنصر منه سبحانه ، وفتح البلاد والغلبة على العباد ، أى كلما وفّى المؤمنون بوعدهم وأخلصوا ، وفّى الله لهم بوعده فى المثوبة فى الآخرة ، والنصر فى الدنيا .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : وبشر أيها الرسول المؤمنين بالنصر فى الدنيا ، وعجّل لهم البشرى بالنصر والفتح ، وقد وفّى المؤمنون لربهم ، وصدقوا فى جهادهم بالمال والنفس ، فأنجز الله لهم ما وعدهم ، وأمر رسوله ﷺ أن يبشرهم بما وعدهم تعجيلا للمسرة .

١٤ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ .

نداءُ إلهى علوىٌّ للمؤمنين المجاهدين ، بأن يكونوا أنصاراً لدين الله ، وضَرب لهم مثلاً بعيسى ابن مريم ، مع أتباعه المخلصين ، حين قال عيسى : مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ...

وهو استفهام يراد به الحثُّ والحضُّ على الانضمام إلى قافلة التبشير بالدين ، والجهاد فى سبيل نشر هذا الدين .

قال المفسرون :

الحواريون هم أتباع عيسى وأصفياؤه ، وأول من آمن به ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، فرَّقهم فى البلاد ، وبعثهم دعاة إلى الناس فى البقاع المختلفة ، واشتقاق الحواريين من الحَوَر وهو البياض ، لأنه كان ملبسهم [٧٤] . وقيل : لنقاء ظاهرهم وباطنهم ، وقيل : الحواريون هم المجاهدون .

قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ...

أى : قال الرجال المخلصون من أتباع عيسى له : نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ...

انتدبنا أنفسنا لتلبية الدعوة ، والجهاد فى سبيل توصيلها وتبليغها .

قال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

والتشبيه فى الآية محمول على المعنى ، أى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله . اهـ .

فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ...

أى : فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين :

جماعة آمنت بعيسى وصدّقت بأنه عبد الله ورسوله ، وجماعة كفرتْ وكذبتْ برسالة عيسى ، وقالت على مريم بهتانا عظيما .

فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ...

أى : قوّيناهم وأمددناهم بالهدى والتوفيق ، والدليل والبرهان والحجة الظاهرة .

فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ . فأصبحوا عالين غالبين على أعدائهم ، كما قال تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ . (غافر : ٥١) .

قال ابن كثير :

لما بلَّغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربّه إلى قومه ، وآزره من آزره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلّت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدُوا نبوّته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغَلَتْ فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة (الآب والابن وروح القدس) ، ومن قائل : إنه الله . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا .

فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ .

فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى ، وقد أيَّد الله المؤمنين برسالة محمد ﷺ .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

وتأويل هذا النصّ يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين :

إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقا ، من استقام ، ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا كما حدث فى التاريخ .

وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصرُّوا على التوحيد فى وجه المؤلّهين لعيسى، والمثلثين ، وسائر النحل التى انحرفت عن التوحيد ، ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أى بالحجة والبرهان .

أو أن التوحيد الذى هم عليه هو الذى أظهره بهذا الدّين الأخير ، وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض كما وقع فى التاريخ ، وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح فى السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء ، هى استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية ، المختارين لهذه المهمة الكبرى ... استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه : كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ...

والنَّصر فى النهاية لأنصار الله المؤمنين . [٧٥] .

★ ★ ★

أهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة الصف

١ – اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل .

٢ – البشارة بمحمد ﷺ على لسان عيسى .

٣ – محمد ﷺ أُرسل بالهدى والدين الحق .

٤ – التجارة الرابحة عند الله هى الإيمان والجهاد فى سبيله .

٥ – الأمر بنصرة الدّين كما نصر الحواريون دينهم .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الصف) عشية يوم الأحد ، ٢٦ من شوال ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢١ من يناير ٢٠٠١ م .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★


تفسير سورة الجمعة

أهـــداف ســـورة الجمعـــة

(سورة الجمعة مدنية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة يوسف)

وقد عُنيت السورة بتربية المسلمين وجمعهم على الحق والإيمان ، ودعوتهم إلى المحافظة على صلاة الجمعة ، والامتناع عن الانشغال بغيرها من اللهو أو البيع ، وقد مهدت لذلك ببيان أن كل شيء يسبح بحمد الله . وقد مَنَّ الله على العرب بإرسال نبى الهدى والرحمة ليرشدهم إلى الخير ، ويأخذ بأيديهم إلى الطهارة والفضيلة ، وقارنت السورة بين المسلمين واليهود ، وعيَّرت اليهود بإهمالهم تعاليم التوراة وإعراضهم عنها ، وشبههم القرآن بالحمار يحمل كتب العلم ولا يستفيد بها ، وهو تشبيه رائع يفيد أن التوراة بشرت بنبى الله محمد ﷺ ، ودعت أهلها إلى الإيمان به ، لكنهم لم يستفيدوا بهداية التوراة ، فحرموا أنفسهم من الانتفاع بأبلغ نافع مع قرب هذا الانتفاع منْهُم .

تسلسل أفكار السورة

بدأت السورة بمطلع رائع ، يقرر حقيقة التسبيح المستمر من كل ما فى الوجود . (الآية :١) .

وجاء فى تفسير النسفى : التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقة ، يعنى إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله وتنزيهه عن الأشباه ، أو تسبيحَ معرفةٍ بأن يجعل الله بلطفه فى كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤)

أو تسبيح ضرورة بأن يجرى الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفته بذلك .[٧٦] .

وبينت السورة أن الله قد اختار العرب ليرسل فيهم نبيًّ آخر الزمان ، ليطهرهم ويعلمهم القرآن والأحكام الشرعية ، وحسن تقدير الأمور بعد أن كانوا فى الجاهلية فى ضلال وكفر وانحلال . (آية :٢) .

وقد وصف جعفر بن أبى طالب [٧٧] ضلال الجاهلية للنجاشى ملك الحبشة ، فقال : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسىء الجوار ، ويأكل القوىُّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ،

فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ، ونخلع ما كُنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

لقد اختار الله الجزيرة العربية لتحمل رسالة الإصلاح ، وليمتدّ هذا النور الهادى إلى ممالك الفرس والروم ، حيث كانت هذه البلاد العريقة قد انغمست فى الترف والانحلال ..

وبين مظاهر الفساد الشامل وُلد الرجل الذى وحَّد العالم جميعه [٧٨] . وقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب اللّه المختار ، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس ، فبينت الآيات أنهم لم يعودوا صالحين لحمل رسالة السماء ، فقد أخلدوا إلى الدنيا ، وكرهوا الموت لأنهم لم يقدّموا عملا صالحا ، بل قدّموا الدسّ والخداع والوقيعة : وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ . (الجمعة :٧) . مطّلع عليهم وسيجزيهم على عملهم . (الآيات : ٥ –٨) .

والمقطع الأخير من السورة يتحدث عن صلاة الجمعة ، وهى فريضة أسبوعية يتلاقى المسلمون فيها لتعلم أمور دينهم ، وتنظيم حياتهم ، وتفقّد شئونهم ، وهى وسيلة للعبادة والطاعة ، وصفاء النفس ، وطهارة الروح .

والإسلام دين ودنيا ، وعقيدة وسلوك ، وشرائع وآداب، وعلم وعمل ، وعبادة وسيادة .

فإذا انتهت صلاة الجمعة خرج المسلم باحثا عن رزقه ، نشيطا فى عمله ، فعبادة الله تكون فى المسجد بالصلاة ، وتكون خارج المسجد بالتجارة والزراعة وطلب القوت من حلال .

وفى الحديث الصحيح : «إن لربك عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » . [٧٩].

وكان عِراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين . [٨٠].

★ ★ ★

النبى الأمىّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن
كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

يسبح لله : ينزِّهه ويمجِّدُه ويدلّ عليه .

الملك : مالك الأشياء كلها .

القدُّوس : البليغ فى النزاهة عن النقائص ، البالغ غاية الطُّهر .

العزيز : القادر ، الغالب ، القاهر .

الأمّيين : العرب المعاصرين له ﷺ ، أو الذين لا يقرأون ولا يكتبون

رسولا منهم : رسولا أمّيا مثلهم .

يزكّيهم : يطهرهم من أدناس الجاهلية .

الكتاب : القرآن .

الحكمة : السنّة ، وتطلق الحكمة أيضا على حسن التصرف فى الأمور .

لفى ضلال مبين : بُعد واضح عن الحق والحكمة ، لجاهليتهم التى كانوا عليها .

وآخرين منهم لما يلحقوا بهم : وآخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وهم كل من دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة ، وإذا أسلموا صاروا منهم (من العرب) مهما اختلفت أجناسهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، «وكل من تكلم العربية فهو عربى » .

فضل الله : إحسانه وعطاؤه .

تمهيد:

كان العرب فى جاهلية جهلاء ، يئدون البنات ، وينتهكون الحرمات ، ويسجدون للأصنام ، ويدَّعون أنّهم على دين إبراهيم ، والواقع أنهم بدَّلوه وغيَّروه ، واستبدلوا باليقين شكًّا ، وبالتوحيد شركًا .

فأرسل الله إليهم رسولا منهم ، يعلمهم القرآن الكريم والسنَّة المطهرة ، ويزكيهم بآداب الإسلام وقواعده ونظمه ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لقد كان الإسلام نوراً وحياة وطهارة ، أحيا أُمَّة ، وكوَّن دولة ، وعلَّم الناس دينا ، وقواعد وآدابا ، وشريعة سمحة ، وقوانين عالية ، وهداية وعلما ومجداً ، وكُلما التصق المسلمون بدينهم وعادوا إلى نظامه ، نصرهم الله وأيدهم : إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .
(محمد : ٧)

التفسير :

١ - يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ .

تأتى مادة التسبيح بالفعل الماضى ، كما سبق قريبا فى سورة الحديد ، وتأتى بالفعل المضارع للدِّلالة على الحدوث والتجدد ، والاستمرار فى التسبيح فى الحال والاستقبال .

وتأتى بصيغة الأمر ، مثل قوله تعالى : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . (الأعلى : ١) .

وفى ذلك دلالة على أنّ هذا الكون العظيم ناطق بالتسبيح والتنزيه والحمد لله ، سواء أكان ذلك بلسان الحال أم بلسان المقال .

قال تعالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

أى : يسبح وينزه الله ويقدّسه ما فى السماوات : من الملائكة والنجوم والأفلام ، والشموس والأقمار ، وما فى الأرض : من نبات وحيوان ، وإنسان وجماد ، وبحار وأنهار ، وطيور ووحوش وحشرات ، وليل ونهار ، وغير ذلك .

وهو سبحانه :

ٱلْمَلِكِ : مالك الأشياء كلها .

ٱلْقُدُّوسِ : المنزّ ه عن النقائص ، البالغ غاية الطهر .

ٱلْعَزِيزِ : القادر الغالب القاهر .

ٱلْحَكِيمِ : المتقن الأمور ، بديع السماوات والأرض ، فى غاية الإتقان والحكمة ، والتقدير الحسن لجميع ما خلق ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا .

٢ - هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

إنها لمنّة عظيمة أن يختار الله الزمان ، والمكان ، والأمّة ، والرسول :

فالزمان : القرن السادس الميلادىّ .

والمكان : بلاد العرب .

والأمة : أمة أمية لا تعرف الحساب ، أناجيلهم فى صدورهم ، ومع ذلك فهم أهل بلاغة وفصاحة ، ولَسَنٍ بالفطرة ، نبغ فيهم الشعراء والبلغاء والخطباء مع أمِّيتهم .

والرسول : هو محمد ﷺ ، حيث أرسل الله فيهم رسولا منهم ، أُمِّيًّا مثلهم ، وأنزل عليه كتابا سماويا خالدا معجزا .

فكان الرسول الأُمِّىُّ يقرأ عليهم القرآن من الذاكرة ، ويعلِّمهم ٱلْكِتَـٰبَ : وهو القرآن ، وأحكامه وآدابه . وَٱلْحِكْمَةَ : وهى السنة المطهرة ، وفيها هدى السماء وتوجيه النبوَّة .

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

كانوا فى بُعْدٍ ظاهر عن الحق ، حيث عبدُوا الأوثان والأصنام ، وقتلوا البنات صغيرات ، أو أمسكوهنّ على الذلّ كبيرات ، وكانوا فى عدوان دائم على بعضهم البعض ، وفى حروب مستمرَّة ، فحسبك بهذا النبى الأمّى الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وعلمهم آيات القرآن وآدابه وأحكامه وحكمه ، فصاروا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس ، والحكمة من ذلك ظاهرة ، هى ألا يظُنّ أحدٌ أن محمداً تعلَّم القرآن من دراسة كتب السابقين .

قال تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩) .

ومن الحكمة أيضا : أن يكون فى الأمة الأمية رسول أُمِّى مثلهم ، هو أعلم بحالهم ، وأخبر بما يناسبهم ، فكان صبوراً عليهم ، يبطئ فى إلقاء الكلام حتى يستطيع السامع أن يَعُدّه عدًّا ، وربما كرر الجملة ثلاثا حتى تُفْهَم عنه.

فكان الإعجاز والإبهار ظاهراً ، أن تجد كتابا معجزا مشتملا على أخبار السابقين ، وعلوم اللاحقين ، وأحكام الشريعة والدِّين ، وقوانين علمية لم يدرك الكون إعجازها إلا فى القرون المتأخِّرة ، مما يدل على أن محمداً النبى الأمىّ لم يكن يدرك بشخصه هذه المعلومات ، وإنما هى تنزيل رب العالمين .

ومن هذا الإعجاز الإخبار عن أمم بائدة ، كعاد وثمود ، وعن أمور مستقبلة فى عالم الغيب ، كهزيمة الروم أمام الفرس ، ثم الانتصار عليهم فى بضع سنين ، ومثل تكوين الجنين فى بطن أمّه ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم هيكلاً عظميًّا ، ثم كسو العظام لحما ، ولم يدرك العلم ذلك إلاّ من عشرات السنين ، فأنّى لمحمد ﷺ الذى ولد فى القرن السادس من ميلاد المسيح ، النبى الأمى ، أنّى له – لو كان بشرا عاديا – أن يتكلم عن خلق الكون ، وخلق السماء والأرض ، وقصة آدم وقصص الرسل ، وأن يصوِّب أخطاء وقعت فى التوراة والإنجيل ، وأنى له – لو كان بشرا عاديا – أن يتكلم عن موضوعات علمية دقيقة متعددة فى القرآن الكريم .

مثل حركة الأرض حول نفسها ، وحركتها أمام الشمس ، وحركة الشمس ، وحركة القمر ، والفضاء والهواء ، وأخبار عن الماء والمحيطات ، والأنهار والنبات ، وبدء الخليقة ، ونهاية الكون وما يحدث فيه ، بأسلوب علمى رائع ، وكلما تقدم العلم فإنه يؤيد ما فى هذا الكتاب .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت : ٥٣) .

ويقول البوصيرى :

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

لقد شاء الله أن يكون يتيما أميًّا لتظهر المعجزة ، وليدرك الناس أن الذى علّم الأمى مَلَكٌ هو جبريل عليه السلام .

قال تعالى: عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . (النجم : ٥) .

وقال سبحانه وتعالى : وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . (النجم : ١–٤) .

ولقد زكّى القرآن الأمة العربية وطهّرها ، وأمدّها بمقومات القوة والطهارة ، فحملت دين الله من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وامتدت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الفرس والروم ، وأفريقيا وآسيا وسائر المعمورة ، وكل ذلك بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بجهد هذا النبىِّ

الأمى ، الذى أرسله الله إلى العرب وجعله رحمة للعالمين ، فدخل فى هذا الدين العجم ، وهم كل من آمن بالرسول من غير العرب ، وكان الإسلام رسالة عالمية ، يحمل الفكرة إلى كل أمة ، ويتقبَّل من أهلها من يصبحون قدوة وأعلاما ، فرأينا فى عصر الرسول ﷺ بلالاً الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيبًا الرومى .

واتسع صدر الإسلام لكلٍّ ثقافة أصيلة ، فى الفقه والحديث والتشريع واللغة والأدب ، وكان علماء فارس والروم يقدمون خبرتهم ، وينالون كل تكريم من الشعوب التى تحيط بهم ، ومن الأمراء والخلفاء .

وفى الحديث الشريف : «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم ، ولكن العربية اللسان ، من تكلَّم العربية فهو عربى» .

وقال تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ... (التوبة :٣٣) .

وقال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... (سبأ : ٢٨) .

وقال ﷺ : «أُعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأُحلت لى الغنائم ، وجُعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأُعطيت الشفاعة ، وأُرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » [٨١] .

٣ - وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

وأرسله الله إلى آخرين من غير العرب ، لمّا يلحقوا بهم فى حياته ، وإن لحقوا بهم بعد ذلك ، كالفرس والروم ، وكل من دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة .

وذلك بفضل الله ، ٱلْعَزِيزُ . الغالب ، ٱلْحَكِيمُ . وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

فهذا النبى الأُمىُّ أرسله الله إلى العرب ، لينطلق بهذا الدين إلى العالم من حوله .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (الشورى : ٧)

وقال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وقد بشَّر القرآن هذه الأمة بالنصر والفتح ، وورد ذلك في أحاديث النبى ﷺ .

قال تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .(الصف : ٩) .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذْ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ : وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ... قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا ، قال : وفينا سلمان الفارسى ، قال : فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ، ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء» (٨٢) .

وتعتبر الآية والحديث من المبشرات بالنصر ، ودخول الأعاجم فى دين الإسلام ، وقد انتفع تدوين العلوم والفنون بعلماء الفرس وغيرهم .

٤ - ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

ذلك الفضل العظيم بأن جعل الإسلام آخر الرسالات ، وأنزل الوحى على نبىٍّ أمّى ، ولأُمة أمّية ، وجعل الوحى شرفا للنبى وأمّته ، وامتداد نور الوحى إلى فارس والروم ومصر وسائر المعمورة إلى يوم الدين .

فضل من الله ، ومِنَّةٌ مِنْهُ على عباده ، ليطهِّرهم ويزكِّيهم بهذا الوحى ، ويكون هذا الشرف منسوبا لهذه الأمة العربية ، ولهذا النبى الأمّى الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وعرفه اليهود ثم حقدوا عليه وحسدوه أن يكون من ولد إسماعيل ، ولم يكن من نسل إسحاق ، فردّ عليهم القرآن الكريم بأن الرسالة والنبوّة فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فهو الذى اختار الزمان والمكان ، والرسول والأمة التى سيُرسل إليها ، وامتنّ على هذا الرسول بأن جعل رسالته عامة خالدة باقية، والله ذو الفضل العظيم على سائر عباده ، وعلى جميع خلقه فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

تحدّى القرآن لليهود

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى
تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

المفردات :

مثل الذين حملوا التوراة : صفة اليهود الذين كلّفوا العمل بالتوراة .

ثم لم يحملوها : ثم لم يعملوا بها .

يحمل أسفارا : كتبًا عظامًا ، ولا ينتفع بها .

الذين هادوا : الذين تدينوا باليهودية .

ملاقيكم : موافيكم ومقابل لكم حيثما كنتم .

تمهيد :

فى هذه الآيات مناقشة لليهود الذين زعموا أنّ الرِّسالات والنبوات وقفٌ عليهم ، فهى لمن كان من نسل إسحاق ، ولا يجوز أن تكون لمن كان من نسل إسماعيل ، وقد امتنعوا عن الإيمان برسول الله محمد ﷺ حقدًا وحسدًا ، مع أن التوراة بشرت به ، فهم كالحمار يحمل كتب العلم النافعة ولا يستفيد بها ، واليهود يحملون التوراة ولا يعملون بأحكامها ، ووجه الشبه : حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل المشاق فى حمله .

وقد ادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فتحدَّاهم القرآن أن يتمنوا الموت ، لينتقلوا من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، حيث يزعمون أن الجنة لهم ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، فقال القرآن : إن كنتم أبناء الله وأحباءه فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ثم أوضح أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا ، بسبب ما قدموا

من تكذيب رسول الله ﷺ ، ومن تحريفهم التوراة ، والموت آتٍ لا مفر منه ، وعند الله وحده الجزاء ، وسوف يخبركم بأعمالكم ، ويجازيكم عليها جزاءً عادلاً .

التفسير :

٥ - ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

إن شبه اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة بعد أن أنزلها الله عليهم ، وأمرهم بالعمل بها وتنفيذ أحكامها ، كشبه الحمار الذى يحمل الكتب الكبيرة المشتملة على صنوف العلوم والمعارف ، ولا يفهم شيئًا منها ، ولا تفرقة عنده بين حمل كتب العلم أو حمل الأحجار .

ووجه الشبه هو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع قربه من الإنسان ، فما أقبح العالِم الذى يحوى العلوم ولا يحاول تطبيقها وتنفيذها .

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

بشّرت التوراة بأحمد ، وذكرت أنه نبى أمّى يُبعث فى أمّة أمية ، وأمرت بالإيمان به وتصْديقه ، فلما أرسله الله ، وكان اليهود يستفتحون بهذا النبى ، كفروا به وقالوا : إنه مرسل إلى العرب خاصة ، وكذّبوا بآيات الله التى دعتهم إلى الإيمان به ، وادعوا أن محمدًا ليس هو النبى الذى بشرت به التوراة ، وإنما هو رسول سيأتى بعدُ ، وكما كذّبوا بعيسى كذّبوا بمحمد ﷺ ، فبئس عملهم ، وما أقبح ما يمثّل به للمكذبين ، وما أشنع عملهم وسلوكهم .

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

الذين ظلموا الحق والعدل ، وحملهم الحقد والحسد على إنكار نبوة أحمد ، الله تعالى لا يهديهم إلى الإيمان ، ولا يفتح صدورهم لهداية الرحمن .

قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

٦ – قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

قل يا محمد لهؤلاء اليهود : إن كنتم تزعمون أنكم على هدًى ، وأن محمدًا وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضالّ من الفئتين ، إن كنتم صادقين فى هذا الزعم ، وأنكم أولياء الله وأحبابه حقًا ، فاطلبوا لأنفسكم الموت ، لتنعموا بالجزاء فى الجنة ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبَّ الخلوص من هذه الدار .

٧ – وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ .

إن اليهود لا يتمنَّون الموت أبدًا ، بسبب ما اكتسبت أيديهم من المعاصى والتحريف والتبديل ، والله تعالى عليم بأفعالهم ، رقيب على ما ارتكبوه ، وسيجازيهم عليه بما يستحقون .

٨ – قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

قل لهم يا محمد : إن الموت الذى تفرون منه ، وتخافون من مجرّد تمنّيه حتى بلسانكم ، آتيكم لا محالة ، ولا ينفعكم الفرار منه ، ولن تفلتوا من قبضته .

وهذا كقوله تعالى : أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... (النساء : ٧٨) . فهو قدر محتوم ، ولا يغنى حذَرٌ عن قدر .

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ...

ثم ترجعون إلى الله تعالى ، العالم بالظاهر والباطن ، المطّلع على النوايا والخفايا ، وعلى ما غاب عن الحسّ وما شهده الحس .

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فيخبركم بأعمالكم ، ويجازيكم عليها .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة البقرة : قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ . (البقرة : ٩٤ ، ٩٥) .

وهذا من إعجاز القرآن والسنة النبوية ، فإنهم كانوا يستطيعون أن يقولوا تحديًا للقرآن : نتمنى الموت ، ولو تمنَّوه لماتوا ، كما ثبت في السنة الصحيحة ، ولو ثبت المطالبون بالمباهلة من النصارى – أي الدعاء بنزول لعنة الله على الكاذب من الفريقين – لنزل الهلاك بهم .

وقد جاء في سورة آل عمران : فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ . (آل عمران : ٦١) .

أخرج الإمام أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنَّسائي ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيتُ محمداً عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ﷺ : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النّار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» .[٨٣]

★ ★ ★

صلاة الجمعة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

نـــودي : دُعي للصلاة بالأذان يوم الجمعة لصلاة الجمعة .

فاسعوا إلى ذكر الله : فامضوا إلى صلاة الجمعة ، التي يذكر فيها اسم الله .

ذروا البيع : اتركوه وتفرغوا لذكر الله .

فانتشروا : تفرَّقوا للتصرف في حوائجكم .

وابتغوا : واطلبوا .

انفضوا إليها : تفرقوا عنك قاصدين إليها .

تمهيد :

تحثّ الآيات المسلمين على العناية بصلاة الجمعة والاستعداد لها ، وترك البيع والشراء عند صلاة الجمعة ، والمراد ترك الانشغال بسائر الأعمال الدنيوية ، والتفرغ لأداء فرض صلاة الجمعة ، فإذا انتهت الصلاة أباح الله لكم التفرق فى الأرض للبيع والتجارة ، وطلب الرزق وسائر الأعمال ، والمراد : تفرَّغوا لصلاة الجمعة ، وأمامكم متسع بعدها لشئون دنياكم .

التفسير :

٩ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

يا معشر المؤمنين الصادقين ، إذا سمعتم الأذان لصلاة الجمعة ، فتوجهوا بقلوبكم وأجسامكم إلى الصلاة ، ومعلوم أنَّ الطهارة والوضوء والاستعداد للجمعة ، والتبكير إليها من الآداب المطلوبة ، وكذلك قراءة سورة الكهف وما تيسَّر من القرآن ، وإخراج صدقة ، والدعاء رجاء موافقة ساعة الإجابة .

فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ...

والسعى هنا مقصود منه المشى ، والتوجه فى هدوء وسمت صالح ، والجلوس فى المسجد ، واستماع الخطبة ، ومحاولة النظر إلى الخطيب ، من غير أن يتخطّى الرقاب أو يؤذى المصلّين .

وبعد استماع الخطبة يؤدّى صلاة الجمعة ، وهى ركعتان ، ويُسنُّ أن يقرأ فى الركعة الأولى الفاتحة وسورة الأعلى ، وأن يقرأ فى الركعة الثانية الفاتحة وسورة الغاشية .

والمراد بذكر الله فى الآية سماع الخطبة ، وأداء صلاة الجمعة .

وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ .

اتركوا البيع والشراء وكل مشاغل الحياة ، وتفرغوا لعبادة الله وأداء الفريضة، وفى ذلك تدريب عمليٌّ على الانقطاع عن شئون الدنيا ، والتوجّه بالقلب والفكر والبدن إلى عبادة الله ، واستماع الموعظة وأداء الصلاة .

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى : هذا الامتثال لأمر الله ، والاستعداد لصلاة الجمعة بالطهارة ولبس ثياب نظيفة حسنة ، والبكور إلى الجمعة ، وأداء الصلاة على النحو المطلوب ، أفضل وأحسن وأطمع فى الحصول على الثواب ، وعلى مرضاة الله ، إن كنتم من أهل العلم السليم والفهم القويم .

١٠ – فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إذا أدَّيتم صلاة الجمعة ، وقمتم بأداء هذه الفريضة الأسبوعية ، من سماع الخطبة وصلاة الجمعة ، فأمامكم متسع من الوقت للسعى فى الأرض بالتجارة أو الزراعة ، أو تلقى العلم ، أو سائر صنوف المعاش ، وخلال عملكم بعد صلاة الجمعة اذكروا الله ذكرا كثيرا ، فإن ذلك سبيل الفلاح والسعادة فى الدارين ، ونص هنا على ذكر الله ذكرا كثيرا ، حتى لا تستولى الدنيا بمشاغلها على القلب ، فعلى العبد أن يتعمد ذكر الله وهو فى قلب عمله ، راغباً فى طاعة الله تعالى وذكره وشكره .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وجاء فى تفسير القرطبى ، وتفسير ابن كثير وغيرهما ، أنّ عراك بن مالك كان إذا صلَّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهمّ إنّى قد أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين .

١١ – وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .

سبب النزول :

جاء فى صحيح مسلم ، عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام ، فانفتل الناس إليها ، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ، فأنزلت هذه الآية .[٨٤] .

معنى الآية :

الآية تعيب على من خرج وترك المسجد ، عندما سمع الطّبل أو اللهو والغناء ، وتُبيِّن أنّ ما عند الله من فضل ورزق ، ورضا وثواب ، خير من اللهو الدنيوىّ والتجارة الدنيويّة ، والرزق بيد الله ، فمن أدَّى فريضة الجمعة ، وخرج ساعيا على معاشه ، فإن الله يرزقه ، وهو خير الرازقين .

وقد ورد فى تفسير ابن كثير :

وفى سنن أبى داود أن صلاة الجمعة كانت قبل خطبة الجمعة ، مثل صلاة العيدين ، فلما أدّوا صلاة الجمعة ، وجلسوا لاستماع الخطبة إذْ بهم يسمعون صوت الطبل واللهو الذى يُضرب عند قدوم التجارة ، ليخبر الناس بقدومها فيذهبوا إليها ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح ، سروراً بها ، فلما دخلت العير كذلك ، انفض أهل المسجد إليها ، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر ، ولم يبق مع النبى ﷺ إلا اثنا عشر رجلا ، فنزلت الآية .

والآية تعيب على الناس ترك المسجد ، والإسراع إلى صوت اللهو والتجارة ، وترك النبى ﷺ قائما يخطب وليس أمامه إلا اثنا عشر رجلا .

متفرقات :

١ - اختلف الفقهاء فى العدد الذى تنعقد به الجمعة على أقوال كثيرة ، بلغت ثلاثة عشر قولا:

فقال الحنفية : ثلاثة رجال سوى الإمام .

واشترط المالكية حضور اثنى عشر رجلا للصلاة والخطبة .

وقال الشافعية والحنابلة : تقام الجمعة بحضور أربعين فأكثر بالإمام .

٢ - يباح عقب الفراغ من صلاة الجمعة الانتشار فى الأرض للسعى على الرزق ، وسائر الأعمال الدنيوية والدينية .

٣ - القيام فى الخطبة شرط لا تصح إلاّ به عند الشافعية والحنابلة اتباعا للسنة ، فالنبى ﷺ ما خطب إلا قائما .

والقيام واجب غير شرط عند المالكية ، فإن جلس أتم خطبته وصحت .

والقيام فى الخطبة سُنَّة عند الحنفية ، فلو خطب الإمام قاعداً جاز لحصول المقصود ، إلا أنه يُكره لمخالفته الموروث .

٤ - الخطبة شرط فى انعقاد الجمعة ، لا تصح إلا بها عند جمهور العلماء ، وقال سعيد بن جبير : الخطبة بمنزلة ركعتين من صلاة الظهر ، وصلاة الجمعة ركعتان .

٥ - الطهارة من الحدثين شرط فى صحة الخطبة عند الشافعى فى الجديد ، وليست شرطا عند الجمهور .

★ ★ ★

ملحق بتفسير الآيات

من كتاب (فقه العبادات) للدكتور عبد الله شحاتة

صلاة الجمعة

صلاة الجمعة فريضة محكمة ، ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ ... (الجمعة : ٩) .

وقال رسول الله ﷺ : «من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع الله على قلبه». (رواه الخمسة).

وفى الحديث : «إن أهل الكتابين أُعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصُرفوا عنه ، وهدانا الله تعالى له ، وأخّره لهذه الأمة وجعله عيدا لهم ، فهم أولى الناس به سبقا ، وأهل الكتابين لهم تبع» . (متفق عليه) [٨٥] .

وقد أجمع المسلمون كافة على وجوب صلاة الجمعة [٨٦].

آداب الجمعة :

من آداب الجمعة ما يأتى :

١ – الاستعداد لها من يوم الخميس بالذكر والاستغفار والدعاء والصلاة على النبى ﷺ .

٢ – الاغتسال والنظافة والزينة والسواك ، حتى يظهر المسلم بالمظهر الجميل اللائق بالمجتمعات ، وحتى تسود المودة والمحبة بين الناس .

٣ – الابتعاد عن أكل الثوم والبصل ، وكل ما يسبب الروائح الكريهة المؤذية التى تنفر الناس .

٤ – التبكير إلى صلاة الجمعة ، والجلوس فى الصف الأول ، وعدم مزاحمة الناس ، وعدم تخطى الرقاب ، والاشتغال بقراءة القرآن وصلاة التطوع .

٥ – قراءة سورة الكهف ، وسور الدهر والملك والسجدة ، أو ما تيسر للإنسان من القرآن .

٦ – الاشتغال بأعمال الخير من صدقة التطوع ، وصلاة النافلة ، وذكر الله ودعائه ، فإن فى يوم الجمعة ساعة إجابة [illegible] الدعاء .

٧ – قص الأظافر والشعر ، والتطيب ، والسعى إلى المسجد فى سكينة ووقار ، قال ﷺ : «من غسل واغتسل ، وبكر وابتكر ، ودنا من الإمام واستمع ، غفر الله له إلى الجمعة الأخرى» . [٨٧].

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر بما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يروح إلى المسجد لا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت للإمام إذا تكلم إلا غُفر له من الجمعة إلى الجمعة الأخرى» . [٨٨]. (رواه أحمد والبخارى) .

خطبة الجمعة :

من مظاهر الوحدة الإسلامية توافد المسلمين أفرادا وجماعات إلى المسجد يوم الجمعة ، وعلى وجوههم الخضوع والإنابة ، وفى قلوبهم تقوى الله والإيمان به ، والاستجابة لنداء الله القائل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ... (الجمعة : ٩) .

وذكر الأستاذ عباس العقاد [٨٩] : أن مجاورة اليهود للمسلمين عادت باليهود إلى إحياء السنن التى تركوها ، كشعائر الوضوء والغسل ، ونظام الصلاة الجامعة ، ورعاية آداب المسجد ، والصمت والأدب فى صلاة الجمعة .

ثم نقل اعترافا لرجل منهم دخل فى الإسلام ، قال فيه : إن سبب إسلامه هو رؤية المصلين يوم الجمعة خاشعين خاضعين ، حيث صعد الخطيب المنبر فى جبة سوداء ، وألقى عظة مناسبة تأثر بها من فى المسجد ، وكان هذا من أسباب هدايته إلى الإسلام .

آداب الخطبة :

إن خطبة الجمعة هى الغذاء الروحى لجماهير المصلين ، وهى النبأ الأسبوعى والرباط الروحى والمنبر التعليمى للتوجيه الدينى ، وينبغى أن تكون خطبة المسلمين فى أخص أحوال المسلمين .

ومما يساعد على نجاح الخطبة مراعاة الأمور الآتية :

١ – وحدة الموضوع ، فإن التنقل فى الخطبة الواحدة بين موضوعات شتى يقلل من روعتها ، ويضعف من قوة وقعها فى النفوس وأثرها فى القلوب .

٢ – تجنب التكرار ، فإن التكرار يبعث على الضجر والسآمة والملل .

٣ – جدية الموضوع ، وعرض أسرار الشريعة الإسلامية ومواطن القوة والحياة فى القرآن والإسلام ، وربط ذلك بالحياة المعاصرة لإحياء الشعور الروحانى فى ضمير الرجل العصرى .

٤ – تنسيق الخطبة بأن يفتتح الموضوع بمقدمة قصيرة ملائمة له ، ثم يعرض الموضوع مرتبا ترتيبا منطقيا متدرجا تدرجا يصل منه إلى الغاية فى يسر ووضوح وملاءمة لعقول السامعين .

٥ – يُسنّ للخطيب أن يُسلم على المصلين عند ارتقائه المنبر ، وأن يتحاشى الإطالة حتى لا يمل الناس فتضيع بذلك ثمرة الوعظ ، وأن يرفع صوته حتى يُسمع الحاضرين بقدر الإمكان ، وأن يتفاعل مع ما يقول بحيث يظهر عليه البِشر فى مواطن التبشير والترغيب ، والغضب فى مواطن الإنذار والترهيب .

٦ – هناك فرق بين الخطبة والدرس والمحاضرة ، فتتميز الخطبة بإثارة الانفعال ، وقصر العبارة ، ومخاطبة العاطفة ، وتحريك نوازع الخير ، وتسلسل الموضوع ، وتنويع الصوت بتنوع الأسلوب ، فيكون خفضه ورفعه بحسب ما يقتضيه المقام من تعجب ، واستفهام ، ودعاء ، ورجاء .

٧ – على الخطيب أن يبدأ الخطبة بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على النبى ﷺ ، وأن يورد آية من القرآن أو سورة خفيفة ، وأن يزين خطبته بالحديث النبوى والنصوص الدينية ، ثم يجلس فى نهاية الخطبة الأولى جلسة خفيفة يتمكن المصلون خلالها من الدعاء ، ثم يبدأ الخطبة الثانية بالحمد والثناء ، ويجعل الخطبة الثانية مختصرة مركزة ، وربما أورد فيها خاتمة للخطبة الأولى تكون صدى لموضوعه وتتمة لعرضه ، ومن الجائز أن تكون مستقلة عن الخطبة الأولى أو مشتملة على توجيه جديد ، ثم يعقبها بالدعاء للمسلمين والمسلمات .

٨ – يستحب أن يكون الخطيب بليغا ، مواظبا على الصلاة ، ملتزما بما يقوله ، فإن القدوة العملية لها أكبر الأثر فى تقبل الموعظة ، وخطيب المسجد رائد دينى وموجه للحى ، فلو نهض إمام المسجد بواجبه لكان لذلك أثره فى النهوض الدينى والاجتماعى والرقى الفكرى والإنسانى .

الخطبة ثم الصلاة :

بعد استماع الخطبة فى إنصات وأدب ، وصمت وخشوع ، ينزل الخطيب من على المنبر فيصلى بالناس صلاة الجمعة ، وهى ركعتان ، يقرأ فى كل ركعة الفاتحة وسورة .

روى سمرة بن جندب : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . و : هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ .[٩٠] (رواه أبو داود والنسائى) .

مَن تجب عليه الجمعة :

تجب الجمعة على : المسلم ، الحر ، العاقل ، البالغ ، المقيم ، القادر على السعى إليها ، الخالى من الأعذار المبيحة للتخلف عنها .

من لا تجب عليه الجمعة :

لا تجب الجمعة على الأصناف الآتية :

١ – المرأة .

٢ – الصبى .

٣ – المريض .

٤ – المسافر .

٥ – المختفى من الحاكم الظالم .

٦ – كل معذور مرخص له فى ترك الجماعة ، كعذر المطر والوحل والبرد ونحو ذلك .

وكل هؤلاء لا جمعة عليهم ، وإنما يجب عليهم أن يصلوا الظهر ، ومن صلى منهم الجمعة صحت منه ، وسقطت عنه فريضة الظهر ، وكانت النساء يحضرن إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ ويصلين معه الجمعة .

وقت الجمعة :

ذهب الجمهور من الصحابة والتابعين إلى أن وقت الجمعة هو وقت الظهر ، وذهب الحنابلة إلى أن وقت الجمعة من أول وقت صلاة العيد [٩١] إلى آخر وقت الظهر .

العدد الذى تنعقد به الجمعة :

لا خلاف بين العلماء فى أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، للحديث الشريف : «الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة» [٩٢] .

واختلفوا فى العدد الذى تنعقد به الجمعة ، فقال الحنفية : أقله خمسة ، وقال المالكية : أقله اثنا عشر ، وقال الشافعية والحنابلة : أقله أربعون .

وجاء فى فقه السنة : والرأى الراجح أنها تصح باثنين فأكثر ، للحديث الشريف : «الاثنان فما فوقهما جماعة» [٩٣] .

مكان الجمعة :

الجمعة يصح أداؤها فى المصر والقرية والمسجد وأبنية البلد والفضاء التابع لها ، كما يصح أداؤها فى العزب والكفور ، ويصح أن تتعدد الجمعة بعدد المساجد .

وقال الحنفية : لا تقام الجمعة إلا فى المصر الجامع ، ولابد فيها من السلطان أو نائبه .

ورأى الجمهور أقوى وأولى من رأى الحنفية .

قال صاحب الروضة الندية : هى كسائر الصلوات لا تخالفها ، لكونه لم يأت ما يدل على أنها تخالفها ، وفى هذا الكلام إشارة إلى ردّ ما قيل من أنه يشترط فى وجوبها الإمام الأعظم والمصر الجامع والعدد المنصوص ، فإن هذه الشروط لم يدل عليها دليل يفيد استحبابها فضلا عن وجوبها (٩٤) .

حكمة الجمعة :

الجمعة لقاء أسبوعى منظم ، يلتقى فيه المسلمون لتدارس شئونهم وتدبر أمورهم ، والتفقه فى شئون دينهم . ولقد كان الأسبوع من قديم الزمان وحدة زمنية معترفًا بها بين العرب والعجم جميعا ، وكان لأهل كل دين فيه يوم مفضل ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، ثم كان للمسلمين يوم الجمعة ، وقد ميزه الله باستجابة الدعاء ، ومضاعفة الثواب ، وجعله موسما لقراءة القرآن وإكثار الصدقة وشهود الجماعة والجمعة.

قال ﷺ : «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء الله له من النور ما بين الجمعتين» . (٩٥) .

خطيب الجمعة :

خطيب الجمعة هو لسان المسلمين وداعيتهم إلى الله ، ومن الواجب أن يكون الداعية إلى الله محيطا بالقرآن ، عارفا بالسُّنّة ، دارسا لمجموعة من العلوم والمعارف ، خبيرا بحاجة المجتمع ، بصيرا بمواطن الداء وتحديد الدواء .

لقد مرّت على الناس أزمان كان الخطيب يكرر على المصلين خطبا مسموعة معدة من ديوان أو كتاب ، لا روح فيها ولا حياة ، والآن تتطور المجتمعات وتتفتح الأذهان ، ويتنبه الناس إلى أن الدين الحق هو روح المجتمع وسعادته ، وقد سعد المسلمون الأولون بقربهم من الإسلام وحبهم للقرآن ، فالتزموا أوامر الله وأخلصوا لدينه فنصرهم الله على العباد وفتح لهم البلاد ، وحين ابتعد المسلمون عن الإسلام أصابهم التأخر والجمود .

والعلماء والخطباء هم دعاة الحق ومصابيح الهدى ، فعليهم أن يعملوا على النهوض برسالتهم ، وأن يعدوا خطبهم ، وأن يوسعوا دائرة ثقافتهم ، وأن يتعرفوا على خصائص الجمهور الذى يتحدثون إليه ، فالفلاح والعامل والصانع والتاجر وغيرهم ، لكل فئة من هذه الفئات حديث يؤثر فيها ويثير اهتمامها ، ويحرك بواعث الخير ، ودوافع الإيمان فى قلوبهم ، وقد أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأن نحدثهم بنفس حديثهم .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

وحماسة الخطيب لموضوعه واقتناعه به له أكبر الأثر في قبول الخطبة وعظم تأثيرها .

روى مسلم ، وابن ماجة ، عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول صبحكم ومساكم.[٩٦] .

اقتصاد الخطيب في التخويف والتحذير :

درج بعض الخطباء على تحذير الناس من الشر وتذكيرهم بالموت ، وتكرير نغمة رتيبة عن فساد المجتمع ، وما أصاب النساء من الخلاعة ، وما منى به الشباب من الاستهتار ، وهذا كلام للاستهلاك المحلي، لا يفيد إلا اليأس والأسف ، ولا نمانع من التعرض له تعرضا يسيرا بقصد التوجيه والإفادة ، ولكنا نمانع تكرير الخطب في أمور سلبية ، كالأسف على فساد الزمان ، أو التخويف من الموت والبلى ، وفناء الدنيا وهجوم الموت على الإنسان ، نريد أن تكون الخطبة أسلوبا للبناء وطريقا لإحياء العادات السليمة ، والمنهج القرآني الحكيم الذي أعد الرجال ومنحهم العزيمة والثقة والإيمان والثبات ، ورسم الطريق للأسرة المؤمنة ولتكافل المجتمع ، وتواصي الناس بالخير والصبر ، ودفع المؤمنين إلى الجهاد والنضال وبناء صرح الإسلام عاليا حتى يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

قال النووي :

يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة ، مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تقعير ، ولا تكون ألفاظا مبتذلة ملفقة لأنها لا تقع في النفوس موقعا كاملا ، ولا تكون وحشية لأنها لا يحصل مقصودها ، بل يختار ألفاظا جزلة مفهمة .

وقال ابن القيم :

وكذلك كانت خطبه ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبه إيمانا وتوحيدا ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره التي تفيد أمورا مشتركة بين الخلائق وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيمانا بالله ولا توحيدا له ، ولا معرفة خاصة ولا تذكيرا بأيامه ، ولا بعثا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم ، فياليت شعري أي إيمان حصل بهذا ؟ وأي توحيد وعلم نافع يحصل به ؟ ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه !

خلقه ، وأيامه التى تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذى يحببهم إليه فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم ، ثم طال العهد وخفى نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوما تقوم من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سننا لا ينبغى الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد التى لا ينبغى الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع وعلم البديع ، فنقص - بل عدم - حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .

حرمة الكلام أثناء الخطبة :

ذهب الجمهور إلى وجوب الإنصات وحرمة الكلام أثناء الخطبة ، ولو كان أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر ، سواء أكان يسمع الخطبة أم لا .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا ، والذى يقول له : أنصت ، لا جمعة له» (٩٧) .

حكم المسبوق فى صلاة الجمعة :

من أدرك ركعة من الجمعة مع الإمام فقد أدرك الجمعة ، وعليه أن يضيف إليها أخرى .

قال ﷺ : «من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة كلها» . (رواه الجماعة) .

وأما من أدرك أقل من ركعة فإنه لا يكون مدركا للجمعة ويصلى ظهرا أربعا (٩٨) .

قال ابن مسعود : من أدرك من الجمعة ركعة فليضف إليها أخرى ، ومن فاتته الركعتان فليصل أربعا . (رواه الطبرانى بسند حسن) .

الصلاة فى الزحام :

يجوز فى الزحام أن يسجد المصلى على ظهر الذى أمامه أو على رجله .

روى أحمد ، والبيهقى ، عن سيار ، قال : سمعت عمر وهو يخطب يقول : إن رسول الله ﷺ بنى هذا المسجد ونحن معه - المهاجرون والأنصار - فإذا اشتد الزحام فليسجد الرجل على ظهر أخيه . ورأى قوما يصلون فى الطريق فقال : صلوا فى المسجد . (٩٩) .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الجمعة) عصر يوم الخميس ٣٠ من شوال ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٥ من يناير ٢٠٠١ . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلّم تسليما كثيرا .

★ ★ ★


تفسير سورة المنافقون

أهـــداف ســـورة المنافـقـــون

(سورة المنافقون مدنية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة الحج)

والنفاق هو إظهار الإسلام أمام المسلمين ، وإضمارُ غير الإسلام ، والنفق بفتحتين سرب فى الأرض يكون له مخرج من موضع آخر ، ونافق اليربوع إذا أتى النافقاء، أى دخل من مكان وخرج من مكان ، ومنه قيل : نافق الرجل ، إذا دخل فى الإسلام أمام المسلمين ، ودخل فى عداوة الإسلام أمام غير المسلمين .

والنفاق قسمان :

القسم الأول : نفاق العقيدة ، وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر .

والقسم الثانى : نفاق العمل ، وهو الرياء والسمعة والتظاهر ، وإبراز الأمور على غير حقيقتها .

النفاق فى المدينة

لم يظهر النفاق بمكة لأن المسلمين كانوا مستضعفين ، وكان أهل مكة يعلنون لهم العداء ، ويجابهونهم بالإيذاء ، ثم هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، والتف حوله الأنصار والمهاجرون ، وقويت شوكته بوحدة المسلمين وتماسكهم ، وظل الإسلام يتفوق يوما بعد يوم ، ويدخل فيه وجوه أهل المدينة من رجال الأوس والخزرج ، وأهل العصبية فيهم ، عندئذ رأى بعض المنافقين أن يدخلوا فى الإسلام مجاملة لأهله ، وأن يبيتوا الكيد والخداع للمسلمين .

وقد قبل النبى ﷺ من الناس ظواهرهم ، وترك بواطنهم إلى الله ، ولكنّ الأحداث كانت تُعرِّف المسلمين بهؤلاء المنافقين ، فإذا وقع المسلمون فى شدة أو انهزموا فى معركة تجرأ هؤلاء المنافقون على تجريحهم والتشهير بهم جهارا نهارا . وإذا أنعم الله على المؤمنين بالنصر اختبأ المنافقون فى جحورهم ، وغيروا طريقتهم ، وانتقلوا من باب المواجهة إلى الكيد والدَّس فى الخفاء .

وكان اليهود فى المدينة يكوِّنون جبهة قوية ، وقد ساندوا المنافقين وشجعوهم ، وكوّن الطرفان جبهة متحدة لمناوأة الإسلام والمسلمين .

وكان عبد الله بن أُبى بن سلول زعيمَ المنافقين بالمدينة ، وكان من وجهاء الأنصار ، وكان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم ، فلما جاء الإسلام للمدينة ، وتعاظمت قوة المسلمين يوما بعد آخر ، وأصبح النبى الأمين صاحبَ الكلمةِ النافذة ، والأمرِ المطاع ، اشتد حقد عبد الله بن أُبى لضياع الملك من بين يديه ، وكوّن جبهة للنفاق تُشيع السوء والفتنة ، وتُدبر الكيد والأذى للمسلمين .

وشاء الله أن يمتحن المسلمين بوجود اليهود فى المدينة ، وبوجود المنافقين فترة طويلة صاحبت نشوء الدعوة بالمدينة ، ولم يشأ الله أن يُعرف النبى ﷺ بأسمائهم إلا فى آخر حياته ، وقد أخفى النبى أسماءهم عن الناس ، وأعلم واحدا فقط من الصحابة بهم هو النعمان بن مقرن ليظل أمرهم مستورا .

وكان بعضهم ينكشف أمره من سلوكه وفعله وقوله وقسمات وجهه وتعبيراته .

قال تعالى : وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ . (محمد : ٣٠) .

قصة نزول السورة

فى كثير من كتب التفسير [١٠٠] والسيرة [١٠١] : أن هذه السورة نزلت فى أعقاب غزوة بنى المصطلق ، وقد انتصر فيها المسلمون ، وغنموا غنائم كثيرة ، وقد وقعت فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة (ديسمبر ٦٢٦ م) . وبعد المعركة ازدحم على الماء رجلان ، أحدهما أجير لعمر بن الخطاب وهو جهجاه بن سعيد ، والثانى حليف بنى عون بن الخزرج وهو سنان الجهنى ، وتضاربا فقال جهجاه : يا للمهاجرين ، وقال سنان : يا للأنصار ، فاجتمع عليهما المتسرعون من المهاجرين والأنصار حتى كادوا يقتتلون ، وأوشكت أن تقوم الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، فلما سمع رسول الله ﷺ الصراخ خرج مسرعا يقول : «ما بال دعوى الجاهلية» ؟ فأخبروه الخبر ، فصاح غاضبا : «دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة» [١٠٢] . وأدرك الفريقين فهدأ من ثورتهما ، وكلم المضروب حتى أسقط حقه ، وبذلك سكنت الفتنة وتصافى الفريقان .

ولكن عبد الله بن أُبى عزّ عليه أن تنطفئ هذه الشرارة قبل أن تحدث حريقا بين المسلمين ، وأن تموت هذه الفتنة قبل أن تذهب بما فى صفوف المسلمين من وحدة وائتلاف ، فأخذ يُهيج من معه من الأنصار ويثير ضغينتهم ضد المهاجرين ، وجعل يقول فى أصحابه :

(والله ما رأيت كاليوم مذلة ، لقد نافرونا وكاثرونا فى بلدنا ، وأنكروا مِنّتنا ، والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك .. لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) . يقصد بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله ﷺ .

ثم أقبل ابن أُبى على من حضره من قومه يلومهم ويعنفهم فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وأنزلتموهم منازلكم ، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا .. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم .. ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا ، فقتلتم دونهم ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا .. فلا تنفقوا على من حوله حتى ينفضوا .

وكان فى القوم زيد بن أرقم – وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم ، أو قد بلغ حديثا – فنقل كلام ابن أُبى إلى الرسول ﷺ ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، وتأثر من معه من المهاجرين والأنصار ، وشاع فى الجيش ما قاله ابن أُبى حتى ما كان للناس حديث غيره ، وقال عمر للنبى : يا رسول الله ، مُرْ بلالا فليقتله ، وهنا ظهر النبى كدأبه بمظهر القائد المحنك والحكيم البعيد النظر ، إذ التفت إلى عمر وقال : «فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» ؟ ولكنه قدر فى نفس الوقت أنه إذا لم يتخذ خطوة حازمة فقد يستفحل الأمر . لذلك أمر أن يؤذن فى الناس بالرحيل ، فى ساعة لم يكن يرتحل فيها المسلمون .

وترامى إلى ابن أُبى ما بلغ النبى عنه ، فأسرع إلى حضرته ينفى ما نُسب إليه ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به ، ولم يغير ذلك من قرار النبى ﷺ بالرحيل .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسيد بن حضير [١٠٣] ، فحيّاه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال رسول الله ﷺ : «أو ما بلغك ما قال صاحبكم» ؟ قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : «عبد الله بن أُبى» . قال : وما قال ؟ قال : «زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» . قال أسيد : فأنت يا رسول الله – والله – تخرجه منها إن شئت ، هو – والله – الذليل وأنت العزيز ، فى عز من الرحمن ومنعة المسلمين . ثم قال أسيد : يا رسول الله ، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذاك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما .. وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليشغل الناس عن كلام عبد الله بن أُبى .

ونزلت سورة المنافقون فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره ، ولما نزلت السورة قال رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إن الله قد صدقك وكذب المنافقين » .

ولما ظهر كذب عبد الله بن أبى قيل له : قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك ، فلوى رأسه وقال : أمرتمونى أن أؤمن فآمنت ، وأمرتمونى أن أزكى مالى فزكيت ، وما بقى إلا أن أسجد

لمحمد ، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. (المنافقون : ٥) .

ويلغ عبدَ الله بن عبد الله بن أُبى الذى كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أُبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أُبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا» .

مع السورة

وصفت الآيات الأربع الأولى من السورة رياء المنافقين ، وكشفت خداعهم ، إنهم يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ويسارعون بالشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، وهم كاذبون فى هذه الشهادة ، لأنها لا تطابق عقيدتهم ، ولا توافق ما يضمرونه فى قلوبهم . (آية :١) .

وكانوا يحلفون بالله كذبا ، ويتحصنون بهذه الأيمان ، وبئست أفعال الرجال ، الكذب والأيمان الفاجرة . (آية :٢) .

لقد تكرر نفاقهم ، وطبع اللّه على قلوبهم ، فلا ينفذ إليهم الهدى والإيمان . (آية :٣) .

وكان فيهم أقوام صباح الوجوه ، أشداء البنية ، فصحاء الألسنة ، فإذا تكلموا أعجبوا السامع بكلامهم المعسول ، ولكن واقعهم لا يوافق ظاهرهم ، وإن عداوتهم ضارية ، فاحذرهم ، واتق جانبهم فى حياتك ، فإنهم سيلقون مصيرهم المحتوم بالهلاك والنكال . (آية :٤) .

وتشير الآيات (٤ – ٨) إلى ما حدث من عبد اللّه بن أُبى بن سلول فى أعقاب غزوة بنى المصطلق ، وقد مرت قصتها .

ولما انكشف أمره ، دعاه الناس ليستغفر له الرسول الأمين ، فأعرض ولوى وجهه ، خوفا من مواجهة الرسول بالحقيقة . (آية :٥) .

وكان ابن أُبى قد طلب من بعض الأنصار أن يُمسكوا نفقتهم ومساعدتهم عن المهاجرين ، حتى ينفضوا عن النبى الكريم ﷺ ، فذكر القرآن أن خزائن اللّه عامرة ، وخيره لا ينفد ، وهو الرزاق ذو القوة المتين. (آية : ٧) .

كان ابن أبىّ يبيت كيدا مع أتباعه ويتوعد بأن يخرج النبى من المدينة ذليلا ، فبين اللّه أن العزة للّه ولرسوله وللمؤمنين ، بالإيمان وبمساعدة الرحمن وبعون اللّه القوى المتين ، ولكن المنافقين لا يفقهون هذه المعانى الكريمة . (آية : ٨) .

أما المقطع الأخير فى السورة ويشمل الآيات (٩ – ١١) فإنه يتوجه إلى المؤمنين بالنداء ألا تشغلهم أموالهم ولا أولادهم عن تذكر ربهم ، والقيام بحقه ومرضاته ، وتأمرهم بالصدقة والزكاة وعمل الخير ، فاللّه مصدر الرزق ، وله الحمد فى الأولى والآخرة . فأنفق وأنت صحيح شحيح ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم تمنيت العودة للدنيا لإخراج الصدقة وعمل الصالحات ، ولكن الأجل إذا جاء لا يتأخر لحظة ، بل يساق الإنسان إلى الخبير العليم فيلقى جزاء ما قدم .

وهكذا تختم السورة بهذه الدعوة إلى الإخلاص للّه ، وامتثال أوامره ، فهو مُطّلع وشاهد ، وهو الحكيم العادل .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود السورة : تقريع المنافقين وتبكيتهم ، وبيان ذلهم وكذبهم ، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم ، وبيان عزهم وشرفهم ، والنهى عن نسيان ذكر الحق تعالى ، والغفلة عنه ، والإخبار عن ندامة الكفار بعد الموت ، وبيان أنه لا تأخير ولا إمهال بعد حلول الأجل ، فى قوله تعالى : وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون :١١) .

★ ★ ★

صفات المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞
وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ
يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

المنافقون : الذين كانوا يُظهرون الإيمان ويُخفون الكفر .

جُنة : وقاية وستراً لدمائهم وأموالهم .

آمنوا : أى : بألسنتهم .

ثم كفروا : أى : بقلوبهم .

فطبع على قلوبهم : ختم عليها بالكفر .

لا يفقهون : لا يدركون حقيقة الإيمان ، ولا يعرفون صحته .

تعجبك أجسامهم : لسلامتها وصباحتها وتناسق أعضائها .

تسمع لقولهم : لفصاحتهم وحسن حديثهم .

خُشُب : جمع خشباء ، وهى الخشبة المنخور جوفها .

يحسبون كل صيحة عليهم : يظنون أن كلّ صوت واقع بهم ، لجبنهم وهلعهم .

قاتلهم الله : لعنهم وطردهم من رحمته وأهلكهم .

أنـــى يـــؤفـــكـــون : كيف يُصرفون عن الحق والإيمان بعد قيام البرهان .

تمهيد :

يتستر المنافقون فى الظلام ، لكنَّ القرآن يكشفهم ويحدد معالمهم فيما يأتى :

١ – فَهُمْ كذّابون يقولون غير ما يعتقدون .

٢ – إنهم لايبالون بالحلف بالله كذباً ، سترا لنفاقهم .

٣ – إنهم جبناء ، فهم على ضخامة أجسامهم فى غاية الهلع ، يظنون أن كل منادٍ ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

التفسير :

١ – إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ.

كان المنافقون يحلفون كذبا لرسول الله ﷺ ، ويشهدون مؤكدين شهادتهم ، بأن محمداً رسول الله .

والله تعالى يعلم أن محمداً رسول الله حقا وصدقا ، والله تعالى يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون فى دعواهم الإيمان ، وإنما هم منافقون ، يُظهرون هذه الشهادة نفاقا ورياء، ويبطنون الكفر والكيد للإسلام ولرسوله .

جاء فى التسهيل :

وقوله : وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ... ليس من كلام المنافقين ، وإنما هو من كلام الله تعالى ، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله : وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ. إبطال للرسالة ، فوسّطه بين حكاية المنافقين ، وبين تكذيبهم ، ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة .

٢ – ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

لقد أعدّوا أيمانهم الكاذبة وقاية لهم من القتل ، وحفظا لأموالهم وأولادهم .

فهم شوكة فى جنب المسلمين ، لأنهم يتظاهرون بالإيمان والإسلام ، ويبطنون الكيد والدّس للإسلام والمسلمين ، وقد اغترّ بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم ، فامتنع عن الإسلام ، أو امتنع عن الفداء والتضحية للإسلام بسبب وساوسهم ، وتثبيطهم للناس عن الدخول فى الإسلام ، أو عن الإخلاص للّه ورسوله ، فما أقبح عملهم ، وما أسوأ فعلهم ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

وسيلقون جزاءهم فى الدنيا والآخرة :

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد .

قال تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ . (التوبة :٨٤) .

وأما فى الآخرة فإنهم فى أسوأ درجات النار .

قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . (النساء : ١٤٥) .

٣ – ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

لقد آمنوا بألسنتهم ، وكفروا بقلوبهم ، واستحبوا العمى على الهدى ، واستعذبوا الخيانة والغدر ، وتبييت الكيد والدسّ للمسلمين ، فختم الله على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ولا ينفذ إليها نور أو هداية ، فأصبحوا لا يفهمون ما فيه رشدهم وصلاحهم ، ولا يهتدون إلى الأدلة الملموسة الواضحة ، الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق الرسالة .

٤ – وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

كان عبد الله بن أُبى زعيم المنافقين جسيما وسيما ضخما ، زلق اللسان ، حسن الصوت ، وكانت معه مجموعة على شكله ، يجلسون فيحسبهم الناظر إليهم أنهم شىء جميل ، والواقع أن داخلهم معطوب بالنفاق .

والمعنى :

إذا رأيت شكلهم أعجبك ظاهرهم ، وإذا تكلموا أعجبك حديثهم ، وتصرّفهم في القول وحسن صوتهم ، لكن داخلهم سيئ ، وباطنهم نفاق وحقد وحسد وضغينة ، كأنهم خُشب مأخوذ قلبها ، فهى حسنة فى الظاهر رديئة فى الباطن ، ومع ضخامة أجسادهم فإنهم فى غاية الهلع والخوف ، إذا سمعوا صوتا عاليا ، أو أُنشدت دابة ، أو صاح صائح بصوت مرتفع ، تملكهم الهلع والخوف ، خشية أن يفتضح أمرهم ، وأن يكشف سترهم ، وأن يظهر للناس نفاقهم .

ولقد قالوا : (يكاد المريب يقول خذونى) ، ويكاد السارق يقول – إذا رأى القيد – ضعوه فى يدى، من الرهبة والخوف من سوء أعمالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا . (الأحزاب : ١٩) .

وقد نظر المتنبى إلى الآية فى قوله :

وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم ... إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ...

هم العدوّ الحقيقى لك . فَٱحْذَرْهُمْ . ولا تكشف لهم أسرارك، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ، واحذر مؤامراتهم ودسائسهم .

قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

لعنهم الله وطردهم من رحمته وأهلكهم ، كيف يصرفون عن الحقّ والنور والهدى والرسالة ، ويميلون إلى الباطل والكفر ، والدسّ والخداع ، وصدّ الناس عن سبيل الله ، مع وجود النبى الخاتم والوحى الصادق ، ونور الإسلام وبرهانه ، ومع هذا اختاروا الضلالة وتركوا الهدى .

ولله در أبى نواس :

لا تخدعَنْك اللحى ولا الصُّور ... تسعةُ أعشار من ترى بقر

تراهم كالسراب منتشراً ... وليس فيه لطالب قطر

فى شجر السَّرو منهمُ مثلٌ ... له رُواءٌ وما له ثَمَرُ

★ ★ ★

صفات أخرى للمنافقين

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ
لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ
عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾

المفردات :

لوّوا رؤوسهم : حوّلوها استهزاء .

يصدّون : يُعرضون عن القائل .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله وطاعة الرسول ، المنهمكين فى أنواع الشرور والآثام .

حتى ينفضوا : حتى يتفرقوا .

خزائن السماوات والأرض : خزائن الأرزاق فيهما .

لا يفقهون : لا يعلمون علماً صادراً عن إدراك جلال الله وقدرته .

الأعز : المنافقون فى زعمهم .

الأذل : فى زعمهم : رسول الله ﷺ .

العزة : الغلبة والنصر .

لا يعلمون : ذلك من فرط جهلهم وغرورهم .

سبب النزول :

أخرج البخارى ، ومسلم ، والترمذى بمعناه فى بيان سبب نزول هذه الآيات : أن النبى ﷺ غزا بنى المصطلق على ماء يقال له : (الْمُرَيْسِيع) من ناحية (قُدَيد) إلى الساحل ، فازدحم أجير لعمر يقال له : جَهْجاه مع حَليف لعبد اللّه بن أُبى يقال له : سِنان على ماء (بالْمُشَلل) فصرخ جهجاه بالمهاجرين ، وصرخ سِنان

بالأنصار ، فلَطَم جهجاه سناناً ، فقال عبد الله بن أُبى : أَوَ قد فعلوها ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل – يعنى محمداً ﷺ – ثم قال لقومه : كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل ، ولا تنفقوا على من عندَه حتى ينفضّوا ويتركوه ، فقال زيد بن أرقم – وهو من رهط عبد الله – : أنت والله الذليل الْمُنْتَقَص فى قومك ، ومحمد ﷺ فى عز من الرحمن ومودّة من المسلمين ، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً ، فقال عبد الله : اسكت إنما كنت ألعب . فأخبر زيد النبى ﷺ بقوله ، فأقسم بالله ما فعل ولا قال ، فعذره النبى ﷺ . قال زيد : فوجدت فى نفسى ولامنى الناس ، فنزلت سورة المنافقون فى تصديق زيد وتكذيب عبد الله ، فقيل لعبد الله : قد نزلت فيك آيات شديدة ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك ، فألوى برأسه ، فنزلت الآيات .

نزول الآية (٦) :

أخرج ابن جرير ، عن عروة قال : لما نزلت: ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ... (التوبة : ٨٠) . قال النبى ﷺ : «لأزيدن على السبعين» ، فأنزل الله : سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ . (المنافقون : ٦) .

نزول الآيتين (٧ ، ٨) :

أخرج البخارى كما تقدم ، وأحمد وغيرهما ، عن زيد بن أرقم قال : سمعت عبد الله بن أُبى يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمّى ، فذكر ذلك عمى للنبى ﷺ ، فدعانى النبى ﷺ ، فحدثته ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبى وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبنى وصدّقه ، فأصابنى شىء لم يصبنى مثله ، فجلست فى البيت ، فقال عمى : ما أردتَ إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك ، فأنزل الله : إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ... فبعث إلىّ رسول الله ﷺ فقرأها ، ثم قال : «إن الله قد صدَّقك» .[١٠٤]

وروى الترمذى أيضًا عن زيد بن أرقم : أن أعرابيًا نازع أنصاريًا فى بعض الغزوات على ماء ، فضرب الأعرابى رأسه بخشبة فشجّه ، فشكا إلى ابن أُبىّ ، فقال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرج الأعز الأذل . عنى بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ .

التفسير :

٥ – وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ

كان عبد الله بن أبى بن سلول كبيراً للمنافقين ، حريصا على الإساءة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، ولما تكلم عن رسول الله ﷺ كلامًا سيئًا، ووصى ابن سلول أتباعه ألا ينفقوا على فقراء المهاجرين ، حتى

ينصرفوا عن محمد ﷺ، بلغ هذا الكلام رسول الله ﷺ ، فاستدعى عبد الله بن أُبى ، فأقسم كذبا أنه ما قال ذلك .

ثم فضح الله المنافقين بنزول وحى السماء ، فى صدر سورة المنافقين ، وكان للمنافقين أقاربُ وأهل من المؤمنين ، فقالوا لهم : لقد فضحكم الوحى ، فاذهبوا إلى رسول الله ﷺ يستغفر لكم ، وتوبوا إلى الله ، وعودوا إلى صفوف الإيمان ، فتكبّر المنافقون ، وأمالوا رؤوسهم كبرا واستنكافا أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ ، وأعرضوا عن الهداية استكبارًا وانصرافًا عن الهدى .

رُوى أن الأنصار قالوا لعبد الله بن أُبى بن سلول : لقد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك ، فلوى رأسه ، ثم قال : أمرتمونى أن أؤمن فآمنت، وأمرتمونى أن أزكىّ فزكيت ، فما بقى إلاّ أن أسجد لمحمد ، فنزلت : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ...

معنى الآية :

وإذا قيل للمنافقين مثل عبد الله بن أُبى ، والجدّ بن قيس ، ومعتب بن قشير : تعالوا إلى رسول الله ﷺ يطلب من الله المغفرة لكم ، والتوبة عليكم ، وهدايتكم إلىٰ نور الإيمان والإخلاص له ، أمالوا رؤوسهم كبرًا وتيهًا ، وشاهدتهم يعرضون عن السير إلى رسول الله ﷺ ، حال كونهم مستكبرين عن الاستهداء بهدى الإسلام .

٦ - سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ .

كان النبى ﷺ حريصا على الاستغفار لهم ، حتى أعلمه الله تعالى أنه سبحانه قد غضب على المنافقين وختم على قلوبهم ، فهو لن يوفقهم ، ولن يمنحهم الهدى ، ليسيروا فى طريق الإيمان ، لقد عصوا الله ونافقوا ، واستكبروا عن الذهاب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لهم .

وهداية السماء غالبة ، والله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ . (الليل : ٥ - ١٠) .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

فهؤلاء المنافقون أعرضوا عن دين الله ، وأمَامَهم النبى الخاتم ، والرسول الهادى ، لكنّهم ناوأوه وآذوه وتكلموا عليه كلاما قبيحا ، فغضب الله عليهم ، وقال لنبيه ﷺ : الاستغفار لهم وعدمه سواء بالنسبة

لهم ، فمهما استغفرت لهم فإن الله تعالى لن يغفر لهم ، لأنهم فسقوا وخرجوا عن أمر الله ، وصدُّوا عن سبيله ، وشككوا ضعاف الإيمان فى إيمانهم بالله .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ .

لقد أغلقت قلوبهم على النفاق والبعد عن الهداية ، وعميت بصائرهم عن نور الإيمان ، فسلب الله هدايته عنهم لفسقهم وضلالهم .

٧ - هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

كان عبد الله بن أُبى قد جلس مع قومه بعد نزاع على الماء بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، حيث قال المهاجرىّ : يا للمهاجرين ، وقال الأنصارى : يا للأنصار ، واجتمع الناس .

وبلغ ذلك النبى ﷺ فخرج جزعا يجرّ رداءه ، وقال : «ذروها فإنها منتنة ، ليس منا من دعا إلى عصبية» .

فكفّ الناس عن الشجار ، وعادوا نادمين ، لكن عبد الله بن سلول ، قال : أوقد فعلوها ، ما مثلنا ومثل أصحاب محمد إلا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك ، لا تنفقوا على فقراء المهاجرين حتى ينفضوا عن محمد ويتركوه . فأنزل الله تعالى هذه الآية توضح ما فعله عبد الله بن أُبى وأمثاله .

والمعنى :

يقول هؤلاء المنافقون : لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين الذين جُلبوا من مكة إلينا ، حتى يتفرقوا عن محمد ، وتواصَوْا بتضييق الأرزاق وفُرص العمل ، وإغلاق أبواب الكسب فى وجوههم .

لكن الله تعالى رد عليهم قائلا : وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

إن الأرزاق بيد الله ، وبيده العزّ والذل ، وهو سبحانه بيده مفاتيح خزائن السماوات والأرض ، وبيده أرزاق العباد .

قال تعالى : وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ .
(الذاريات : ٢٢ ، ٢٣)

فالله تعالى هو المسبب للأرزاق ، والعبيد سبب ظاهرى .

وفى الحديث النبوى الشريف : «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرُّوك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، جفّت الأقلام وطويت الصحف» (١٠٥).

وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

لا يدركون أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وهو الرازق لهؤلاء المهاجرين ، فقد أكرمهم الله وسجّل جهودهم.

قال تعالى : لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ . (الحشر : ٨) .

٨ - يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

يقول عبد الله بن أُبى بن سلول رئيس المنافقين لمن حوله من المنافقين : إذا رجعنا إلى المدينة فنحن الأعزاء ومعنا المال والأرض ، وهؤلاء المهاجرون مجلوبون عليها ، فقراء أذلاء ، فيجب أن يُخرج الأعزُّ الأذلّ . يقصد بالأعزّ نفسه ، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه .

ولكن الله تعالى ردّ على المنافقين فقال :

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

لله تعالى وحده العزة .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .(آل عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

واللّه يمنح عزته لرسوله ﷺ وللمؤمنين المخلصين ، وما أجمل وما أجلّ أن نجد فى سطر واحد ومضمون واحد عزة الله يمنحها لرسوله وللمؤمنين ، فيفيض عليهم من عزّته وقدرته ، وجلاله وفضله . وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...

وقد أعزّ الله المؤمنين بعد ذلك فعلا ، فنصرهم على العباد وفتح لهم البلاد ، ودانت لهم الدنيا ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

قال تعالى : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ... (المجادلة : ٢١) .

وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

وذلك لخلوّ قلوبهم من الإيمان بالله ، واليقين به .

قال الفخر الرازى :

فى الآية السابقة قال : وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . لقلة كياستهم وفهمهم .

وفى الآية التالية قال : وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . لكثرة حماقتهم وجهلهم .

رُوى أن عبد الله بن عبد الله بن أُبى – وكان مؤمنا مخلصا – سلّ سيفه على أبيه عندما أشرف على المدينة ، وقال : للّه علىّ ألا أغمده حتى تقول : محمد الأعزّ وأنا الأذل ، فلما رأى الأب الجدّ فى وجه ابنه ، قال ذلك .

تعليق على الآيات

نلمح ما فعله الإسلام بالمهاجرين والأنصار ، لقد منحهم الهدى والإيمان ، والعزّة والتماسك والقوة ، حتى رأينا ابناً مؤمناً يتألّم لنفاق أبيه ، ويقول له : أنت الذليل ، ورسول الله ﷺ فى عزٍّ من الرحمن ، ومنعة من المسلمين ، ويقف الابن على باب المدينة لا يسمح لأبيه بدخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ ، فيذهب عبد الله بن أُبى بن سلول كبير المنافقين إلى رسول الله ﷺ شاكيا ابنه ، فيأذن الرسول ﷺ لكبير المنافقين بدخول المدينة ، ويقول الرسول ﷺ لابنه : «جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا» .

★ ★ ★

الإنابة إلى الله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ
ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

لا تـلـهـكـم : لا يشغلكم الاهتمام بها ، والانصراف إليها .

عن ذكر الله : عن عبادته وطاعته ومراقبته

لـــــــولا : هلاَّ، والمراد هنا : التمنّى .

أخـرتـنـى : أمهلتنى وأخرت أجلى .

تمهيد :

فى آخر سورة المنافقين يحذّر الله المؤمنين من التخلق بأخلاق المنافقين :

(أ) فناداهم ونهاهم عن الانشغال بالمال والولد عن ذكر الله وطاعته ، وأداء الصلاة وإخراج الزكاة والتصدق على المحتاجين .

(ب) حثهم على فعل الطاعات ، وأداء الواجبات ، فى حال الحياة والصحة والغنى ، من قبل أن يقْترب الموت ، أو يمرض السليم ، أو يفتقر الغنى ، أو تقترب الوفاة ، فيقول الإنسان : ياربِّ ، هلاَّ أمهلت وفاتى بعض الوقت ، حتى أُخرج الزكاة والصدقة ، وأقيم الصلاة ، وأفعل أفْعَال الصالحين .

(جـ) والحال والشأن أن الموت إذا حضر لا يتأخّر من حضر أجله لحظة ، ولا يتقدم لحظة ، بل ينتقل إلى عالم الموت ، والله تعالى مطلع على جميع الأعمال ، ومحاسب على القليل والكثير .

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

التفسير :

٩ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ .

المال نعمة ، والولد نعمة ، والإسلام يرغب فى إنسان متوازن ، يستفيد بالمال فى وجوه الحياة ، وما بعد الممات ، ويستفيد بالولد ، وينعم به فى توازن واعتدال ، وقد أُمِرْنا بالتوسط فى حياتنا ، والتوازن والعمل للدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ . (القصص : ٧٧) .

ومعنى الآية التاسعة من سورة المنافقون ما يأتى :

يا أيها الذين آمنوا بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً ، لا تشغلكم الأموال أو الأولاد أو غيرهما من عرض الدنيا عن ذكر اللّه وطاعته ، وامتثال أمره بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل المأمورات وترك المنهيات .

ومن تشغله نعم الله عن طاعة الله ، والمبادرة إلى طاعته فقد خسر آخرته ، وباع جنة عرضها السماوات والأرض بعرض قليل .

قال تعالى : ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ . (النساء : ٧٧) .

١٠ - ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ .

أنفقوا وأخرجوا زكاة أموالكم وصدقاتكم ، وتصدَّقوا من سائر ما رزقكم الله ، من المال والجاه والعلم ، وسائر أنواع المعروف ، حتى قالوا : (حاجة الناس إليكم ، من نعم الله عليكم) .

وفى الحديث الشريف : «مَا من يوم إلا وينزل ملكان ، يقول الأول : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الثانى: اللهم أعط ممسكا تلفا» .

والخلاصة :

أعطوا الزكاة والصدقات ، وأنفقوا مما أعطاكم الله ورزقكم ، من قبل أن ينزل الموت بساحتكم ، ويرى الواحدُ منكم الموت رأى العين ، فيتمنى لو تأجّل موته حتى يأخذ فرصة أخرى في دار الدنيا ، ليتصدق من المال ، ويتعبد بالصلاة والصيام ، ويفعل الأفعال الصالحة ، ويتزوّد من سائر ضروب الخير والطاعة .

قال ابن عباس : تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل .

١١ - وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

لقد جعل الله الدنيا دار اختبار وابتلاء وامتحان ، والآخرة دار جزاء على الأعمال ، وقضى سبحانه وتعالى ألاَّ يؤخر أجل إنسان إذا حضر ، فلا يتقدم الأجل عن أوانه ولا يتأخَّر .

وفي السنّة المطهرة : «إن أَحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما علقة ، ثم أربعين يوما مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يكتب أجله ورزقه ، وشقى أو سعيد » [١٠٦].

وقال تعالى : إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٧ ، ١٨) .

وقال تعالى : وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ... (الأنعام : ٢٨) .

وقال عز شأنه : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠) .

وقال سبحانه وتعالى : فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (الأعراف : ٣٤) .

وخلاصة المعنى :

لن يمهل الله نفس إنسان إذا حان أجلها وحضر وقت موتها ، وهو سبحانه وتعالى : خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . أى : مطّلع وشاهد على أعمالكم ، وسيجازيكم عليها بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا .

ونلمح أن الآية الأولى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ...

تنبيه على الذكر قبل الموت ، وتحذير من الغفلة والغرور بالدنيا .

أما الآية الثانية :

وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم ...

فهى تنبيه على الشكر العملى ، بالإنفاق من المال والجاه والعلم ، وسائر ما رزق الرزّاق سبحانه وتعالى .

والآية الثالثة :

تأكيد حقيقة هى : أن الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : لو رُدَّ إلى الدنيا ما زَكّى ولا حجّ ، ويكون ذلك كقوله تعالى : وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ... (الأنعام : ٢٨) .

★ ★ ★

تضمنت سورة المنافقون شيئين

(١) وصف المنافقين وبيان سيِّئ خصالهم ، من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .

(٢) حث المؤمنين على الطاعة ، وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل .

★ ★ ★


تفسير سورة التغابن

أهـداف سـورة التغابـن

(سورة التغابن مدنية ، وآياتها ١٨ آية ، نزلت بعد سورة التحريم)

والتغابن بمعنى الغبن ، لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، ويأخذون أماكنهم فى الجنة [١٠٧] . أى ينتصر أهل الجنة فى ذلك اليوم ، لأنهم أخذوا حقهم مضاعفا .

وقال جار الله : التغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، كما ورد فى الحديث : [١٠٨] .

«ما من عبد يدخل الجنة إلا يرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا يرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» . [١٠٩] .

قال النيسابورى : يجوز أن يُفسر التغابن بأخذ المظلوم حسنات الظالم ، وحمل الظالم خطايا المظلوم، وإن صح مجىء التغابن بمعنى الغبن فذلك واضح فى حق كل مقصر صرف شيئا من استعداده الفطرى فى غير ما أعطى لأجله .

وقال الشيخ مخلوف : يوم التغابن يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان ، وغبن المؤمن بتقصيره فى الإحسان .[١١٠] .

مع السورة

فى الآيات (١-٤) نجد آيات تذكر جلال الخالق المبدع ، وتصور قدرة الله القدير :

١ - فهو سبحانه مالك الملك وصاحب الفضل والنعم ، وهو القادر القاهر المتصف بصفات الجلال والكمال ، وقدرة الله لا حدود لها فهى محيطة بكل شىء ، مهيمنة على كل شىء ، مدبرة لكل شىء، حافظة لكل شىء ، لا يفتر عنها شىء ، سواء فى ذلك الكبير والصغير ، والجليل والحقير .

والمؤمن يدرك آثار هذه القدرة ويشعر بجلال اللّه وعظمته ، وعلمه ووقايته ، وقهره وجبروته ، ورحمته وفضله ، وقربه منه فى كل حال .

٢ – وقد خلق اللّه الإنسان ومنحه الإرادة والاختيار ، وميّزه بذلك على جميع الموجودات ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل إليه الكتب ليساعده على الإيمان ، ومن الناس من يهديه اللّه للإيمان ، ومنهم من يختار الكفر والجحود .

٣ – وقد أبدع اللّه خلق السماء فرفعها ، وزينها بالنجوم ، وخلق الأرض وأودع فيها الأقوات ، والجبال والبحار والأنهار ، وخلق الإنسان فى أبدع صورة وأَحْسَن تركيبه ، حيث يجتمع فيه الجمال إلى الكمال ، ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل ، ولكن اللّه متّع الجميع بكلّ ما يحتاجون إليه من الآلات الجسدية ، ومن المواهب المعنوية ، ومن الخصائص التى يتفوق بها الإنسان على سائر الأحياء .

٤ – وقد أحاط علم اللّه بالسماء والأرض ، والسر والعلن ، والمؤمن يحس بإحاطة علم اللّه به ، ويشعر أنه مكشوف كله لعين اللّه ، فليس له سر يخفى عليه ، وليست له نية غائرة فى الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

وبهذه المعانى يستقر الإيمان فى القلب ، ويستقر تعظيم اللّه والشعور بجلاله ورقابته .

أما الآيتان (٥ ، ٦) فتذكّران بما أصاب المكذبين للرسل من الهلاك والدمار ، لقد جاءتهم الرسل بالآيات الواضحة ، فاستكثروا أن يكون النبى إنسانا من البشر ، وأعرضوا عن الهدى فأعرض اللّه عنهم ، وهو سبحانه غنى عن عباده ، محمود على نعمائه .

والآيات (٧ –١٣) تستعرض شبهة الكافرين فى البعث وإنكارهم له ، وترد عليهم بأن البعث حقيقة مؤكدة ، ويتبع البعث الحساب والجزاء ، والإيمان باللّه ورسوله هو سبيل النجاة والهداية ، فسيجمع اللّه المؤمنين والكفار فى يوم التغابن .

والتغابن مفاعلة من الغبن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شىء منه ، ثم صيرورتهم إلى الجحيم ، فهما نصيبان متباعدان ، وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شىء ، وليغبن كل فريق مسابقه، ففاز فيه المؤمنون وهُزم فيه الكافرون .

إن من آمن وعمل صالحا له جزاؤه فى جنة الخلد والفوز العظيم ، ومن كفر باللّه وكذّب بآياته له عقابه وخلوده فى النار وبئس المصير .

وإن من أصول الإيمان أن تؤمن بالقضاء والقدر ، وأن ترى اللّه مصدر كل شىء ، وأن تفوض إليه الأمر ، وأن تحنى رأسك إجلالا لعظمته وتسليما لقضائه وقدره .

وطاعة الله وطاعة الرسول طريق الفلاح ، والإعراض عن طاعتهما نذير بالعقاب ، وليس هناك فى الكون إلا إله واحد ، يتوكل عليه المؤمن ويتيقن بوجوده ، ويوحده ويعظمه ، وذلك أساس العقيدة الإسلامية .

قال تعالى : ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . (التغابن :١٣) .

روابط الأسرة

تتجه الآيات الأخيرة من السورة لبناء المجتمع ، وتهذيب العاطفة ، وتوجيه العلاقات الأسرية الوجهة السليمة ، لذلك يقول الفيروزبادى : سورة التغابن مكية إلاّ آخرها : إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ ... إلى آخر السورة [١١١] .

فالآيات الأولى من السورة شبيهة بالآيات المكية فى بناء العقيدة ، وتأكيد معنى الألوهية ، وبيان صفات الله وكمالاته ، أما الآيات الأخيرة من السورة فتتجه لبناء مجتمع سليم .

وفى تفسير مقاتل وابن جرير الطبرى أن الآية نزلت فى قوم كانوا أرادُوا الإسلام والهجرة ، فثبطهم عن ذلك أزواجهم وأولادهم .

وروى ابن جرير عن عكرمة أن رجلا سأل ابن عباس عن قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ... (التغابن:١٤) . قال : هؤلاء رجال أسلموا ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ بالمدينة ، فلما أتوا رسول الله ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، هموا أن يعاقبوهم [١١٢]، فأنزل الله تعالى هذه الآية وفيها : وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فينبغى ألا تشغل المكلف زوجته ولا أولاده عن طاعة الله ، وأن تكون أسرته وسيلة لمرضاة ربه ، ومعينة له على الصلاح والإصلاح ، إن الله يمتحن الإنسان بالمال والولد ، فالمؤمن يتخذ ماله وسيلة لمرضاة ربه ، ويجعل من ولده أثرا صالحا ، وعند الله الأجر الأكبر لمن أحسن استخدام ماله وولده فى طريق الخير والإحسان .

روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ، ووضعهما بين يديه ، ثم قال : «صدق الله ورسوله : إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران حتى قطعت حديثى ورفعتهما» . [١١٣]

وفى الأثر : الولد مجبنة مبخلة ، أى : يجعل والده جبانا وبخيلا ، رغبة من الأب فى توفير الحماية والمال لولده .

والإسلام يهذب الغرائز، وينمى الفطرة ويوجّهها إلى الوجهة السليمة ، فيأمر بالاعتدال فى حب المال والولد ، ويحذّر من الافتتان بهما ، وإذا طلبت الزوجة أو الأولاد ما يغضب الله فحذار من طاعتهما ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكل ما قد ترى تفنى بشاشته يبقى الإله ويفنى الأهل والولد

وفى آخر السورة دعوة إلى تقوى الله قدر الطاقة والاستطاعة ، وحث على الصدقة والإحسان ، وتحذير من البخل والشح : إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (التغابن : ١٧) . وتقدموا صدقة للفقراء ، وعملا صالحا فى مرضاة الله ، فإن الله يضاعف الثواب لكم إلى سبعمائة ضعف ، ويصفح عن عقوبتكم ، ويشكر لكم أعمالكم ، وهو سبحانه شكور حليم ، فالله صاحب الفضل والنعم ، يطلب من عبده فضل ما أعطاه ، ثم يشكر لعبده ويعامله بالحلم والعفو عن التقصير ، فما أجمل الله وما أعظم حلمه ، وما أوسع رحمته وفضله .

وفى الآية الأخيرة تظهر صفات الجلال والكمال ، فهو سبحانه ، عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ . أى : ما لا يراه العباد ويغيب عن أبصارهم ، وَٱلشَّهَـٰدَةِ . أى : ما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم [١١٤] . فكل شىء مكشوف لعلمه خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته ، وهو العزيز الغالب ، الحكيم فى تدبير خلقه وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة التغابن : بيان تسبيح المخلوقات ، والحكمة فى تخليق الخلق ، والشكاية من القرون الماضية ، وإنكار الكفار البعث والقيامة ، وبيان الثواب والعقاب ، والإخبار عن عداوة الأهل والأولاد ، والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة ، وتضعيف ثواب المتقين ، والخبر عن اطلاع الحق على علم الغيب فى قوله سبحانه : عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (التغابن : ١٨) .

★ ★ ★

مظاهر قدرة الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤ ﴾

المفردات :

يُسبح : ينزّه ويقدس ويمجّد .

ما فى السماوات وما فى الأرض : جميع المخلوقات فى السماوات والأرض ، بدلالتها على كماله واستغنائه .

فمنكم كافر ومنكم مؤمن : قال الشوكانى : خلق الكافر وكفره فعل له وكسب ، وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب . والكافر يكفر ويختار الكفر ، والمؤمن يؤمن ويختار الإيمان ، والكل بإذن الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

بالحق : بالغرض الصحيح ، والحكمة البالغة ، وهو أن جعل الأرض مقرّ المكلّفين ، ليعملوا فيجازيهم ، وسخر السماوات لهم .

وصوّركم : التصوير: تخطيط وتشكيل وتمييز وتخصيص ، أى : خلقكم وبرأكم على صور وهيئات شتى ، يتميز بها كل واحد عن سواه .

فأحسن صُوَركم : أتقنها وأحكمها ، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات ، كما قال تعالى : فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . (التين : ٤) .

المصير : المرجع والمآل .

والله عليم بذات الصدور : عليم بحديث النفس ، وخطرات القلب والسرّ ، فلا يخفى عليه شىء كليًا أو جزئيًا، وعلمه بجميع الأشياء على سواء .

تمهيد :

تدل الآيات الأولى من سورة التغابن على كمال قدرة الله ، وواسع علمه ، واطّلاعه على كل شيء ، فجميع المخلوقات تسبّح بحمده ، إمّا بلسان الحال ، بمعنى أن الكون البديع المنظّم المتكامل يدلّ على كمال القدرة لخالقه سبحانه وتعالى .

وإما بلسان المقال ، كما قال سبحانه وتعالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ... (الإسراء: ٤٤) .

وهو سبحانه صاحب الملك وحده ، والمستحق للحمد دون سواه ، وإذا شكرنا العباد فلأنهم سبب ظاهر ، والمسبب الحقيقيّ هو الله تعالى .

وهو سبحانه القادر على كل شيء قدرة مطلقة ، فلا يعجزه شيء وهو سبحانه فعال لما يريد .

وهو سبحانه خلق الخلق ، ومنحهم الإرادة والاختيار ، والكسب والقدرة على التَّصرُّف ، فمنهم من اختار الكفر ، ومنهم من اختار الإيمان ، والله تعالى مطّلع على كلّ شيء ، وسيجازى كل إنسان حسب عمله .

الله خالق السماوات والأرض بالحق والعدل ، فوضع الأرض للأنام ، وجعل فيها معايش للإنسان ، وسخَّر للإنسان السماء وسائر ما فى الكون ، كما خلقه فى أحسن تقويم وأفضل صورة ، وإليه سبحانه وتعالى المرجع والمصير .

والله تعالى عالم بكل مخلوقاته فى السماوات والأرض ، وعليم بكل السرّ والعلن ، وهو سبحانه عليم بالخفايا والنوايا ، وعلمه شامل للظاهر والباطن ، وخلجات النفس ، وخفايا الصدور ، وتنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافًا تامًّا دون سبق خفاء .

التفسير:

١ - يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

كل شيء فى الكون خاضع لقدرة الله ، مؤمن بوجود الله ، مسبِّح ومعظِّم ومنزِّه للَّه عن كل نقص ، ومعترف له بكل كمال ، فالملك لله وحده ، والحمد لله وحده ، وملك الناس أمر عارض ومنتقل ، وشكرنا للناس هو شكر لمن أجرى الله النعمة على يديه ، فالمخلوق سبب ظاهر ، والمسبب الحقيقى هو الله تعالى .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

والقدرة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ، فهو خالق الأكوان ، ورازق الأكوان ، ومدبّر الملك والخلق ، وهو فعّال لما يريد ، لا حدود لقدرته ، ولا رادّ لأمره .

قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فإذا أراد إيجاد شيء امتثل ووجد في سرعة قول القائل كُن ، وامتثال الشيء ووجوده في الحال ، فكل شيء في الكون خاضع لقدرته ومشيئته وإرادته .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٠) .

٢ - هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

الله تعالى خالق كلّ شيء ، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وسخّر له كلّ شيء في الكون ، وكرّم الله الإنسان فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار وجعل الإنسان مكونا من جسم وروح ، جامعا بين القوى البدنية والقوى العلوية .

فمن الناس من اختار الكفر والضلال والإلحاد بكسبه وإرادته ، ومن الناس من اختار الإيمان والطاعة والهداية ، والسير على الصراط المستقيم ، فسار مع الفطرة الإلهية ، واتسق مع الكون ، لأن الكون كله خاضع لأمر الله ، مسبِّح بحمده ، والإنسان مؤمن بالفطرة .

قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، كما تولد البهيمة هل تحسُّون فيها من جدعاء ؟ فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه» . [١١٥] (رواه البخاري) .

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

هو تعالى مطلع على أعمالكم ، وسيجازيكم عليها بالعدل ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

قال الطبري :

فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ...

أي : منكم كافر بخالقه ، وأنه هو الذي خلقه ، ومنكم مصدّق به مؤمن أنّه خالقه وبارئه .

٣ – خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ .

خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة ، وجعل الأرض مستقرا للإنسان ، وألهمه أداء مهمته ، ولم يخلق السماوات والأرض عبثا بدون هدف ، بل خلقهما بالحق والعدل ، ومن الحقّ أن يكافئ الطائع ، وأن يحاسب ويعاقب العاصى .

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ...

خلق الإنسان فى أبدع صورة ، وأكمل هيئة ، ومنحه العقل والقوى الظاهرة والباطنة ، وأعطاه العقل والقدرة على الإبداع ، واستنباط المجهول من المعلوم ، وخلقه قائما منتصبا فى أجمل شكل ، وشقّ له فى وجهه للنظر عينين ، وللسمع أذنين ، ولسانا وشفتين ، وهداه النجدين ، وبيّن له الطريقين ، والجمال متفاوت ، والحسن متفاوت ، وكل إنسان قد أوتى نصيبا من الجمال ، بيد أن هناك الحَسَنَ والأَحْسن ، كما أن هناك العالم والأعلم : وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ . (يوسف : ٧٦) .

جاء فى تفسير الآلوسى :

قالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان .

وقال القرطبى :

فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟

قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كلّه ، وأبهاه صورة ، بدليل أن الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّور ، ومن حسن صورته أنّه خُلق منتصبا غير منكبٍّ . اهـ .

إنّ روح الإنسان مؤهلة للسموّ الروحى ، والتألق فى عالم الروحانيات ، بمحبة الله وعبادته وتسبيحه وتقديسه ، وتكبيره والالتجاء إليه ، والتفكّر فى خلقه ، والتملّى بجمال مخلوقاته .

وبدن الإنسان من عالم الأشباح ، وهذا التركيب من خصائص الإنسان ، ففيه جزء طينى أرضى هو الجسم ، وفيه فيض نفخة روح الله تعالى .

قال تعالى : إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ . (ص : ٧١ ، ٧٢)

وقال الشاعر :

وتــزعــم أنك جــرم صــغــيــر وفــيك انـطـوى الـعـالـم الأكـبـر

وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ . المرجع والمآل ، والحساب والجزاء .

٤ – يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

هو العليم بكل شيء .

قال تعالى : وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

هو العليم الخبير بسائر الموجودات فى السماوات والأرض .

إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

وهو العليم بالغيب والشهادة ، أى بما غاب عن الحسّ وما ظهر أمام الحسّ ، وهو مطلع على السرّ والعلن ، فلا تخفى عليه خافية .

قال تعالى : مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

هو عليم بما تكنّه الصدور وما تخفيه ، فهو مطلع على الأسرار وخفايا الضمائر .

يا عالم الأسرار حسبى محنة عـلـمـى بـأنك عـالـم الأسـرار

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . (ق: ١٦) .

★ ★ ★

تأنيب المكذبين للرُّسل

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ۝٦ ﴾

المفردات :

وبال أمرهم : سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا .

تـــولـــوا : أعرضوا عن الإيمان بالرُّسل .

تمهيد :

حَفل القرآن الكريم بكثير من قصص السَّابقين المكذبين للرسل ، الذين أهلكهم الله ، كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وفرعون وملئه ، وقوم لوط ، وهذه القصص كانت متداولة بين المشركين ، فقد وردت فى التوراة والإنجيل ، وإذا ترجح لدينا أن سورة التغابن مدنية ، يكون القرآن المكىّ قد حفل بقصص المكذبين للرسل ، وانتقام الله منهم .

وهنا يذكّر المشركين ، ويقول لهم : ألم يصل إلى أسماعكم أخبار المكذّبين للرُّسل من الأمم السابقة ، الذين استحقوا الهلاك ، وذاقوا عاقبة كفرهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم ، وهذا الهلاك بسبب أن رسلهم جاءت إليهم بالبينات والمعجزات ، وأساليب الهداية والإيمان ، فكابروا وقالوا : أنؤمن لبشر مثلنا لا يتميز علينا بشىء ، وأعرضوا عن الإيمان ، واستغنى الله عن إيمانهم ، فأهلكهم الله ، والله غنى عن عباده ، محمود على حسن فعاله .

التفسير :

٥ - ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ألم يصل إلى أسماعكم - لتعتبروا وتتعظوا - خبر الذين كفروا بالله وكذبوا رسل الله إليهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، لقد أغرقهم الله أو أهلكهم بأنواع مهلكة مدمرة ، كالصاعقة والخسف والمطر بحجارة مهلكة ، فنالوا عاقبة كفرهم ، وذاقوا عاقبة عصيانهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم فى نار جهنم .

٦ – ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ.

ذلك الذى أصابهم من عذاب الدنيا وسعير جهنم فى الآخرة بسبب أن الرسل جاءت إليهم بالآيات البينات وألوان الهداية والمعجزات ، فقالوا : لا نتبع بشرًا مثلنا .

والله تعالى حكيم عليم ، حيث أرسل الرسل إلى البشر من جنسهم ، ليكون الرسول قدوة عملية ، ونموذجا عمليا ، ولو كانت أقوام الرسل ملائكة تمشى مطمئنة فى الأرض لأنزل الله عليهم ملكا رسولا ، لكنّ حكمته قد اقتضت أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، يتكلم بلغتهم ، ويحسّ بإحساسهم ، ويتحاور معهم باللغة التى يفهمونها .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

ومن فضل الله أن يمنّ على بعض البشر بالرسالة ، فيصطفيهم ويختارهم : ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ... (الأنعام : ١٢٤). ثم يُرسل أمين الوحى إليهم بالرسالة والنُّبوة ، وبذلك يتم فضل الله .

قال تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .
(النساء : ١٦٥) .

والخلاصة :

إن عذاب المكذبين وهلاكهم بسبب أنهم قابلوا رسلهم بالتكذيب والإعراض ، والله غنى عنهم لا ينفعه إيمانهم ، ولا يضره كفرهم ، وهو سبحانه غنى عن خَلْقه ، محمود على حسن فعله .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر : ١٥ – ١٧) .

★ ★ ★

يوم التغابن

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ
ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحٗا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٖ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

زعم الذين كفروا : الزّعم : ادعاء العلم ، أى : ادعوا كذبا أنّهم لن يُبعثوا أحياء من قبورهم .

قل بلى وربّى لتبعثن : قل لهم يا رسولنا : بلى لتبعثنّ ، ثم لتنبؤن بما عملتم .

يوم التغابن : هو يوم القيامة ، وسمِّى يوم التغابن لأن الكافر غبن نفسه وظلمها بترك الإيمان ، أما المؤمن فيغبن نفسه لتقصيره فى الطاعات والإيمان .

تمهيد:

يستعرض القرآن شبه الكافرين ، حيث أنكروا البعث والحشر والحساب ، فأقسم الحق أن البعث حق ، ويتبعه الجزاء العادل ، وأن البعث هيِّن يسير على الله ، فمن خلق الخلق فى الابتداء قادر على إعادتهم يوم القيامة .

ثم دعاهم اللَّه إلى الإيمان باللَّه ربًّا ، وبمحمد رسولاً ، وبالقرآن الكريم نوراً وهداية ، والله خبير ومطّلع على الظاهر والباطن .

سيجمع الله الخلق فى يوم الجمع ، حيث يجتمع فيه الأوَّلون والآخرون ، وهو يوم التغابن ، فقد غُبِنَ الكافرون ، وربح المؤمنون ، فالمؤمنون باعُوا دنياهم واشتروا جنة عرضها السماوات والأرض ، أما الكفار فقد باعوا نصيبهم فى الجنة بعرض قليل من الدنيا وزهرتها ، ثم بين الله أن للمؤمن بالله – الذى عمل صالحا – جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم المصير مصير المتقين ، أما الكافر فمآله جهنم وبئس المصير .

التفسير :

٧ - زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

ادعى الكفار كذبا أنه لا بعث ولا حشر ولا جزاء ، ولا ثواب ولا عقاب .

قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ...

قل لهم يا محمد : أُقسم بالله غير حانث أن البعث حق وأن القيامة حق . لَتُبْعَثُنَّ . بالتأكيد ، ثم ستخبرون بأعمالكم ، وتحاسبون عليها ، وهذا البعث هين يسير على الله ، كما بدأ الخلق أوَّل مرة ، يعيدهم مرة أخرى .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

وهذه الآية ورد فيها القسم بذات الله تعالى .

قال ابن كثير :

وهذه الآية هى الثالثة التى أمر الله رسوله أن يقسم بربه عز وجل على وقوع الميعاد ووجوده .

فالأولى فى يونس : وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ... (يونس : ٥٣) .

والثانية فى سبأ : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (سبأ : ٣) .

والثالثة : هذه الآية [١١٦] .

٨ - فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فى الآية السابقة تأكيد لشأن البعث والحشر والحساب ، وهذه الآية كالنتيجة لما سبقها .

أى : إذا كان البعث حقيقة ، والحساب والجزاء مؤكّدا ، فآمنوا بالله ربا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، وبالقرآن كتابا سماويا ، وهو نور أنزله من السماء يضىء للناس حياتهم ، ويرشدهم إلى الإيمان ، ويوضّح لهم أسلوب التعامل ، وبيان الحلال والحرام .

ويرشدهم إلى أخبار السابقين ، وآداب التعامل فى الحياة ، ومشاهد القيامة وأخبارها وأحوالها ، فالقرآن نور منزَّل من عند الله نور السماوات والأرض ، والقرآن هداية من عند الله تعالى .

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

هو مطلع وشاهد ، ورقيب وحسيب ، وسيحاسبكم يوم القيامة ، ويجازيكم على أعمالكم .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ . (الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

٩ - يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

فى يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين ، ولذلك سمّى يوم الجمع ، حيث يُحشر الناس من عهد آدم إلى قيام الساعة ، فى وقت واحد ، ومكان واحد ، يراهم المبصر ، ويسمعهم السامع ، وهذا اليوم له أسماء متعددة : فهو يوم القيامة ، والحاقّة ، والزلزلة ، والساعة ، والقارعة ، والجاثية ، وكلُّها أسماء تدل على الهول الكبير الذى يصيب الناس .

ومن أسماء يوم القيامة : ٱلتَّغَابُنِ . وأساس الغبن النقص فى التجارة ، والمغبون من باع صفقته بأقل من ثمنها .

وكأنما كانت الدنيا سباقًا بين المؤمنين والكافرين ، فاز فى هذا السباق المؤمنون ، وكان جزاؤهم الجنة ، وخسر فى هذا السباق الكافرون ، وكان جزاؤهم النار ، فالكافر مغبون لأنه باع نصيبه فى الجنّة بعرض فانٍ من أعراض الدنيا ، والمؤمن غبن الكافر ، وأخذ مكانه فى الجنة ، فهو غبن معنوى ، ففى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أُرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» [١١٧] . (أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد) .

قال القرطبى :

يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ . أى : يوم القيامة ، ... وسمى يوم القيامة بيوم التغابن لأنّه غبن فيه أهل الجنة أهل النار ، أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار ، على طريق المبادلة ، فوقع الغبن على الكافرين ، لأجل مبادلتهم الشر بالخير ، والعذاب بالنعيم .

ثم فسّر القرآن التغابن ببيان الجزاء العظيم ، والنعيم المقيم لأهل الجنة، والعذاب الأليم لأهل النار .

وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

فهذا هو الفريق الفائز فى سباق التغابن ، فريق من آمن بالله ربًّا ، وعمل عملاً صالحا ، فجزاؤه محو السيئات ، ومغفرة الذنوب ، ودخول جنات تجرى الأنهار من تحتها ، والخلود الأبدى السرمدى فى الجنة .

ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

هؤلاء السابقون المتفوّقون ، الفائزون بذلك الفوز العظيم ، والجائزة الكبرى ، والنعمة العظمى ، ورضوان الله وكرامته ، وجائزته فى القيامة .

١٠ - وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

وهذا هو نصيب الذين كفروا بالله ، وجحدوا وجوده ، وكذّبوا بالكتب وبالآيات البينات والمعجزات الواضحات ، فاستحقوا النّار ماكثين فيها ، كأنهم أصحابها الملازمون لها ، وساءت مصيرا ، وبئس المآل نهاية أهل النار ، فهم فى عذاب مقيم ، وخسران مبين .

تلك نهاية السباق ، وخاتمةُ التغابن ، حيث فاز المؤمنون بالجنة ونعيمها ، ونال الكافرون النار وعذابها ، فنعم جزاء المتقين الجنة ، وبئس عاقبة الكافرين النار وبئس المصير .

اللهم إنا نسألك الجنة ، ونعوذ بك من النار ، ومن عذاب النار ، إنك أنت العزيز الغفّار ، اللهم آمين .

★ ★ ★

الإيمان بالقضاء هداية

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾

المفردات :

ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله : ما أصابت أحدًا من الناس مصيبة إلاّ بقضاء الله تعالى وتقديره ذلك عليه.

ومن يؤمن بالله يهد قلبه : ومن يصدّق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذنه تعالى ، يهد قلبه للتسليم ، والرضاء بقضائه ، فيسترجع ويصبر .

فإن توليتم : فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله ، فلا ضرر ولا بأس على رسولنا من إعراضكم ، إذّ عليه إبلاغكم لا هدايتكم .

تمهيد:

هذه آيات تغرس اليقين فى القلب ، وتؤدى بالمؤمن إلى اليقين الجازم بالقضاء والقدر ، خيره وشرّه ، حلوه ومره ، وقد يتعرض المؤمن للأذى أو الفقر ، أو المرض أو الآلام أو المصائب ، والمؤمن يلقى ذلك بالصبر واليقين بأن بيد الله كل شىء ، فيصبر على البأساء ، ويشكر على النعماء ، ويرضى بأسباب القضاء .

وفى الآيات دعوة إلى طاعة الله ، وطاعة الرسول ﷺ ، فإن أعرضتم عن الإيمان أيها المشركون ، فضرر ذلك واقع عليكم وحدكم ، وليس على رسولنا محمد ﷺ إلا البلاغ إليكم ، وليس من واجباته هدايتكم .

واللّه وحده هو الإله المعبود بحق ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، فهم يؤدُّون ما يجب عليهم ، ثم يعتمدون على الله وحده فى نجاح سعيهم ، والتوكل غير التواكل .

سبب النزول :

قيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقًا لصانهم الله عن المصائب فى الدنيا ، فبيَّن الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة فى نفس أو مال ، أو قول أو فعل، يقتضى همًا أو يوجب عقابا عاجلاً أو آجلاً ، فبعلم الله وقضائه .[١١٨] .

التفسير:

١١ – مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

من شأن المؤمن أن يؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومرّه ، فإذا نزلت بساحته المصائب صبر وتصبّر وتماسك ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقال أيضًا : اللهم اوجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرًا منها .

أى : ارزقنى ثواب ذلك المصاب ، وعوضنى خيرًا منه بفضلك .

أخرج البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلاّ كان خيرًا له ، إن أصابته ضـرّاء صبر فكان خيرًا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ».[١١٩]

وقال ابن عباس : بِإِذْنِ ٱللَّهِ . يعنى عن قدره ومشيئته . اهـ .

وهذا الرضا بالقضاء والقدر يجعل المؤمن راضيًا محتسبًا ، ثابت الجنان ، هادئ النفس .

وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ...

إن الإيمان بالله تعالى ، والوثوق بأنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الفعّال لما يريد ، يجعل القلب فى هداية وصبر ، واحتمال وتماسك .

وقرأ السلمى وقتادة: يُهْدَ قَلْبُه . بضمّ الياء وفتح الدال ، ورفع الباء على البناء للمجهول .

وقرأ عكرمة : يَهْدَأْ قَلْبُه . بهمزة ساكنة ، ورفع الباء ، أى : يسكن ويطمئن .

وقد وردت عدّة قراءات فى تفسير القرطبى ، وتلتقى جميعها على أنّ هداية القلب أو هدوء القلب منحة إلهية ، أو هبة ربّانية وعطاء من الله للمؤمن الذى اطمأنّ إلى قضاء الله وقدره ، فرضى واحتسب وصبر ، وتيقن أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

قال علقمة : وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ...

هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم .

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

أى : هو سبحانه مطلع على خفايا النفوس ، عليم بمن صبر وبمن جزع ، وهو سبحانه يعلم السرّ وأخفى ، فليتق المؤمن ربه ، وليصبر على البأساء ، وليشكر على النعماء ، وليكن راضيا بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومرّه .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد : ٢٢، ٢٣) .

١٢ - وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ .

التزموا طاعة الله فيما أمر به ، وطاعة الرسول فيما يبلغكم به من أوامر وأحكام ، فإن طاعة الرسول طاعة لله .

قال تعالى : مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... (النساء : ٨٠) .

فإن أعرضتم أيها المشركون عن الإيمان بالله ورسوله ، وعن طاعة الله وطاعة رسوله ، فإنما إثم ذلك واقع عليكم وحدكم ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، أمًّا أمر الهداية والتوفيق للإيمان فبيد الله وحده ، ومسئولية الإعراض تقع على عاتقكم وحدكم .

قال تعالى : مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ... (المائدة : ٩٩) .

وقال سبحانه : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ... (الشورى : ٤٨) .

وقال عز شأنه : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ... (القصص : ٥٦) .

وقال تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... (البقرة : ٢٧٢) .

١٣ - ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

الله عز وجل هو خالق الأكوان ، وهو الإله الحق ، لا معبود بحق سواه ، ولا إله إلا الله ، وكل ما خلاه باطل ، فالأصنام والأوثان ، وعزير والمسيح والملائكة ، والبقر والشجر ، والشمس والقمر والنجوم ، كلها مخلوقات للَّه ، مربوبة له ، فهو الإله الواحد ، وكل ما سواه مخلوق مربوب عَبْدٌ للَّه .

قال تعالى : أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . (الأعراف : ٥٤) .

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

التوكّل هو الاعتماد على الله والالتجاء إليه ، والثقة بقدرته ، والركون والاعتماد عليه ، بعد الأخذ بالأسباب .

والتوكل غير التواكل ، فالمتوكِّل هو من يبذر البذرة ، ويعتمد على الله فى إنضاج الثمرة .

فالمؤمن مطالب بالأخذ بالأسباب ، وفى نفس الوقت مطالب باليقين الكامل بأن مسبب الأسباب هو الله تعالى ، وبذلك يكون التوكّل على الله طاقة إيجابية تحتاج أمرين رئيسيين فى وقت واحد :

الأول : العمل اللازم مع إتقانه والرقى به .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

الثاني : التوكل على الله ، والثقة به ، واليقين بنصره ، والتضرع إليه والاعتماد عليه .

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى في سورة إبراهيم :

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . (إبراهيم : ١١ ، ١٢) .

★ ★ ★

التحذير من فتنة الأزواج والأولاد

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ
أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ
شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

فاحذروهم : فكونوا منهم على حذر ، ولا تطيعوهم .

تعفوا : تتركوا العقوبة .

وتصفحوا : تُعرضوا عن التَّعْيير والتأنيب .

تغفروا : تستروا ذنوبهم وإساءاتهم

فتنة : ابتلاء واختبار وامتحان .

ومن يوق : ومن يحفظ نفسه .

الشـــــح : البخل مع الحرص .

القرض الحسن : التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس .

شـــكـــور : عظيم الفضل والإحسان ، بإعطاء الجزيل على القليل .

عـالـم الـغـيب : ما غاب عن الأنظار ، ويشمل السرّ .

والشـــهـــادة : ما يشاهد بالحسّ ، ويشمل العلانية ، فلا يخفى عليه شىء .

الـعـــزيـــز : القوى فى ملكه .

الـحـكـيـم : المتقن فى صُنعه وتدبيره .

تمهيد :

هذه آيات تربية وتعليم من الله تعالى لعباده ، تحذّرهم من أن يكون حبّهم لأزواجهم وأولادهم حاملاً لهم على ارتكاب الحرام، كالزوج الذى تحمله زوجته على هجر ضرتها ، وكالولد الذى يغرى أباه بالسرقة أو المذلة .

سأل رجل عبد الله بن عباس عن قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ... فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ بالمدينة ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، فهمّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وفيها : ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . (١٢٠) .

والمال نعمة ، والولد نعمة ، وقد أمرنا الله أن نشكره سبحانه على النعمة ، بإخراج زكاة المال ، وإخراج الصدقات والكفّارات وصلة الرحم ، والمساهمة فى الخيرات والواجبات ، كما أمرنا الإسلام بتربية الأولاد والبنات ، وتعليمهم مكارم الأخلاق وآداب الإسلام والمحافظة على الصلاة ، والتوازن فى التربية ، فلا تكن رطبا فتعصر ، ولا صلبا فتكسر ، بل ينبغى أن تكون متوسطا متوازنًا ، تأمر وتنصح ، وتكافئ وتعاقب .

وتأمر الآيات بتقوى الله فى رفق وتوسط واعتدال ، وبإنفاق المال واتقاء الشحّ والبخل والحرص والجشع ، ثم تحثنا على الصدقة ومساعدة المحتاجين ، فذلك قرض لله ، والله تعالى يضاعف للمؤمن الثواب والجزاء .

التفسير :

١٤ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

نداء إلهى علوى إلى جميع المؤمنين ، محذرا ومبينا أن بعض الأزواج وبعض الأولاد يحملون أزواجهم وآباءهم على بيع ثوابهم وآخرتهم ، وجنات ربهم ، وشراء عرض الحياة الدنيا .

فقد تُزيّن الزوجة لزوجها ترك الجهاد ، أو ترك الزكاة أو الصدقة ، أو المساهمة فى عمل خير ، أو ترك حقوق ضرتها ، وعدم إعطائها حقها ، فيطيع الزوج زوجته ، والطاعة لا تكون إلا فى المعروف ، وقد يطلب الابن طلبا غير متيسر لأبيه من طرق الحلال، فربما ارتكب السرقة أو الرشوة ، أو أخذ المال الحرام أو الشبهات فى سبيل مرضاة الابن .

لذلك حذرنا القرآن من طاعة الزوجة التى تأمر بالمنكر ، ومن طاعة الولد الذى يُحرض أباه على الحرام ، قال تعالى : ﴿فَٱحْذَرُوهُم﴾. أى : كونوا على حذر من طلبات لا تتفق مع مرضاة الله ، وأوامر رسوله وتشريع دينه .

﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ . عن ذنوبهم ، وتتجاوزوا عن سيئاتهم التى تقبل العفو ، أو الأخطاء التى أعقبتها توبة من الزوجة أو الأولاد .

﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ . تعرضوا عن التعيير والتأنيب واللوم .

﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ . تسامحوهم ، وتأخذوا بأيديهم وتساعدوهم على معذرتهم وتوبتهم ، واستقامتهم وسلوكهم المستقيم .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

فإن من صفات الله المغفرة ، وستر الذنوب ، وقبول التوبة ، ومحو السيئات ، فتخلقوا بأخلاق الإسلام ، وسامحوا أزواجكم وأولادكم ، حتى يسامحكم الله ويغفر لكم .

١٥ - ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

المال والولد فتنة ، بمعنى اختبار وابتلاء ، لينظر الله إلى سلوك العبد تجاه هذه النعمة ، هل يؤدّى زكاة المال ؟ هل يتصدق على المحتاجين ؟ هل يساعد الضعفاء والمساكين ؟

وهل يتقى الله فى الأولاد ، فيحسن تربيتهم وتعليمهم وتهذيبهم ؟ وهل يتماسك أمام الزوجة والأولاد ، فلا ينشغل بهم عن حقوق الله عليه ؟

كما قال سبحانه وتعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . (المنافقون : ٩) .

والمراد بذكر الله : تذكّره وطاعته ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه .

وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

وعند الله ثواب عظيم ، وجزاء كريم فى الدنيا والآخرة ، لمن آثر الحلال من الأموال ، وابتعد عن الحرام والشبهات ، وآثر الالتزام بأوامر الله فى تربية أولاده وبناته ، فصانهم عن الحرام ، وحثهم على أداء الفرائض ، واجتناب المحرمات ، فهذا أهل للجزاء العظيم عند الله ، حيث يجعله من أهل القربى والزلفى والرضوان والنعيم المقيم .

أخرج البخارى ومسلم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نَرْضَى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يارب ، وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبداً» .[١٣١] .

١٦ - فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

ذكر ابن كثير أن هذه الآية ناسخة للتى فى آل عمران ، وهى قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ... (آل عمران : ١٠٢) .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ. اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرّحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفا على المسلمين : فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.. فنسخت الآية الأولى .

قال المفسرون :

فى المأمورات وفضائل الأعمال يأتى الإنسان منها بقدر طاقته ، لتفاوت الهمم والرغبة فى الثواب ، فيأتى كل إنسان منها حسب استطاعته ، وأما فى المحظورات فلابد من اجتنابها بالكلية، ويدل على ذلك ما رواه الشيخان أن النبى ﷺ قال : «إذا أمرتكم بأمر فَأْتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[١٢٢] .

وَٱسْمَعُواْ . ما تؤمرون به . وَأَطِيعُواْ . أوامر الله تعالى ورسوله . وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ . أى : أنفقوا فى سبيل الله ، وفى مصالح الأمة ، فإن هذه النفقة يكون ثوابها خيرا لأنفسكم مما تكنزونه لورثتكم .

وفى الحديث الشريف : «إن مالك ما قدمت ، ومال وارثك ما أخرت» .

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

ومن وقاه الله من داء الشح والبخل ، والجشع والطمع ، فقد فاز بالفلاح فى الدنيا والآخرة ، حيث يحبه أهله وجيرانه وأقاربه وأهل وطنه فى الدنيا ، ويتمتع بجنة واسعة ورضوان من الله أكبر فى الآخرة.

قال تعالى : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦١) .

١٧ - إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ .

إن تنفقوا أموالكم فى مرضاة الله ، والعطف على الفقراء والمساكين ، يضاعف الله لكم الثواب ، ويستر ذنوبكم ويسامحكم ، ويتفضل عليكم بالمغفرة والجزاء المضاعف فى الدنيا والآخرة ، فهو شاكر للمحسن إحسانه ، حَلِيمٌ . بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ويقبل توبة التائبين ، ويضاعف الثواب للمحسنين .

١٨ - عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

هو سبحانه وتعالى عالم بما غاب وبما حضر، مطلع على ما غاب وأخفته القلوب فى أثنائها ، كعلمه بما هو حاضر وظاهر للعيان .

وهو ، ٱلْعَزِيزُ . الغالب الذى لا يُغلب ولا يُقهر، وهو القاهر فوق عباده . ٱلْحَكِيمُ . الذى يجرى كل أمر على مقتضى حكمته وتدبيره وإرادته سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة التغابن

١ – صفات الله الحسنى .

٢ – إنذار المشركين بذكر ما حلّ بمن قبلهم من الأمم ، مع بيان السبب فيما نالهم من ذلك .

٣ – إنكار المشركين للبعث ، والردّ عليهم .

٤ – بيان أن ما يحدث فى الكون هو بأمر الله وتقديره .

٥ – تسلية الرسول ﷺ بأنه لا يضيره إصرارهم على الكفر .

٦ – إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .

٧ – الأموال والأولاد فتنة وابتلاء .

٨ – الحثّ على التقوى والإنفاق فى سبيل الله .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (التغابن) مساء الثلاثاء ٥ من ذى القعدة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٣٠ من يناير ٢٠٠١ م ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



تفسير سورة الطلاق

أهـداف سـورة الطـلاق

(سورة الطلاق مدنية ، وآياتها ١٢ آية ، نزلت بعد سورة الإنسان)

العناية بالأسرة:

عنى الإسلام بنظام الأسرة ، ودعا إلى تدعيم روابط المحبة والمودة بين الزوجين ، وجعل الألفة بينهما آيةً من آيات الله .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (الروم : ٢١) .

وقد حفل القرآن الكريم بشأن العلاقات الزوجية والعائلية، فحرص على سلامة الأسرة وتأكيد مودة الأبناء للآباء ، ورعاية الآباء للأبناء ، ثم حث الزوج على إحسان معاملة زوجته ، والتسامح معها والصفح عن بعض هفواتها ، وعدم التسرع فى طلاقها ، فلعل البغيض يصبح حبيبا ، ولعل الله أن يرزق الزوجين ثمرة تقوى الروابط المشتركة بينهما .

قال تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . (النساء : ١٩) .

« إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ، ويرقيها حتى تصبح هى المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية ، ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التى تجعل من التقاء جسدين التقاء نفسين وقلبين وروحين ، وبتعبير شامل التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقى فى الذرية المرتقبة ، ويتقابل فى الجيل الجديد الذى ينشأ فى العش المشترك ، الذى يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان» . [١٢٣] .

وقد حظيت تشريعات الأسرة بعناية القرآن والسنة ، والفقه الإسلامى والدراسات الإسلامية .

وندرك من روح الدين الإسلامى ومن تشريعاته رغبته فى استقرار الأسرة ، واستمرار الرابطة الزوجية .

«وقد أحاط الإسلام رابطة الزوجية بكل الضمانات التى تكفل استقرارها واستمرارها ، وفى سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التى تمنع التبرج والفتنة كى تستقر العواطف ، ولا تلتفت القلوب إلى هتاف المتبرجة ، ويفرضُ حدَّ الزنا وحدَّ القذف ، ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها ، والاستئذان بين أهلها فى داخلها» (١٢٤).

وفى كتب السنة الصحاح حشد رائع من الأحاديث النبوية الشريفة تتضمن التوصية بالنساء ، وإحسان معاملتهن ، وتطييب خواطرهن ، وتجعل طاعة المرأة لزوجها فريضة ، ومحافظتها على بيته وسره وأولاده حقًا واجبًا ، ورعايتها لما تحت يدها أمانة ، وتحث الزوجين علي تقوية الروابط بينهما ، والتعاون من أجل وحدة الهدف واستبقاء الحياة الزوجية ، وتربية الأبناء والذرية .. فيقول النبى ﷺ : «استوصوا بالنساء خيرا» (١٢٥) . ويقول ﷺ : «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الرجل راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راع وهى مسئولة عن رعيتها ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» . (١٢٦).

الطلاق

نزل القرآن الكريم من عند العليم الخبير ، البصير بالنفوس وطبائعها ، والعواطف وجموحها ، والغرائز وتكوينها ، فقد تصاب سفينة الحياة الزوجية ببعض الصدمات والاضطرابات ، وعندئذ يوصى القرآن الرجل بالتريث والترقب ، وعدم اتباع الهوى ونزوات الغضب .

فإذا اشتد الخلاف بين الزوجين ، وكثر النزاع بينهما ، فلا مانع من التفاهم بالمعروف على نقاط الخلاف ، ودراسة أسباب النزاع ، ليتعرف كل طرف على ما يؤلمه من الطرف الآخر ، وهذه المعرفة يمكن أن تكون وسيلة عملية إلى أن يتجنب كل طرف ما يؤلم شريك حياته ، أو يخفف من هذه الآلام ، وهذا نوع من استدامة العشرة أو تحمل المسيرة .

فإذا لم يُجْدِ التفاهم الشخصى بين الزوجين ، وتفاقمت الأمور وتحولت إلى النفور والنشوز ، والرغبة فى الإعراض والفرار ، فليس الطلاق أول خاطر يهدى إليه الإسلام ، بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله أهل الخبرة والتجربة ، أو أهلُ العلم والمعرفة بشئون الحياة الزوجية ، أو بعض الأقارب المحنكين .

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا . (النساء : ٣٥) .

وقال تعالى : وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ... (النساء : ١٢٨) .

وفى نصوص القرآن والسنة والآثار ما يحضّ على استبقاء الحياة الزوجية ، والقناعة والرضا ، وعدم التطلع إلى الآخرين .

قال تعالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ... (الحجر : ٨٨) .

ويقول النبى ﷺ : «إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات ، فإذا تزوجتم فلا تطلقوا» .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يريد أن يطلق زوجته ، فسأله عمر عن السبب ، فقال الرجل : إنى لا أحبها ، فقال له عمر : أو كل البيوت تبنى على الحب ؟ فأين التذمم وأين الوفاء ؟

أى أنك أعطيت زوجتك أملا وعهدا صادقا ، وذمة بأن تكون لك ، فاتق الله فى هذا العهد وهذه الذمة ، وهذا الأمل ، فلا تهدم بيتك بيدك ، ولا تخيب آمالا تعلقت بك .

وقد سمى الله الزواج ميثاقا غليظا ، ثم حثّ على حسن العشرة ، أو على الفراق بالمعروف ، والإحسان إلى الزوجة ومكارمتها ، وترك بعض الأموال والمهر تطييبًا لخاطرها ، وتعويضًا لها عما أصابها من أضرار .

قال تعالى : وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا . (النساء : ٢٠ ، ٢١) .

مع السورة

مما شرعه الله للحد من الطلاق أنه لم يبح الطلاق فى كل وقت ، بل أمر بالصبر والتريث والانتظار ، فقد يكون الرجل واقعا تحت تأثير جامح أو نزوة عارضة .

كما أن المرأة إنسان مرهف الإحساس فى حاجة إلى التلطف وحسن المعاملة ، ويتمثل ذلك فيما يأتى :

١ – ينبغى أن يكون الطلاق فى طهر لم تجامع فيه المرأة ، حتى تستقبل عدتها بدون تطويل عليها [١٢٧]

٢ – ينبغى أن تقيم المرأة فى بيت الزوجية ، فهو بيتها ما دامت على ذمة الزوج ، ولا يجوز خروجها منه إلا فى حالة الضرورة ، بأن يترتب على بقائها فى البيت نزاع لا يطاق ، أو إساءة لأهل الزوج ، أو ارتكاب لذنوب كبيرة .

٣ – أباح الله للزوج مراجعة زوجته فى فترة العدة ، ولعل فى بقائها فى بيت زوجها ما يجعله يعدل عن الطلاق ، ثم إن القلوب بيد الله وهو سبحانه مقلب القلوب .

قال تعالى : لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا . (الطلاق : ١) .

٤ – إذا أتمت المرأة عدتها فيجب أن يمسكها الزوج بالمعروف أو يفارقها بالمعروف ، ولابد من الإشهاد على الطلاق أو الرجعة ، حتى تكون الحياة بين الزوجين ناصعة نزيهة .

٥ – حثّ القرآن على التقوى ومراقبة الله ، وإدراك أن الرزق بيد الله ، والمال رزق ، والتوفيق رزق ، وينبغى أن يكون المؤمن متوكلا على الله فى كل حال ، فهو مقدر الأمور : قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق :٣) . فلكل حياة ولكل أمر قدر ، وكل شىء مقدر بمقداره ، وبزمانه وبمكانه وبملابساته ، وبنتائجه وأسبابه ، وليس شىء مصادفة ، وليس شىء جزافا فى هذا الكون كله ، وفى نفس الإنسان وحياته.

٦ – لقد بيّن القرآن فى سورة البقرة عدة المطلقة بأنها ثلاث حيضات ، فإذا حاضت المرأة ثلاث مرات تأكدت من خلو رحمها من الحمل ، ويباح لها الزواج بعد مدة العدة .

قال تعالى : وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ... (البقرة : ٢٢٨) .

وفى الآية الرابعة من سورة الطلاق بيان عدة المرأة التى لا تحيض ، إما لصغر سنها أو لكبر سنها ، فالمرأة قبل البلوغ لا تحيض ، وبعد سن ٥٠ سنة لا ينزل عليها الحيض .[١٢٨]

ومثل هذه المرأة عدتها ثلاثة أشهر ، أما المرأة الحامل فعدتها وضع الحمل .

وتتخلل آيات الطلاق دعوة إلى تقوى الله ، وبيان أن هذه الأحكام من عند الله ، ومن يتق الله ويطع أوامره ويحسن معاملة الطرف الآخر ، فله أجر عظيم ، وثواب كبير .

٧ – وتفيد الآيتان (٦ ، ٧) أن الزوجة فى فترة العدة لا تزال على ذمة الزوج ، ولذلك يجب أن تسكن فى سكن مناسب لحالة الزوج ، ولا يصح أن يحتال الزوج لينزل ضررًا بزوجته ، ومهما طالت فترة الحمل فيجب على الزوج أن يساهم فى نفقة الحامل حتى تضع حملها ، وفى فترة الرضاعة يجب على الزوج أن يساهم فى نفقة الرضاعة ، وذفع أجرتها للأم ، وهذه النفقة تقدر بحال الزوج ويساره أو إعساره .

وبذلك وضع القرآن أصولا يلتزمها كل إنسان ، فالفقير ينفق حسب حالته ، والغنى ينفق مما أعطاه الله ، والأرزاق بيد الله ، فهو سبحانه الميسر ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

قال تعالى : لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا . (الطلاق : ٧) .

٨ – وقد عالجت السورة كل أنواع الكيد والحيل فى إصابة الشريك بالأذى عند إنهاء الحياة الزوجية ، فتقول : وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ . وهى تشمل كل أنواع العنت التى لا يحصرها نص قانونى مهما اتسع ، وفى الحديث الشريف : «لا ضرر ولا ضرار» ، وهو أصل عام يَنْهى المؤمن عن ضرر الناس ، فضلا عن إضراره بمن كانت زوجة له .

وتفيد السورة أن الرزق بيد الله ، وأن الأمل فى وجه الله ، وبذلك تنتهى الحياة الزوجية بالأدب الجميل الرفيع ، وبالأمل فى استئناف حياة أفضل وأيسر : سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا . (الطلاق : ٧) .

٩ – وفى ختام سورة الطلاق تعرض السورة عددا من المؤثرات العاطفية ، تظهر فيها قدرة الله وجلاله ، فإن تغلب شريك على شريكه الآخر ، أو استطاع أن يظلمه ، فليتذكر قدرة الله وعقابه للظالمين :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا	الظلم شيمته يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه	يدعو عليك وعين الله لم تنم

فالآيات (٨ –١٢) وإن كانت فى غير موضوع الطلاق ، إلا أنها تعزف على نغمة مؤثرة ، وتهتف بالقلوب حتى ترقّ ، وبالأفئدة حتى ترعى جلال الله ، فالله تعالى أخذ القرى واحدة بعد أخرى ، عندما كذبت برسلها ، وقد ساق القرآن هذه العبرة فى مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله فلم يسمعوا ولم يستجيبوا ، وعلق على هذه العبرة على الرؤوس ، لتذكر الناس بالمصير البائس الذى ينتظر من لا يتقى ولا يطيع ، كما تذكرهم بنعمة الله على الناس فى إرسال الرسل ، وإنزال التشريع لهداية البشر ، واخراجهم من الظلمات إلى النور .

١٠ – والآية الأخيرة فى السورة تشير إلى قدرة الله العالية الذى خلق السماوات السبع والأرضين السبع ، وهو العليم بما يناسب كل المخلوقات والموجودات فى السماء والأرض ، ثم إن هذه الأحكام موكولة إلى الضمائر ، واليقين الجازم بسعة علم الله واطلاعه على جميع أفعال العباد .

وهكذا تختتم السورة بما يدعو القلوب إلى الإخبات والإنابة ، فسبحان الحكيم العليم ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وهو الخبير بما يناسب عباده ، والمطلع على خفايا القلوب ، وهو عليم بذات الصدور .

المعنى الإجمالي للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الطلاق هو : بيان طلاق السُّنة ، وأحكام العدة ، والتوكل على الله فى الأمور كلها ، وبيان نفقة النساء حال الحمل والرضاعة ، وبيان عقوبة المعتدين وعذابهم ، وأن التكليف على قدر الطاقة ، وللصالحين الثواب والكرامة ، وبيان إحاطة العلم والقدرة فى قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ . (الطلاق : ١٢) .

★ ★ ★

أحكام الطلاق والعدّة، وثمرة التقوى والتوكّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ
لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا
(١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ
مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾

المفردات :

طلقتم النساء : أردتم طلاقهن .

لعدتهن : مستقبلات عدتهن ، بأن تطلقوهن فى طهر لاجماع فيه .

وأحصوا العدة : اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل .

الفاحشة المبينة : هى ارتكاب ما يوجب الحدّ ، أو البَذاء على الأحماء أو على الزوج .

حدود الله : شرائعه التى أمر بها ونهى عن تركها .

ظلم نفسه : أضرّ بها .

أمرا : هو الندم على طلاقها ، والميل إلى رجعتها .

بلغن أجلهن : قاربن انتهاء العدّة .

فأمسكوهن : فراجعوهنّ .

بمعروف : مع حسن عشرة .

فارقوهن بمعروف : مع إعطاء الحق ، واتقاء المضارّة .

بالغ أمره : منفذ حكمه وقضائه فى خلقه ، يفعل ما يشاء .

قدرا : تقديرًا وتوقيتًا .

تمهيد :

أمر الله المؤمنين أن يُطلّقوا نساءهم فى الطهر الذى يحسب لهن من عدتهن ، ويجب إحصاء العدّة وضبطها ، وهى ثلاثة قروء ، ويجب أن تقيم المعتدة فى بيت الزوج ، خصوصا إذا لم يكن لها بيت أو أسرة تقيم معها ، ولا تخرج إلاّ إذا كانت مرتكبة للمنكرات ، أو بذيئة اللسان على الأحماء ، هذه أحكام الله وتشريعاته ، ومن يتعد أحكام الله فقد ظلم نفسه وعرّضها للمهالك فى الدنيا والآخرة ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة – والحكمة فى بقاء الزوجة فى بيت الزوج سهولة مراجعتها .

ثم خيّر القرآن الرجل عند نهاية العدّة بين أمرين ، هما :

١ – الإمساك بمعروف .

٢ – الطلاق بإحسان ، وإعطاء الزوجة كامل حقوقها ، ويجب الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة .

وهذه الأحكام إنما شُرعت لمصلحة الطرفين ، وعلى الجميع التمسك بتقوى الله والتوكل عليه ، وأمور الحياة كلها بتقدير الله وقضائه وقدره .

التفسير :

١ – يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .

يا أيها النبىّ ، قل لأمتك : إذا أردتم تطليق النساء فالزموا طريق السُّنّة فى تطليقهن .

وطلاق السنة : أن تطلق الزوجة فى طهر لم تجامع فيه .

وطلاق البدعة : أن تطلق فى الحيض ، أو فى طهر جامعها زوجها فيه ، إذ ربما يظهر أنّها حامل فيندم زوجها على الطلاق .

عود إلى تفسير الآية

إذا عزمتم على طلاق الزوجة ، فأحسنوا هذا الطلاق ، ولا تطيلوا عليها العدة ، فلا يجوز أن تطلّق فى حالة حيضها ، وإنما تطلق فى طهر لم تجامع فيه ، وبذلك تطلّق المرأة فى قُبل عدّتها ، فتستقبل عدّتها بثلاثة أطهار بعد ثلاث حيضات ، ويجب إحصاء العدّة وضبطها ، ومعرفة بدايتها ونهايتها ، لما يترتب عليها من النفقة والإمساك بالمعروف أو التفريق بإحسان ، ومراعاة الله وتقواه بعدم الضرار بالزوجة ، فالطلاق ضرورة نلجأ إليها عند الاضطرار ، وينبغى أن يكون الطلاق مع المكارمة والإحسان ، والإنفاق على الزوجة ، فى فترة العدة ، وعدم إخراجها من المسكن الذى كانت تسكن فيه ، ولا تخرج منه إلا إذا ارتكبت فاحشة يجب فيها الحدّ ، أو كانت سليطة اللسان على زوجها أو أحمائها ، وهذه أوامر الله وتشريعاته ، ومن يخالف أمر الله فيطلّق فى الحيض ، أو ينزع إلى إيذاء المطلّقة وضررها فقد ظلم نفسه ، حيث خالف أمر الله ، وتعرَّض للمسئولية يوم القيامة .

والحكمة فى إقامة الزوجة فى منزل الزوجية أن الزوج ربما ندم على الطلاق ، ورغب فى استدامة العشرة ، وإعادة زوجته إلى عصمته فى فترة العدة ، أو ربما ندمت الزوجة وتحرّك قلبهما إلى الصلح واستعادة الحياة معا .

لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .

بأن يقذف المحبة فى القلوب ، فترغب فى الرجعة واستدامة الحياة الزوجية .

والمرأة إذا كانت فى مدة العدّة ، وهى ثلاثة أشهر أو ثلاث حيضات ، فزوجها يملك مراجعتها بدون إذنها ، أما إذا تمّت العدّة ومكثت بعد الطلاق ثلاثة أشهر ، يتحول الطلاق من طلاق رجعى إلى طلاق بائن ، فلا يستطيع الزوج إرجاعها إلا بعقد جديد ومهر جديد ، وموافقتها على الرجعة ، إذ يصبح من حقها أن تعود لزوجها أو ترفض العودة ، وتختار لنفسها الموافقة على زوج آخر ، أو المكث بدون زوج ، أو ما تختاره لنفسها .

٢ - فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا .

إذا قاربت الزوجة إتمام العدّة ، فإن لزوجها اختيار واحد من اثنين :

(أ) أن يراجعها ويعاشرها بالمعروف .

(ب) أن يفارقها بالمعروف فيعطيها مؤخر الصَّداق ، ويعطيها المتعة والنفقة والمكارمة والإحسان ، لأنها كانت تعلّق آمالها على الحياة مع زوجها ، فينبغى أن يترفق بها ، وييسّر لها الإقامة والنفقة ، حسب يساره وإعساره .

والرجعة أو الطلاق أو الزواج كلها تحتاج إلى شهود ، وأقل الشهود رجلان مشهود لهما بالعدالة ، وينبغى أن نقيم الشهادة لوجه الله ومرضاته ، فلا نؤدّى الشهادة لمصلحة الزوج ، ولا لمصلحة الزوجة ، بل نؤدى الشهادة بالحق والعدل .

وهذه الأوامر كلُّها من أول السورة إلى هنا ، كالطلاق فى طهر لم يجامعها فيه ، وإحصاء العدة ، وعدم إخراج المطلقة من بيتها ، والإمساك بالمعروف أو الفراق بالمعروف ، والإشهاد فى النكاح والطلاق والرجعة ، والإقساط فى الشهادة ، كل ذلك يوصى به الله ، ويأمر به المؤمن ، ويعظنا به فينبغى أن ينفذه المؤمن .

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا .

من يراقب أوامر الله ، وينفِّذ ما شرعه الله وأمر به ، ويتجنب ما نهى عنه الله ، يجعل الله له مخرجا من كل ضيق ، و يجعل له بعد العسر يسرا ، وبعد الشدّة فرجا ، ويفرِّج عنه الغمّ والهمّ الذى يصيبه ، بسبب الحزن على فراق الزوج أو الزوجة .

٣ - وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا .

أفادت كتب الحديث وأسباب النزول أن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالما ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : أُسر ابنى ، وشكا إليه الفاقة ، فقال ﷺ : «اتق الله ، وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم » . ففعل ، فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل ، غفل عنها العدوّ فاستاقها ، فنزلت : وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ . [١٢٩]

والتوكّل هو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب .

والمعنى :

ومن يثق بالله تعالى ويعتمد عليه ، كفاه الله ما أهمّه ، وكان الله له معينا وكافيا فى الدنيا والآخرة .

روى الحاكم ، عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كلّ ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب ».

إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ...

منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه ، بما يريده ويشاؤه ، وهو سبحانه فعّال لما يريد .

قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا .

أى : جعل الله لكل أمر من الأمور مقدارًا معلوما ، ووقتا محدودًا ، حسب الحكمة الأزلية .

قال تعالى : وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ . (الرعد : ٨) . جلّت حكمته تعالى ، وتعاظم تدبيره ، فينبغى للمؤمن أن يثق فى حكمته وقدرته ، وأن يتوكل عليه .

قال القرطبى: أى جعل لكل شىء من الشدة والرخاء أجلا ينتهى إليه .

وقد أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره طائفة من الآيات والأحاديث والآثار المفيدة ، ننقل منها ما يأتى :

روى أحمد ، والنسائى ، وابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال : «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يردّ القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البرّ» .[١٣٠]

وروى ابن أبى حاتم ، عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : «من انقطع إلى الله كفاه الله كلّ مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها» .

وروى أحمد ، والترمذى ، عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما ، فقال له رسول الله ﷺ : «يا غلام ، إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك لم يضرّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف»[١٣١] (قال الترمذى : حسن صحيح) .

وقد أورد الشيخ الفاضل ابن عاشور فى تفسير التحرير والتنوير حكمة وضع جملة : قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . بعد بيان أحكام الطلاق والرجعة والإشهاد ، وعدّة ذوات الأقراء وغيرها ، وكيفية العدة ، فهذه الجملة بمثابة التعليل لمدة العدّة ، وللأمر بالتقوى والتوكل ، فإذا تساءل إنسان : وأين منّى هذا الفرج ؟

جاء الجواب : قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . ولهذه الجملة موقع التذييل لما سبقها من الأحكام أيضا ، بأنّ كل شىء عنده بمقدار ونظام وإبداع .

★ ★ ★

عدة اليائسة والصغيرة

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

واللائى يئسن : أى : انقطع عنهن الحيض لكبر سنهن ، وقُدِّر بستين أو خمس وخمسين سنة .

إن ارتبتم : إن شككتم كيف تكون عدة اليائسة .

يكفر عنه سيئاته : يغفرها له .

و يعظم له أجرا : بالمضاعفة .

تمهيد :

فى أول سورة الطلاق أمر الله بتطليق النساء لعدّتهن ، وبيَّن أمر الطلاق والرجعة ...

ثم بيَّن هنا مقدار العدّة للآيسة والصغيرة ، وأنها ثلاثة أشهر ، وعدة الحامل وكونها بوضع الحمل تتميما لما ذكره الله فى سورة البقرة من عدة ذوات الأقراء ، والمتوفى عنها زوجها .

سبب النزول :

أخرج مقاتل فى تفسيره ، أنه لما ذكر قوله تعالى : وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ... (البقرة : ٢٢٨) . قال خلاد بن النعمان : يا رسول الله ، فما عدة التى لم تحض ، وعدة التى انقطع حملها ، وعدة الحبلى ؟ فنزلت : وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ ...

التفسير :

٤ - وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا .

نجد عناية القرآن بالبيان الكامل لحالات العدّة ، فقد سبق فى سورة البقرة عدّة المطلقة ذات الأقراء ، وهى التى ينزل عليها الحيض، فتعتد بنزول ثلاث حيضات عليها ، أو ثلاثة أطهار ، حسب آراء الفقهاء .

لقوله تعالى : وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ... (البقرة : ٢٢٨) .

وقد بين الله عدة المتوفَّى عنها زوجها فى سورة البقرة ، حيث قال تعالى : وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ... (البقرة : ٢٣٤) .

وقد بيّن هنا عدة المرأة التى يئست من نزول الدَّم عليها لبلوغها سنّ الخامسة والخمسين أو الستين ، أو انقطع الدم عنها لأى سبب قبل ذلك أو بعده ، فعدتها ثلاثة أشهر ، وعدة الصغيرة التى لم ينزل عليها دم الحيض ثلاثة أشهر ، إذا طلق الرجل امرأة صغيرة قبل أن ينزل عليها دم الحيض ، وكذلك كل امرأة لم ينزل عليها دم الحيض لأى سبب فعدتها ثلاثة أشهر ، وأما المرأة الحامل المطلَّقة فإن عدتها وضع الحمل ، سواء كانت العدّة من الطلاق أو من وفاة الزوج ، لأن المقصود من العدّة معرفة براءة الرحم من الحمل ، ووضع الحمل أكبر دليل على تعرُّف ذلك .

معنى الآية :

والنساء الكبيرات فى السنّ اللائى بلغن سنّ اليأس من المحيض ، إذا شككتم وتساءلتم كيف تعتد فى حالة انقطاع دم الحيض ، فالجواب أن عدتهن ثلاثة أشهر ، وكذلك النساء الصغيرات إذا طُلّقن قبل نزول الحيض عليهن فعدتهن ثلاثة أشهر ، أما النساء الحوامل فعدّة الحامل هى وضع الحمل ، سواء أكانت العدة من الطلاق أم من الوفاة ، وهذا رأى الجمهور .

ورأى الإمام على أن الآية فى المطلقات ، أمّا المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأجلين : الأشهر ، أو وضع الحمل ، وهو مذهب الإمامية .

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا .

ومن يراقب الله تعالى فى تنفيذ أحكام الطلاق ، ييسر الله تعالى له أموره ، ويعوّضه ويجعل له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

٥ - ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا .

هذه أوامر الله وتشريعاته ، أنزلها إليكم فى حكم المطلقات والمعتدات ، فراقبوا الله مراقبة عامة ، وراقبوه فى تنفيذ أحكام المطلقات مراقبة خاصة ، ومن يتق الله ويراقبه ، ويتحصن بتقوى الله وخشيته ، يغفر له ذنوبه ، ويضاعف له الثواب والأجر .

وقد أورد فى ظلال القرآن كلامًا طويلاً جميلاً ، خلاصته عناية الإسلام بالأسرة وبالزواج ، وبتزويج الفقراء والتعاون معهم ، واعتبار الزواج ميثاقا غليظا ، وحثّه على المحافظة على الزواج ، وعدم التّسرع فى فصم العلاقة الزوجية ، حيث قال تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . (النساء : ١٩) .

ثم أمرنا عند النشوز أو الإعراض من أحد الزوجين بدراسة الحالة ، واستماع وجهة النظر الأخرى ، ومحاولة الصلح بالجهود الذاتية ، فإذا تعسّر ذلك على الزوجين ، وخيف اتّساع النزاع ، وجب أن نختار حكمين من أهل العقل والحكمة لدراسة الحالة ومحاولة الصلح .

فإذا تعسّرت كل الطرق لم يبق أمامنا إلاّ الطلاق بشروطه وآدابه المذكورة فى صدر سورة الطلاق ، وكلها شروط تقصد إلى هدوء النفس ، والتريث والانتظار رجاء الرجوع والعدول عن الطلاق ، والعودة إلى نظام الأسرة وتعاون الزوجين .

ونلاحظ أنّ سورة الطلاق حافلة بمؤثرات متعددة تحث على تقوى الله والتوكل عليه ، وتحذر من الظلم والعدوان ، ذلك لأن المطلّق والمطلّقة ربما حملهما الطلاق على كيد أحدهما للآخر أو ظلمه ، فحذّر الله من الظلم والعدوان ، وحث على التقوى ومراقبة الله ، والعشرة بالمعروف أو الفرقة بالمعروف .

وهى آداب سامية تعتز بها أمة الإسلام ، ويعتز بها المسلم الذى يجد فى كتاب ربّه أبواب السعادة والتوفيق فى الدنيا والآخرة .

قال الضحاك : من يتق الله فى طلاق السنّة ، يجعل له من أمره يسرًا فى الرجعة .

★ ★ ★

السكنى والنفقة للمعتدة ، وأجر الرضاع

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ
فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ
وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾

المفردات :

من وُجدكم : من وسعكم ، وقال الفراء : على قدر طاقتكم .

ولا تضاروهن : في النفقة والسكنى .

لتضيقوا عليهن : لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان ، أو بإسكان من لا يردن السكنى معه .

ائتمروا بينكم بمعروف : تشاوروا ، وأن يأمر بعضكم بعضا باليسر والتسامح في الأجرة والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماسكة ، ولا من الأم معاسرة.

وإن تعاسرتم : بأن كان من الأب مضايقة ، أو من الأمّ ممانعة .

قدر عليه رزقه : ضُيِّق .

آتاه الله : أعطاه .

إلا ما آتاها : إلا بقدر ما أعطاها من الأرزاق ، قلّ أو كثر .

تمهيد:

بعد بيان عدة الآيسة والصغيرة والحامل ، ذكر الله تعالى ما يجب للمعتدة من نفقة وسكنى ، بقدر الطاقة ، سواء أكانت مطلقة أم حاملا ، فإذا ولدت الحامل ، فلها الأجر على إرضاع المولود ، فإن لم يتفقا كان على الأب أن يأتي بمرضِع أخرى ، يدفع الأبُ نفقتها ، والأم أحق بالإرضاع ، إذا هي رضيت بمثل أجرتها ، والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر ما يستطيع ، فالله لا يكلِّف الإنسان إلا بما يطيق .

التفسير :

٦ – أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ .

أسكنوا هؤلاء المطلقات فى بعض مساكنكم التى تسكنونها ، على قدر طاقتكم ومقدرتكم ، فإن كان موسرًا وسّع عليها فى المسكن والنفقة ، وإن كان فقيرا فعلى قدر طاقته.

قال قتادة : ولتسكن إذا لم يكن إلا بيت واحد ، فى بعض نواحيه .

وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ...

ولا تستعملوا معهنّ الضرار فى السكنى بشغل المكان ، أو بإسكان غيرهن معهن ممن لا يُحبِبْنَ السُّكنى معه ، لتلجئوهن إلى الخروج من مساكنهن .

وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ...

إذا كانت المطلقة حاملا ، فيجب الإنفاق عليها وعلى حملها حتى تضع الحمل .

وهذا حكم المطلقة طلقة بائنة ، أما المطلقة طلقة رجعية ، فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملا .

وقال أبو حنيفة : تجب النفقة والسكنى لكلّ مطلقة ، وإن لم تكن ذات حمل ، لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى المبتوتة : «لها النفقة والسكنى» ، لأن ذلك جزاء الاحتباس ، وهو مشترك بين الحامل وغيرها .

وأرى أن ذلك من محاسن الدين الإسلامى ، ومن التكافل الاجتماعى ، ومن رعاية المطلقة والإنفاق عليها فى فترة العدّة ترضية لها ، وقياما بحقها ، فقد قدّمت لزوجها ما قدمت فى فترة الزواج ، فيجب أن يرعاها ويتكفل بها بعد الطلاق فى فترة العدّة ، لأنها محبوسة وممنوعة من الزواج بسبب أن كل زواج تعقبه عدة لتعرّف براءة الرحم ، فنفقة العدّة تكون على الزوج ، لأن من حقوق الزوجة على زوجها النفقة .

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ...

إذا طُلقت المرأة وقامت بإرضاع الولد ، فإن نفقة الرضاع على الزوج ، فلها أجر المثل .

وفى هذا إشارة إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج ، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات .

وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ...

أى : تشاوروا وتعاونوا ، وتدارسوا موقف الأبناء بعد الطلاق ، لعمل اللازم لهم ، ولا تجعلوا المال عائقا عن مواصلة الرعاية النفسية والاجتماعية والنفقة على الأولاد ، فالوالد مطالب بالسخاء على أولاده ، والأم مطالبة بالحضانة والكفالة ، ولها أجر المثل .

وهذه الفقرة فيها مناشدة للأزواج والزوجات المطلّقات تدارس الموقف ، واللجوء إلى المعروف ، والتفاهم والتيسير بشأن الذريّة ورعايتها بعد انفصال الزوجين ، وما أحرى المسلمين فى هذه الأيام بالتخلّق بأخلاق القرآن ، وترك الكيد من أحد الزوجين للآخر بعد الطلاق .

فنجد رجلا ترك أولاده لزوجته ، تقوم هى بتعليمهم والإنفاق عليهم ، وقد أخلّ هو بما يجب عليه ، ونقول له : أين قوله تعالى : وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ...

وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ .

إذا شحّ الأب بالمال ، أو تعسّفت الأم فى طلب أجرة أكثر من أجرة المثل ، فليحضر الأب مرضعا أخرى ترضع الرضيع بالأجر ، فإذا قبلت الأمّ بأجر المثل فهى أحق بابنها ، لما تشتمل عليه الأم من الحنان والحبّ .

فإذا لم يقبل الرضيع ثدى مرضع أخرى غير أمّه ، وجب على أمّه الرضاع ولها أجر المثل .

ويرى بعض المفسرين أن هذه الفقرة فيها لوم للأمّ ومعاتبة لها ، كقولك لمن تستقضيه حاجة فيتوانى عن قضائها : سيقضيها غيرك ، بمعنى ستقضى وأنت ملوم .

فالأم أكثر حنوًّا وشفقة ، وينبغى تعاون الطرفين ، الأب والأم ، من أجل مصلحة الصغير .

٧ – لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

لينفق الغنى من ماله ، فإذا كان موسرًا يسّر على المطلقة وعلى أولادها ، ووسَّع عليهم مما أعطاه الله له ، فالجود من الموجود ، وأولى الناس بالمشاركة فى المال والتوسعة فى العطاء زوجته السابقة وأولاده منها ، أما إذا كان الزوج فقيرا ، فلينفق مما آتاه الله من الأرزاق ، قلّت أو كثرت ، فلا يكلّف الفقير نفقة مثل نفقة الغنىّ .

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا ...

أى : بقدر ما أعطاها من الطاقة والقوّة .

وقريب منه قوله تعالى : لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (البقرة : ٢٨٦) .

أى : إلا ما فى إمكانياتها وسعتها .

وقد فاوت الله بين الناس فى العطاء ، وجعلهم درجات ، وطلب الله من كل إنسان أن ينفق على أسرته حسب حالته ، وحسب يساره أو إعساره ، فإذا كان الزوج فقيرا ثم وسّع الله عليه ، وجب أن يزيد فى نفقة أسرته ، وإذا كان غنيا ثم افتقر ، خفّض ميزانية النفقة ، وعلى الأُسرة أن تصبر وتتحمل وتتعاون ، وتتقبّل ما ينفقه الزوج حسب حالته ، فلا ينبغى لزوجة الفقير أن تتطلع إلى نفقة واسعة مثل زوجة الغنى ، بل تصبر حتى يوسّع الله على زوجها فيوسع عليها .

سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

سيجعل الله بعد الشدة فرجا ، وبعد الضيق سعة ، وفيه وعد من الله تعالى بمساعدة الفقراء إذا قنعوا ورضوا .

قال تعالى : فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . (الشرح : ٥، ٦) .

وما أجمل هذا التشريع الإلهى الذى يربط النفقة بحالة الزوج .

جاء فى تفسير الآلوسى أن النبى ﷺ قال : «إن المؤمن أخذ عن الله أدبا حسنا ، إذا هو سبحانه وسّع عليه وسّع ، وإذا هو عزّ وجل قتّر عليه قتّر».

★ ★ ★

وعيد المخالفين ووعد الطائعين

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا
﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

وكأين من قرية : كثير من أهل القرى .

عتت : تجبرت وتكبرت وأعرضت وعصت .

نكرا : منكرًا عظيما .

فذاقت وبال أمرها : فتجرّعت عاقبة عتوها وكفرها .

خسرا : خسارة وهلاكًا هائلاً .

أعد الله لهم عذابا شديدا : تكرار الوعيد للتوكيد .

ذكرا : قرآنا

رسولا : وأرسل محمدًا ﷺ .

من الظلمات إلى النور : من الكفر والضلالة إلى الإيمان .

قد أحسن الله له رزقا : هو رزق الجنة التى لا ينقطع نعيمها ، وفيه تعجيب وتعظيم لما رزقوا من الثواب .

ومن الأرض مثلهن : وخلق مثلهنّ فى العدد من الأرض ، يعنى سبع أرضين .

يتنزّل الأمر بينهنّ : يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهنّ .

تمهيد:

بعد أن بيّن أحكام الطلاق والعدّة والرجعة ، وما يجب للمعتدة من نفقة وسكنى ، توعّد كلّ من يخالف أمر الله فى العدة والنفقة والسكنى ، ومسئوليات الطلاق وتبعاته ، بأن ينزل به ما أنزله بالأمم المكذبة ، من العذاب الشديد فى الدنيا ، وما ينتظرها من عذاب لاحق بالآخرة ، ثم أردف ذلك بالتذكير بعظيم قدرته، وإحاطة علمه ، للحث على التزام الأوامر ، والعمل بالشريعة والأحكام ، فكانت بمثابة التحذير بعقوبة الظالمين ، من كل زوج أو زوجة لا ينفذون أحكام الله فى الطلاق وما يتصل به .

التفسير:

٨ – وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا .

كثير من أهل قرية من القرى السابقة ، عتت وتمردت على أمر الله ورسله ، فكذّبت المرسلين ، وكفرت بالوحى ، واستمرت فى عبادة الأوثان والأصنام ، فحاسبها الله حسابا شديدا ، وأحصى عليها أعمالها وتكذيبها وتحدّياتها للمرسلين ، ثم أنزل بها عذابا منكرا جزاء وفاقا لكفرها .

كما حدث لقوم نوح ، وقوم صالح ، وقوم هود ، وما حدث لفرعون وقومه ، وما حدث لقوم لوط وغيرهم من المكذبين .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ . (الفجر: ٦ – ١٤) .

٩ – فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا .

فذاقت عاقبة عتوِّها وتجبُّرها ، وتمرُّدها على أوامر الله ، وكانت نتيجة ذلك خسارا شديدا لا خسار وراءه ، فقد أهلكها الله فى الدنيا ، وأعدَّ لها عذاب النار فى الآخرة .

١٠ – أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا .

تكرير للوعيد ليضعه أمام الأنفس ، تحذيراً لمن يرتكب الظلم والعناد ، والانتقام الآشر ، فى أمور الطلاق والعدة والنفقة والسكنى ، وما يتصل بذلك من أمور .

فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا .

سارعوا أيها المؤمنون أصحاب العقول والألباب إلى تقوى الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتنفيذ ما شرعه الله لكم فى أحكام الطلاق مهما كانت رغبتكم فى الانتقام من خصمكم ، فأطفئوا هذا الغيظ بتقوى الله ، يا أيها المؤمنون قد أنزل الله إليكم كتاباً مشتملا على الذكر والتذكير ، وتبصير المسلمين بأحكام الله ووجوب طاعتها ، وقد كان النبى ﷺ قرآنا متحركا ، سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن . (١٣٢).

١١- رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا .

هذا الذكر هو القرآن العظيم ، ومعه رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، فهو المبيِّن للقرآن الكريم ، والموضح لأحكامه ، والقارئ لنصوصه من أجل هداية المؤمنين ، وإخراجهم من ظلمات الجهالة والكفر إلى نور الهداية والإيمان .

وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا.

ومن يؤمن بالله ربا ، ويعمل أعمالا صالحة ، يدخله الله جنات وبساتين ناضرة ، تجرى الأنهار من تحتها ، وفيها ألوان متعددة من البهجة والنعيم ، مع خلود أبدى سرمدى ، فما أعجب هذا الرزق وما أحسنه ، إنّه الجنة ورضوان من الله أكبر .

وفيه تعْجيبٌ من هذا الرزق العظيم ، والتوفيق الكريم .

قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا . .

لقد أكرمه ونجاه من النار ، وأوجب له الجنة ، وأعطاه من الخير والنعيم ما يشرح صدره ، ويدخل السرور على نفسه ويُصلح باله .

١٢ - ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا.

ما أعظم الخالق ، وما أبدع الصانع ، وما أقوى القدير ، وما أعظم علمه وإحاطته بكل شىء فى هذا الكون .

ومعنى الآية :

الله تعالى هو الذى خلق سبع سماوات طباقا .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا . (نوح : ١٥، ١٦) .

وخلق سبحانه سبع أرضين ، يتنزل وحى الله وأمره ، وقضاؤه وقدره ، وحكمه ومشيئته ، بين السماوات السبع والأرضين السبع .

فهو سبحانه حافظ الكون ومدبّره ، وممسك بزمامه ، وهو كامل القدرة والعلم ، فاعلموا ذلك وراقبوه فى سائر أموركم ، وفى شئون الطلاق ، وما يتصل به من العدة والسكنى والنفقة والإمساك بالمعروف أو المفارقة بالمعروف .

ملاحظة

ذُكر لفظ السماوات فى القرآن جَمْعًا ، ولفظ الأرض مفردًا فى سائر القرآن الكريم ، وهذه هى الآية الوحيدة التى تشعر أن الأرض ربما تكون سبع أرضين .

ومن العلماء من ذهب إلى أن السماء سبع سماوات ، واستدل على ذلك بما ورد فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة من أن النبى ﷺ صعد إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، حيث رأى :

فى السماء الأولى : آدم

وفى السماء الثانية : يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة .

وفى السماء الثالثة : يوسف ، وقد أُعطى شطر الحسن .

وفى السماء الرابعة : إدريس ، وقد رفعه الله مكانًا عليًّا .

وفى السماء الخامسة : هارون .

وفى السماء السادسة : موسى .

وفى السماء السابعة : إبراهيم ، عليهم جميعًا السلام .

وأما الأرض فهى أرض مفردة ، وأما قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ... أى فى الإحكام والإبداع وحسن التقدير .

واللفظ صالح لأن يراد به سبع سماوات وسبع أرضين ، وهو الأرجح والأقوى ، وصالح لأن يراد به سبع سماوات ، ومن الأرض الواحدة مثلهن فى الإبداع والتكامل ، وعناية الله بالخلق ورعايته .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦ... (فاطر : ٤١) .

وأنا أرى أنه لابد أن تكون هناك حكمة إلهية لا نعرفها نحن الآن ، وقد نعرفها فى المستقبل ، من ذكر السماوات جمعًا وسبعا فى القرآن ، وذكر لفظة الأرض مفردة فى جميع القرآن ، ما عدا هذه الآية الأخيرة فى سورة الطلاق .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا.

وقد ذهب الإمام ابن كثير إلى أن الأرض سبع ، حيث قال :

وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. أى : سبعا أيضا ، كما ثبت فى الصحيحين : «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة » [١٣٣] .

وفى صحيح البخارى : «خُسف به إلى سبع أرضين» .

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الطلاق

للطلاق آداب ينبغي أن تراعى ، ومن ذلك ما يأتى :

١ – ينبغى أن يكون فى طهر لم تجامع فيه الزوجة .

٢ – ينبغى إحصاء ومعرفة مُدّة العدة ، وبدايتها ونهايتها .

٣ – ينبغى أن تسكن الزوجة فى بيت الزوج فترة العدّة .

٤ – الإمساك بالمعروف ، أو الطلاق مع الإحسان ، وهو إعطاء المطلقة مؤخر الصداق والسكنى والنفقة .

٥ – وجوب الإشهاد على الزواج والطلاق والرجعة .

٦ – تقوى الله والتوكل عليه والالتزام بأحكامه ، طريق للسعادة فى الدارين .

٧ – للمطلقة السكنى والنفقة حسب يسار الزوج وإعساره .

٨ – أهلك الله كثيرا من قرى الظالمين جزاء عنادهم وعتوّهم وكبرهم عن الخضوع لأحكام الله ، فاستحقُّوا عذاب الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

٩ – ليتق الله كلُّ مؤمن ومؤمنة فى مراعاة أحكام الله .

★ ★ ★

ضميمة فى أنواع العدة

(أ) عدة ذوات الأقراء : ٣ قروء .

(ب) عدة الحامل : وضع الحمل .

(ج) عدة المتوفى عنها زوجها : ٤ أشهر وعشرة أيام .

(د) عدة الآيسة من الحيض ، وعمرها عادة خمس وخمسون سنة : ٣ أشهر .

(هـ) وكذلك الصغيرة التى لم ينزل عليها دم الحيض عدتها : ٣ أشهر .

(و) المطلقة قبل الدخول : لها نصف المهر ولا عدّة عليها .

(ز) هناك طلاق رجعى يستطيع الزوج مراجعة زوجته فيه ما دامت فى العدّة ، فإذا أتمت العدة فهو طلاق بائن بينونة صغرى ، فإذا كان الطلاق مكمّلا للثلاث بانت المطلقة بينونة كبرى.

★ ★ ★


تفسير سورة التحريم

أهـداف سـورة التحـريم

(سورة التحريم مدنية ، وآياتها ١٢ آية ، نزلت بعد سورة الحجرات)

شاء الله أن يكون الرسول بشرا ، فيه قوة الإنسان ، وتجارب الإنسان ، ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان ، لتكون سيرة هذا الرسول الإنسان نموذجا عمليا للمحاولة الناجحة ، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التى لا تعيش فى هالات ولا فى خيالات .

وهذه السورة فيها عتاب للرسول الأمين ﷺ على تحريمه ما أحل الله له ، ولو كتم النبى من أمر القرآن شيئا لكتم هذا العتاب .

إن هذا القرآن كتاب الحياة بكل ما فيها ، وقد شاء الله أن يواكب الوحى حياة الرسول الأمين ﷺ ، فيبارك الخطوات الناجحة ، ويُقوِّم ما يحتاج إلى تقويم ، وبذلك تكون القدوة فى متناول الناس .

قال تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا . (الأحزاب :٢١) .

لقد عاتب القرآن رسول الله ﷺ فى قبوله الفداء من أسرى بدر ، وفى إذنه للمخلفين بالقعود عن الجهاد ، وفى إعراضه عن الأعمى الذى ألحّ فى السؤال ، وفى تحريمه ما أحل الله له.

كما عرض القرآن جوانب القوة والجهاد والتربية والسلوك للنبى الأمين ، وجعل حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صورة العقيدة ، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ، ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا ولا سترا مطويا ، بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى ، حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر ، بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول ﷺ للناس .

إن حياة الرسول ملك للدعوة ، وهى الصورة المنظورة الممكنة التطبيق من العقيدة ، وقد جاء ليعرضها للناس فى شخصه وفى حياته ، كما يعرضها بقوله وفعله ، ولهذا خُلِق ، ولهذا جاء ، لتكون السنة

هى ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وليكون هو النموذج العملى الملموس فى دنيا الناس ، يتعرض للأحزان ، ويموت ابنه ، ويصاب فى غزوة أحد ، وتنتشر الشائعات عن زوجته عائشة ، ويعيب المنافقون عليه بعض الأمور ، لتكون الصورةُ كاملة للإنسان بكل ما فيه ، وليكون الوحى بعد ذلك فيصلا، ودليلا هاديا فيما ينبغى سلوكه فى هذه الحياة .

قصة التحريم

تزوج النبى ﷺ تسع نساء لحكم إلهية ، ولتكون هذه الزوجات مبلغات لشئون الوحى فيما يخص النساء، وقد قضى النبى ﷺ صدر حياته مع خديجة وكان عمره خمسًا وعشرين سنة وعمرها أربعين ، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ولم يتزوج عليها فى حياتها ، وكان وفيا لذكراها ، وقد ماتت خديجة وعمره خمسون عاما .

ثم تزوج عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم سلمة ، وقد مات زوجها شهيدا فضم النبى ﷺ إليه عيالها من أبى سلمة وتزوجها ، وزينب بنت جحش زوج مولاه ومتبناه زيد ، ليكون ذلك تشريعا للناس فى إباحة زواج الإنسان من زوجة ابنه المتبنى .

قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً . (الأحزاب : ٣٧) .

وتزوج النبى ﷺ جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فلما تزوجها النبى ﷺ أعتق الصحابة أقاربها وأسلم أهلها ، وكانت أيمن امرأة على قومها . ثم تزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت مهاجرة إلى الحبشة ، ثم ارتد زوجها وتنصر فخطبها النبى ﷺ ، وجاءت من الحبشة إلى المدينة ، ثم تزوج إثر فتح خيبر صفية بنت حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ، وكانت آخر زوجاته ميمونة بنت الحارث بن حزن ، وهى خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس .

وكانت لكل زوجة من أزواجه ﷺ قصة وسبب فى زواجه منها ، ولم يكن معظمهن شواب ، ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال ، وكل نسائه قد سبق لهن الزواج ما عدا عائشة ، فقد كانت البكر الوحيدة بين نسائه .

وقد أنجب النبى ﷺ جميع أبنائه من خديجة ، فقد رزق منها ولدين وأربع بنات ، وقد مات الولدان فى صدر حياته ﷺ ويقيت البنات إلى ما بعد الرسالة ، ثم ماتت ثلاث من بناته وهن : رقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وعاشت فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر بعد وفاة أبيها ، ولم ينجب ﷺ من زوجة أخرى غير خديجة.

وكان المقوقس ملك مصر قد أهدى إليه جاريتين هما مارية وسيرين، فتسرى بمارية ، وأهدى سيرين إلى حسان بن ثابت ، ولما كانت مارية جارية لم يكن لها بيت بجوار المسجد ، فكان بيتها فى عوالى المدينة، فى المحل الذى يقال له الآن : (مشربة أم إبراهيم) ، وقد رُزق النبى منها بمولود ذكر سماه إبراهيم تيمنا بإبراهيم الخليل .

وقد ماتت خديجة والنبى ﷺ فى الخمسين ، ولم يرزق بمولود من نسائه جميعا طوال عشر سنوات ، ثم رزق إبراهيم وقد تخطى الستين ، ففاضت نفسه بالمسرة ، وامتلأ قلبه الإنسانى الكبير أُنسا وغبطة ، وارتفعت مارية بهذا الميلاد فى عينيه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه ، وزادت عنده حظوة وقربا .

كان طبيعيا أن يدس ذلك فى نفوس سائر زوجاته غيرة ، تزايدت أضعافا بأنها أم إبراهيم ، وبأنهن جميعا لا ولد لهن ، وكان النبى ﷺ يتردد كل يوم على إبراهيم ويحمله بين يديه ، ويفرح لابتسامته البريئة ، ويُسر بنموه وجماله .

وكانت المرأة فى الجاهلية تُسام الخسف صغيرة ، وتُمسك على الذل كبيرة ، فلما جاء الإسلام حرّم وأد البنات ، وسما بالمرأة إلى منزلة سامية ، وصى النبى بالنساء خيرا ، وعامل نساءه معاملة حسنة ، وجعل لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفا قط عند العرب .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ إذا خلا بنسائه ألين الناس ، وأكرم الناس ، ضحاكًا بساما .

تحريم مارية :

حدث أن جاءت ماريا القبطية من عوالى المدينة إلى رسول الله ، وكانت حفصة فى زيارة لبيت أبيها ، فدخلت مارية فى حجرة حفصة ، وأقامت بها وقتا مع النبى ﷺ ، وعادت حفصة فوجدت مارية فى بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها وهى أشد ما تكون غيرة ، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة ، فلما خرجت مارية ودخلت حفصة قالت : يانبى الله ، لقد جئتَ إلىّ شيئا ما جئتَ إلى أحد من أزواجك بمثله ، فى يومى وفى دورى وعلى فراشى . قال ﷺ : «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها» ، قالت : بلى ، فحرمها ، وقال : «لا تذكرى ذلك لأحد» ، فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عز وجل عليه ، فأنزل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ ... فبلغنا أن نبى الله ﷺ كفّر عن يمينه وأصاب جاريته (١٣٤).

تحريم العسل :

روى البخارى ، عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير [١٣٥] ، إنى أجد منك ريح مغافير ، قال : «لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحدًا» . [١٣٦] . فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له ، وقد نزل بشأنه : لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ...

ويبدو أن التى حدثها رسول اللّٰه ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالته لزميلتها المتآمرة معها ، ثم أطلع اللّٰه رسوله على حديثهما .

قال ابن جرير الطبرى :

والصواب من القول فى ذلك أن يقال : كان الذى حرمه النبى ﷺ على نفسه شيئا كان اللّٰه قد أحله له ، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون كان شرابا من الأشربة ، وجائز أن يكون كان غير ذلك ، غير أنه أى ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلالا ، فعاتبه اللّٰه على تحريمه على نفسه . [١٣٧] .

النبى يهجر نساءه :

كان من جراء هذا الحادث ، وهو تحريم مارية أو تحريم العسل ، وما كشف عنه من تآمر ومكايدات فى بيت الرسول ﷺ ، أن غضب النبى فآلى من نسائه لا يقربهن شهرا ، وهمّ بتطليقهن ، ثم نزلت هذه السورة وقد هدأ غضبه ﷺ فعاد إلى نسائه .

روى الإمام أحمد فى مسنده ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، أن ابن عباس سأل عمر عن المرأتين اللتين قال اللّٰه تعالى لهما : إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ... (التحريم : ٤) . فقال عمر : هما عائشة وحفصة ، ثم قال عمر : كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال عمر : فبينما أنا فى أمر آتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لها : ومالك أنت ولما هاهنا ، وما تكلفك فى أمر أريده ؟ فقالت لى : عجبا لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول اللّٰه ﷺ حتى يظل يومه غضبان ، وإن أزواج رسول اللّٰه ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجعين رسول اللّٰه ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ . فقالت حفصة : واللّٰه إنا لنراجعه ، فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة اللّٰه وغضب رسوله ، يا بنية لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول اللّٰه ﷺ إياها .

واعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهرا ، منقطعا عنهن فى مشربة منعزلة ، واستأذن عمر على رسول الله ﷺ ثلاث مرات حتى أذن له . قال عمر : فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر فى جنبه ، فقلت : أطلّقت يارسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال : «لا» ، فقلت : الله أكبر ، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتى يوما ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرتُ أن تراجعنى فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فواللهِ إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟ قال : «نعم» ، فجلست ، فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فى البيت شيئا يرد البصر إلا هيبة مقامه ، فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالسا ، وقال : «أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا» . فقلت : استغفر لى يا رسول الله وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل [١٣٨].

اصطفاء الرسول :

يقول الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ . (الحج : ٧٥) .

لقد اصطفى الله محمدا ليبلغ الرسالة الأخيرة للناس ، واختاره إنسانًا تتمثل فيه العقيدة الإسلامية بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها «ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها ، إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها ، ضليع التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سليم البناء ، صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما ، وهو فى ذات الوقت ضخم العاطفة ، حى الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقى والاستجابة ، وهو فى الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوى الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه ، ثم هو بعد ذلك كله النبى الذى تشرق روحه بالنور الكلى ، والذى تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذى ينادى من السماء ، والذى يرى نور ربه ، والذى تتصل حقيقته بحقيقة كل شىء فى الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به جبل أحد ، ثم تتوازن فى شخصيته هذه الطاقات كلها فإذا هى التوازن المقابل لتوازن العقيدة التى اختير لها » . [١٣٩].

مع السورة

١ - حرّم النبى ﷺ مارية القبطية على نفسه ، أو حرم العسل على نفسه ، مرضاة لزوجاته ، وتنزل وحى السماء يفيد أن ما أحله الله لا ينبغى أن يحرمه الإنسان .

٢ - أباح الله للإنسان إذا حرّم حلالا أو أقسم على يمين ورأى غيرها خيرا منها أن يأتى الذى هو خير ثم يكفّر عن يمينه .

٣ - أخبر النبى ﷺ حفصة بتحريم مارية ، وأن أبا بكر وعمر يليان أمر هذه الأمة من بعده ، وأمرها أن تكتم ذلك ، ولكنها لم تكتمه ، وأخبرت به عائشة ، وعلم النبى ﷺ بذلك فَلَامَ حفصة على إفشاء سره ، وأخبرها أنه لم يعلم هذا السر من عائشة ولكن من العليم الخبير .

٤ - أدّبت السورة عائشة وحفصة ، وبيّنت أن التآمر وإفشاء السر مؤلم للنبى ، ومقلق لهذا القلب الكبير وهذا أمر يستحق التوبة والإنابة ، ثم بينت أن إيلام النبى ﷺ أمر كريه وسيرتد الكيد على صاحبه ، لأن النبى ﷺ معه قوة غالبة ، يكفى أن معه الله والملائكة وصالح المؤمنين .

٥ - هدد الله نساء النبى بالطلاق ، وبأن يعوضه الله منهن بنساء هن المثل العليا فى القنوت والعبادة والتوبة والجمال ، وقد أثمر هذا التهديد ثمرته ، فعادت نساؤه إلى الطاعة والخضوع ، واستأنف النبى ﷺ حياته متفرغا لرسالته ، وتبليغ دعوته ومرضاة ربه ، قرير العين فى بيته ومع أسرته .

والآيات ترسم صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذى كان ينهض بإنشاء أمه ، وإقامة دولة ، على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق ، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية فى صورتها الأخيرة ، وتنشئ فى الأرض مجتمعا ربانيا فى صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وفى ظلال هذا الحادث تهيب الآيات (٦ -٩) بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم فى بيوتهم ، من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهليهم النار ، وترسم لهم مشهدا من مشاهدها وحال الكفار عندها .

ثم تجدد الدعوة إلى التوبة النصوح ، وتصور لهم الجنة التى تنتظر التائبين ، ثم تدعو النبى ﷺ إلى جهاد الكفار والمنافقين وحماية المجتمع الإسلامى من الداخل والخارج .

فالآيات الأولى (١-٥) دعوة لتوبة نساء النبى وحماية بيته ونفسه .

والآيات التالية (٦-٩) دعوة لتوبة المؤمنين ومحافظتهم على تربية أولادهم وبناتهم لأن الأسرة هى قوام المجتمع .

ثم تجىء الجولة الثالثة والأخيرة ، وكأنها التكملة المباشرة لتهديد عائشة وحفصة ، فقد تحدثت الآيات (١٠ –١٢) عن امرأة نوح وامرأة لوط ، كمثل للكفر فى بيت مؤمن ، وهو تهديد مستتر لكل زوجة تخون زوجها وتخون رسالته ودعوته ، فلن ينجيها من العذاب أن أقرب الناس إليها نبى رسول أو داعية كريم .

ولا يضر المرأة المؤمنة أن يكون أقرب الناس إليها طاغية جبارًا أو ملكًا متسلطًا معتديًا ، وقد ذُكرت امرأة فرعون كمثل للإيمان فى بيت كافر ، وجعلت السورة فى ختامها نموذجا رفيعا للمرأة المؤمنة يتمثل فى آسية امرأة فرعون التى استعلت على المال والملك والجاه والسلطان ورغبت فيما عند اللّه .

ويتمثل فى مريم ابنة عمران ، المتطهرة المؤمنة القانتة المصدقة بكلمات ربها وكتبه .

وبذلك نجد المرأة تسير فى ركب الإيمان ، ويتحدث القرآن عنها كنموذج للخير يتمثل فى أم موسى ، وفى أم عيسى ، وفى بلقيس التى أسلمت للّه رب العالمين ، وفى امرأة فرعون التى زهدت فى ملك فرعون ورغبت فى ثواب اللّه رب العالمين .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة التحريم ما يأتى : عتاب الرسول ﷺ فى التحريم والتحليل قبل ورود وحى سماوى ، وتعيير الأزواج الطاهرات على إيذائه وإظهار سره ، والأمر بالتحرز والتجنب من جهنم ، والأمر بالتوبة النصوح ، والوعد بإتمام النور فى القيامة ، والأمر بجهاد الكفار بطريق السياسة ، ومع المنافقين بالبرهان والحجة ، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن قرب المفسدين لا يضر مع وجود الصدق والإخلاص ، والخبر عن صدق إيمان امرأة فرعون ، وتصديق مريم بقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ . (التحريم : ١٢) .

★ ★ ★

بعض أحوال نساء النبى ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ
اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ
أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا
عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾
عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ
سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

تحرّم : تمتنع .

ما أحل الله لك : العسل ، أو مارية القبطية .

تبتغى : تطلب .

فرَضَ : شرع وبيَّن .

تحلّة أيمانكم : تحليلها بالكفارة ، أو بالاستثناء متصلا حتى لا يحنث .

مولاكم : وليكم وناصركم .

بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور .

نبأت به : أخبرت به عائشة .

أظــــهـــــره : أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة .

عـــــــــرّف : أعلمها ببعض الحديث الذى أفشته .

وأعرض عن بعض : لم يخبرها به .

إن تـــتـــوبـــا : حفصة وعائشة .

صغت قلوبكما : مالت قلوبكما عن الحق ، وعدلت عما يجب للرسول ﷺ من تعظيم وإجلال .

وإن تظاهرا عليه : تتظاهرا وتتعاونا على إيذاء الرسول ﷺ

مــــــــولاه : وليه وناصره .

ظــهـــيـــر : ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون .

مســلــمــات : خاضعات له بالطاعة .

مــؤمـــنـــات : مصدقات بتوحيد الله مخلصات .

قــانـــتـــات : مواظبات على الطاعة .

تــائـــبـــات : مقلعات عن الذنوب .

عـــابـــدات : متعبدات متذلّلات لأمر الرسول ﷺ .

ســائـــحـــات : صائمات ، سمى الصائم سائحا : لأنه يسيح فى النهار بلا زاد ، أو مهاجرات .

ثـيـبـات وأبـكـارًا : مشتملات على الصنفين ، فالثيِّب من تزوجت سابقا ، والبكر من لم يسبق لها الزواج .

ملاحظة :

يلاحظ فى وصف النساء اللائى سيعوِّضُ الرسول ﷺ بهنّ إذا طلّق نساءه ، أنه بدأ فى وصفهنّ بالإسلام وهو الانقياد ، ثم بالإيمان وهو التصديق ، ثم بالقنوت وهو الطواعية ، ثم بالتوبة وهى الإقلاع عن الذنب ، ثم بالعبادة وهى التلذذ بالمناجاة لله ، ثم بالسياحة وهى كناية عن الصوم أو الهجرة ، وأمّا الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان فى امرأة واحدة ، لذا عطف أحدهما على الآخر ، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى ، وذكر الجنسين لأن فى أزواجه ﷺ من تزوجها بكراً كعائشة ، وفيهن الثيّاب وهن بقية نسائه ﷺ .

تمهيد :

كان ﷺ إذا انصرف من صلاة العصر دخل على نسائه ، يمكث عند زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت عائشة وحفصة ، إذا دخل ﷺ على إحداهما أن تقول له : أشم منك رائحة المغافير ، فهل أكلت مغافير ؟ (وهو نبت صمغ حلو ، له رائحة كريهة من شجر العُرْفُط فى الحجاز).

فقال ﷺ : «لا ، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن أعود إليه ، وقد حلفتُ» .

وقال لحفصة : «لا تخبرى بذلك أحدا» ، فأخبرت به عائشة رضى الله عنهما . وقد روى ذلك البخارى ومسلم .

وقيل . حرَّم النبى ﷺ مارية القبطية على نفسه ، وهذا القول ، وإن قرب من حيث المعنى ، إلا أنه لم يدوّن فى صحيح ولا نقله عدل ، كما ورد ذلك فى أحكام القرآن .

وقد ذكر البخارى ، عن عمر أنه وعظ نساء النبى ﷺ واحدة واحدة ، ينهاهنّ عن إيذاء الرسول ﷺ ، ويهددهن أن يبدله الله خيرا منهنّ ، فقالت له زينب : يا ابن الخطاب ، أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهنّ أنت ، فأمسك عمر ، فأنزل الله : عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ... (التحريم : ٥) .

التفسير :

١ – يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

هناك روايتان فى سبب نزول هذه الآية :

الرواية الأولى :

أن النبى ﷺ قال لحفصة بنت عمر : لقد حرَّمت مارية على نفسى . استرضاء لها ، لأن حفصة كانت فى زيارة أبيها ، وجاءت مارية القبطية من عوالى المدينة ، فدخلت فى بيت حفصة ، فلما جاءت حفصة أخبروها بأن مارية فى حجرتها ، فتغيّظت من ذلك ، وقالت للنبى ﷺ : ما أراك إلا أعرست بها على سريرى، وما كنت تفعلها لولا هوانى عليك ، فقال ﷺ لحفصة : «إنى حرّمت مارية على نفسى فاكتمى علىَّ» . لكنَّ حفصة أخبرت عائشة بذلك ، وكانتا متصادقتين ، فعاتبهما الله تعالى .

الرواية الثانية :

أن النبى ﷺ دخل على زينب فشرب عندها عسلا ، فاتفقت عائشة وحفصة إذا دخل على واحدة منهما أن تقول له : نشمّ منك رائحة مغافير – وهو طعام حلو كريه الريح – فلما قالتا له ذلك ، قال ﷺ : «شربت عسلا عند زينب ، ولن أعود إليه» ، وحلف فنزلت : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ...

وذكر العلماء: أن النبى ﷺ ربما وقع منه الأمران : تحريم مارية ، وبعد فترة قريبة حرّم العسل على نفسه ، فنزلت الآية عقب الأمرين جميعا .

والإمام الطبرى يذكر أن المستفاد من الآية أن النبى ﷺ قد حرّم على نفسه شيئًا ما قد أحله الله له ، فحرّمه على نفسه تطييبا لخاطر نسائه ، لكن الله تعالى لامه على ذلك ، وأحلّ له العدول عن اليمين ، والاستمتاع بهذا الحلال .

وقد يكون ما حرّمه على نفسه هو مارية القبطية ، وقد يكون العسل ، وقد يكون غير ذلك . ا.هـ .

فعاتبه الله تعالى على ما بدر منه ، رفقا به ، وتنويها بقدره ، وإجلالاً لمنصبه ﷺ ، أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشقّ عليه ، مع أنّه أَلِف لطف الله به .

ومعنى الآية :

يا أيها النبىُّ الموحى إليه ، الذى فضله الله ، وختم به الرسل ، لِمَ تحرِّم على نفسك ما أحلّه الله لك ، مثل العسل ، أو مارية القبطية ، تبتغى بذلك مرضاة عائشة وحفصة ، والله غفور رحيم ، يغفر لك ويرحمك برحمته الواسعة .

ونلاحظ أن النبى ﷺ لم يكن حرَّم العسل أو مارية ، بمعنى التحريم الشرعى ، وإنما كان قد قرر حرمان نفسه من العسل أو من مارية ، فجاء هذا العتاب بأنَّ ما جعله الله حلالا ، لا يجوز حرمان النفس منه عمدًا وقصدًا ، إرضاءً لأحد .

٢ - قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحلّلون به من أيمانكم وذلك بالكفّارة .

وفى الحديث الشريف : «من حلف على يمين ورأى غيرها خيرًا منها فليأت الذى هو خير ، وليكفرّ عن يمينه» [١٤٠] .

وقال تعالى : **لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَ ٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَ ٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** . (المائدة : ٨٩) .

وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ ... فهو سبحانه وليكم وناصركم .

وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

يشرع لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتكم ، وما يصلح لكم ، فلا تحرّموا إلاّ ما حرّم ، ولا تحلّوا غير ما أحلّ .

٣ - وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ .

كانت حفصة رضى الله عنها فى زيارة أبيها ، ولما جاءت مارية القبطية من عوالى المدينة ، خلا بها النبى ﷺ فى غرفة حفصة ، وانتظرت حفصة حتى خرجت مارية ، وتألمت من دخول مارية غرفتها ، فحرّم النبى ﷺ مارية على نفسه ، وأخبر حفصة بذلك ، فلما خرج النبى ﷺ من عندها ، أخبرت عائشة بذلك ، ولم تستطع من شدة سرورها بتحريم مارية أن تكتم الخبر فأخبرت به عائشة ، وطلبت منها أن تكتم الأمر ، أو كان الأمر هو تحريم العسل .

ومعنى الآية :

وإذ قال النبى ﷺ لحفصة : إنى حرّمت العسل على نفسى ، أو حرمت مارية على نفسى، واكتمى هذا الخبر ، لكن حفصة أخبرت به عائشة ، وأعلم الله رسوله ﷺ بما حَدَث .

فلما عاتب النبى ﷺ حفصة ، وأخبرها بما فعلت ، قالت له : من أين علمت بذلك ؟ فأفادها أن الذى أخبره بذلك هو، ٱلْعَلِيمُ. بسائر أحوال الناس ، ٱلْخَبِيرُ . بكلّ شىء فى الوجود .

وفى ذلك دعوة للناس جميعا إلى مراقبة الله تعالى ، ودعوة لزوجات الرسول ﷺ إلى ترك التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار ، والتفرُّغ بالقلوب إلى مراقبة الله تعالى ، وذكره وشكره والالتجاء إليه.

٤ - إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ .

تأتى هذه الآية لتوجيه عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، إلى التوبة النصوح والتفرغ لذكر الله وطاعته .

وقد جرت العادة بأنّ الشئون المنزلية تشغل بال الرجال وتضيّع زمنًا من تفكيرهم فيها.

وتبين الآية أن قلبى عائشة وحفصة قد انشغلا بتدبير مؤامرة ، يترتب عليها أن يزهد النبى ﷺ فى بعض نسائه ، والنبى الكريم يربّى أمّة ، ويوجّه دعوة ، وينزل عليه الوحى ، ويبلّغ الوحى للناس ، ويقود الجيوش ، ويرسل السرايا ، وينظم شئون الأمة الإسلامية صباح مساء ، فينبغى أن يتوفّر له القدر الكافى من الهدوء النفسى والمعنوى .

لذلك حمل القرآن حملة قوية على عائشة وحفصة ، وذكّرهما أن قلوبهما قد مالت عن الانشغال بطاعة الله إلى عمل مؤامرة لتزهيد النبى ﷺ فى بعض نسائه .

ومعنى الآية :

إن تتوبا إلى الله تعالى مما بدر منكما ، فذلك حق واجب ، وخير كبير ، لأن قلوبكما قد انصرفت عن الإخلاص والحب لرسول الله ﷺ ، وحب ما يحبّه ، وكراهة ما يكرهه ، إلى تدبير مؤامرة منكما ليكره بعض نسائه .

وإن تتعاونا على النبى ﷺ بما يسوءه ، من الوقيعة بينه وبين بعض نسائه ، فإن تعاونكما وتظاهركما عليه فاشل ضائع ، لأن هناك قوةً عليا، وجيوشًا متعاونة ، توْازر رسول الله ﷺ ، وتشد أزره .

فَإِنَّ ٱللَّهَ. مولاه وناصره ، وكفى به وليا ونصيرا.

وَجِبْرِيلُ. كذلك وليه وناصره .

وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وأبو بكر وعمر ، والصالحون من المؤمنين نصراء له .

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ . والملائكة وهم أعظم المخلوقات ، بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، نُصْرة للنبى المختار ، فمن ذا الذى يستطيع أن يناوئ النبى ﷺ بعد ذلك ، والآية مسوقة لتعظيم قدر النبى ﷺ ، وبيان منزلته العالية ، وأنّ الدنيا كلَّها تسانده ، وأيضا للتأثير العاطفى على نسائه ، حتى يكْفُفْنَ عن التآمر عليه ، وحتى يتفرغ كليًّا لأمر دعوة الإسلام .

وقد كان يكفى أن يقال : **فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ** . ومن وجد الله وجد كلّ شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يبين أن الكون كله معه، فخالق الكون معه ، والكون كلُّه معه .

وقد ثبت فى الصحيح ما يفيد أن هذا الأمر شغل رسول الله ﷺ ، واعتزل نساءه شهراً ، وأنّ ذلك شق على المسلمين ، وحزنوا لغضب النبى ﷺ من نسائه .

ودخل عمر على رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ، ما يشقُّ عليك من شأن النساء ؟ فإن كنت طلَّقتهنّ فإن اللّه معك وملائكته وجبريل ، وأبو بكر وعمر معك ، فنزلت هذه الآية موافقة لقول عمر رضى الله عنه .

والخلاصة : إذا تظاهَرْتما عليه فلن يضرَّه ذلك ، لأن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير .

٥ - عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا .

أى : إن تحقق طلاق الرسول ﷺ لَكُنَّ ، فإن الله سيبدله أزواجًا خيرا منكنَّ ، يتمتعن بأخلاق فاضلة ، هى قدوة لَكُنَّ وللجميع .

مُسْلِمَـٰتٍ . خاضعات مستسلمات لأمر الله ورسوله .

مُّؤْمِنَـٰتٍ . مصدِّقات مخلصات .

قَـٰنِتَـٰتٍ . متعمقات فى العبادة والقنوت ، والتبتل والإخلاص ، مواظبات على الطاعة .

تَـٰٓئِبَـٰتٍ . نادمات على وقوع المعصية ، متجهات إلى الطاعة.

عَـٰبِدَٰتٍ . متذللات فى طاعة الله ومحبته والإخلاص له .

سَـٰٓئِحَـٰتٍ . متأملات بعيونهن وقلوبهن فى ملكوت السماوات والأرض ، صائمات عن كل سوء ، مهاجرات عن السوء مجتنبات له .

ثَيِّبَـٰتٍ . جمع ثيِّب وهى التى زالت عذرتها ، وسميت بذلك لأنها ترجع إلى الزوج بعد زوال عذرتها .

وَأَبْكَارًا . جمع بكر ، وهى التى تفتض بكارتها .

وذكر الجنسين لأن فى أزواجه ﷺ من تزوجها ثيبا ، وفيهن من تزوجها بكرًا ، وجَاء أنه لم يتزوج بكرا إلاَّ السيدة عائشة رضى الله عنها .

وقد رضيتْ نفس النبى ﷺ بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته ، واطمأنَّ هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هدوءه بتوجيه الله سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

توجيهات للمؤمنين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ
غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً
نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

قوا أنفسكم : اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصي .

وأهليكم : بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب .

الوقود : (بفتح الواو) ما توقد به النار .

الحجارة : الأصنام التي تعبد ، قال تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... (الأنبياء : ٩٨) .

ملائكة : هم خزنة جهنم التسعة عشر .

غلاظ : غلاظ القلوب ، لا يرحمون إذا استُرحموا .

شداد : أقوياء الأبدان ، شداد الأفعال .

توبة نصوحا : بالغة الغاية في النصح ، وقوامها ثلاثة أمور : الندم على ما فات ، والإقلاع في الحال ، والعزم على عدم العودة إلى المعاصي أبدًا ، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع .

يوم لا يخزي الله النبي : لا يصيبهم بالخزي أو الانكسار أو الفضيحة .

بين أيديهم : أمامهم ، يسعى نور الإيمان بهم على الصراط .

جاهد الكفار : بمختلف أنواع الأسلحة .

والمنافقين : باللسان والحجة .

واغلظ عليهم : اشتد عليهم بالانتهار والمقت والقتل بحقّ .

تمهيد :

فى الآيات السابقة توجيه وتحذير لأمهات المؤمنين ، بأن النبى إذا غضب عليهن وطلقهن، فسيحرمن من هذا الفضل ، وسيعوّضه الله نساء أخريات ، متّصفات بصفات سامية ، هى المثل الأعلى .

وهنا يوجِّه النصح للمؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار بترك المعاصى وفعل الطاعات ، وأخبر عن الكفار أنهم يلقون جزاءهم فى النار ، وأمر المسلمين بالتوبة النصوح ، والندم على ما فات ، والعزم على الاستقامة فيما هو آت ، فإن ذلك وسيلة إلى مغفرة الذنوب ، ودخول الجنات فى يوم القيامة ، حيث لا يهين الله النَّبى ولا يخذله ، بل يكرمه ويكرم المؤمنين ، حيث نرى نور أعمالهم يسعى أمامهم وعن يمينهم .

ثم توّج ذلك كلّه بالأمر بجهاد الكافرين المعتدين ، والمنافقين المتستِّرين ، والمجاهدة قد تكون بالقتال ، وقد تكون بالحجة والبرهان .

التفسير :

٦ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

بعد أن حذَّرت الآيات السابقة زوجات الرسول ﷺ من إيذائه ، توجهت هذه الآيات إلى نصح المؤمنين بالتوبة والاستقامة والعمل الصالح ، وأن يجعلوا بين أنفسهم وبين النار وقاية وحماية ، وذلك بعمل المأمورات ، وترك المنهيات ، واجتناب الشبهات .

أما وقايتهم لأهليهم من النار ، فذلك بحملهم على الطَّاعات ، وأمرهم بالصلوات ، وإلزامهم بآداب الإسلام ، ورعايتهم وتأديبهم .

قال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .(طه : ١٣٢) .

قال قتادة : تأمر أهلك بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به ، وتساعدهم عليه ، فإذا رأيت معصية قدعتهم عنها ، وزجرتهم عنها. اهـ .

وروى أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «مروا أبناءكم بالصلاة سبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع» .(١٤١).

وروى الترمذي، والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن» (١٤٢).

صفة النار أعاذنا الله منها

وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ...

إن أمر هذه النار يدعو إلى العجب، لأن نار الدنيا تتقد بالحطب، أما نار الآخرة فإنها تتقد بأجسام الكفار والمشركين، وبالأصنام التي عُبدت من دون الله، وقد ورد في وصف جهنم وأهوالها وعذابها آيات وأحاديث كثيرة، لتحذير الناس منها، وكثيرا ما قارن القرآن بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

قال تعالى: كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ. (محمد: ١٥).

عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ...

يحيط بالنار زبانية.

قال تعالى: لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ... (المدثر: ٢٩ – ٣١).

لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم، وهم بغلظتهم هذه وشدتهم مُوكّلون بهذه النار الشديدة الغليظة.

وعلى المؤمن أن يقي نفسه، وأن يقي أهله هذه النار، قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار.

٧ – يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

لا تعتذروا اليوم، لأن اليوم عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

والجزاء هنا على قدر العمل، ومن أجل كفركم وعتوّكم وظلمكم تدخلون النار جزاء عملكم: وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا. (الكهف: ٤٩).

وفى ذلك المعنى يقول الله تعالى : ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .
(غافر : ١٧)

٨ – يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

دعوة من الله تعالى للذين آمنوا أن يتوبوا إليه سبحانه وتعالى توبة بالغة الغاية فى النصح ، كأنها تنصح صاحبها وتدعوه إلى ثلاثة أشياء :

١ – الندم الشديد على المعصية .

٢ – الإقلاع فى الحال عن كل معصية .

٣ – العزم الأكيد على الطاعة والبعد عن كل معصية فى المستقبل ، والتصميم على ألاَّ يعود إلى المعاصى أبدا ، كما لايعود اللَّبن إلى الضرع .

من فعل ذلك وتاب إلى الله توبة صادقة ، كان جديرا بوعد الله له بأن يغفر له ذنوبه ، وأن يدخله جنات وبساتين تجرى الأنهار من تحتها ، مع الكرامة والرعاية ، والبعد عن المهانة والزراية ، والعذاب الأليم الذى يلقاه المشركون ، ومن تكريم المؤمنين أن يضمهم الله إلى النبى الكريم فى قوله سبحانه : يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ... وفيه تعريض بخزى الكافرين ومهانتهم فى النار.

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ...

وهذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين عند مرورهم على الصراط ، حيث يجدون نور إيمانهم يسعى أمامهم وعن يمينهم .

كما جاء فى سورة الحديد : وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ... (الحديد : ٢٨) .

يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

يقول المؤمنون راغبين راجين بعد أن يلهمهم الله الدعاء :

ربنا أتمم لنا نورنا حتى نسير فيه إلى الجنة ، واغفر لنا وسامحنا ، وامح عنا ذنوبنا ، إنَّ كل شئ بيدك ، وأنت على كل شىء قدير ، من المغفرة والتوبة والرضوان .

قال ابن عباس :

هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين ، فى ذلك اليوم يُشاهَد المؤمنون غرًّا محجَّلين من آثار الوضوء ، تسطع جباههم وأيديهم بالنُّور من آثار الطُّهور ، فيعرفهم رسول الله ﷺ يوم القيامة .

٩ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

يا أيها النبى جاهد الكفار بالسيف والقوة ، وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ . بالحجة والبرهان ، وفَضْحِ سلوكهم وكَشف نفاقهم ، واغلظ عليهم فى الجهاد ، والجدال بالحجة والبرهان ، ومصير الكافرين والمنافقين جهنم ، وبئس هذا المصير مصيرا ، إنه مصير إلى النار وعذابها ، وبئس ما يلقونه فيها .

اللهم عافنا من النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

★ ★ ★

أمثلة من النساء الكافرات والمؤمنات

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ
مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا
ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

المفردات :

ضرب الله مثلا : ضرب المثل : ذكر حال غريبة ، لتُعرف منها حال أخرى تشاكلها فى الغرابة .

تحت عبدين : فى عصمتهما .

فخانتاهما : أى : نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان ، وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط تدل قومه على نزول أضيافه عليه ، وقد حفظ الله زوجات الأنبياء من الزنا .

فلم يغنيا عنهما : فلم يفيداهما ، ولم يجزيا عنهما شيئا من عذاب الله .

امرأة فرعون : هى آسية بنت مزاحم .

نجّنى من فرعون وعمله : خلِّصنى منه ، فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله .

القوم الظالمين : هم الوثنيون أقباط مصر - فى ذلك الوقت - وحاشية فرعون .

أحصنت فرجها : حفظته وصانته .

الفرج : شق جيب الدرع (القميص) إذ الفرج لغة : كل فُرجة بين الشيئين ، ويراد بذلك عفتها .

كلمات ربها : شرائعه وكتبه التى أنزلها على رسله .

القانتين : الطائعين المخبتين إلى الله ، المتمثلين أوامره .

تمهيد :

نجد فى ختام السورة مثلا لزوجتينْ كافرتين فى بيتى نبيّين كريمين ، ومع شدة القرب بين الزوجة وزوجها ، فإن هذا القرب لم يغنِ عنهما من عذاب الله شيئا .

فموازين الله عادلة ، ولكل عامل جزاء عمله ، ولن ينفع المسىء قرب أفضل الرسل منه ، ولن يضرّ الصالح قرب أظلم الناس منه .

لذلك ضرب الله مثلا للذين آمنوا بزوجة فرعون ، فهذا المَلِكُ كان يملك الملك والجاه والسلطان والقصر ، وزوجته فى الذروة العليا من مظاهر الدنيا ، لكنَّها تعالت على كلّ ذلك ، وطلبت النجاة من فرعون وعمله ، ومن الظالمين من حاشيته وملئه ، ورغبت فى جنة الله ، وفى بيت من بيوت هذه الجنة ، إنها نموذج حىّ لعائشة وحفصة ولسائر المؤمنات ، وفى الآية الأخيرة نموذج ثان لامرأة مؤمنة ، آمنت بالله وتحصنت بالعفة ، فنفخ جبريل بأمر الله فى جيب قميصها ، فوصلت النفخة إلى فرجها ، فحملت بعيسى وصدّقت بكتب الله وكلماته ، وكانت من القانتين العابدين ، فجعلها الله نموذجا يحتذى لأهل الإيمان ، وجعلها ضمن أربع كاملات فضليات سيدات نساء أهل الجنة :

١ - آسية امرأة فرعون .

٢ - مريم ابنة عمران .

٣ - خديجة الكبرى .

٤ - فاطمة بنت محمد ﷺ .

التفسير :

١٠ - ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ .

ضرب الله الأمثال فى القرآن ، والمثل قصة عجيبة فيها تشبيه أمر معنوى بأمر حسّى ، تجسيمًا للمعنى ، وإبرازًا للمعقول فى صورة المحسوس ، فهذا نموذج للكفر والعصيان والطرد من رحمة الله ، يتمثل فى زوجة نوح وزوجة لوط ، كل واحدة منهما كانت زوجة لنبىٍّ كريم ، وعبد صالح من عباد الله الصالحين ، والعبودية لله منزلة عليا يتفاضل بها الناس ، وفى صدر سورة الإسراء : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ...
(الإسراء : ١)

ومع قرب الزوجة من زوجها ومعايشته فى النهار والليل ، ورؤيتها لسلوكه ، وفضل الله عليه ، فإن الإيمان لم يخالط بشاشة قلبها ، فكانت زوجة نوح تسخر منه مع الساخرين ، أو تتهمه بالجنون مع قومها ، أو ترشد قومها إلى كلّ أمر جديد ، أو دعوة جديدة عند نوح ، لقد كانت خيانتها لنوح خيانة للدعوة التى يحملها ، ولم تكن خيانتها ارتكاب فاحشة الزنا ، لأن الله حفظ نساء الأنبياء من ارتكاب فاحشة الزنا .

وكانت امرأة لوط ترشد قومه إلى الأضياف الذين ينزلون عنده ، فغضب الله عليهما ، ولم يغن نوح أو لوط عنهما من عذاب الله شيئًا ، وقيل لهما : ادخلا النار مع الداخلين من أمة نوح ولوط .

وهو تهديد لعائشة وحفصة ، وزوجات الرسول عامة ، ولكل إنسان ، مؤدّاه : إن الله أعدّ الجنة لمن أطاعه وإن كان عبدًا حبشيا ، وأعد النار لمن عصاه وإن كان حرًّا قرشيا ، أو منسبا أو قريبًا للنبىّ ﷺ ، أو زوجة من زوجاته ، فالخلق جميعا عباد الله تعالى ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

١١ - وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

ونموذج آخر حىّ للإيمان والمثل الأعلى الصالح ، امرأة فرعون ، كانت تحت أعظم ملك ، ومعها القصور والجاه ، لكنها لما آمنت بموسى زهدت فى كلّ شىء ، وعذّبها فرعون بأربعة أوتاد ، من يديها

ورجليها ، لكنها رفضت كل إغراء ، وطلبت النجاة من فرعون وعمله ، والنجاة من حاشيته وأتباعه ، وأن يكون بيتها عند الله فى الجنة ، فى معية الله ورحمته ، وفضله ورعايته .

قال بعض العلماء :

ما أحسن هذا الكلام ، فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت : ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ . فهى تطمع فى جوار الله قبل طمعها فى القصور ، وفى الآية دليل على إيمانها بالبعث والدار الآخرة .

قال قتادة :

كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضرّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربّها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل ، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذَنْبه .

١٢ – وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ .

ونموذج آخر للمثل الأعلى للمرأة المؤمنة ، هو مريم ابنة عمران البتول الطاهرة المتعبدة الصالحة ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا . أى : حفظته من كل فاحشة ، كالحصن الذى يتحصن به الجنود فلا يصل إليهم الأعداء ، والمرأة المحصنة هى الفاضلة المستقيمة البعيدة عن الريبة ، فقد وصفها الله بالطهارة والاستقامة ، وبُعدها عن الفاحشة ، حيث أحصنت فرجها وحفظته عن الحرام .

وحينما ظهر لها جبريل فى صورة بشر ، قالت : إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا. (مريم : ١٨ – ٢٢) .

هذه المرأة رفعها إيمانها الكامل ، وطاعتها لربها ، وعفتها وإحصانها لفرجها ، وبُعدها عن الزنا والفاحشة، فنفخ جبريل فى جيب قميصها ، فوصلت النفخة إلى فرجها ، فحملت بعيسى عليه السلام ، كما هو مفصّل فى سورة مريم وغيرها من السُّور .

وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ .

وآمنت بشرائع الله وكتبه وصحفه ، كصحف إدريس وصحف إبراهيم وموسى، وصدقت ببشارة الله لها ، أنها ستحمل ولدًا بدون أب ، ليكون آية بينة للبشرية كلّها على قدرة الله الخارقة ، وأنه سبحانه هو المسبب للأسباب ، وأن أمره بين الكاف والنون .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ . (يس : ٨٢) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ . (آل عمران : ٥٩) .

وثبت فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ قال : «كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» . (١٤٣) .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة التحريم

اشتملت سورة التحريم على ثلاثة أمور :

١ - أخبار نساء النبى ﷺ ، وحلفه ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهنّ ، أو حلفه ألا يقرب مارية القبطية، وأمره حفصة أن تكتم الموضوع فأفشته ، وأعلمه الله بذلك ، ثم أدّب القرآن زوجات الرسول ﷺ أدبا مناسبا .

٢ - ضرب الله مثلا للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط .

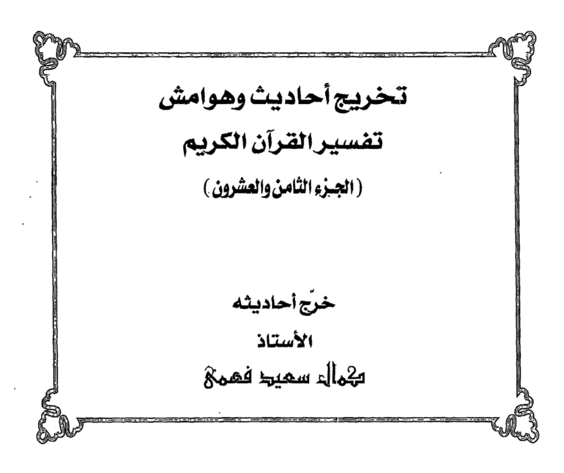
٣ - ضرب المثل للذين آمنوا بآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .

* * *

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (التحريم) ، وبه تمّ تفسير الجزء (الثامن والعشرين) ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وكان الفراغ منه عصر يوم السبت ١٦ من ذى القعدة ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١/٢/١٠ م ، ونسأله تعالى المعونة والتوفيق والسداد ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثامن والعشرون)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمي

(١) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب ٨/٢٨.

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٤٥٦/١ .

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٤) رواه ابن جرير ، قال ابن كثير : وإلى ما ذكرناه ذهب ابن عباس والأكثرون . وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى المجلد الثالث ص ٤٥٩ .

(٥) حكاه الآلوسى .

(٦) حكاه القرطبى .

(٧) انظر تفسيرى المراغى والآلوسى، والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية .

(٨) الحمد لله الذى وفق:

رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢) والترمذى فى الأحكام (١٣٧٢) والدارمى فى المقدمة (١٦٨) وأحمد فى مسنده (٢١٥٠٢ ، ٢١٥٥٦ ، ٢١٥٩٥) عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال : «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء»؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : «فإن لم تجد فى كتاب الله»؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : «فإن لم تجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله» ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، فضرب رسول الله صدره وقال : «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله» . قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندى بمتصل . وقال الزيلعى فى نصب الراية : وأخرجاه أيضًا عن أناس من أصحاب معاذ أن رسول الله ... مرسلاً ، قال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بمتصل ، انتهى . وقال البخارى فى «تاريخه الكبير» : الحارث بن عمرو ابن أخى المغيرة بن شعبة الثقفى عن أصحاب معاذ عن معاذ ، روى عنه أبو عون ، ولا يصح ، ولا يعرف إلا بهذا ، مرسل ، انتهى . وفيه كتاب . ورواه النسائى فى آداب القضاء (٥٣٩٩) والدارمى فى المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله ، فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ، فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ، ولا أرى التأخر إلا خيرا لك ، والسلام عليكم .

(٩) مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٢٤) ومسلم فى السلام (٢١٦٥) من حديث عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم ، قالت عائشة : ففهمتها فقلت : وعليكم السام واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : «مهلا يا عائشة ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله» فقلت : يا رسول الله ، أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ : «قد قلت : وعليكم» .

(١٠) نقلا عن تفسير القرطبى ، وصفوة التفاسير للصابونى ٣٣٩/٣.

(١١) إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان:

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٩٠) ومسلم فى السلام (٢١٨٤) من حديث عبد الله رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه».

(١٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق الصابونى ٣/٤٦٣.

(١٣) والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه:

رواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

(١٤) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو:

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٩)، وأحمد (٧١٦٥، ٨٧٨٢)، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٦) من حديث أبى هريرة، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(١٥) لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه:

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٦٩) ومسلم فى السلام (٢١٧٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه».

(١٦) من أحب أن يمثل له الرجال قياما:

رواه أبو داود فى الأدب (٥٢٢٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٥٥) من حديث أبى مجلز قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار».

وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(١٧) قوموا إلى سيدكم:

رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٤٣) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد – هو ابن معاذ – بعث إليه رسول الله ﷺ وكان قريبا منه فجاء على حمار فلما دنا قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك»، قال: فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية، قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك».

(١٨) ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى :

رواه الترمذى فى الصلاة (٢٢٨) وأحمد فى مسنده (٤٣٦٠) من حديث عبد الله عن النبى ﷺ قال : «ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق» .

وقال الترمذى : حسن صحيح غريب .

والنسائى فى الإمامة (٨٠٧) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٩٧٦) من حديث أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً .

(١٩) والله فى عون العبد :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٣) .

(٢٠) إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٨١٧) وابن ماجة فى المقدمة (٢١٨) وأحمد فى مسنده (٢٣٣) من حديث عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى ، قال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا ، قال : فاستخلفت عليهم مولى ، قال : إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض ، قال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين» .

(٢١) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثالث ص ٤٦٥ .

(٢٢) ما ترى دينارا :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٠٠) من حديث على بن أبى طالب قال : لما نزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة**﴾ قال لى النبى ﷺ : «ما ترى ، دينارا» ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فنصف دينار» ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فكم» ؟ قلت : شعيرة ، قال : «إنك لزهيد» ، قال : فنزلت ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ...** ﴾ الآية . قال : فبى خفف الله عن هذه الأمة .

وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٢٣) التفسير المنير ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، الجزء ٢٨ ص ٤٨ .

(٢٤) صفوة التفاسير .

(٢٥) أخرجه فى : ٧٥ – كتاب المرضى ، ١١ – باب عيادة المشرك ، حديث رقم ٧١٤ ، عن أنس .

(٢٦) تفسير القاسمى، المجلد السابع، دار إحياء التراث العربى . بيروت لبنان ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢٧) انظر تفسير النسفى : ٤ – ١٧٩ ، وكتب التفسير والسيرة .

(٢٨) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ١٢٧ .

(٢٩) الوجيف: سرعة السير . والركاب: ما يركب من الإبل .

(٣٠) حمل بعضهم عليه الآية (١٦) من سورة الحشر ، حيث استدرجه الشيطان إلى المعصية ثم إلى الشرك ثم تخلى عنه ، وذلك أن الشيطان ذهب إلى بنت فخنقها حتى مرضت، ثم أفهم أهلها أن شفاءها عند ذلك العابد ، فتركها أهلها عنده في صومعته ليرقيها ، فلما شفيت وسوس له الشيطان حتى ارتكب معها الفحشاء ، فلما انكشف أمره أُخذ لِيُصْلب فطلب منه الشيطان أن يسجد له حتى ينجو من الصلب، فسجد للشيطان ثم مات كافرًا .

(٣١) الأنواء : الأمطار ، والنوء: المطر .

(٣٢) الندى : النادى .

(٣٣) سمحة : الملة الميسرة . قال ﷺ : «بعثت بالحنيفية السمحة» .

(٣٤) الغلو .

(٣٥) متأنيا .

(٣٦) طفر : وثب .

(٣٧) أخرجه في: ٦٥ كتاب التفسير ، ٥٩ سورة الحشر ، ١ - باب الجلاء من أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

(٣٨) تفسير القاسمي ١٦ - ٥٧٣٣ .

(٣٩) تفسير سورة الحشر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤٠) تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤١) إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٦) وفى التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٨) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار ...» الحديث . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث ، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، ولا نعلم فى كبير شىء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، وقد روى آدم بن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه الأسماء ، وليس له إسناد صحيح .

(٤٢) التليد : القديم العهد .

(٤٣) غدروا بنا ونحن عاكفون على صلاتنا بالليل .

(٤٤) نصرا عزيزا .

(٤٥) المصانعة : المجاملة والسبق بالمعروف .

(٤٦) لعل الله اطلع إلى أهل بدر :

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٨٣) من حديث على رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوى والزبير ابن العوام وكلنا فارس ، قال : «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين» ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول ﷺ فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معنا كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه ، فقال النبى ﷺ : «ما حملك على ما صنعت» ؟ قال حاطب : والله ما بى أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال النبى ﷺ : «صدق ، ولا تقولوا له إلا خيرا» ، فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه ، فقال : «أليس من أهل بدر» ؟ فقال : «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة – أو – فقد غفرت لكم» . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

(٤٧) فى ظلال القرآن ٥٨/٢٨ .

(٤٨) فى ظلال القرآن ٦٦/٢٨ .

(٤٩) انظر تفسيرى الطبرى وابن كثير .

(٥٠) د. محمد سيد طنطاوى، التفسير الوسيط، الجزء ٢٨ ص ٤٢٨ .

(٥١) تفسير التحرير والتنوير، جـ ٢٨ ص ١٣٩ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، قال : واللام فى للذين كفروا للمِلك ، ويجوز أن يكون المعنى: لا تجعلنا فاتنين للذين كفروا بضعفنا وتفرقنا .

(٥٢) نعم صِلِى أمك :

رواه البخارى فى الهبة (٢٦٢٠) وفى الجزية (٣١٨٣) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٣) وأبو داود (١٦٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٧٥) من حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قال : قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : «نعم صِلِى أمك» .

(٥٣) تفسير الطبرى مجلد ١٢ ص ٦٩، سورة الممتحنة الآيتان (٩ ، ١٠) دار الغد العربى، العباسية، القاهرة .

(٥٤) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

(٥٥) والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩١) من حديث عروة أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله : ﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ إلى قوله : ﴿غفور رحيم﴾ قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : «قد بايعتك» كلاما . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط فى المبايعة ما يبايعهن إلا بقوله : «قد بايعتك على ذلك» .

(٥٦) إنى لا أصافح النساء :

رواه النسائى فى البيعة (٤١٨١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٤) وأحمد فى مسنده (٢٦٤٦٦) من حديث أميمة بنت رقيقة أنها قالت : أتيت النبى ﷺ فى نسوة من الأنصار نبايعه فقلنا : يا رسول الله ، نبايعك على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك فى معروف ، قال : «فيما استطعتن وأطقتن» . قالت : قلنا : الله ورسوله أرحم بنا ، هلم نبايعك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : «إنى لا أصافح النساء إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة أو مثل قولى لامرأة واحدة ».

(٥٧) صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى ، ناقلا عن تفسير البحر المحيط ٢٥٨/٨ والتفسير الكبير للرازى ٣٠٧/٢٩ .

(٥٨) أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ فقال : «أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا» ، وقرأ آية النساء وأكثر لفظ سفيان قرأ الآية . «فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه إن شاء غفر له» . تابعه عبد الرزاق عن معمر فى الآية .

(٥٩) ليس منا من لطم الخدود :

رواه البخارى فى الجنائز (١٢٩٤) وأحمد فى مسنده (٤١٠٠) من حديث عبد الله رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» .

(٦٠) إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا:

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٣٤، ٣٥٣٥) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

(٦١) آية المنافق ثلاث:

رواه البخارى فى الإيمان (٣٣) ، وفى الشهادات (٢٦٢٨) ، وفى الوصايا (٢٧٤٩) ، وفى الأدب (٦٠٩٥) ، ومسلم فى الإيمان (٥٩ ، ٧٤) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦٣١) . وقال : حسن صحيح .

(٦٢) ثلاثة يضحك الله إليهم :

رواه أحمد فى مسنده (١١٣٥٢) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال» .

(٦٣) إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وأحمد فى مسنده (١٦٢٩٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لى أسماء ، أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب» .

(٦٤) أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٣٥٥) من حديث أبى موسى الأشعرى قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال : «أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة» .

(٦٥) رواه ابن إسحاق ، قال ابن كثير : إسناده جيد وله شواهد من وجوه أخر .

(٦٦) أخرجه الإمام أحمد عن العرباض بن سارية مرفوعًا .

(٦٧) أخرجه الإمام أحمد .

(٦٨) رواه أحمد وأصحاب السِّير .

(٦٩) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٤٩٣ .

(٧٠) تفسير الطبرى، المجلد ١٢، سورة الصف الآيتان (١٠ ، ١١) دار الغد العربى، العباسية، القاهرة .

(٧١) صفوة التفاسير، محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٣٧٢ .

(٧٢) فى ظلال القرآن، الجزء ٢٨ ص ٨٦، الطبعة السادسة مزيدة ومنقحة ومفهرسة (دون ذكر المطبعة) .

(٧٣) إن الله زوى لى الأرض :

رواه مسلم فى الفتن (٢٨٨٩) ، والترمذى فى الفتن (٢١٧٦) ، وأبو داود فى الفتن (٢١٧٦) ، وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٢) وأحمد (٥/٢٧٨ ، ٢٨٤) ، من حديث ثوبان . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٧٤) انظر تفسير البيضاوى .

(٧٥) فى ظلال القرآن، الجزء ٢٨ ص ٨٩ (بدون ذكر اسم المطبعة) الطبعة السادسة .

(٧٦) تفسير النسفى ٤/١٩١ .

(٧٧) هاجر جعفر مع السابقين الأولين، فأرسلت قريش وراء المهاجرين عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى ليرد هؤلاء المهاجرين إلى قريش لأنهم سفهاء قد فارقوا دينهم ، فأصر النجاشى على أن يستمع إلى وجهة نظر المسلمين المهاجرين .

(٧٨) للكاتب ج . هـ . دنيسون فى كتاب : العواطف كأساس للحضارة .

(٧٩) إن لربك عليك حقا :

رواه البخارى فى الصوم (١٩٦٨) وفى الأدب (٦١٣٩) والترمذى فى الزهد (٢٤١٣) من حديث أبى جحيفة قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كُل ، قال : فإنى صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبى ﷺ : «صدق سلمان» .

ورواه البخارى فى الصوم (١٩٧٤ ، ١٩٧٥) وفى النكاح (٥١٩٩) وفى الأدب (٦١٣٤) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) والنسائى فى الصيام (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٦٨٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : دخل على رسول الله ﷺ فذكر الحديث ، يعنى : «إن لزورك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا» . فقلت : وما صوم داود ؟ قال : «نصف الدهر» .

ورواه أبو داود فى الصلاة (١٣٦٩) وأحمد فى مسنده (٢٥٧٧٦) من حديث عائشة أن النبى ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال : «يا عثمان أرغبت عن سنتى» ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ولكن سنتك أطلب ، قال : «فإنى أنام وأصلى ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر وصل ونم» .

(٨٠) رواه ابن أبى حاتم.

(٨١) أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى :

رواه البخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٣٨) ومسلم فى المساجد (٥٢١ ، ٥٢٣) والنسائى فى الغسل (٤٣٢) وفى المساجد (٧٣٦) والدارمى فى الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم فى المساجد (٥٢٣) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وابن ماجة فى الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبى هريرة . ورواه أبو داود فى الصلاة (٤٨٩) والدارمى فى السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبى ذر . ورواه أحمد (٢٢٥٦، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد (٨٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبى موسى .

(٨٢) لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال : قلت : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا وفينا سلمان الفارسى فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء» . حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب حدثنا عبد العزيز أخبرنى ثور عن أبى الغيث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : «لناله رجال من هؤلاء» .

(٨٣) لو فعل لأخذته الملائكة عيانا :

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٢٦) من حديث ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدًا يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم فى النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» .

(٨٤) كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام :

رواه مسلم فى الجمعة (٨٦٣) من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ، فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ﴾ .

(٨٥) إحياء علوم الدين ١٦٠/١ وبه فصول عدة عن فضل الجمعة وآدابها وشروطها، فمن أراد التوسع فليرجع إليه .

(٨٦) محمد جواد مغنيه : الفقه على المذاهب الخمسة ، ص ١٤٩ .

(٨٧) من اغتسل يوم الجمعة وغسل وبكر وابتكر ودنا :

رواه الترمذى فى الجمعة (٤٩٦) والنسائى فى الجمعة (١٣٨١) وأحمد فى مسنده (٦٩١٥) من حديث أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «من اغتسل يوم الجمعة وغسل وبكر وابتكر ودنا واستمع وأنصت كان له بكل خطوة يخطوها أجر سنة صيامها وقيامها» .

قال أبو عيسى : حديث أوس بن أوس حديث حسن .

(٨٨) لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع :

رواه البخارى فى الجمعة (٨٨٣) من حديث سلمان الفارسى قال : قال النبى ﷺ : «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى» .

(٨٩) انظر كتاب: ما يقال عن الإسلام، ص ١٤٥ تحت عنوان: أثر الإسلام فى العبادة اليهودية .

(٩٠) كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى :

رواه أبو داود فى الصلاة (١١٢٥) والنسائى فى الجمعة (١٤٢٢) من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية .

(٩١) وقت صلاة العيد بعد ارتفاع الشمس قدر رمح أو رمحين ، أو بعد طلوعها بثلث ساعة ، فوقت الجمعة عند الحنابلة ممتد من الضحى إلى أذان العصر .

(٩٢) انظر فقه السنة ٢٦٠/٢ .

(٩٣) المرجع السابق .

(٩٤) نقلا عن فقه السنة ٢/٢٦٢.

(٩٥) من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة :

رواه الدارمى فى فضائل القرآن (٣٤٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق .

(٩٦) صبحكم ومساكم : أى أتاكم العدو وقت الصباح أو وقت المساء .

(٩٧) رواه أحمد وابن أبى شيبة والبزار والطبرانى ، قال الحافظ فى بلوغ المرام : إسناده لا بأس به ، ومعنى لا جمعة له : أى لا جمعة كاملة .

(٩٨) ينوى الجمعة ويتمها ظهرا ، ويتندر الفقهاء عنه بقولهم : رجل صلى ولا نوى ، ونوى ولا صلى ، أى: صلى الظهر ولم ينوه ، ونوى الجمعة ولم يصلها .

(٩٩) فقه العبادات د. عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٠٠) انظر تفاسير الطبرى والنيسابورى والكشاف والنسفى وغيرها .

(١٠١) انظر سيرة ابن هشام ، وابن إسحاق ، وصور من حياة الرسول لأمين دويدار، مطابع دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٨، ص ٤٠٥ .

(١٠٢) ما بال دعوى الجاهلية :

رواه البخارى فى التفسير (٤٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كنا فى غزاة – قال سفيان مرة : فى جيش – فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : «ما بال دعوى الجاهلية» . قالوا : يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال : «دعوها فإنها منتنة» . فسمع بذلك عبد الله بن أبى فقال : فعلوها ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه». وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد .

(١٠٣) كان سيدا من سادات قومه ، وعندما أسلم دخل قومه فى الإسلام تبعا له ، إذ قال لقومه : إن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله؛ فآمنوا جميعا .

(١٠٤) وأخرجه الترمذى أيضا وقال : هذا حديث حسن صحيح ، نقلا عن التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، الجزء ٢٨ ص ٢٢٣ .

(١٠٥) واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال : «يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا

استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلوني في كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه ، وكذا القضاعي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إليّ ، فقال : «يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله ...» الحديث ، وفيه : «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» . وفيه : «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا» ، وأورده الضياء وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه بلفظ : «يا ابن عباس احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» . وذكره مطولا بسند ضعيف ، ورواه أحمد والطبراني وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال في المقاصد : وقد بسطت الكلام عليه في تخريج الأربعين .

(١٠٦) إن أحدكم يجمع خلقه :

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) من حديث عبد الله قال :حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة» .

(١٠٧) تفسير الطبري ٧٩/٢٨ .

(١٠٨) انظر تفسير النيسابوري ٨٠/٢٨، والمعنى أن السعداء أخذوا أماكن الأشقياء في الجنة، والأشقياء أخذوا أماكن السعداء في النار .

(١٠٩) لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٩) من حديث أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ . «لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة» .

(١١٠) كلمات القرآن تفسير وبيان ، للأستاذ حسنين محمد مخلوف ، مطابع دار المعارف ١٩٧٦ م .

(١١١) انظر ذلك في تفسير الطبري أيضا ، حيث نقل أن صدر سورة التغابن مكي وآخرها مدني .

(١١٢) رواه الترمذي بإسناد آخر، وقال: حسن صحيح .

(١١٣) انظر تفسير الطبري ٨١/٢٨ ، والنيسابوري بهامش تفسير الطبري ٨١/٢٨ .

(١١٤) تفسير الطبري ٨٣/٢٨ .

(١١٥) كل مولود يولد على الفطرة :

رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨٥) وفي التفسير (٤٧٧٥) وفي القدر (٦٥٩٩) ومسلم في القدر (٢٦٥٨) ومالك في الموطأ كتاب الجنائز (٥٦٩) وأبو داود في السنة (٤٧١٤) والترمذي في القدر (٢١٣٨) وأحمد في مسنده (٧١٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء» .

(١١٦) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني (هامش) ، دار الصابوني ٢٥ شارع عباس يوسف، مدينة نصر القاهرة ت : ٦١٨٢٤٠ .

(١١٧) لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٠٩) .

(١١٨) تفسير القرطبي ، مطبعة دار الغد العربي، ص ٦٨٠٦، الطبعة الثانية ١٩٩٦م .

(١١٩) عجبًا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمي (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(١٢٠) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، وفي هامشه : أخرجه ابن أبي حاتم، ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

(١٢١) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم :

رواه البخاري في الرقاق باب : صفة الجنة والنار (٦١٨٣) وفي التوحيد باب : كلام الرب مع أهل الجنة (٧٠٨٠) ومسلم في الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب : إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبدًا (٢٨٢٩) والترمذي في صفة الجنة (٢٦٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري . ولفظه : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(١٢٢) ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم :

رواه البخاري في كتاب الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم في كتاب الفضائل (١٣٣٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٩) والنسائي في المناسك (٢٦١٩) وابن ماجة في المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبي هريرة .

(١٢٣) في ظلال القرآن ٦٠/١٨ .

(١٢٤) في ظلال القرآن ١٣٨/٢٨ .

(١٢٥) استوصوا بالنساء خيرا :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١) ، وفي النكاح (٥١٨٦) ، ومسلم في الرضاع (١٤٦٨) ، وأحمد (١٠٠٧١) ، والدارمي في النكاح (٢٢٢١) من حديث أبي هريرة .

(١٢٦) كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته:

رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣) وفي الاستقراض (٢٤٠٩) وفي العتق (٢٥٥٤، ٢٥٥٨) وفي الوصايا (٢٧٥١) وفي النكاح (٥١٨٨ ، ٥٢٠٠) وفي الأحكام (٧١٣٨) ومسلم في الإمارة (١٨٢٩) وأبو داود في الخراج (٢٩٢٨) والترمذي في الجهاد (١٧٠٥) وأحمد في مسنده (٤٤٨١ ، ٥١٤٥ ، ٥٨٦٧ ، ٥٩٩٠) من حديث عبد الله بن عمر .

(١٢٧) روى البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمر طلّق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ثم قال : «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل» .

ورواه مسلم بلفظ: « .. فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» . أي: ذلك معنى قوله تعالى : ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ (الطلاق: ١)، أي: طلقوهن مستقبلات لعدتهن ، ولا يكون ذلك إلا بعد أن تحيض المرأة ثم تطهر ، وهي حالة أرغب ما يكون فيها الرجل ، فإذا طلقها في هذه الحالة دل على عدم رغبته فيها .

(١٢٨) نصف النساء يكون يأسهن من الحمل بين ٤٥ – ٥٠ سنة .

ربع النساء يكون يأسهن بين ٤٠ –٤٥ سنة .

ثمن النساء يكون يأسهن بين ٣٥ – ٤٠ سنة .

ثمن النساء يكون يأسهن بين ٥٠ –٥٥ سنة .

(١٢٩) انظر السيوطي في الدر المنثور ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، جزء ٢٨ ص ٢٦٦، والتفسير الوسيط بإشراف الأزهر بمصر ، ومختصر تفسير ابن كثير بتحقيق الصابوني ٣/٥١٤ ، والحديث أخرجه الحاكم عن جابر ، وأخرجه ابن مردويه والخطيب عن ابن عباس .

(١٣٠) إن العبد ليحرم الرزق بالذنب :

رواه ابن ماجة في الفتن (٤٠٢٢) وأحمد في مسنده (٥/ ٢٨٠، ٢٨٢) .

(١٣١) احفظ الله يحفظك :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٠٥) .

(١٣٢) كان خلقه القرآن :

رواه مسلم في أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦) عن زرارة أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله ، فقدم المدينة ، فأراد أن يبيع عقارا له بها . فيجعله في السلاح والكراع ، ويجاهد الروم حتى يموت ، فلما قدم المدينة ، لقي أناسا من أهل المدينة ، فنهوه عن ذلك ، وأخبروه .

أن رهطا ستة أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ فنهاهم نبي الله ﷺ. وقال: «أليس لكم فيّ أسوة» ؟ فلما حدثوه بذلك راجع امرأته. وقد كان طلقها. وأشهد على رجعتها. فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ ؟ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ، قال: من ؟ قال: عائشة. فأتها فاسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها. فقال: ما أنا بقاربها لأني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا فأبت فيهما إلا مضيا، قال: فأقسمت عليه، فجاء، فانطلقنا إلى عائشة، فاستأذنا عليها فأذنت لنا، فدخلنا عليها. فقالت: أحكيم ؟ (فعرفته) فقال: نعم. فقالت: من معك ؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام ؟ قال: ابن عامر. فترحمت عليه. وقالت خيرا. (قال قتادة: وكان أصيب يوم أحد) فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن ؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم .. الحديث.

ورواه أحمد مختصرا (٢٣٤٦٠، ٢٤١٣٩، ٢٤٦٢٩).

(١٣٣) من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله إياه:

رواه مسلم في المساقاة (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين».

(١٣٤) تفسير الطبري ٢٨/١٠٢، وقد ورد ذلك في سنن النسائي من حديث أنس.

(١٣٥) المغافير: صمغ حلو الطعم كريه الرائحة.

(١٣٦) لا ولكني كنت أشرب عسلا:

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال: «لا ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحدا».

(١٣٧) تفسير الطبري ٢٨/١٠٢.

(١٣٨) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(١٣٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢٨/١٥٦.

(١٤٠) من حلف على يمين:

رواه مسلم في الأيمان (١٣/١٦٥٠)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى في الأيمان والكفارات (٢/٤٧٢٢)، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٧٧)، والنسائي في الكبرى في الأيمان والنذور (٤/٤٧٢٤)، كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(١٤١) مروا أولادكم بالصلاة لسبع :

رواه أبو داود فى الصلاة (٤٩٥) وأحمد فى مسنده (٦٦٥٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع» .

(١٤٢) ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن :

رواه الترمذى فى البر (١٩٥٢) ,وأحمد فى مسنده (١٦٢٦٩) من حديث أيوب بن موسى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : «ما نحل والد ولدًا من نحل أفضل من أدب حسن» .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عامر بن أبى عامر الخزاز ، وهو عامر بن صالح بن رستم الخزاز ، وأيوب بن موسى هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهذا عندى حديث مرسل .

(١٤٣) كمل من الرجال كثير :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١١) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣١) والترمذى فى الأطعمة (١٨٣٤) من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الثامن والعشرين)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (الثامن والعشرون)

ويليه الجزء (التاسع والعشرون) بإذن الله تعالى

